

الامام
علي بن أبي طالب

الجزء الثامن

تأليف
عبد الفتاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان
بيروت

الفصل الأول

لم ير إلا أن يغير إهابه . . .

فما مضى إلى اليوم من كفاحه ، استقبال الأمر بكل طاقته . بكل صبره . بكل
دهائه . بكل قوة مادية لديه ، وكل قدرة ذهنية فيه . . .

حشد الجند صفا صفا ، كأنهم قطعة من الليل الأسعم . . .

جمع السلاح مشرعا حوله كشيفاً ، كشيفاً كأنه غاب . . .

بنى الأحقاد والمواجد قلاعاً حصينة . . .

نصب المال ككائن وحبائل . . .

سير الخديعة طليعة . . .

ومع ذلك فقد قصر همه وعجزت همته عن الثبات الغريه في ميدان .

فما طى بمن ينوء بالحيل . أو يبالى السلاح والرجال ، أو يزحزحه كل ذلك
الإعداد والتشريع عن الحق الذي نهض فيه ، لأن إيمانه أعصى على الكتاب
الكتبية ، وشجاعته فوق طاقة الحشود . . .

لقد خبره . فإذا الأسلحة تدبو عنه . وإذا للوت يفر منه . وإذا للعارف التي
يمخوضها لا تسكاد تزيد عنده عن لعبة لاعب يتلهى بها في ساعة فراغ . . .

كذلك علمه . . .

في البصرة إبان الجمل . في لقاءهما الضروس بصفين . في حلة الخارجة
بالتحروان . . . هنالك علمه . وقيل ذلك علمه . وإن علمه لما لا ينسى ، يضيق به
صدره ، ويتعشرج نفسه ، ويكبر لونه ، ثم يتقطع قلبه لذكره حسرة على أيام
لا تزال غضة كاد فيها يلس حمله بسلطان الإسلام لولا أن أحاله غريمه إلى
كابوس . . . وعلل أيام قبضها توارت خلف الأعوام وترد فيها ابن أبي طالب
في صفوة أهله ، وطرحهم على الثرى الذي بدسهم ، فوالس سبة لعقبان

والفسور حتى احتوهم القليب .. وهل له أن ينسى محنة عثمان ، وفتنه طلحة والزبير ، ومهزلة التحكيم ، وكلها كانت خليفة بأن تدلى إليه بالإمرة بغير جهد أو مجهود قليل لولا اضطبار ذلك الغريم ، وثباته حيث كان لا يريم ؟ .. أم له أن ينسى « بدرآ الكبرى » وفيها جندل على وحيدده نصف المشركين ومنهم حنظلة ابن أبي سفيان أخوه ، والوليد بن عقبة خاله ، وعقبة جده ، أو حذيفة عمه ، وآخرون غيرهم من أمائل ذويه ؟ ..

ما نسي معاوية . وما كان يسمعه النسيان لو أنه أراد .. حتى بعد أن حالته دنياه ، وخلصت الإمرة إليه ، وذهب خصمه إلى ربه ، كان يؤوب كثيرا — حتف رغبته — إلى سيرة على يستثير بها جلساءه أن يحدثوه عن هيئته عسى أن يحرك على بعض خلاصاء على الندم والمواجد ، أو يذكر هو — حمزا لأوليائه — بعض مناقبه وفيها شجاعته التي ذلت لها شجاعة الشجعان ، وهالت مرده الوغى وأبطال القتال والنزال ..

يوما ما ، وابن أبي سفيان في عنقوان سلطانه ، انتبه من غفوة أخذته أو من شرود ، فإذا ابن الزبير عند قدميه ، فأجفل واعتدل يلقى إلى الضيف باله ..

وابتسم عبد الله بن الزبير لحركته ، وقال يداعبه :

« يا أمير المؤمنين .. لو شئت أن أفتك بك لفعلت .. » .

فأسرع يرد الدعابة :

« لقد شجعت بعدنا يا أبا بكر . . . » .

قال عبد الله وفي صوته اعتزاز وزهو :

« وما الذي تنسكركه من شجاعتى وقد وقفت في الصف إزاء على بن أبي

طالب . . . » .

عندئذ ضحك معاوية ، ولم يملك إلا أن يجيب وهو يسخر :

« لا جرم ! .. إنه قتلك وأباك بيسرى يديه ، وبقيت عنه فارغة ، يطلب من يقتله بها ! .. » .

ويوما آخر ، رأى أن يعاين قيس بن سعد في سيرة الإمام ، وهو من كان من الولاء له حيث كان ، فقال له كأنما يستعجيش غضبه :

« رحم الله أبا حسن ! .. لقد كان هشا بشا ذا فكاكة . . » .

فما جله قيس ، منكرًا عليه تعريضه :

« نعم ، وقد كان رسول الله يمزح ويتدم لأصحابه ! .. وإني أراك تسرحسوا في ارتقاء وتعييب ذلك . أما والله لقد كان مع تلك الفكاكة والطلاقة أهيب من ذي لبدتين قد مسه الطوى .. تلك هية التقوى ، وليس كما يهابك طعام أهل الشام ! .. » .

أفكان إذن لينسى ؟ ..

بل لا ! .. ماله إلى لقائه سبيل . جيشه لن يغنى عنه . وسلاحه . وكيد واثاره . . حتى قدماء ، لو أراد الثبات ، لن تطاوعاه ! .. والقتال المكشوف في حرب تقابل فيها الصفوف الصفوف ، ضرب من التهلكة ، ونقط من الناجزة وبيل عليه . .

فليس إلا أن يغير إهابه ! ..

وتبين العاهل الأموي نهجا جديدا من الحرب أجدى عليه ، وأذن إلى تحقيق غايته ، حين عرف ، بعد مهزلة التحكيم ، أن الإمام تحمل مقبلا عليه .

عندئذ هاله الأمر ، فخرج في البدء من دمشق معسكرا ، وبعث إلى كور الشام يستصرخ ويستغيث . .

كتب إلى عماله :

« .. إنا كنا كتبنا كتابا بيننا وبين طي ، شرطنا فيه شروطا ، وحكنا رجلين يحكمان علينا وعليه بحكم الكتاب لا يعدوانه . . وإن حكى ابنتي ،

وإن حكمه خلعه . . . وقد أقبل إليكم ظالماً . . . فتجهزوا للحرب بأحسن الجهار ... »

وجمع رجاله يشاورهم . وهو يذكر آخر الأنبياء :

« . . . قد خرج من الكوفة . وعهد العاهد به أنه فارق النخيلة . . »

قال حبيب بن مسلمة ، يشير عليه بالسير إلى صفين :

« أرى أن نخرج حتى نزل منزلنا الذي كنا فيه ، فإنه منزل مبارك ، وقد منعنا الله به ، وأعطانا من عدونا فيه النصف . . »

ورأى له ابن العاص أن يعصى بجميشه إلى ما وراء ذلك مما في حوزة الإمام من تخوم :

« . . تسير بالجنود حتى توغلها في سلطانهم من أرض الجزيرة ، فإن ذلك أقوى لجندك ، وأذل لأهل حربك . . »

وتردد معاوية في القبول :

« والله إنى لأعرف أن الذي تقول كما تقول . ولكن الناس لا يطيعون ذلك ... »

وهون عليه عمرو ما يخشى :

« إنها أرض رقيقة ... »

لكنه أبى :

« إن جهد الناس أن يبلغوا منزلهم الذي كانوا به ... »

ولم يجمعوا كلمتهم . فدرث معاوية لا يقطع برأى بضعة أيام ، قلبوا خلالها الأمر ، يتدارسون المنازل والوجهات ، ويعايدون الاحتمالات ، حتى لقد ذهبت بهم أحاديثهم كل مذهب إلا موقعا لعسكرهم يصلح به اللقاء . فلما أوشكوا أن يعيوا حيلة ، جاءهم نبأ لم يكن في حساب ! ...

قدمت عيونهم عليه بمخرج الحارثة ...

هنا تنفس الطمأنينة ا ...

وزف البشرى لرجاله :

« ... إن عليا اختلف عليه أصحابه ، ففارقته منهم فرقة أنكرت أمر
الحكومة ... وقد رجع عنكم إليهم ... »
فكبروا فرحاً بهذا الخلاص .

وبقوا بمحشودهم حيث نزلت ، يتنسمون أخبار الكوفة من حينما جاءت
ريح ، وقد ذهب عنهم الروح ، وامتلاّت قلوبهم سكينه ... وما لهم يخافون
أو يتألمون قلق وإلهم ليأملون في فتنة الخوارج أن تصيب عدوهم بما قد يفعل يده ،
ويقل غربه ، ويشغله عن الزحف إليهم بمستقرهم ولو إلى حين ؟ ...

ثم زادوا سكينه على سكينه بوقعة النهروان . ثم طربوا وهللوا بتفرق كلمة
الكوفة . ثم علوا سرورا بعودها عن الير ...
عندئذ استأسد الكلب ، واستنسر الغراب ا ...

أسرع معاوية فأعد قرابة أربعة آلاف مقاتل ، دفع برايتهم إلى الضحاك
ابن قيس الفهري ، وألقى إليه بأمره :

« سرحتي تمر بناحية الكوفة ، وترتفع عنها ما استطعت . فمن وجدته من
الأعراب في طاعة على فأغر عليه . وإن وجدت له مساحة فأغر عليها ... »
ثم عقب يمين له :

« وإذا أصبحت في بلدة فأمس بأخرى . ولا تقيمن لحيل بلغك أنها قد
سرحت إليك لتلقاها وتقاتلها ... »

اضرب واهرب ا ...

كانت هي الخطوة الجديدة ...

سرح الضعاك بن قيس آلافة ... هبط بهم من الشام على طريق مكة ،
لا يرى في سيره أخا سفر إلا ناله بعدوان ، تنفيذا لأمر صاحب مصيره ...

لم يسلم منه عرب البادية — من ضارب وظاعن — ينزلون على مواطن
الكلاء بسائمهم ، أو يشدون نحوها الرجال ... ولم يسلم منه آمو البيت الحرام
من حبيج نشطوا لإقامة شعائر الله ... ولم يسلم منه كمي مسلح أو أعزل عاطل ،
جماعة أو فرد . شيخ أو شاب . صاحب منزل أو عابر سبيل ...

كان يقدم الهلكة بين يديه . ويبذر الدمار تحت قدميه ... الدم وحده لم
يكن إربته لأنه لا يكاد يشقى نهمه ... بل الخراب أيضا ، قتلا للأتفس ، ونهب
للمال ، وعصفا بالمتاع والثقل كمصف بالأموال والرجال ... وكلما جنى وحصد ،
زاد في الجنى والحصاد . وكلما طوى من الأرض مرحلة ، طوى معها صحيفة أمن
وصحائف آجال ١ ...

ولم يرعه شيء في تقدمه ولا ريبة لإنسان فيه ... فما هذه التي يشنها على العزل
الأمنة بحرب ، كما ألف الناس قبل حملته الضارية ، وعهدهم بالحروب
أن تعلن ، وبالصقوف أن تتراس ، وبالرايات أن تتحقق ، نذرا وشواهد بيده
القتال ... إنما كان يعضى لوجهه على استخفاء . أو يكن على تربص ، أو بهجم
بغتة كأنه قاطع طريق ...

حرب ولا إعلان . وحمل ولا إعدار . وقتل ولا قتال . بل اعتداء غادر
جبان يمزق فينهض حين الغرة ، ويذل فيقر قبل اللقاء ١ ...

تلك سرعة شرعها الرجل ، بأمر صاحبه الماهل ، ليس لها قبل هذا نظير ...
إن هي وضعت في ضوء الدين فهي عدوان ظالم . أو هي قيدت بقياس الأخلاق
فهي غدر خسيس . أو هي وزنت بعرف العهد فهي خروج شاذ ... وهل غاب
عنه ما اصطلاح قومه عليه آنذاك وأقروا من آداب القتال ؟ ...

ما غاب هذا عن الضحاك . ولا عن ابن هند . ولا عن الطغمة الألى
شاركوها الإعداد ... فكلا الرجلين عاصر الصديق ، كما عاصر ابن الخطاب .
وكلا الرجلين قد عرف ، بغير شبهة من شك ولا سبيل لئسيان ، ما ألزم به
الخليفتان جيوش الإسلام من قواعد وأصول ، كلما سمعت إلى فتح وخفت لجهاد
في أرض الشرك ، يضيف جديدا إلى رقعة الدولة إعلاء لكلمة الله ...

إن العهد لقريب . وإن المواقف لغضة ، لا تزال ماثلة في الأذهان كأنما تراها
العيون وتسمعها الآذان . .

فها هو أبو بكر يخرج إلى ظاهر المدينة ، يشيع أسامة وجيشه ، ويوصيهم
وهم يهيمون بالزحف على أرض الروم :

« لا تخزنوا . ولا تغلوا . ولا تغدروا . ولا تمثلوا .. ولا تقتلوا طفلا
صغيرا ، ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة .. ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا
شجرة مثمرة ... » .

لأنها حرب ، ككل حرب ، تمثل في كلا الفريقين نضالا على المبادئ بين
إنسان وإنسان ، فلا ينبغي لها أن تجور على قواعد الأخلاق العامة أو يضع
في ضوضائها صوت الضمير . .

وها هو عمر بن الخطاب لا يفي بوصى جنوده وقواده ألا يعتدوا ، حين الجهاد
في ساحة الوغى . وأن يراعوا شرف الجندية ، ويحفظوا القيم الإنسانية عند كل
لقاء ، لأن القتال مزيج من الشجاعة والصبر والمروءة مهما اختلفت الأسباب
أو تباين الأعداء :

« .. ولا تجبنوا عند اللقاء .. ولا تمثلوا عند القدرة . ولا تسرفوا عند
الظهور . . ولا تقتلوا هرما ولا وليدا ولا امرأة ... » .

فتنزيه السلاح عن العدوان الآثم لا ينزل بالقوة . والسماحة حين القدرة تمكن
في النصر ، لأنها هي ذاتها طاقة فيه تذود عن الإسفاف ، وتحميه الاعتذار . .
بل قد علموا كذلك كيف كان غريهم ابن أبي طالب ، وهو يحاربهم ، يأخذ
نفسه وجيشه أشد الأخذ بآداب القتال وإن غلوا هم في الحسنة والتعذر والمبادأة

بالعدوان .. وكفى أن قد عدوه يأمر جنده في سفين ، قبل الالتعام ، فيقول :

« .. لا تقاتلوهم حتى يبدأوكم .. ولا تقتلوا مدبرا ، ولا تصيبوا معورا ، ولا تجهزوا على جريح .. ولا تهيجوا النساء بأذى وإن شتمن أعراضكم ، وسببن أمراءكم ، فإنهن ضعيفات .. ولقد كنا نؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات . وكان الرجل يتناول المرأة في الجاهلية بالقهر أو الهراوة فيمير بها وعقبه من بعده ! ... »

ثم رأوا أيضا رأى العين ، حينذاك كيف تغف عن قتل ابن العاص أثناء مبارزته ، عندما انكشفت له سوائته ، تأييا على نفسه أن يدنس سيفه بدم غريم قد أخزاه الله ، فبدا منه مثل هذا الهوان ! ..

نعم قد كان هكذا الإمام . يدفع الغضب بالحلم ، والبطش باللين . ويسارع ماوسعه أن يفعل — كرما ومروءة — إلى الهوادة بعدوه ، والتصبر عليه ، احتسابا لله ، وعرفانا بفضلته . . شعاره في هذا كما لعلهم يرقون :

« إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه ! .. »

لكن الضعالك بن قيس ، كسيده معاوية ، لا يقر هذه الفضائل ، ويؤثر أن ينسج عنها إلى أسلوب جديد في تقاليد القتال والحرب ، لأنه هو نفسه ، طراز جديد من المحاربين الشجعان . .

فلا هو ارتقى بسلوكه في الحرب إلى حكم الإسلام ، ولا هو وقف به على عرف الجاهلية . .

إنما مضى ، منذ أخرجه ، يقتل من يشاء ، ويسلب من يشاء ، لا يرضى الله ولا الخلق ولا التقاليد . .

في أول مراحل انطلاقه ، قتل من التقى بهم على مواقع الماء من الرعيان والأعراب ، على حافة الصحراء . ونهب ما لهم .. ثم مضى عن الجرم الذي قارفه فيهم إلى جرم غيره ليصبح نهم نفسه بسفك الدماء . . فلما أن بلغ الثلبية حتى أسرع يقطع الطريق على الحاج ، يغير على جموعهم ووحداتهم ، ماوسعه أن

يتربص ويغير ، فأشاع فيهم القتلة ، وأثخن الجراحة ، وتحمل ما لديهم من متاع .
وقد ظل الرجل على رأيه المرسوم ، ينال بالعنف والإرهاب كل من ساقهم
قدرهم إليه ، وهو يتأرجح في السير ، يأخذ وقتا على شاطئ الفرات ، ثم يندفع
نائيا عن شريحته ، ثم يجحجح بشرفمته يسرة أو يعيل عنة ، ولا يثبت بمكان خشية
أن تعرض له قوة مسلحة قد تنال منه ..

وبلغ بحملته الإرهابية مداها في الإفظاع بالناس إفظاعا لم يصب به وحسب
أوامر الدين ونواهيته ، بل أهدر أيضا الشيم العربية التي تؤمن بالروعة ، وتدين
بالشهامة ، وترى أن تعفف القوى عن أذى غريمه الضعيف هو ذروة القوة لأن
الصفح مع القدرة ليس كالكف عن عجز وقصور .. فعلى أي محمل إذن يحمل
سلوكه وما قتل أو سلب إلا أناسا من المسلمين ، من عرض الناس ، ليس لهم
دور معروف في شئون السياسة يمكن به أن يسلكهم في زمرة عدوه وعدو
عاهل الشام ؟ ..

غير أنه الضعفاك ... وهو طراز جديد من الشجعان الذين يفرهم أي نصر
رخيص ، ويرفع شأنهم أن يدلوا بقوتهم على الضعاف ... فكذلك كل خسيس .
وكذلك ازدهاء ذات يوم أن يمتزجا فعل بحملته ، حتى وقف بعد انتهاء عهد
الإمام ، على منبر الكوفة يفخر بنصره الهزيل ...

صعد عندئذ المنبر ، مباهايا بذلك النصر العجيب الذي أحرزته حملته الغادرة ،
وهو يتهدد الناس بالويل لأن فيهم قوما سمع أنهم يتالون من سيرة ابن عفان ..
خطب فقال :

« ... بلغنى أن رجلا منكم ضللا ، يشتمون أئمة الهدى ، ويعيون أسلافنا
الصالحين . أما والذى ليس له ند ولا شريك ، لأن لم تنتهوا لأضعن فيكم سيف
زياد ... أما وإنى لصاحبكم الذى أغرت على بلادكم ، فكنت أول من غزاها في
الإسلام ... لقد فحرت المخدرات في خدورهن ، وإن كانت المرأة ليكي ابنها
فلا ترهبه ولا تسكنه إلا بذكر اسمي ... أنا الضعفاك ... »

ومع ذلك فقد هرب بآلافه عند أول لقاء ...

هذه نفسه . وذلك قصاراه ..

... ومضى الرجل وغارته ، حتى انتهى خبره إلى الإمام ، فجمع الناس ، يدعوهم إلى درء شروره :

« يا أهل الكوفة .. اخرجوا إلى العبد الصالح عمرو بن عيسى ، وإلى جيوشكم قد أصيب منهم طرف .. اخرجوا فقاتلوا عدوكم ، وامنعوا حريعتكم إن كنتم فاعلين .. »

كان الضحالك عند ذاك قد فارق الثعلبية ، وتوجه إلى القطقطانة وفيها مسلحة لعل عليها عمرو .. فاجأها ، وقتل عمرا ونهر معه ..

وتلكأت كدأبها الكوفة ، فلم تلق بسمعها إلى الدعوة كأنها لا يضيرها الخطر في شيء . أو كأنها الكفاح قد بلغ من هوانه عليهم ألا يكافئ دعة يؤثرونها ، ودما لإخوانهم تلغ فيه الكلاب ! ..

وتصبر الإمام والقوم غافون ، لا يكادون يسمعون من أنفسهم إلا بالوعد بعد الوعد ، وبالتسوية بعد التسوية .. حتى إذا آده التصبر ، عنف بهم في اللقال وأقذع في الخطاب :

« أيها الناس ، المجتمعة أبدانهم المختلفة أهواؤهم ! .. ما عزت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم ! .. أي دار بعد داركم تمنعون ، ومع أي إمام بعدى تقاتلون ! .. أصبحت والله لا أصدق قولكم ، ولا أطمع في نصركم ، ولا أوعد العدو بكم .. فما بالكم ؟ ما دواؤكم ؟ .. ما طبكم ، والقوم رجال أمثالكم ! .. »

فكأنما كان يضرب في حديد بارد ! ..

وعندما أيقن منهم الفشل ، قال في حسرة :

« ... لوددت أن لي بكل ثمانية منكم رجلا منهم ! .. ويحكم ! .. اخرجوا معي ثم فروا عني ما بدالكُم ! .. فوالله ما أكره لقاء ربي على نيق وبصيرتي ، وفي ذلك روح لي عظيم ، وفرج من مناجاتكم ومقاساتكم ! .. »
وتركهم وهو غاضب ناغم ..

ظل بهم ينفخ في رمادهم الحامد حتى استطاع أن يثر بقبس فيه يهينه على إشعال النار . . . فما كان ليأس . ولا أن ينفذ يديه من أمرهم أطول إعضالهم به ، وعنتهم معه ، لأنه لو فعل لكان لهم شريكا . واضيع حق الأمة التي بوائه إمرتها . ولفتح الباب على مصراعيه للفتنة تقتحم منه على اقلوب النقية البقية الباقية من الدين . .

ولم يكن الطريق إلى الفتنة إلا قصيرا ، فالحق طريقه أطول وأشق ، يكاد يتعثر به سالكه إلا أن يتزود بالإيمان والصبر والقدرة على تحمل الكاره . والباطل طريقه ممد قصير ، لا يشق على الناس ، وتوشك النفس الإنسانية أن تنطلق عليه من هذا الجانب بغير جهد كأنها الراكب ، وكأنه الطية التي تسير . . وكانت الشام منبع الفتنة ، أو هي القبلة التي يولى شطرها وجهه كل مفتون . فالحياة فيها عروض شهوات . والعمل فيها سعى للذات . والبادئ للمحتلة دعوة لطفيان النفس وقمع الروح . . فهي مهوى الأمانى ، وملقى المطامع ، ومناط آمال طالبي الجاه وعبيد المال . .

ولقد طالما استشف الإمام حالها ، وألمم خطرها الذي يعم الناس . فإن هو إلا كماء بقية ، إذا زاد فاض ، وإذا فاض ساح ، وإذا ساح كان سيلا يهدر ويشور فلا يعوقه عائق ، ولا يجبسه سد ، وهو ينصب من ممينه انصباب الشلال ليفشر الدمار أينما سار . .

أما السد الذي ما زال يقف حتى اللحظة في وجه السيل أن يعطى فإنه أرض « كوفان » . . أو الكوفة وما حولها من بقاع بقيت إلى اليوم في حوزة حكم تعنو جبهته ، قليلا أو كثيرا ، لله . . فهي في يد الإمام . وهو يحكمها — جاهدا — أن تشتري متاع الدنيا بعز الآخرة ، وزخرف الحياة بعدالة الدين . وهو يستعين قلة من صحبه فيها أن يؤازروه على سحق الفتنة ، وضرب الطغيان . .

وكم حذر ؟ .. وكم حرك فيها الضمائر لتقاوم الخطر المائل ، وتحمي سدها
المانع أن ينهار ا ..

ففي مرة قال لأهلها ينذرهم ، وكأنا قد ألهمت بصيرته المصير الخوف :
« ... ألا إن أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بنى أمية فإنها فتنة عمياء
مظلمة ، عمت خطتها ، وخصت بليتها ، وأصاب البلاء من أبصر فيها ، وأخطأ
البلاء من عمى عنها .. وأيم الله لتجدن بنى أمية لكم أرباب سوء بعدى ا ..
لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم إلا نافعا لهم أو غير ضائر بهم . ولا يزال
بلاؤهم حتى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلا كانتصار العبد من ربه ، والصاحب
من مستصعبه ... » .

ومرة أخرى قال ، يومئذ إلى معاوية ودوره في الفتنة المنتظرة ، التي توشك
أن تغطي أرضهم بطوفان :

« ... ولكأنى أنظر إلى ضليل ، قد نطق بالشام ، وخص براياته في
ضواحي كوفان ا ... »

ومرات ومرات قال ..

كلهم أصغى له . وكلهم صدقه . لكن قلة قليلة هي التي قرنت الإصغاء
بالتيقظ ، والتصديق بالمبادرة إلى درء الخطر ، والعمل ما وسعها على قمعه أو وقفه
حيث كان ..

ومن القلة التي أردفت الاستماع بالاعتناع ، والإقبال على الإصغاء بالإقبال على
المقاومة والكفاح : جبر بن عدى ، حين تقاعد غيره عن امتهال أمر الإمام
بتعقب الضعاك .. فلقد وهب صاحب الوفى نفسه لله ، وتقدم لقيادة حملة
التأديب ..

وعقد الإمام له على أربعة آلاف . فخرج بهم يشم ريح الغارة الإرهابية ،
ويتأثر خطاها المتذائبة على طريق مكة ، ووسط الصحراء . وكانت الأخبار
قد تنارت بأن الغير قد ضرب في سيره جنوبا حتى بلغ أرض الحيرة ، فإذا ماشع
من أمره لم يكن غيرتهاويل . فما أوغل بقواته المدوانية هذا الإيغال . ولادانى

الحيرة أو ألم بما حولها من قريب ولا من بعيد إلى مئذنة من الأميال وهو
العلم عندئذ بأن سيره ذلك كان خليقاً بأن يقضى به إلى ما يجاور الكوفة
وما قاربها من بلاد هي أعرض بالاربع على طغمته ، وأولى بأن تذيبه الدمار . .
إنما كفاه أن يحول ببعض طريق مكة ، ويطوف بما تاحم دمشق حاضرة عاهله
شمالاً أو شرقاً في جيرة أرض الشام ، ليظل دائماً في نطاق الأمان . . .

ولقد بلغ الخبر عن هذا الإيغال الموهوم حجر بن عدى ، فراح يستطلع وهو
يعرض بقواته شمالاً من الكوفة لعله أن يقع للغارة على أثر . وبلغ أيضاً الإمام
فسخر وقال :

« على أهل الحيرة ؟ .. هو أقل وأذل من أن يلم بها ، أو يدنو منها . . . »
وصدق رأيه الاستطلاع . .

فما أن خلف ابن عدى الغريين عند الكوفة بمسكره ، حتى أخذ على طريق
مكة إلى السماوة من أرض كلب ، وصحب منها امرأ القيس بن عدى الكلبي دليلاً
له على تلك المحجة الصعراوية وعلى ما بها من مواطن الماء . . فإذا هو يعلم أن
الغريين قد بارحوها إلى واقصة ، ثم شراف ، ثم القطفطانة . . فأغذ في آثارهم
يطوى المراحل ، ويصل الليل بالنهار .

لم يغيب عن الضحك أمر هذه المطاردة فشجذ وعصيته أقدامهم للفرار التماساً
للنجاة حتى لأوشكوا أن يفلتوا من يد الصياد . . لكن حجراً وأصحابه استبقوا
للهرب ، وهبوا كالريح في أثر الهارب المدل يأسه على العزل ، المياهي ببطشه
عندما يغيب القرين . . .

ولحقت به حملة التأديب غربى تدمر وهو يشد مثزره ، ويشمر ذيله ، نهبوا
للانطلاق نحو مهرب جديد . . لكن أعداءه عاجلوه . .
ووقعت الواقعة التي لم يسعه على اجتنابها الفرار . .

كانت الشمس عندئذ تطفئ إلى المغيب . قرصها يذوب في الأفق ، ونورها
يفسر الشفق ، وخطوط الضياء التي يرسلها شعاعها الوانى تكاد تمتزج إلا قليلاً
بعملة الغروب إيذاناً بمقدم اللساء . .

والتعم القريقان . .

في سوية قصيرة سقط نحو عشرين من المصبة الباغية قتلى ، يدفعون من دمهم المهرق بعض دينهم لصرعاهم الأبرياء لو كان دمهم يصح للوفاء . .

وتلفت الضحاك من خوف ، والسلاح يطبق عليه . وأصحاب حجر يشدون على رجاله من كل ناحية . . هو الآن لا يعنيه أن يذود عن نفسه هجمة القوم . ولا يحاول أن يتوسم بينهم هدفاً لسيفه . بل تجول عينه فيمن يحيطون به بحثاً عن فرجة للخلاص . .

فلو كسفت الشمس ! لو اختفت من أفقه تذوب فيه كما تذوب ذرة ملح في ماء محيط ! لو استطاع أن يسرع بها إلى الغيب مثلما استطاع يوشع أن يعيدها من الغروب . .

لكأنى به حينذاك قد ملك الدنيا وهو يرى عتمة الليل تلقي ظلالها على الميدان ، ثم تغشيه بالسواد . . فهذه لحظته . . فرصة عمره . . هنية انتصاره على الموت ، واجتنابه تجمّع عمالة الهزيمة . .

وحالفه الظلام يحجبه عن عيون السلاح ، فتسلل من خلف ستاره إلى النجاة . ومع ذلك فقد شهدناه يفاخر ، من بعد ، ببلائه ، وببأسه الشديد ، وسيفه الحديد ، وهو يتهدد أهل الكوفة ، بعد أن عنا الحكم لابن أبي سفيان . .

عندها وقف امرؤ من الحاضرين ، شهد ما حدث بتدبر ، وقال للناس في وجهه ، يعرض به ساخراً ، ويضفي عليه الهجاء بأسلوب ثناء :

« نعم صدق الأمير وأحسن القول . . فما أعرفنا والله بما ذكرت . لقد لقيناك بغربي تدمر فوجدناك المجرب الصبور الشجاع . . »

الفصل الثاني

ما لم يسر به رواة الأخبار سارت به وساوس الشائعات . وما لم تدركه حقائق
الواقع أدركه خيال التوهم . . . فقد تراجى إلى أسمع أهل الحجاز عن غارة
الضحاك ما أوطأها أرضا لم يمر عليها من عصابتها العادية مقاتل ، وعن انتصار
بطلها ما لم يلهه سيفه . . .

قيل عن الرجل :

غزا الحيرة . .

عصف بمن فيها واحتمل ما فيها من مال . .

عاد سالما إلى الشام في موكب نصر طى أوراق الورد . .
وقيل وقيل . .

وأنسحت القالة الزائفة ، بصدور فتية بنى أمية وأحلافهم بمكة ، مرتعا
خصبا لدولة أموية تهم شمسا أن تبرز طى العالمين ، فولوا وجوههم شطر سيدهم
الماهل المنتظر ، يحشون الخطا سريرة واسعة إلى دمشق ، لكيلا يفوتهم من
ملكه نصيب . . .

هم أربعون . كلهم تتوئب به أطماعه وترامقه دنيا بالمجد والجاه . مشى في
صدارتهم ابن أبي سرح ، ولصقوا بذيله ، وهو يستبق القبلة . . . وكانوا إلى
أمن قارين بالبلدة الحرام ، يلوذون منها بأمن ، يبيدوا عن مواقع الخلاف
ومظانه الذي نشب بين الإمام وبين معاوية ، كأنما قد تعاقدوا طى عزلة ، لا إلى
صاحب الإمرة ولا إلى متمرد الشام . . فلما انتهت صفين دون أن تحسم الأمر ،
وانفض سامر التحكيم كلمية هازلة . ووقعت مصر في قبضة عمرو بالسلم والمطل
والخديعة ، ثم بلغ الضحاك بن قيس أخيرا ما أبلغته الشائعات من الظفر في العراق ،
خايلهم المجد ، فصعقا في صدورهم الأمل النائم . وانطلقوا إلى دنياهم الجديدة ،
خفا خفة الرياح . . .

يومها صادفهم عقيل . كان قد خرج وهو معتمر ، مبهما مكة ، فإذا هم يضربون على طريقها نحو الشمال . رآهم قد ازددهتهم فرحة سرت لها في أبدانهم سورة النشوة . بخطاهم اعتزاز . في عيونهم ثقة . فوق شفاههم بقية مما لا كوه من نصر الضحاك .. وعندما قاربهم ، لم يحاولوا أن يداروا عنه ما اكتسته وجوههم من شناعة ..

وحدس وجههم ، فسألهم بألوف حديثه الساخر :

« إلى أين يا أبناء الشائين ؟ ... أبعادية تلعقون ؟ ... »

فلم يكتموه . بل تباروا — في صلف وخيلاء — يبادرونه بما يكده ..
فثار :

« عداوة والله منكم قديعة ! ... تريدون إطفاء نور الله ، وتبديل أمره ! ... »

وبعث بخبرهم ، وما سمعه من انتصار بطلهم ، في كتاب إلى أخيه ، قال فيه :
« ... فأف الحياة في دهر جراً عليك الضحاك ! ... وما الضحاك ! ... لقد توهمت حيث بلغت ذلك أن شيعتك وأنصارك خذلوك ... فاكتب إلى يا ابن أمي برأيك فإن كنت الموت تريد ، تحملت إليك ببني أخيك وولد أهلك فمعشنا معك ما عشت ، ومتنا معك إذا مت ... »

فصحح له الإمام في رده ما بلغه من أمر الضحاك ... وضع صدق الخبر مكان زيف الشائنة . ونفى بالواقع التوهم ... وكفنه وأهله أن يلحقوا به ...
ثم قال :

« ... وإن رأيي جهاد الهلين حق ألقى الله ، لا يزيدني كثرة الناس معي عزة ، ولا تفرقهم عني وحشة ، لأنني محق ، والله مع الحق »

ومع ما بدا من تشدق معاوية وأتباعه ، بالشام وما دونها جنوباً ، بما أصابه الضحاك من فرار البسوه ثوب النصر ، ومن خزي لوتوءه بالفخر ، فقد كانوا

يدركون أن الانقضاض للباغت بالغارات الإرهابية مجازفة خطيرة ، قد تضطرب بها عليهم العواقب ، وينسكني* للميزان ...

فلا جدال في أنهم يعلمون من طبيعة طي ما لا يطعمهم في سكوتة طي أيعا حركة غادرة يوجهونها إلى أى صقع يقع في حدوده ، لأنه ليس بالذى يسكت طي اعتداء ، أو ينام طي ضيم ولو تخاذل رجاله عنه وشاقوه ، ولو انفرد وحده في الميدان لرد العدوان ... فلن يدعهم وما شاءوا . ولن يكف عن ملاحقتهم ، وتعقب حملاتهم المباغطة بمن قد يصير معه من صحابه ، أينما خطر للمادين أن يخافتوا بسرها ويستخفوا بسيرها عن عيون السلاح ...

ذلك قد استيقنوه ... وذلك هو الذى كان يجنح بهم إلى التريث ولزوم الحرص كلما هموا بغارة جديدة . وإذا كان هذا العام التاسع والثلاثون من البعثة النبوية ، قد شهد منهم العديد من الغارات ، فإنها غارات تلاحقت طي فترات ، ولم تنطلق مجتمعة ، في وقت واحد ، لتفرق هنا وهناك في أطراف طي ، فأتى بالنتيجة المرجوة التي تشق من أجلها ، عادة ، حروب العصابات

ولا يخفى أن هذا النوع من الهجمات المفاجئة ، له أثره النفسى فيمن يصيبهم شره ، وفيمن يبلغهم أمره وهم بنجوة منه ، سواء بسواء ، لأنه خليف بأن يهز ثقتهم في النظام الذى يستظلون به ، ويشيع فيهم القلق والإحساس بالافتقار للأمان والطمأنينة ... لكنه لا يخفى أيضا أن ما قد يحيق بالغارة المباغطة من هزيمة ، في صورة ضربة قاصمة رادعة أو صورة إكراه مذل طي الفرار ، هو تخليق بلا ريب أن يهبط بنفس العادى درجة أو درجات عن مستوى الاعتداد ، وأن يرتفع بنفس عدوه ، في المستوى ذاته ، درجة أو درجات . فإذا استطاع معاوية الحذر ، وهو بهم أن يدفع بهذه الغارات ، وفارق ما بين الواحدة منها وتاليها بفترة زمنية ، فإنه الحذر الذى لا مناص منه ، مع غريم له طبيعة الإمام ... بل قد كاد عاهل الشام أن ينفذ يده من هذه السياسة الإرهابية ، إذ استعاش رجاله ، يوما ، لتهوض بها فلم يسموا له ، أو أنصتوا ولم يلبوه ، أو تريضوا بدعوته وأمهله ...

قال عندئذ :

« أما من رجل أبعت به ، بحريدة خيل ، حق يغير على شاطئ الفرات ،
فإن الله يرعب بها أهل المراق ؟ ... »

وعاقت دعوته بالهواء ثلاثة شهور ...

حق إذا كانت غارة الضحاك التي تباعدت بخطاها عن الكوفة ما استطاعت ،
واكتفى منها معاوية بطريق مكة تغير فيه على الحاج ، وتلم يعض نواحيه ، على
حافة ما في نطاق السلطان الأموي ، آن لجملة الفرات أن ترى النور ...

جاءه انعمان بن بشير ، ينذر نفسه للمهجة العسيرة :

« ابمشي ! ... فإن لي في قتالهم نية وهوى ... »

فتطلقت أسارى العاهل ، وقال :

« فانتدب على اسم الله ... »

فانتدب الرجل . وانتدب معه ألفي رجل من للقاتلة أعدوا فأحسنوا
الإعداد ...

ونصحبهم معاوية وهم يهجون بالانطلاق ألا يدنوا من المدن ، وأن يتجنبوا
الجماعات ، وأن ينقضوا على المسالح ثم لا يشغلهم شاغل عن التسجيل بالرجوع ...
وخرجوا يغذون السير

فإلى أية وجهه سار ؟ ...

بدا كأنه شاء أن يساحل بعصبته حق يبلغ ماء الفرات ، كأمنية سيده ، فضى
من دمشق ، شرقا إلى الجنوب يجتاز الصحراء وقطع في زحفه على رمالها
مائتين أو نحوها من الأميال ، ليصف ببلدة عين التمر ، على مبعدة غير طويلة
من النهر .

وأحسن النعمان الاختيار ...

فلقد كانت البلدة من المناطق التي يحسب لها حساب ، لأنها تقع قرب مجموعة
من المدن . فصفه بها إذن أولى بأن ينشر الدعر ويوقع الاضطراب فيما جاورها

من البلدان ... وكانت أيضا في حماية ألف مقاتل من رجال طي . فاقترعها حين
تسير به الأخبار ، مؤد لا محالة إلى استهانة الناس بجيش العراق ، ثم إلى تهاوى
شوكة الإمام ...

لكنه ، إلى جانب هذا ، كان ما كرا حذرا كشمس ، فلم يقترب من عين
التمر إلا بعد أن علم أن كعب بن مالك الأرحبي ، عاملها من قبل على ، قد أذن
لرجاله الألف فيها — إلا مائة — أن يعودوا إلى الكوفة ...

وما تفعل مائة أمام ألفين إذا نشب قتال ؟ ...

توشك الحرب ألا تقع لأن هذه الحامية الصغيرة حرية بأن تلقى السلاح .
أو يوشك أن تستأصلهم الغارة للباغثة إن هم حاولوا الثبات . وفي هذه الحالة
أو تلك لن يكون سيره إليها إلا نزهة . وهجومه عليها إلا تسلية . ونصيبه منها
إلا النصيب من ذبيحة ذلول ، رقدت طائفة ، ومدت عنقها لسكين الجزار ...

وانتبه الناس في عين التمر ، فإذا مشارفها قد أخذت عليهم بألفين من
المقاتلة ، عتاة بغاة ، قد أشهروا السلاح ، ينصبون كالسيل على البلدة الآمنة ...

وعجب مالك وهو يرى يبصره إلى الويل الزاحف ، يتصدره النعمان
ابن بشير .

وتحركت شفتاه وما نطق ، كأنما يسر إلى نفسه بحديث ...

النعمان !

أفهل كذا يجزيه على صنيعه الكريم هذا الزنيم ؟ ...

أفيؤدى إليه دينه : جمودا لقاء الجليل ، وغدرا لقاء الصفيح ، وإساءة لقاء
الإحسان ؟ ...

وامتلا بالحرز قلبه ، وغص حلقه بمرارة الأسف والندم على اليد البيضاء
التي سلفت منه للقائد المغير ..

لكنه أسرع يجمع مائته ، ويهيئ لهم موضع اللقاء ...

فلقد عزم . ولا بد من قتال ...

ثم كتب عجلة قصيرة في كتاب ، دفعه لرسول من لدنه للكوفة ،
يبلغ الامام :

« . أما بعد ... »

فإن النعمان بن بشير قد رل بي في جمع كثيف . فر رأيك ، سددك الله ... »

قصة النعمان بن بشير الأنصاري مع مالك بن كعب الأرحبي ، هي أمثلة منشورة الصحائف ، عالية الجرس ، ثابتة الألوان ، تعبر بالكلمة وبالواقعة عن ذلة النفاق ، وخسة الكنود ، ولؤم الغدر ... ثم تلقى ، بلفظها الظاهر ومنزاهها المكنون ، بقائد غارة عين التمر إلى وهدة من الضعة ، يغوص فيها ضميره إلى أذنيه . . .

فلقد خاف فذل . وذل فنافق . . . حق إذا أيسح الأمان — منة وكرما — وفتح له الطريق للنجاة ، استعان الكنود والجعود ، وكر بخدره الباغي على ذلك الذي وهبه الحياة ، جزاء على عفوه الكريم . . .

وتلك شيمة عرفت هنالك بين أمثاله من أساطين الشام . . .

ومحنة خلقية فشت فاشيتها ، تلك الأيام ، في كثيرين .

لكنها عند ذاك كانت — في عيون أهل هذه للناقص — ميزة رفيعة . . . شمارا رفوه للفخار . . . دلالة على الفطنة والاعتدال . . . ملوكا ينسب صاحبه إلى الدهاء وحسن الحيلة ، ويعلو بقدمه درجات في التمرس بسياسة الأمور . . .

عن المزة الحقة التي ادعتها لنفسها هذه الفئة المعترة بغير عزة ، التباهة بغير فضل ، قال الإمام في كلام له جرى عن الوفاء :

« ... إن ائوفا توأم الصدق . ولا أعلم جنة أوقى منه ... وما يغدر من علم كيف للرجع ... »

ولقد أصبحنا في زمان قد اتخذ أهله الغدر كيسا ، ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة ... »

فالوفاء — في اعتباره إذن — قرين الإيعان . والغدر سلعة خاسرة في سوق الآخرة ، لأنه لا إيعان لغادر . . .

وبهذا أيضا نطق قبله رسول الله :

« .. لكل قادر لواء يعرف به يوم القيامة » .

غير أن النعمان بن بشير الأنصاري — على فضل قومه الأنصار ، وسابقتهم المؤيدة لرسول الله تمكيننا للدين — لم يكن ، فيما يلوح من قصته ، ممن يرعون هذه السنة .. وكيف يرعى ، وقد سوات له نفسه التسكر للوفاء فتسكر ، والجنوح إلى القدر فقدر ؟ .. ثم اختار ضحية لتكره وغدره — من دون الناس أجمعين — مالك بن كعب الأرحبي الذي من عليه ، من قبل ، بالنجاة والحياة ؟ ..

هكذا حدث وكان .

وهذه بداية الأمر كله ..

... عندما خطر لمعاوية أن يعز جانبه ، ويرجع ميزانه ، رأى أن يكرر مكره يبدونها في نظر المستريين فيه ، والذين يعتزلونه ، كمن يحرص أبلغ الحرس على السلم فيطلبه من أى سبيل ، ويؤثر اجتماع كلمة المسلمين وتوثق عروتهم على كل ما عداها من مآرب وغايات أوقعت بينهم فتنة داهية يصطلي بنارها اليوم في ساحة الحرب ، فريقا العراق والشام .. فما أن عزم عزمه ، ورسم خطته ، حتى تلفت حوله يعجم الأعواد ليفتقى منها أبها أصلح أن يكون مخاب القط الذي يخرج له الشواء من النار ..

وكان النعمان بن بشير إذ ذاك من القلة النادرة من الأنصار التي نزلت أرضه ، ولم تتابع عليا توقيا للدخول في الفتنة ، واعتصاما بالحيدة حتى تلبين الأمور .. وكان أبو هريرة أيضا على هذا النهج ، قد قبح ساكننا يتابع سير الأحداث .. فوقع عليهم الاختيار ..

دعاهما معاوية إليه ذات يوم ، يرجوهما أن يكونا رسولي سلام من لدنه للإمام .

قال :

« إني عليا فأشهد الله ، وسلام بالله أن يدفع إلينا قتلة عثمان — فإنه قد آوأم ومنعهم — ثم لا حرب بيننا وبينه .. فإن أبى فكونا شهداء الله عليه .. »

جازت عليهما الحيلة . .

فانطلقا لمن أوفدا إليه يبلغانه :

« يا أبا حسن . إن الله قد جعل لك في الإسلام فضلا وشرفا . أنت ابن عم رسول الله . وقد بعثنا إليك ابن عمك معاوية يسألك أمرا تسكن به هذه الحرب ويصلح الله تعالى ذات البين ... »

ثم بينا مناسط الرسالة :

« أن تدفع إليه قتلة عثمان ، فيقتلهم به . ويجمع الله أمرك وأمره . . . وتسلم هذه الأمة من الفتنة والفرقة ... »
هذا إذن عن السلام . . .

وعجب للرجلين كيف لم يفتننا الخدعة ابن أبي سفيان وما كانا ليجهلا قصة المقتل والقدر وقد طال فيها الحديث ، وسلف من الإمام عنها ما يغني عن كل بيان ..

لكنها غفلة غافل ومكرة لثيم . ولو رجع الصحابيان ، أو غيرها ، إلى مدار عن مقتل عثمان من كتب وخطب وأحاديث ، قيل هذه الوفاة ، أو بعدها على السواء ، لما بقى لمستريب في موقف على شبهة تحمل على التردد عن مظهرته والانتصار له ضد أولئك الذين افتروا عليه هذه الأباطيل . .

لقد قطع على علي معاوية ، بالحجة الدامغة التي يملنها واقع الحوادث ، سبيل اللجاج في هذه القضية . . حين اتهمه في دم ابن عفان ، كتب إليه ، وجرت بما كتب الأخيار :

« أينما كان أعدى له وأهدى إلى مقاتله . . . أمن بذل له نصرته فاستقدمه واستكفه ، أمن استنصره فتراخى عنه وبث المنون إليه حتى أتى قدره عليه ؟ »
وقد عرف الناس كيف آزر الإمام الخليفة على مغاضبيه ، يسعى بينه وبينهم بالصلح ، أو يرد تقمتمهم عنه ، ثم يدفع بأبنائه في وجه المتربصين له وهو محصور وإن طالما كفه عثمان عن الصلح والدفاع . . وعرفوا أيضا أن معاوية ، حين استمد الخليفة مددا يذود عنه ثورة مناهضيه إبان الحصار ، لم يزد على أن يمت

اليه بجيش من الشام أمره أن يظل بظاهر المدينة يرقب الأمور بها من بعيد دون أن يدخلها أو يهز سلاحا في وجه الثوار . . .

يومذاك قال هذا المتباكي على دم عثمان ، لقائد مدده يزيد بن قيس القسري :
« إذا أتيت ذا حشب فأقم بها ، ولا تتجاوزها ، ولا تقل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، فإنني الشاهد وأنت الغائب . . . » .

فلما قتل المحصور ، استقدم عاهل الشام مدده ، ثم ادعى لنفسه ولاية الدم المراق ، وأكثر فيها الحجاج واللجاج . .

وصدق فيه بفعله هذا ما دمنه به الإمام :
« .. فأما إكثارك الحجاج في عثمان وقتله ، فإنك إنما نصرت عثمان حيث كان النصر لك ، وخذلت حيث كان النصر له . . . »

ولا غرابة لأن نجاة المقتول لم تكن لتفتح لمعاوية سبيل الإدعاء ، ولا الائتمار بعلى تطلعا إلى السلطان . .

وما هو أيضا من دم عثمان ؟ .. وبأي حق يقيد واپس القصاص إلا لصاحب السلطة الشرعية لا لأمريء سواء ! .. لو أنه أراد العدالة لاستقاد ولي الأمر عندئذ خصم إليه العادين على دم القتل . . اسكنه ، هوى وعنتا ، لم يطرقي السبيل القويم وأصم سمعه عن دعوة الإمام :

« ادخل فيما دخل فيه الناس ، ثم حاكم القوم إلى أحملك وإياهم على كتاب الله . . » .

أمثال هذه الأحاديث والوقائع لم تكن غائبة عن أبي هريرة أو النعمان وقد طالما جرت بها الأخبار ، من قبل ومن بعد ، إلى كل مكان . . لكنهما تغافلا أمرها ، أو قد خدعا عنها — بأرفق الظن فيهما وأحسنه — بدهاء معاوية واحتياله . .

ليست الوحدة مارام عاهل الشام ، بل الفرقة ، واپس دم عثمان بل ابتزاز السلطان . . وإذا كان على لم يعوزه إذذاك أن يذكرها ما أخفته الغفلة ، وأن يهتك لها سريرة صاحبها فإذا حرصه على اجتماع كلمة الفريقين ادعاء ورياء ، وإذا

رغبته في الفناء إلى الطاعة محال وخيال ، فقد شاء أن يميل بحديثه مع الرسولين ،
بعد البراهين والأدلة إلى العتاب الرقيق الذي يزيل الوحشة ، ويهدي القلوب .
قال وهو يختم حديث الجدل والتدليل :

« دعا الكلام في هذا . . »

ثم التفت إلى النعمان يسأله وكأنما يومئ بسؤاله إلى المسكنة العلية لقومه
الأنصار :

« حدثني عنك يا نعمان .. أنت أهدى قومك سبيلا ؟ .. »

« لا . »

« فكل قومك قد اتبعني ، إلا شذاذا منهم : ثلاثة أو أربعة . . أفكون

أنت من الشذاذ ؟ .. »

فأسرع الرجل ينفي النعمة عن نفسه . ويعلم الولاء :

— أصلحك الله ! .. إنما جئت لأكون معك وألزمك . . وقد كان معاوية

سألني أن أؤدى هذا الكلام . . وطمعت أن يجرى الله تعالى بينكما صلحا . .

فإذا كان غير ذلك رأيك ، فأنا ملازمك ، وكائن معك . . »

وانتهى عند هذا الحديث .

أما أبو هريرة فعاد بالرد للشام .

وأما النعمان فأثر الإقامة مع الإمام طي ولاء . .

لكنه إشار نفاق .

فإن هو إلا شهر واحد قضاء بالكوفة ، ثم انتفض — كأنما وخزه الشيطان ! —

يتسلل خفية عن العيون والأسماع ، ليؤوب إلى حيث كان . .

لهوى لم يفصح عنه كان قلبه مع الشام وهو يلوذ بالفرار .

كانت قدماه طي الطريق للشمال . وكانت حواسه كلها على انتباه . وكانت

عيناه خشية للطاردة — في قناء ! .. لكن حذره ذاك لم يغنه شيئا عن انكشاف

سره ، لما كاد يبلغ عين الثمر حتى علم مالك بن كعب خبره ، وحال بينه

وبين مبتغاه . .

وجيء به إليه فاستفسره :

« ما صر بك بيننا ؟ . . »

قال يمونه لعله يفلت :

« إنما أنا رسول ، بلغت رسالة صاحبي ، ثم انصرفت . . »

رسول . . . فيم إذن كان مكثه بالكوفة ، دون رفيقه ، كل تلك الأيام ؟ . .

ولم يحز قوله على ممالك ، بل زاده ريبة فيه . فأمر بحبسـه حتى تأتيه فيه بيعة .

« كما أنت . . . حتى أكتب املـى فيك . . »

هنا خشى الأسير أن يبلغ أمير المؤمنين أمره فيجزيه مغبة نكثه عهد الولاء ،

فبعث سرا من فوره إلى ابن عمه قرظة ، صاحب خراج عين التمر ، يستغيثه أن يشفع له فلجاء . .

وأبى كعب في البدء شفاعـة الشفيع :

« اتق الله يا قرظة ، ولا تتكلم في هذا . . فلو أنه كان من عباد الأنصار

ونسألكم ، لم يهرب من أمير المؤمنين إلى أمير المنافقين . . »

لكنه ما زال به حتى خلا . .

وضرب النعمان في الأرض ثلاثة أيام ضالا ، يهيم على وجهه في تيه من الدعر

والتمب والرمال ، حتى انتهى به السير إلى ماء دله على حاضرة الشام . . فقرر فيها

قراره ، على اعتزال للخلاف للشبوب بين عاهلها وبين الإمام ، لا يشارك

بشيء فيه . .

ثم وخزه مرة أخرى الشيطان . . . فإذا هو يقتفض ثأنية ، بعد إذ دعا

معاوية أصحابه للإغارة على الفرات بثلاثة شهور ، ويبيع ما هل نفسه وسيفه :

« ابشئ . . . فإن لي في قتالهم نية وهوى . . »

واختار عين التمر هدفا لغارته . . .

ولم لا ؟ . .

ألم يهبه عاملها النجاة والحياة فحق إذن عليه — في شرعة الجعود والقدور —

أن يجزيه عن حسن صنيعه شر الجزاء . . .

لم يصبر مالك بن كعب الأرحبي على رسوله إلى الامام أن يعود من الكوفة بعد أوكلته . فلقد كان أدنى إلى طبيعة الناس فيها ، وسلوكهم حيال ما سنف من أزمات ، أن يعضغوا دعوته . يلوكونها طويلا في قم المظل ماشاءوا ، فعودا عن النجدة ، وفرارا من النفر والجهاد ..
وقد فعلوا ..

حين خرج إليهم الإمام برقة عين النمر ، يحدتهم خبر النعمان ، سخوا بالسمع ثم بخلوا بالعمل قدموا لهم وأخروا المهمة . سارعوا بالوعد وأبطأوا الإعداد .

أهاب بهم أمير المؤمنين :

« اخرجوا ، هداكم الله ، إلى مالك بن كعب أخيك ، فإن النعمان بن بشير قد نزل به في جمع من أهل الشام ، ليس بالكثير .. فانهضوا إلى إخوانكم ، لعل الله أن يقطع بكم من الكافرين طرفا . »

قبلت الأذان الكلام دون أن يترك في أصحابها أثرا ، كأنه قطرة ماء وقعت على رمل أحرقته وقدة الهجير ..

وكرر الإمام دعوته ..

واستقدم ، من بعد ، إليه وجوههم وكبراءهم يستنهضهم أن يسروا ويحشوا من وراءهم من أقوامهم على السير ...
فما كان .

لم يبلغ بهم بداية طرف ما أراد . وبلغوا به نهاية طرف ما نقم . ونمضت بينهم دعوة الاستغاثة القادمة عليهم من مالك ، ودعوة الحث التي طاردهم بها على — بعد طول إلحاح — ثلثمائة فارس أو مادونهم تجمعوا للرحيل إلى عين النمر ..
وثقل على أمير المؤمنين أمرهم وأعياء حتى أحس كأنما السقم يلهه ، تقسا وجارحة ،
(٣ - الإمام ج ٨)

ويهيئ بقلبه إلى قدميه . . فما ملك إلا أن يشور بهم — كعادته — ويعنف في خطابه لهم باليوم المقتدع ، والدم الصريح :

« .. ألا إني منيت بن لا يطيع إذا أمرت ، ولا يجيب إذا دعوت . لا أبا لكم . . ما تنتظرون بنصركم ربكم ! . . دعوتكم إلى نصر إخوانكم فخر جرتم حرجة الجمل الأسر . . ثم خرج إلى منكم جنيد متدأب ضعيف ، كأنما يساقون إلى الموت . . »

ونزل .

وغضب عدى بن حاتم لغضب على وضاق كصيقه بتقاعد أهل الكوفة ، وثبوط همهم عن نصرة الحق ، فصاح بالناس :

« هذا والله الخذلان ! .. على هذا بايعنا أمير المؤمنين . . »

وانطلق على الأثر يلحق به في داره ، يسترضيه :

« يا أمير المؤمنين . إن معي من طيء ألف رجل لا يمصونني فإن شئت أن أسير بهم سرت . . »

فهز الإمام رأسه يأبى قبول رأيه :

« لا . . ما كنت لأعرض قبيلة واحدة من قبائل العرب للناس . . لكن

أخرج إلى النخيلة فمسكر بهم . . »

غير أن مالك بن كعب في عين النمر كان أكيس من أن ينتظر عودة رسوله ، أو أن يعلم ختام هذا المشهد الحزين . . فالغير يطرق عليه الباب ، ولن يدع له فرصة يزيد خلالها رجلا واحدا إلى مائته التي قدر عليها أن تقف في وجه ألفيه لو أنها خالفت حدسه فصحقت وصحمت على اندفاع . .

وأسرع فدعا إليه صاحبها له : عبد الله بن حوزة الأزدي ، يقول له :

« إن أقرب من ههنا إلينا من هبة أمير المؤمنين وأنصاره وعماله قرظة

ابن كعب ومخنف بن سليم . فاركض إليهما ، فأعلمهما حالنا ، وقل لهما فلينصرانا بما استطاعا . . »

وركض عبد الله ، يشق طريقه إلى وجهته تحت ظلة من النبل كان رجال عين النمر قد بدأوا يراشقون بها جيش المغير .
ثم انثنى مالك إلى مائته .

كلا ان يسكت ، وان يلقي سلاحه . . مارهبه الكثرة . وما يخشى من قلة .
فليست القدرة على القتال دائماً بضخامة الأعداد . وليس النصر دائماً لكثافة الحشود . وإذا كان للإيمان دور حاسم في نتائج المعارك فما يعوزه وأصحابه الإيمان . . . واسوف يلقي كل هذه الجموع العادية بفئته القليلة ، فيدهرها ، أو يردها ، أو يلقي الله . .

ونظم المائة لما أعد ، بثقة المؤمن ، وحنكة الحبير . . ثم دار على أفرادها يبين خطته ، ويحثهم على الاستبسال :

« قاتلوهم في القرية . . واجعلوا الجدر في ظهوركم . . ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة . واعلموا أن الله تعالى ينصر العشرة على المائة ، والمائة على الألف والقليل على الكثير . . »

وجمع في كلماته هذه ما لا تتسع بعده لمزيد من الوصايا والتوجيهات أوامر قائد لأجناده في مثل تلك الظروف . .

فالحرب بين فئتين كهاتين ، تحتم على أقلهما نفرا أن تأخذ بالحذر ، وتجتنب الدفعة ، وتناهى بنفسها عن المجازفة بما استطاعت ، ثم تضرب حيناً تتحقق أن الضربة تنهزها من غريعتها مقتلاً يوقع به أفدح الوبال ، ولا يصيبها إلا بأيسر خسارة . وهي داخل المدينة أسلم ، عادة ، للدفاعيين من الحرب في ميدان مكشوف ، لأنها أدعى إلى تبثر قوة المغيرين ، وتفرق جموعهم هنا وهناك فلا يكادون يجدون سبيلاً إلى لقاء حاميتها المناضلة بحشد كثيف . . وهي هكذا تشق على الكثرة المهاجمة ، بقدر ما تسهل على قلة المدافعين إذ هم أعلم بالدروب والمسالك في بلدتهم ، وأقدر على التعصن بأمنعها ، وعلى نصب الشراك والكائن فيما يصلح من طرقاتها وأزقتها لهذا النوع من وسائل الدفاع وأساليب الإيقاع

بالدخيل . وهي أنسب لسهولة حركة القوة المدافعة في الكر والفر ، وفي مباغنة المعير حيثما لا ينتظر ظهور مقاومة ، ولا يتوقع نزول ضربات . . . وهي أقرب إلى أن ترهب العدو الدازل منها بين جمهور من السكان هم أعدى له ، وأخلق أن يناوشوه ، أو يقطعوا عليه الطريق ، أو ينتقصوا أطرافه . . . وهي بعد هذا كله تنيع توفر الأمن والطمانينة لحاميتها الصغيرة إذ يلوذ رجالها بالجدران توقيا لأي حصار أو حركة التفاف . . .

أحسن مالك خطة الدفاع . وأحسن فتنة التنفيذ . واستطاع بهذا أن يصبر لأعدائه ، وينهك قواهم وهو يرميهم من مواقعه المكنونة ، وعلى البعد ، بسهم أقواسه ، فإن أقدموا وتعموا في مراميها . وإن أحجموا لم يغتهم الإحجام .

وطال تناوش الفريقين على هذا النحو . وامتد القتال بينهما — تراميا وتراشقا — بضع ساعات . وأقبل عليهم الأصيل ولما ينل الغير وطره ، ولا كلت القلة عن الثبات . . .

عندئذ آثر النعمان المهجوم وإن نالت من رجاله السهام . . . فالشمس توشك أن تطفئ . والأفق فوقه يهم أن يتناثر الشفق بأطرافه نذيرا بمقدم الغروب . والمساء بلا ريب حليف قوى لحامية البلدة ، يجنحها عنه إلى جوارجنة الجدران ، فتقع غارته بين شقى الرحى : الليل والسلاح . . .

وعاجل بالانقضاء . فلا بد لإنهاء الواقعة من التحام . . .

غير أنه لم يروع ، بجمعه الكثيف ، تلك الحفنة من المقاتلة الأجلاد الذين نذروا أرواحهم للموت ، وتعاقدوا على اتخاذ ميدان الواقعة طريقا قصيرا معبدا للقاء الله . . . فما حياتهم ، بعد فليج عدوهم عليهم ، إلا موت . وما موتهم في الدفاع إلا حياة . . .

ثبت مالك . وثبت حوله أصحابه وقد كسروا جفان السيوف ، يصدون السيل ولا يكلون . لا تترحزح لأحدهم قدم . لا يهدأ سلاح . لا تنو عين ولا خاطرة إلى الوراء . فكأنهم قلعة حصينة . أو كأنهم شاطئ صخري تتكسر عليه الأمواج . . .

لكن النعمان بن بشير وعصيته قد رنوا إلى الوراء . . . ثم روعوا . . .
ثم أھطعوا إلى الجری یتسبقون للهروب ، كمثل قطع مذعور أفزعه الذئب
إذ غاب راعيه حاميه . . . فهاهو مدد یقبل على البلدة ، فی السلاح والخیل ،
ما لهم قبل علاقاته . . . إنه لیشر ف . . . یدنو من الساحة . . . بحيث یحس الخطأ لیلحق
الدم . . . هاهو یكاد یتحم یتطرق علیهم . . . یجتاحهم لیلحق برفاقه . . . فلو أنهلوا
لأعجلهم إلى المصارع ، وجاءهم بأجلهم على یدیه . . . ولو ظفر بهم لكانوا كأعواد
عشب خضر ، وكان لهم منجل حصاد . . .

فإلى الفرار !

وراحوا ینكصون یرتقمون عن البلدة . . . من ورأهم مالك بن كعب
وحاميته یشدون علیهم . ومن أمامهم عبد الرحمن بن مخنف ومدده یستمرضونهم
بالسیوف ، حتى طاروا بعيدا ، وأمعنوا فی الفلاة ، وقد تركوا بضعة منهم على ثرى
البلدة ضريبة رخيصة للنجاة !

أیفخر النعمان بن بشير بعد هذا بیلائه فی اقتحام عين النمر ، كما فخر قبله
صاحبه الضحاک بادعائه اقتحام الحيرة وظل یباهی كلما راقه التوهم واستنمرا
السدور فی الخیال ؟ أم یكتم الرجل فی نفسه فشله ، ویدارى عن الذکر
والتذکر بلواه ؟ ..

بل هو أدنى — كلما تذكر — إلى استشعار الحزى واجترار العار . . .
فما لبث إلا قليلا بعد ذلك الفرار ، حتى علم أن للدرد الذى روعه ، وحطم أمله
فی القدر بمالك ، وفى الإغارة على القرات ، لم یكن إلا نفرا قايلا لا یزید على
خسین ، هم كل من استطاع مخنف ابن سلیم أن یبعث بهم إلى عين النمر ،
مع عبد الله . . .

لكن جيش النعمان قد أفسد علیه تدبيره . . . غرر به . . . هول له أمر الدرد
فرأى العدو أضعاف الأضعاف . . .

وكتب مالك بن كعب الأرحى إلى الكوفة ، ولما تكن بعد قد سیرت إليه

النجدة التي استمدها لتصره . فكان كتابه داك خاتمة قصة النفاق والكنود
والغدر التي مثلها الزمان . .

وعندما بلغ الكتاب الإمام ، وقف في أهل الكوفة فقراء عليهم ولهج
بذكر حامية عين النمر ، وما أبلته في سبيل الله . . ثم رمى الجموع الحاشدة أمامه
بنظرة ازدراء ، وقال :

« هذا بمحمد الله ، ودم أكثركم . . »

فنسكسوا الرءوس . ورموا بعيونهم إلى الأرض من استخذاء .

أمن معاوية في غاراته المدوابة على أطراف الإمام ما شاء له أن يعمن وهو يراها خير سياسة يمكن اتباعها ليرضى بها الموتورين من أتباعه ، المنهزمين بالاشتفاء من غريمه ، في فترة الزمن التي ركز فيها الصراع الحربي الجاد بين العراق والشام بعد انطفاء نار صفين .

واقد ثبت الماهل الأموي نحو عامين على نظرتهم وإن طالما حثه بعض خاصته على المبادرة إلى المناجزة الشاملة المكشوفة وإنهم يحسبونها الوسيلة المثلى ، والطريق الذي لا طريق غيره للقضاء السكامل على سلطان على بعد ما ظهر لهم من اختلاف أنصاره عليه وثبوطهم عنه . واستقام على ما أخذ به نفسه من هذه السياسة المرنة ، المترددة عن الحسم ، المراوحة بين الإقدام والإحجام ، المتبذية ، أمام الناس ، ككرب وماهى بحرب ، والمؤثرة ، في جوهرها ، وفي حقيقة الأمر ، لسلام ما هو بسلام . . .

ولا غرابة هنا في تثبيت معاوية بنظرتهم ومخالفته بها نظره أخلص خلصاته من آل بيته وأعوانه ، إيمانهم بأنها وحدها أداته الطيبة إلى الأمن على نفسه وإقليمه . وإلى التبرص بالزمن حق بساحة تيسر له الوصول إلى غرضه من أقرب سبيل . وإذا كان قادة الرأي في الشام قد استنقروا إلى الحرب الفاصلة وألحوا عليه حتى أرهقوه . وإذا كان هو قد رآهم ألا يعجلوه على رغبتهم حتى نبوا به ، فإن هذا الإرهاق وهذا التبرؤ لم يدفعاه إلى الرجوع عن رأيه بقدر ما دفعاه إلى الإصرار عليه ، وإلى رياضة نفسه على مراودتهم ومطاولتهم ما وسعته إلى ذلك حيلة .

لكنهم أنقلوا عليه بالمعاودة والمراجعة بين كل حين وحين . . . وكان أثقلهم ، فيما يلوح ، الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، لأنه كان أنباهم بهذه السياسة لفرط حقه على الإمام ، وتمجله الشهادة فيه . . . فلم يكن يرى الأناة في حربه .

ولا يستلصح العارات على أطراف بلاده ولا يرتضى إلا المعاجلة بتفسير الجيوش الكثيفة إلى قلب دولته ليكون ذلك أبلغ في هلاكه واجتثاث أصل سلطانه . . .
فدون هذا الاجتثاث والهلاك لم يكن ليهدأ لابن عقبة بال . . .

وكأنما اشتهر الرجل بين رفاق معاوية بهذا التطرف ، فكان المحور الذي تدور حوله سياسة العنف السافر ، والملم الذي يلتف به دعاة الحرب المعجلة ، يؤمونه ليذاكروه ما يحسد من أمور وأحداث يرونها خليقة بتغيير أسلوب الهوادة والانتظار . ولم يكن الوليد — بغله وبغضائه — في حاجة إلى أمثال هذه المذاكرات لتزيد من علوه ، وتصب تهمته على الإمام في أذن عاهله على هيئة غير حريصة على الملك الأموي النامي في الشام . بل كان دائماً أسرع بما يسمع ويرى إلى معاوية ، ليهبجه إلى القتال .

في لقاء له مع نفر من رفاقه الغلاة ، على رأسهم ابن مسعدة الفزارى ، قيل له :

« إن الناس لا يشكون في اختلاف الناس على على بالعراق ، فادخل إلى صاحبك ، فمره فليسر بنا إليهم قبل أن يجتمعوا بعد تفرقهم ، أو يصلح لصاحبهم ما قد فسد عليه من أمره . . »

فاستقبل الوليد إجماعهم على بعثه بكثير من الرضا ، وقليل من التمتع ، وقال :
« لقد قالته في ذلك وراجعته وعانته حتى لقد برم بي ، واستثقل طلعتي . . »
لكنه ما لبث أن أردف في إصرار :

« وأيم الله ما أدع أن أبلغه ما مشيتم إلى فيه ١ . . »

وانطلق فأبلغ على خيلاء ١ . فقد طالما دعا معاوية إلى ما يدعون فردده بأباه أشبه بالازدراء . .

ودعاهم الماهل إليه :

« ما هذا الخبر الذي جاءني به عنكم الوليد ٢ . . »

قالوا يحرضونه :

«خبر في الناس سائر . . فشمروا للحرب ، وناهض الأعداء . . اغتم الغرة . .
إنك لا تدري متى تقدر على مثل حالهم التي هم عليها الآن ، فواقه لولا تفرق
الناس عن صاحبك لقد نهض إليك . . .»

عندئذ اصطنع معاوية الرقيق في الخطاب ساترا عنهم ضيقه بهذا الإعجال الذي
يجيشونه اليوم فيه ، وطارده به قبلهم غيرهم من الغلاة . . فقال في هدوء يبرر
أخذه باجتناح الحرب المكشوفة مع علي وإن مزقت شيعته الأهواء :

« . . هؤلاء الذين تذكرون تفرقهم على صاحبهم . . لم يبلغ عندي بهم أن
أطمع في استئصالهم واجتياحهم ، وأن أسير إليهم مخاطرا يجندي لا أدري على
تكون الدائرة أم لي»

ثم استطرد يحذرهم المدفة وما يرومون ، ويبين لهم جدوى سياسة المراوغة
بين القتال والسلام .

قال :

« . . إياكم واستبظائي . . إني آخذ بهم في وجهه هو أرفق بكم ، وأبلغ
في هلكتهم . . قد شغنت عليهم الغارات من كل جانب ، غفلي مرة بالجزيرة ،
ومرة بالحجاز . . وقد فتح الله مصر ، فأعز بفتحها ولينا ، وأذل عدونا . .
وأشراف أهل العراق يأتوننا في كل أيام . وهذا يزيدكم الله به وينقصهم ،
ويقويكم ويضعفهم . . فاصبروا ، ولا تمجلوا فإني لو رأيت فرصتي لاهتبتها . .»

على هذا اعتزم ، وثبت عامين ، تجنبنا للحرب الشاملة التي يستحثه عليها
أعداؤه . . لأنها حرب صريحة ، معلومة الزمان والمكان ، لا مناص فيها من لقاء
مكشوف مع من لا قبل له بلقائه وهو الإمام . . ولا عبرة ، إذا وقعت ، بقشقت
أهواء أهل العراق ، واختلافهم على علي ، لأنه عندئذ الاختلاف الذي قد يذيه
القتال ثم لا يغنى عن المخاطرة بجند الشام . . أما حربه الخفية التي يطلقها على
غير توقع من عدوه ، ويرفع فيها شعار : « اضرب واهرب » ، فله فيها
ولقومه جنة وأمان ولو إلى حين . .

ولقد مضى الرجل وما رأى بأسا وبه هذا حتى فوق من غاراته في أطراف

على نحو عشر في العام التاسع والثلاثين ، يوجهها لتقتل وتسلب ، وتسير فيما تنزل من مناطق سيرة قاطعي الطريق عسى أن يشيع بها في نفوس الناس قلقا ينتهي بهم إلى الإحساس بالضياع والافتقار للطمأنينة ، فيسلمهم الثقة في دولة تعجز عن حماية مواطنيها وتحقيق أمنهم على النفس والمال ليندفعوا من بعد في طريق العصيان . .

بهذا الرجاء سير فرقه العدوانية ، ما من منها بأدنى الأرض وما ضرب في أقصى الأبعاد ، لتبث الإرهاب وتنتشر الخراب . . ولسنا نراه حين فعل قد وطد نفسه — مع أسلوبه القتالي المتذائب — على الفلج في كل الغارات . بل لعله حدس قبل بدئها ، كما أيقن من نتائجها ، أن جهد عسكريه لن يجيئه منها — إن جاءه ! — بنصر مذكور ، ولن يبلغ به إلى اقتطاع سلحة من هنا أو سلحة من هناك من أرض الإمام . . فما أصاب شيئا إلا أن دمر وخرب ، ثم قتل أناسا ، ونهب آخرين كانوا ، في حساب النفوذ ، غير دوى حول في تغيير الأوضاع السياسية القائمة ارتفاعا بسلطانه أو هبوطا بصولة غريعه . وما أدرك من غاراته كلها إلا فرار عصاباته بالحزى ، وجلها إلا الهزيمة . . وإذا كان قد استطاع بهذه الفرق العدوانية المنقضة أن يظا ما جاوز حدود إقليمه ، فقد استطاع أيضا أولئك الذين سيرهم الإمام لردع المغيرين أن ينفذوا من حدوده ، ويقتحموا عليه ولايته ، ويوغلوا في قلبها إلى بعلبك ، مصمدين منها لأقصى الشمال ليهبطوا ، بعد رحلة طويلة وتوغل عميق ، من الرقة عند شاطئ الفرات إلى الكوفة . .

بل قد أوشكت إحدى غاراته أن تبوء ، مع الهزيمة ، بالاستئصال ، لولا أن أنقذها الانعطاف للرحم من الوبال . .

تلك غارة الفزارى على تيماء . .

شاء صاحب الشام عندئذ أن يعهد لأحد زبانيته للسير بغارة مجلبة إلى بلاد لا يخطر انتهاك حرمتها بشطحة خيال أو تصور احتمال ، لعله حين يسلب أهلها أمنهم المفروض ، وييذر فيهم الحزن والخوف أن يشيع في العالمين اقتداره على إنزال الضربات حينما أراد وإن أبت قواعد العرف ، أو شطت بهدفه المراحل وبعدت

المسافات . شاء هذا معاوية ، فبعث عندئذ إلى عبد الله بن مسعدة الفزارى ، وعقد له على نحو ألفين من مقاتلته مجهزين . .

وأمره : أن انزل نيام . وسر منها إلى المدينة ومكة وما يليهما من بلاد الحجاز . وخذ الصدقات عنوة من الناس ، فمن امتنع عن اعطائك فالدماء فى الأداء . . .

وكذلك أبرم العاهل قضاءه فى أوائل الأمنه من قاطنى الأرض الطيبة ، اللائذين بهبط الوحى ، والبلدة الحرام ، والبيت العتيق ، ومهجر الرسول . فما ترده سياسته العدوانية عن اقتحام المقدسات .

والنحدر الفزارى بغارته جنوبا عبر الصحراء حتى بلغ نيام على مبعده نحو خمسمائة ميل من مكة ومثل نصفها من المدينة وإنه ليصف بمن لقي من أهل البادية غير متأنهم ، فيأخذ ما لهم غصبا ، ودمهم إرهابا ، لا يكفه عنهم شيء إلا أن يذلوا له أو يتابعوه . . واستطاع بهذا الأسلوب الغاشم أن يلوى إليه كثيرا من الأعراب ، بعضهم لحق بشرذمته كالخراف الذعورة تتلمس الأمان فى ظل كلب القطيع وبمضهم يلحق بذيله ابتغاء الأسلاب ، كأنهم الضباع المنهومة تتبع الوحش الضارى ابتغاء ما يفضل منه من بقايا الفريسة . . .

ولا عرو بمد هذا أن يعنى الفزارى نفسه بمواصلة ما بعث فيه اثارا بأمر عاهله ، وازدهاء بالجموع الكبيرة التى قهرت على السير فى ركابه . وأن يسبق المطايا بخياله إلى اجتياح الحجاز . وما يعوقه الآن والطريق مفتوح ، وهذه المدن التى غدت مطمح إرهابه لا يكاد يحجبها عنه جند مجيش أو تدانها يد الكوفة إذا هى إرادت مقاومته وإنها منه بعتأى سحق ؟ . .

وأوشك أن يطير إلى هدفه . فما هو أن أعد عدته بمبارحة نيام ، حتى فوجئ به فزارى مثله على رأس فرقة من رجال الإمام طوت إليه البادية والليالى ، لتوقظه من حلمه . .

وتلفت ينظر . .

مائة منقذ لهرب ، أو ثغرة إلى نجاة . . وليس بد من دم . . .

وتداني الجمعان . عبد الله بن مسعدة الفزارى على رأس العصابة الأموية ،
والمسيب بن نجبة الفزارى يقود نجدة العراق . . لا معدى الآن عن التحام .
لا فرصة لأحد الرجلين للإدلال بأصله على غريعه . لا رجر المفخرة بالآل ، كما هي
عادة الغرماء عند اللقاء . . فكلاهما من نفس الدرجة . والمباهاة هاهنا
للسلاح .

وعلى الأثر نشبت الحرب

تصاول بجنديهما الفزاريان . . التقى السلاح بالسلاح . . هاجت الأسنة
المشرعات . . تسمر الصراع حمما وصواعق . . حميت وقدة الوغى ساعات . .
حتى إذا أوشك النهار أن يبلغ الزوال ، وتهادت الشمس للغروب وشفقها يمسك
على مرآة الأفق ما تناثر فوق ساحة المعركة من دماء ، بادر المسيب بن نجبة بحمل
رجاله على عبد الله بن مسعدة وشرذمته ، ليفرغ منهم قبل غبشة المساء .

غير أن للرحم حقا . وعزيز دم القربى وإن جار . . وإن حم لذب القتال . .
وإن ثارت السيوف ، وراحت حين غضبها تقذف الهام أو تقذف الأجسام . . فما
أن أطلق المسيب سيفه إلى غريعه ابن مسعدة ليصميه ، حتى سارع فكبحه أن
يصيب مقتله ، كما يفعل الفارس بفارس حرون . .

ثم لمسه بيطن الحسام ثلاث لمسات . . وهتف بهمس بصوت خفيض :

« النجاء ! . . النجاء يا عبد الله ! . . »

وعندئذ اهتبل ابن عمه الفرصة التي مدت له في الحياة ، وأسرع يتحول بمن
معه عن الميدان . . بادروا يطلقون للجياد الأعنة . . وينشرون أجنحة الأقدام
فلم يمس إلا ما يكاد يشبه تردد النفس بين الشهيق والزفير حتى كان جمعهم قد
خرج عن نطاق الأسنة ، وتفرق إلى ما يجنيه من الهلاك المحتوم . . بعضهم تشرد
في الصحراء ، وبعضهم تبع قائده إلى حصن قريب

وتفرق عن الغارة من كان قد سار في ركابها من البدو ، وآزرها خشية
وطمعا ، التماسا لأمن أو ابتغاء منفعة . وأغار أعراب البواحي على فلول الفرار
يسلبونهم ما نهبوه في غارتهم من متاع ، وما أصابوه من صدقات . . واعتصم

القائد الهارب ومن معه بالحصن ثلاثة أيام ، لا يكاد يبالي الحصار المضروب عليه لأن للرحم حقا ، ودم القربى عزيز وإن جار . . .

فكأنى بالفزارى الظافر قد لقي عنتا من صحبه إذ تلبث كل هذا التلبث بالفزارى المقهور . . فحق مق يرى أن يطول الحصار ؟ . . وفيم تصبره بالمعتصمين وما يعوقه شيء عن افتتاح الحصن سوى الاصطبار ؟ . . وإلام يطاولهم وليسوا علىكون لأنفسهم غير الفناء أو الاستسلام . . .

ولعله — وقد خشى إن هو ظل وما هو عليه ، أن يبوء بعظنة ، أو يشور جنده به ، أو يحجى مدد من الشام ، أو يطمع فيه الأعراب — قد اصطنع الحيلة التي تغنيه عن قتل الآل ، وتكف عنه الارتياح . .

أحاط القلعة بحطب ، من كل مكان ، ثم أشعل النار . .

فلما أن تعالى اللهب ، وتكاثف الدخان ، واسودت السماء فوق الحصن كأنها توحى إلى وشك تفجهم للمعتصمين ، اندلع الصرخ من القلعة المحترقة ، تضرعا وإبتهالا إلى المسيب أن يرحم وقود الحريق . . .

أشرفوا عليه بأبصار زائفة ووجوه مغبرة يستغيثون :

« يا مسيب . قومك ، قومك ! . . »

فما لبث غير قليل ، حتى قال لأصحابه في عجلة كمن دهمته داهية :

« . . قد جاءنى عيون فأخبرونى أن جندا قد أقبل إليكم من الشام . . »

ثم نادى جنوده كأنها يتوقع هجوم وشيك رأى — حيلة وحذرا — أن يمدحهم له :

« . . انضموا فى مكان واحد ! . . »

وأمر فأطفت النار ، ليخلى بين أعدائه وبين الفرار . .

هنا عجب صاحب له ، وقد تنبه إلى تسلل عدوهم تحت ستر الظلام :

« سر بنا فى طلبهم ! . . »

« لا . . »

وعندما أخذت فرقة النجدة على طريق العودة إلى العراق ، لم يكن على وجوه رجالها من مخايل انفرحة بظهورهم على غارة تيماء إلا كمثل ما تركت النار من حطب القلعة . . . وقد بدد قائدهم بلاءهم في الريح ، وأراق نصرهم لتمتصه الرمال . .

وقال له منهم قائل :

« داهنت في أمرهم . . »

وقال له آخر :

« غششت أمير المؤمنين . . »

لكنه شغل عنهم يرجع تلك الأصداء التي ترددت عن قلبه المضطرب ، وملاأت أذنيه بطنين داو ، يكاد يمزق على وقع خطاه : دم القربى عزيز وإن جار . .

الفصل الثالث

ما وراء هذا كله ؟ . . .

ما يريدون من أمير المؤمنين ؟ .

أهم يملكون له أمره ؟ . . . أم نبوا به ؟ . . أم يرون السكوت على أعدائهم — خلافا لرأيه — أقرب مدخل إلى غايتهم ، وأولى سلوك عليهم اتباعه لفض النزاع ، وترويض معاوية ورجاله فيسلس قياده ، ويكف غريبه ، ويكبح عنهم غاراته التي مضت على وجهها ، شهوراً طويلة ، تعيث فساداً في أراضيهم وتركبهم بالضم ، نائمة الرعب والإرهاب بين أهلها أينما شاء أن يشبر لعصباته الوحشية بينان ؟ . . .

تبه من العجب والتساؤل تضل فيه المقول ، وتعمى الأذهان ولا تقع في دروبه الجرد على جواب مقبول .

فلولا أن يقال قائم النظرة ، مسرف في سوء ظنه بهم ، اسلكهم ومن بالشام في خيط واحد لحريق عليه . ولأوردتهم أجمين نفس المورد . ولأولاهم النعمة كما أتيح له أن يضرب بكلمة أو سلاح . . فما يراهم كافة : عراقا وشاما ، هنا في جيرة الرافدين ، وهناك على ضفاف بردى ، إلا في حلف وثيق مع البغى عليه ، يصدرون في شروطه بينهم عن مباينة له ، واختلاف عليه ، وتوافق على القراغ منه . . .

لكنهم ما هنا في الكوفة ، أشد عليه من أولئك الذين يحرّكهم الماهل الأموى كالدمى ليشتروا الشيف في وجهه ، ويزلزلوا الأرض تحته ، وينسكنوا في يمينه خيوط الأمور والناس . فعيشه بينهم قلق . وثقتهم فيهم رية . . وصبره ملل . وفكره توجس . وجهدهم انتظار . . .

هم في ثياب أولياء وصحاب . يرفعون شعاره . يعضون تحت رايته . يلتصقون إلى زمرة نصيره . يضيفون في كثافة صفوفه . ثم يطالعون بالولاء مع كل صباح

وإنهم لا يفلون حرباً عليه — إن لم يزيدوا — عن أهل الشام الذين يناصبونه
العداء على علانية وإسفار ... ودعهم رياء . ولاؤهم زيف . طاعتهم قولة لسان تجمده
دلائلها ما إن تلامس الشفاء ... وقلوبهم ، بعد هذا ، هباء وهواء . إذا جد الجد
لم ترع عهداً قطعوه ، أو أقبل الزمن عليهم بخاطر ذابت كما تذوب ذرة الملح
في الماء . . .

بررة أولياء حين العهد ، وجعده عصاة ساعة الوفاء . . في كل يوم لهم غد
يتملقون به ، وفي كل حال لهم عذر يزوقونه ، وفي كل دعوة لهم علة يقدمونها :
حبيبا حاضرة تحاول أن تبرر ثبوتهم عنده ، أو نكوصهم على الأعقاب كلما
حنهم على الجهاد .

فما غاية هذه المشاقة ؟

ما قصارى تعللهم الذي أواموا به وأحكموه ولا يزالون يلتزمونه حياله رياء ،
أو عيشا به . أو تخاذلا عنه . وانتسكسا عليه ، كأما التسلل قد غدا — فيما
يخالون — هو سواء الصراط . . .

لنوشك الآن — وهو يكابد محنته بهم وبلواه فيهم ، كما يكابد المصعر
الظمآن قيظ الصحراء — أن نطوى معه الزمن والمسافة إلى الوراء . . أن
نقء ذهنا وبدنا إلى مدينة الرسول . . أن نعيش وإياه عهد الكفاح الأول
للمرير والرسالة بمد غرسة طرية العود . . نوشك أن نراء يعود القهقري
على جناح أحاديثه — ليجد كسفة من رجاله في إهاب أولئك المنافقين وضعاف
الإيمان الذين اتوا أشد التواء معمد وهو يدعوهم حينذاك إلى الله . يظهر
له غير ما يبطنون ، ويكتمون ما يرومون . ويقولون ما لا يفعلون ، وإن بدوا
للأسماع والعيون كمن يسرون في موكب الإسلام . .

سيرة هي السيرة ، وصورة كأنها الصورة لولا أن الشمس لم تجمد على حافة
الأفق ، والظل لم يسكن ، وحركة الحياة راحت تمضي إلى غايتها المقدورة تقطع
المراحل على مدى الأعوام والفراسخ لتستدير قديما وتستقبل جديدا من
الأمور والأحداث .

ومع ذلك فليس بتقديم ذلك القديم الذي غاب ، ولا بجديد هذا الجديد الذي لاح ، لأن مظاهر الرثاء ومظاهر الحدائة جميعا قد امتزجت ، وذاب بعضها في بعضها الآخر دون معالم تميز هذا المظهر من ذلك . فكأنما « كوفة » الحاضر هي « مدينة » ذلك الغابر . كأنما أمس لم تغرب شمسها واليوم لم يبرز فجره . كأنما العين التي عاينت الماضي أخذتها عليه غفوة فلما انتبهت وقفت مرة أخرى على نفس ما كان في مجال الشهود والعيان . . .

أفهم تغير ؟ . . .

بل لا خلاف في الحالين ، لا تباين بينهما إلا أن يكون في اسم أو سحنة أو موقع من الأرض لم تكن لأنها من قبل هيئة في العين أو البال . ثم نشط الخيال فإذا الذي درس قد تجسد وانبعث حيا لينطبق به ما كان على ما آن . . . فما مضى نشر وعاد . وما وقع بالأمس يقع اليوم . العمل كالعمل . والمظهر كالظهر ، والصورة القديمة التي انطوى عليها سجل مدينة الرسول قد انشق عنها هذه الآونة سجل كوفة الإمام ودبت في أوصالها الحياة . . .

عود على بدء !

زمرة النفاق والرياء طفت من القاع على سطح الزمن من بعد رسوب . . . أولئك الذين كانوا يدبون حوله على الأرض بالعراق لا يكادون يفترقون فتيلًا عمن دبوا قبلهم بمقدار جيل على ترى الحجاز . . . لكانهم لهم أشباح . . . بل كأنهم خيال لأصل أو أصل لخيال . . . بل إنهم وهم سواء . ولو أنه تخفف قليلا من ثقل الزمن وحيز المكان لسمع محمدا ، من وراء حجب الماضي ، وهو يردد ما نزل في أمثالهم على عهده بما وصفهم به الله ثم يكاد ما يردده في أولئك أن ينطبق على هؤلاء :

« . . . إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يشهد إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جنة ليجردوا عن سبيل الله ، إنهم سياء ما كانوا يعملون . . . »

كنافي المدينة غدت هذه الفئة من أهل الكوفة التي تعين عليا اليوم . . .

قول ولا عمل . تظاهر وادعاء . وعد ولا وفاء . ولو قد انبثت فيهم ، هذه اللحظة ، رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول ، لما أنكرهم ، ولا وجدتم تربة غريبة لاستنبات الفتنة والأذى والخلاف للإمام كاستنباتها للرسول . .

قليلًا في بدء عهده كانوا ، ولا جدال . كان على العين آنذاك من عامين أو ثلاثة أعوام ، أن تقلب النظرة النافذة في الجموع لتقع بينها على نماذج منهم ، وعلى الفكر أن يقابل ويقارن ليفرق — بغير قليل من العناء والجهد — ندرة خبيثة توشك أن تغيب في غمار جمهرة نقية لم يلطخ قلوبها دنس النفاق . . لكنهم ما لبثوا أن تسكثروا ، على الأيام ، أضمافا عديدة تهول ، كما يتكاثر العفن على الدمن الدوارس بأرض وبيئة ، ليغدوا وهم كثرة غالبية ، أصحاب الطهر بينها أشبه شيء بغرة بيضاء في رأس غراب . .

ولكم توقع من قبل هذه النتيجة الوبيطة ، وخاف على الجمهرة النقية من القلة العفنة . . كم خشي على السواد الأعظم من الناس أن يفتنه انحراف البضعة الجائحة لهواها ، ويجرفه نفاقها معها إلى ظهوى ولفس البشرية نزوات لها سطوات وجمعات ، وللنفاق عدوى ذريعة لا يسلم منها من القلوب إلا ما عصم الله . من البدء أشفق على رجاله من هذه المغبة الوخيمة ، فراح يحذرهم الخطر عسى أن يحفظوا قلوبهم سليمة في جنة حصينة ، عصية على شررة النفاق . . لكنهم لم يصغوا له . لم يعموا قوله . لم يأبهوا قليلا ولا كثيرا بما كان يسديه من ذوب علمه وقد طالما ساق إليهم في أحاديثه الحكمة بعد الحكمة والنذير تلو النذير . .

كان من وصاياه :

« . . . عباد الله ، أحذركم أهل النفاق ، فإنهم الضالون للضالون ، والزالون للزالون . يتلونون ألوانا ، ويفتنون افتنانا . يعيشون الخفاء ، ويدبون الضراء . قولهم شفاء ، وفعلهم الداء العياء . . قد أعدوا لكل حق باطلا . ولكل قائم مائلا . . ولكل باب مفتاحا ، ولكل ليل مصباحا . . يقولون فيشبهون ، ويصفون فيموهون . . أولئك حزب الشيطان ، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون . . »

غير أنهم سدروا في عمام . أبي عليهم العرور أن يسيروا على نهج مصحة
منهم ادعاهم العلم أن يتلمسوا علما في غير ما يعلمون كأنما قد أوتوا وخدم خزائن
للعرفه . . . ولو أنهم أنصفوا أنفسهم ، وانتصفوا للحق من هواها ، لما كان مثل
الأشعث بن قيس في حياتهم شأن . ولا للخريت ولا للخوارج . ولا لابن هدد
الذي تسربت إليهم دعاواه وزيوفه نزاحم الهدى في قلوبهم ، وتطفئ عليه ،
وتغرق آخرتهم في زخارف دنياه حتى تبدوا كأنما أشربوا حب العاجلة وجرى
في عروقهم مع مياه الحياة .

أقمن جهالة جرفهم هذا انتيار . . . أم عن غفلة ، أم اغترار . . . أم هو
العنت والإصرار . . .

عن كل هؤلاء . . .

فلقد قدم الامام صورا عدة رستم لنا من كل زاوية ، وفي كافة الأوضاع .
فإذا هي لا تخالف الواقع المتلون الذي عاشوه . . .

فهذه صورة :

« مالي أراكم أشباحا بلا أرواح ، وأرواحا بلا أشباح ، وناسا كالبلا صلاح ،
وتجارا بلا أرباح ، وأبقاظا نوما ، وشهودا غيبا ، وناظرة عمياء ، وسامعة صماء ،
وناطقة بكاء . . »

وهذه صورة :

« . . . يعيشون جهالا ، ويموتون ضلالا . . . ليس فيهم سلعة أبور من
الكتاب إذا تلى حق تلاوته . . . ولا سلعة أنفق بيعا ولا أغلى ثمنا من الكتاب إذا
حرف عن مواضعه . . . ولا عندهم أنكر من المروف ولا أعرف من المنكر . . . »

وتوالت الصور في كلامه مثلا وراء أمثال ، وشبها تلو أشباه . . .

هو الآن منهم في محنة تعضله ، وبلاء يعيبه . . . وهم منه في تفرج ولوم ،
اليوم بعد اليوم ، فلا قوتهم التفرج ولا طوعهم اللوم . . . فكم بصر وبين ،
وأفصح وأوضح فإذا هم لا يرعون . وإذا العناد هو دينهم ، والعجاج سبيلهم ،
والمشاقة هي الجادة التي استقاموا عليها لو كانت استقامة على ضلال .

ما من ساعة في عهده إلا طالعتهم بهداه ، وكاشفتهم من خيء علمه بما يصلح حالهم ، ويؤيد صحته منطق الحوادث لعلمهم أن يرجعوا عن غيهم ويشوبوا إلى الصراط لو بقيت فيهم حاسة تميز الباطل من الحق ووعى يفرق الظلمة من النور .. وما أكثر ما ضاق منهم بالصلف والادعاء وتحجر القلوب وجعود الأفهام .. ما أكثر ما غضب فمذل ، وسخط ولام ، حتى لقد فاض فيهم حديثه بما لم تسر قبله بمثله أقوال أو تخط أقلام ! ..

مرة قال :

« .. . ولقد أحسنت جواركم ، وأحطت بجهدى من ورائكم ، واعتقتكم من ربق القل وحلق الضيم ، شكرامنى للبر القليل ، وإطراقا عما أدركه البصر وشهده اليدن من المنكر الكثير .. . »

فهو يغفر جعود الكثرة ، ويغضى عما يصيبه من أذاها أو تقارف من السوء إكراما لحسنى القليلين . أو يصبر على شر غامر قناعة بخير يسير امثالا — بلا تشبيه — للكلام الإلهى الذى قد يجزى السيئة بمثلها ولكنه يجزى الحسنة بعشرة أمثال ليوسع في العفو ، ويخفف عن المسيئين .. .

ومرة قال :

« .. . أحمد الله على ابتلائى بكم ، أيتها الفرقة التى إذا أمرت لم تطع ، وإذا دعوت لم تنجب .. . إن أهملتكم خضتم ، وإن حوربتم خرتم .. . أما دين يجمعكم ! .. إنه لا يخرج إليكم من أمرى رضا فترضونه ، ولا مسخط فتجتمعون عليه .. قد دارستكم الكتاب ، وفاتحتكم الحاجاج ، وعرفتكم ما أنكرتم لو كان الأعمى يلحظ ، أو النائم يستيقظ ! .. »

يناقش ولا يعلى أو يأمر . ويقرع ليذكر ، ويشير ليؤثر . ولئن لاح فى ثنايا هذه الأسطر كمن ضاق حتى دنا من اليأس ، فقد أورد فيها من الأسف ما يبيده كمن لم يهجر الرجاء ، لأن أسفك على ما ييدر من خطأ غيرك تعبير عن أملك فى رجوعه عنه ! .. ولئن كان ها هنا قد خاطب العقل خطاب من استنفد الحجج والأدلة ، فإنه قد خاطب العاطفة بأسلوب من يحرك الحمية والغيرة .. .

ومرة قال :

« .. ما عزت دعوة من دعاكم ا . . . ولا اسراح قلب من قاساكم ا .
أى دار بعد داركم تمنعون ، ومع أى إمام بعدى تقاتلون ا . . . المغرور والله من
غررتموه . . . »

فكأنما آدم يأسه ا

كأنما هم أن يرفع القلم ، ويطوى الصحيفة ، ويفسل يديه ا .
واكتملت أماننا ، من أحاديثه الصورة القديعة لزمرة المدينة أولئك ، من
ضعاف القلوب والمنافقين ، في مستهل عهدها بالإسلام . .

وكيف لا وهام أولاء قد تقمصوا جلود تلسم الطائفة حق ايشبيه الأمر بين
القثنين على المرء لولا فارق الزمن والمسافة ا . . إنهم كأولئك سواء بسواء . .
يتلونون ألوانا . يقتنون افتنانا . يمشون الخفاء . يدبون الضراء . .

أمامه تراهم بوجه ، ووراءه تراهم بآخر . . قولهم زيف . وعدلم حيف .
ووعدم خلف . وولاؤهم رياء . . قلوبهم فى كلامهم جميع . وأهواؤهم فى فعالهم
شقى . . لا يكادون يرحون مجلسه حتى ينفرط عقدهم ، ويفتكت عهدهم ، وتنفض
كثرتهم — عتتا ومشاقة — عن رأيه الذى تابعت عليه منذ قليل ، كأنما يحرصون
أن ينطبق عليهم قول الله :

« ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم
ماذا قال آتقا ، أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم .. »

بل ليعنون أحيانا فى اللجاج والحجاج هربا من الحق الذى عشت قلوبهم
عن ضيائه ، ولياذا بالباطل الذى استمرأوا العيش فى سراديبه كدأب الخفافيش
فى فراها من النور :

« يجادلونك فى الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون .. »
ثم يرثونه عن الجهاد ، ويعطلون به ، كلما دعاهم بدعوته فيقدمون عه
— تحاذلا أو خوفا — ويحملون معهم من وراءهم على الثبوت ابتغاء السلامة ،
وحرصا على الدعة والعروض حتى ليحق فيهم ما أورد التنزيل :

« ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلم إلى الأرض ، أَرْضَيْتُمْ
بالحياة الدنيا من الآخرة ، فما متاع الدنيا في الآخرة إلا قليل . إلا تنفروا
يعذبكم عذابا أليما ، ويستبدل قوما غيركم ، ولا تضره شيئا ، والله على كل شيء
قدير . . . » .

وكم من نماذج لهذا السلوك الذي التزموه مضت في العسيان حق فارت
المعصية ، واستدبرت الامثال حق أو شكت أن تباعد الإيمان . . .

ألوان من السلوك شقي ، اتفقت جوهرها واختلفت مظهرها ، لو أن أصلا ردت إليه فكان منبعا نبعث منه ، لسكاد مصدرها ألا يكون سوى تطلعهم الشره إلى ما لم يبصره لهم الله من حظوظ ذاتية ، يعجلون قلوبهم وأنفسهم إلى طلبها طمعا وشهوة ، ابتغاء مغنم في مادة ، أو شهرة في جاه ، كأنما أبوا أن يرتضوا قسمة ربهم وتقديره فسعوا لاقتناص ما هفوا إليه ، بغير حقه ، وفي غير أوانه ...

ذاك سبيلهم وإنه لسبيل الجهال الضلال ، والغواية التي تلح دائما على أبناء البشرية فتلتوي بهم عن الجادة المستقيمة ، إلا من عصم الله ، ووقاه الفتنة ...

سبيل حبيب مرئى ، في حساب النفس ، يستقبله ويهطم إليه زينج الأهواء . خبيث وبئس - في حساب الروح - يستدبره ويترفع عنه كرم الأخلاق ...

فأى الحداة حدا لهم ، وقاد قافلهم ، وانطلق بهم في مهامه الخلاف والشقاق والتناحر ، يضطرب بخطاهم ، ويتداوب بها بين خوفهم على اليوم ، وقلقهم من الغد ، حتى أوغل بهم في أعماق التيه ؟ ...

لا عن الخطأ البرئ الذي ينشأ - مع طهارة النيات - عن اجتهاد الراى عند وزن الأمور بعيزان التقدير ... ولا عن الجهل نتيجة لانطباس الحقائق والافتقار إلى الهداية والتبصير ... فما خلت سيرة الإمام فيهم ، تلسم الآونة الحرجة في حياة الإسلام ، من حجة دامغة تقدر فتحسن ، ومن عظة بالغة ترشد وتبين لو خلصت طرايا ، وصحت عزائم ، ووعت عقول ...

فإذا لم يكن الحسد هو مشير الأطماع ، والانحراف هو المظية القلول إلى بلوغها فلا مطايا إذن ولا مشير ... ولا عجب من بعد لو تبدى لنا الأيام ، في وضاياه ، حربا على كليهما شعواء ، لأنهما منقصة للخلق الفاضل - الذي يستقيم به السلوك فتصلح العلاقات الإنسانية بين الأفراد وتمز المجتمعات - قبل أن يكون منقصة للدين ، أى دين ، وللإسلام - بخاصة - وقد بعث نبيه العظيم ليتم مكارم الأخلاق ...

في هذا المجال يقول الإمام :

« ... إن الأمر ينزل من السماء إلى الأرض كقطرات المطر إلى كل نفس بما قسم لها من زيادة أو نقصان فإن رأى أحدكم لأخيه غفيرة في أهل أو مال أو نفس ، فلا تكون له فتنة . »

تلك فتنة الحسد الذي تثور في النفس ضواريه المنهومة وتدفع بصاحبها إلى التحلل من القيم والمبادئ * إذا ما استقل حظه من الدنيا وهو يرى غفيرة تزيد في حظ سواء من الناس في الولد أو الرزق أو العمر وغيرها من فضول الحياة ..
ثم أوضح فقال :

« ... وإن المال والبنين حرث الدنيا ، والعمل الصالح حرث الآخرة ، وقد يجمعهما الله لأقوام ... فاحذروا من الله ما حذركم من نفسه . واعملوا في غير رياء ولا سمعة ، فإنه من يعمل لغير الله يكله الله لمن عمل له »
ولم يكن في قوله بالسابق . ولكنه كان المترجم الأمين لما ورد عن هذه الفتنة في الآثار .

فلقد نهى الله خلقه عن الحسد ، وأعاذهم من خطره وشره :
« قل أعوذ برب الفلق . من شر ما خلق . ومن شر غاسق إذا وقب . ومن شر النفاثات في العقد . ومن شر حاسد إذا حسد . »

وحذرهم سبحانه ما يجرم إليه من ضياع :
« من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب . »
وأثر في كتب الأولين أنه عز وجل قال :

« الحاسد عدو نعمتي ، متسخط لفعلي ، غير راض بقسمي .. »

وروى عن رسول الله :

« ألا لا تعادوا نعم الله . »

قيل :

« يا رسول الله ، ومن يعادى نعم الله ؟ .. »

قال :

« الذين يحسدون الناس . »

وليست هذه دعوة للتواكل ، نعت الطموح ، وتقتل الهمة ، وتحبس المرء في واقع ضيق فلا يحاول — بالزمامها — أن يخرج من هذا الواقع إلى ما هو أرحب وأجدى عليه . بل هي دعوة إلى الطهر والتعفف ، تعصم النفس البشرية من الحسد الذي يطلق الشهوة جامحة بلا عنان ، تمر يد كما تشاء ...

فالطموح — كدلالة لفظه — نزوع إلى الأعلى الأرفع . فهو سمو وتخليق . وهو ، لهذا ، أدعى أن يبلغ به المرء شأواً غرض نبيل ، بحقه ، وفي أوانه ، من طريق نظيف ، بلا انحراف ولا اعتساف ، ودون ترخص منحاز في اختيار الأساليب والوسائل ، لأنه ينشر جناحيه على أرض « عامة » قل أن يرتادها حب الذات ...

والحسد شهوة نهمة . فهو تدل ونزول . وهو أدعى ، لهذا ، أن يشد صاحبه إلى قاع القاع ، لأنه شعور مسعور ، بكنون العطش والجوع ، يتخبط المرء مسه فلا يحس إلا بذاته ، ولا يعمل إلا لها ، حتى لا تكاد عينه تقع على شيء إلا جرعه أو التهمة ، ليرضى شراسته ، غير كاف عن غث أو رقيق ، قليل أو كثير ، له أو لغيره ، وبلا تخرج عن ركوب أخس الأساليب واصطناع أدنى الوسائل بلوغاً إلى مشتهاه ما دام قصاره ملء ذلك الفراغ الرهيب الذي يمشي في جوفه وفكره ولا يعرف الارتواء أو الامتلاء ...

داء عياد ولا كالأدواء ... يعرق صدر صاحبه ، ويفترس إنسانيته ، ثم لا يكون نقمة عليه وحده بل يرزأ — بآثاره — من حوله ومن في وثاقه من الناس ، لأنه يضربه هو بالبلاء ، وهو يضربهم بالابتلاء ! ... وقد جاء عن عبي الحاسد وسوء مآله في حديث مرفوع :

« الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب »

وأجل الإمام ضراوة المحنة التي يوقع الحاسد فيها نفسه في صورة بيانية ،
تجمع إلى وضوح العالم لدع السخرية ، فقال :

« لله در الحسد ، ما أعدله ! بدأ بصاحبه فقتله ... »

ولا شفاء من بعد لهذا الداء إلا من داخل المرء ، لأن ذاته التي أفرزت العلة
هي التي تفرز الدواء ... وهل ينشأ الحسد في نفس إنسان إلا من تطلعه
النهم إلى حظ لم يقسمه له الله ؟ ... وهل يعارس دوره في الحياة إلا بتعجيل تحقيق
ارغبات الخاصة تعجلاً يدفع إلى التزو الآثم على حظوظ الناس ؟ .. فإذا لم يكن
كبح النفس عن هذه الشهوة الشرهة ، ورياضتها على التعفف عما في يد غيرها
هو العلاج ، فبأي وسيلة أخرى ينحسر الداء ؟ ...

الصبر وحده هو الوفاء ، وهو الدواء ... وهو أشبه شيء بسلوك المؤمن ،
وأخلق بالاتباع فقد ورد عنه على لسان رسول الله :

« الصبر نصف الإيمان . »

واستفسروه الإيمان ما يكون ، فقال :

« الصبر والسماحة . »

وسئل الإمام :

« أي شيء أقرب إلى الكفر ؟ . »

فأجاب :

« ذو فاقة لا صبر له . . »

ولا مرء . .

فالحاجة تدفع ونحفز وتثير .. وقد تطيح بالصواب ، وهي إذن محنة واختبار .
والحن محك الإيمان .

وكأنما شاء أن يبين للناس الصبر كيف يكون ثقة في الله ، وإسلاماً له ،
فقسمه ثلاثة أقسام :

« إما صبر على المصيبة ، أو طي الطاعة ، أو عن المعصية . . »

وفي هذا تحصين للنفس — لا معدى عنه — من عادة اليأس والجزع ، وغواية الانتقاص والتمرد ، وإغراء القسوق والكفران . . وهو رياضة لها تهوؤها — عند الغضب — لاستقبال ما تسكره بالأناة التي تعين النظر ، وتأخذ بالثبوت ، فتحسن التقدير وتجيد التدبير . . وهو إلى غير هذه وتلك من مزاياه ، قمع للشهوة ، وكبح للهوى ، ووقاية من الضلال ، وضمان لالتزام استواء السلوك . .

غير أنه المركب الحشن الذي لا يكاد يقدر عليه غير أولى الفهم الذين أشربوا الدين ، ولم يتخطفوه عبارات . . والدواء المر الذي يعافه — جهلا أو ظلما — كل من هفت نفسه ، كمثل هؤلاء ، إلى عرض دنياه ، وغلبه على الحق هواه .

فلو أنهم عقلوا ، لأكرهوا نفوسهم على حسوة منه ، تحقق البرء ، وتذهب بالداء . . ولاختاروا سلامة الروح . . ولا أثروا طريق الإباء والترفع والعفة — وإن شق وطال — لأنه السبيل إلى الانتصار على النفس ، وتحطيم النقائص وسيادة المثل الرفيعة ومكارم الأخلاق ، خروجا بالسلوك البشري من سجن الأنانية والنفع الخاص إلى رحابة إنكار الذات ، والنفع العام . وبلوغا إلى بناء مجتمع إنساني فاضل يظله الصفاء ، ويسوده السلام . . وهل هو خاف أن الحسد مشير للبغضاء ، مؤجج للعداوات ، مؤد إلى التناحر لأنه ينبع من الحقد ، ويعمل للإنانية ، ويدفع إلى السطو على ما في يد المحسود وابتزازه ثم إلى تأمين ثمره هذا الابتزاز بكل موبقة يعرفها الجشع ، أو يتسكرها ، من رياء ونفاق ، واقتراء وكذب ، ووقيمة ودس ، وقهر وإرهاب . .

على هذه الصورة كانت الحال ، تلك الفترة من تاريخ الدولة الإسلامية تحت عجمر الأحاديث والكتب التي أعلنها الإمام . في الشام كما في العراق . . في الأعداء كما في الرفاق . في القلب كما في الأطراف بغير كثير من التباين والاختلاف . . تمحسا على الحظوظ . وتهافت على الدنيا ، وتسابق على الاقتناص أو الابتزاز ، جريا وراء النفوذ ، أو الظهر ، أو الثراء . وكأها كفيل بأن

يشعن النفوس بالبغض ، ويدفع القوم فيما بينهم للتناحر ، لأنه قد تملك العقول والمشاعر ، وتحكم في الأفكار والأفعال .

ولا مدعاة هنا لوجوب القول بخرق هذا التعميم أو شذذه بالاستثناء أو الاستدراك لأن هذا يدهى معلوم . فالاستثناء قرين كل قاعدة ، والاستدراك رفيق كل اطراد ، لأن الظاهرة من الظواهر الاجتماعية : سقيمة أو سليمة . لا تسيطر على عموم وإطلاق . بل هي تسم المجتمع وتطبعه بطابعها ثم لا تكون فاشية في كافة طبقاته وأفرادها على سواء . . . فهي تسود هنا بقدر ، وهناك بقدر ، على تفاوت ، متراوحة الانتشار فيه — من جانب الجانب ، وجماعة للجماعة — بين كثافة ورقة ، شيوع وندرة ، مد وجزر ، بروز واختفاء . .

تلك طبيعة الأمور في كل أوان . وهي ها هنا على نفس النسق والنظام . . فإذا مضت النظرة تتخلل الوضع عندئذ فإن المجتمع الإسلامي لم يكن بعد متسق الصفحة ، ساكن الوجه ، كسهل منبسط أو اكبركة آسنة ، تقشابه في كليهما للعالم أو تسكاد حق المستوى فيبدو كأنه بلا فوارق ملحوظة تؤثر في رتبته ، وتميز مكانا به على مكان . . إنما كان أشبه شيء بأرض تباينت سطوحها ، وتباينت مستوياتها بين لين وحزونة ، هبوط وارتفاع فإذا هي أنواع . فيها الهضاب والوهاد . وفيها الجبال والوديان . وفيها الكثبان والقيعان . فلقد كان مجتمع تلك الأيام يتألف من كتل عدة من الجماعات البشرية ، عليها ریاسات شق مؤتلفة ومختلفة ، كانت — على ما بها كلها من تقارب نسبي في مظهرها الاجمالي الذي طبعها به الدين والتوحد السياسي — يبرز بعضها على السطح الشعبي العام ، بفعل الأصل والتراث والظروف الاجتماعية ونزعات النفس ومذاهب الآراء ، كما تبرز الصخور والجنادل على سطح النهر ، فتؤثر في تدفقه ، وتضطرب بسيره ، وتحول مجراه . .

كتل عدة ذات ریاسات مختلفة الطبائع ، متباينة التكوين ، متغايرة الاتجاهات كانت هي التي تلعب الدور الأول — على تفاوت وسائلها — في تطوير الأحداث . فهي وحدها التي تملك القدرة على الإعداد والتوجيه ، وعلى الحشد والتجمع . وهي وحدها التي تستطيع أن تتحكم في العمل القومي ، وتفرض

أسلوبه . وهى بهذا وذلك كانت يدها أعنة الموقف ، تحرك الرأى ، وتسوق الأحداث ، منطلقة بالشمب فى حيثما ارتضت له أن يسير إلى حيثما اشتهدت أن يكون المصير . . . ولا غرو . . . فما يمكن أن يقال ، إلا بحذر شديد ، إن التقليد العربى الذى يجمل مشاورة الرئيس للقبيلة وسيلة لحسم الأمور ، كان دائماً — عند اختلاف الآراء — يفرض سلطانه ليعقق الحكمة منه ، فيرجع رأى الكثرة — أو الجمع كله — إذا كان الرئيس فى الجانب المرجوح . ذاك ما تكاد طبيعة الحياة القبلية تأباه ، لأن أبناءها الذين نشؤوا على توقيير الكبير والولاء له ، يؤثرون — فى الأغلب — لرأيه أن يطاع ، عن اقتناع أو عن اتباع . . . وما يمكن أيضاً أن يقال ، إلا بحذر أشد ، إنه كان ثمة إذ ذاك « شعب » بمفهوم هذه الكلمة الحديث ، له رأى يعلن ، وإرادة تريد . بل تلكم السكتل ، برياساتها ، كان لها الأمر فى الأمة ، تمزم وتبرم ، وتعلن فتسمع ، وتسوق ونقود وجمهور الناس من ورائها إما تابع أو قابع ، ينقادون أو يشاهدون ، فيجرفهم التيار ، أو يصيبهم رشاشه . . .

ولقد كانت كثرة هذه السكتل المسيطرة قبلية ، بطبيعة الحال ، تجمع بين أفراد الواحدة منها صلة الدم أو رباط الاستلحاق . وكانت بقيتها ، بصفة عامة ، بضعا منها مقطعة ، قد انفصلت عن أصولها ، نتيجة للتطور ، فرادى وشراذم ، واستقلت باعتناق رأى خرج بها عن حظيرة إجماع الآل من هذه القبيلة وتلك ، فإذا هى كتلة جديدة ، سياسية كالعثمانية ، أو مذهبية كالخوارج ، تضم أشتاتا من القبائل ، وتعمل لهدف خاص فى نطاق مبدأ جديد ، لافى نطاق ولائها القبلى القديم . . .

فى هذا الإطار ، وينفس المجهر الذى عمدنا به أقوال على فى معاصريه ، تنجلي أمام الأعين تلك القوى المسيطرة على حركة تاريخ الدولة الإسلامية فى ذلك الحين والمالكة لزمام موكب التطور ، فإذا هى فى حقيقة الأمر قلة من الناس مكنت لهم أوضاع المجتمع فى النفوذ ، ووضعهم الظروف فى مقدمة الصفوف . . . قلة استبدت بالأمر دون الشعب ، وباسم الشعب ، وعلى كره من إرادة السلطة الشرعية ، ومباينة لاتجاهها وسياساتها ، ثم على خلاف الناموس الإلهى الذى نزل الله للعالمين دستور هداية وخطة سلوك . . . فإذا حسب حسب أن

أمير المؤمنين — حين أنحنى بالأمة على أعوانه ، وجرم فعالمهم ، فيما سلف من أحاديثه — إنما كان يصيهم « كافة » دون أن يدع منهم جماعة لم يلبسها التهمة ولم يلزمها الإثم ، فذاك حساب خاطئ ، وتأويل ضال ، لا جدال . لأنه يخالف طبائع الناس ويجاوز حدود المنطق . . فأنت تتكلم فتعمم وأنت تريد التخصيص . وتجمع وأنت تريد التحديد ثم لا يحمل قولك على ظاهر وجهه الذي ترميه الألفاظ . وهو أسلوب في اللغة معروف ، يعبر بالكل عن الجزء ، كأن تقول : أشارت يده وتعنى يديه . وجاءت الأمة طائفة والمراد عدد من أبنائها ، كثير أو قليل ، على سبيل التصوير والتخيل . .

قلة إذن ، بالقياس إلى المجموع ، كانت هذه السكتل التي دمع الإمام سيرتها الناضجة باللوم والزراية إذ هي جنادل المرقلة وصخور التمويق التي تترض التقدم الشعبي العام ، وتعمل عمدا بتياره الدافق إلى الركود أو إلى الانحراف . . فهي عوامل تخلف في طريق الانطلاق . وصنائع ردة في طريق الأخلاق . وشراك خداع وتغريب ، وأوكار تمرد وانتفاض في نظر الدعوة الصحيحة وفي حساب الولاء المشروع . يتساوى منها في هذا من سكن الشام أو أقام بالعراق لأنهم آثروا لأنفسهم أن يعيشوا بها ، ويعملوا لنفعها ، بوحيا وهواها ، حائلين بين جمهور الشعب وبين وقائع الحال وحقائق الأمور بما التزموه من سياسة الرياء . . فهؤلاء هنا — ممثلين في فرقة الخوارج ، وفي جمهرة الحزب العلوي — يعوّهون أولاهما تظهر التقى والغيرة على حكم الله ، وأخراهما تظهر الطاعة والولاء للإمام ، دون أن تقرنا المظهر بالعمل المخلص الجاد وأولئك هناك — ممثلين في الحزب الأموي — يعوّهون . يظهرون غضبهم للدم الحرام ، ويدعون الانتصاف للقتيل المظلوم إقرارا لشريعة الله ، فإذا دعوتهم ادعاء مضلل ، وغضبهم حيلة محتال . .

أولاء وأولئك فئتان زائفتان ، لم ترم كلماتها ما تبدتا عليه أو دعتا إليه ، وإنما ابتغتا به السمعة وحسن الأحدوثة بين ظهرائي الأمة سبيلا إلى ما تشتهيان وتتطلع إليه الأطماع . . فلا في قول تصدران عن رعاية للزواج الحلقية والهدبية التي تروع الأهواء ، وتهذب الاشتهااء . ولا في عمل تصدران عن رغبة نقية في مرضاة الله . بل القول والفعل جميعا رثاء الناس حتى ليعجب المرء كيف

يرتضون لأنفسهم مثل هذا السلوك ثم يسوغونه للشعب ، ويجيزونه عليه بما لهم من نفوذ ، وإنهم كافة لأول أجيال الإسلام ، وأقرب أبنائه عهدا برسول الله ، منهم كثيرون عاصروه ، وكثيرون عرفوه ، وكثيرون خالطوه وسمعوا منه ، أو سمعوا عنه ، ما كان ادعى لأن يصحهم من الرياء . .

فلقد قال :

« إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . . »

قالوا :

« وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ . . »

قال :

« الرياء . . يقول الله تعالى إذا جازى العباد بأعمالهم : اذهبوا إلى الدين كنتم ترءون في الدنيا فاطلبوا جزاءكم منهم . . »

بارسلعة لصاحبه ، وساء سيرة عند الناس ، وكبر مقتا عند الله مسلكت المرائين . . فالعمل ذو الرياء ما هو يعمل على الحقيقة — لا في حساب النية ، ولا بعقضى النتيجة — لأنهم لم يضمروا ما أعلنوه ، ولم يصلوا به إلى ما ادعوا ابتغاءه والسمى إليه فلا مشوبة إذن عليه . . وهو خداع يتغفل الناس ، ويغرر بهم مستغلا ثقتهم ، منزقا بخطاهم على التضليل إلى الضلال . . وهو تظاهر بنشدان حق أو بتغيير باطل يخفى المراءون قصدهم وراءه عينا بالحقيقة وبالعقول كأعما سرهم ، أبدا ، مصون مكنون ، وكأعما ليس عليهم حسيب رقيب . . أفلسوا الله ؟ . . أم حسبوا أنهم يسترون عنه ما يضمرون ؟ . . أم غرتهم الأمانى فاستهانوا بعلمه هو الذى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، ويعلم خافية الأنفس وما تكن الصدور ؟ . .

قيل :

« إذا رآه العبد ، قال الله سبحانه وتعالى لللائكة : انظروا إلى عبدى

يستعزى بي . . »

فلا إلى غير الله يلجئ اتجاه النيات . ولا لغير ابتغاء مرضاته تقال الأقوال
وتؤدى الأعمال . ولا بغير وجهه يتعلق الأمل ويعقد الرجاء . .
في مثل هذا يقول الإمام :

« لا يرجون أحدكم إلا ربه . . . »

وإذا كان الرياء كريهاً منها عه في الدنيويات ، فإنه في العبادات أدعى لأن
يكون أشد عند الله مقبلاً ، وأزرى عند الناس بصاحب العبادة ، مهما أحسن وقدم
من خير ، حتى إنه ليذهب في الآخرة بإحسانه ، ويتهمة في العاجلة في دينه . .

فعلى ما اشتهر لابن الزبير من ورع ، طالما رأى الناس منه ألواناً ومعالم
تفوق تقوى التقاة ، ونسك العباد . لم يعفه ما ظهر من عبادته من خوضهم فيه
بما يشين سيرته ، ويلوث صفحته ، حتى لقد اتهموه بأنه إنما أراد بتقواه صولجان
السلطان لم يرد وجه الله . .

فقد ذكر أنه ذهب — وهو إذ ذاك يناهض بنى أمية وينازعهم الحكم —
إلى امرأة عبد الله بن عمر لتسكن زوجها في أن يبايعه . . فلما أن فعلت ، وأفاضت
في ذكر صلاته وصيامه وقيامه ، كأنما لترفع عند صاحبها قدره ، وترجع كفته
على من عداه ، حتى بادرها ابن عمر بسؤال :

« أما رأيت البغلات الشهب التي كنا نراها تحت معاوية بالحجر إذا قدم
مسكة ؟ . . »

قالت نجيب :

« بلى »

فقال :

« فإياها يطلب ابن الزبير بصومه وصلاته . . »

وكيفما كانت هذه الرواية فإنها تنصح لنا عن جزاء الرياء عند الناس ، فإذا
هو امتهان وازدراء ، وادعى ابن الزبير أم أخلص النية لله في تقواه ، وأخطأ
ابن عمر في حكمه أم أصاب . . فالحكم دائماً على ظاهر . . والنية سر لا يعلمه

إلا الله . . والحد بين الظهور والتظاهر ، وبين الصدق والادعاء كمثل خيط رفيع ، كأنه غزل عنكبوت ، لا يكاد يدع سبيلا إلى تمييز هذا عن ذاك إلا أن يلهم المرء صواب التقدير . . ومع ذلك فالظهور في العبادة قد يشين صاحبه ، لأنه يستجلب السمعة ، وطلب الشهرة ممقوت من أى سبيل . .

فمن حديث لرسول الله :

« بحسب المرء من الشر — إلا من عصمه الله من سوء — أن يشير إليه الناس بالأصابع في دينه أو دنياه . . »

ونسب للسيد المسيح أنه قال :

« إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ، وليمسح شفتيه ، لئلا يعلم الناس أنه صائم . وإذا أعطى يمينه فليخف عن شماله ، وإذا صلى فليخستر بابه . . . »

ومن كلام لعل :

« تبذل لا تشتهر . ولا ترفع شخصك لتذكر بعلم . . . »

وقد سئل النبي الكريم :

— يا رسول الله ، فيم النجاة ؟ . . »

قال :

« ألا تعمل بطاعة الله وتريد بها الناس . »

يقال :

« يؤتى في يوم القيامة بالرجل قد عمل أعمال الخير كالجبال — أو قال :

كجبال نهامة — وله خطيئة واحدة فيقال : إنما عملتها ليقال عنك . فقد قيل :

وذلك ثوابك . وهذه خطيئتك ، أدخلوه بها إلى جهنم . »

فكم منهم من لعله سيجنب هذا المآل ؟

كيفما كان ما غير القوم عليه ، لم تكن له يد في التغيير . فما بدل مسلكه ، ولا عدل عن رأيه ، ولا جاءهم بعد إمرته بما لم يماقدهم عليه يوم اختاروه .

بل هم الذين بدلوا ونسكوا ، ملأوا شهوة ، من بعد أن ألقوا إليه بالزام ، وحملوه تبعه الحكم ، وإنها عند ذلك ثقيلة كالجبال .. يومها لم يكن يرعى إلى الخلافة بطرف عينه . . . لم يدعهم لنفسه . لم يطلب اجتماعهم عليه . لكنهم طاروا إليه حيارى مضيعين ، يلتمسون فيه الخلاص .. طوعا وجزعا اقتنعوا عليه عزلته ، غب مصرع عثمان ، ليكون الأمة ردها من تلك الأحداث التي علت كالطوفان تجتاح البلاد والعباد . .

ولم يصغروا له . أنكروا عليه أن يأبى الإمرة . ألحقوا عليه في القبول . ناشدوه الله في وحدة الأمة وسلطان الدين أن تتمزق ويضيع .. ثم عنفوا به عند الإصرار . ثم أكرهوه بالسيوف . ثم تنفسوا الرضا والطمأنينة إذ أطاعهم ، فماهدوه النصر ليجتاز بهم المحنة الحازية إلى محق الباطل ، وإحقاق الحق ، وإعلاء كلمة الله . .

فما بالهم الآن ؟ . ما الذي غيرهم ؟ .. كيف خرجوا من وثاق كلمتهم له ، وعهدهم الذي أبرموه ؟ . أقد استطالوا طريق الكفاح وأعيامهم السير عليه ؟ أم نقد الصبر ؟ .. أم راودتهم الأنفس على النكوص ؟ ..

كلما دعا صموا . وكلما أومأ عموا . وكلما جمع شتوا . كأنما بعد أن عاقدوه على الآخرة حنوا إلى الدنيا فآثروها ، وصبوا إليها صبوة الطفل إلى ثدي أمه من بعد فطامه . .

لم تكن له يد في التغيير وإن طالما اعتذر لهم عن سلوكهم إزاءه كل من شاءوا انحيازاً إليهم ، على حسابه ، بتبرير الوقائع ، واعتساف الأسباب ، عن غرة وجهل ، أو على وجه الأدعاء والالتواء . .

ولقد قيل الكثير في مجال التبرير ..

قيل :

أغفل على اختلاف الظروف والأوضاع بين ماضى الأمة وحاضرها لحكم الدولة الترامية الأطراف بنفس أسلوب الحكم في « دويلة المدينة » التي كانتها المجتمع الإسلامى عند نشأته ، غير مبال التطور الذى تناول بيد التغيير كل جوانب الحياة الاجتماعية : معنوية ومادية ، على مدى الرقعة الجديدة لشعبه الكبير . .

قيل :

نسى في الناس طبيعتهم البشرية السكافة بمتع الدنيا وخيراتها ، الشغوف بالعبور على جسر السعى إلى تعديل نعط الحياة ببلوغ الأنفع الأحسن ، واحتياز الأوفر الأكثر وما يمثل هذا التعديل من رغد ورفاهة عن طريق إشباع غريزة التملك وحب الاقتناء ، فإذا هو يخاف هذه الطبيعة فيهم ، ويحاول — على خلاف سنة الحياة — أن يجسبهم في واقعهم أو يردهم إلى الوراء ، حاملا إياهم على كل ما يشق عليهم ، ويؤود احتمالهم ، من تقشف وحرمان . .

قيل :

. هفت جمهرة أصحابه ، وإنهم لبشر — جزاء عادلا لجهدهم — إلى مثل حال أقرانهم بالشام الذين أوسع لهم معاوية في العطاء والبذل : مالا وجاها . وسخا عليهم بكل أطايب الحياة وما يفوقونهم بفضل سابقة ولا بلاء ، مادام العمل هو الذى يحدد الجزاء .

قيل وقيل ، من التعلات والمآذير — حسبما اشتهت ذرائع التدليل وحجج التبرير — كثير وكثير . .

فإلى أى مدى يلم ما قيل بجوانب الصدق من قريب أو بعيد ، في الكثير أو في القليل ؟ ..

وعلى أى نحو يطابق الحقيقة جوهرها — دع الهيئة — وفي البليات — دع التفصيل — إذا ما وضع في مجال النظرة الفاحصة ، ثم عور ببيان

الواقع السكائن فضلا عن معيار الدين ، ومعيار الخلق ، ومعيار الفطرة وأمثالها من ضوابط الأقيسة ودقائق المعايير . . .

علل سقيمة عليلة . وذرائع مثلومة مذلولة ، كلها لاريب يتعلق بالجانب المعتم في حياة الإنسان ، ويدور بفلسكه ، كأنما المرء مادة خالصة ، من لحم ودم وعظام ، جبلت من طين الأرض فلا تقيته إلا المادة ، ولا ينحيه غير الطين ، ولا موضع في كتلة الصماء لقبس الضياء الذي نقشه روح الله ليشتعل الفكر ، ويذكي القلب ، ويشعد الضمير ، ويمادل فيه بهذه النفثة الربانية بين كثافة الظلمة وصفاء النور . . .

إنما يقصر شأو كل هذه الأقاويل ، أصولا وظلالا ، أن يحس الإمام ، أو يلحق بتفكيره أو تديره حاكم وكانسان ، لأنها جميعا في نظرة الحق أباطيل . . .

فلا عن إغفال ولا تغافل فعل الإمام ما فعل ، وساس الأمور والناس كما ساس ، وإن شئت تهمة ظالة أن ترسمه وقد أغمض عينيه عن حركة التطور وما عليه أو تقتضيه . كأنما التطور ، في حساب متهميه ، تحلل . وكأنما مسيرة التغيير تدعو ، لا محالة ، إلى الخروج على ما شرعه الدين من الأسس والقواعد ، ووضعها للحياة من الضوابط والمعايير . . .

ولا عن نفع خاص ، أو رغبة في التضيق على المسلمين ، حاجز بينهم وبين خريزة الاقتناء أن تغضى على سجيئتها ، وحال دون الاكتناز أن يطغى فيهم ، فأعطى بمقدار ، أو حرم ومنع ، وقطع الطريق على الرفاهة والبذخ والثراء إلى الاستشراء . . .

ولا عن جمود لبلاء أصحابه ، وإنكار لاقتدارهم ، أو عن شع وتفتير شد قبضته ، فأمسك عنهم ما أباح معاوية أضعافه رجالا مالأوه أو هادنوه لا ذكر لهم في حساب فضيلة ، ولا خطر في ساحة جلال . . .

فإن يكن قيل غفلة عن حركة التطور وعملا لا بد أن تفرضه من تغيير ، فذلك غفلة قائل قوله مدحوض مردود بشهادة البدائه قبل شهادة الشهود . . . فما كان

سلوك الإمام سلوك الغافل أو المتغافل ، بل سلوك المستيقن الواعي الذي تبدى له خلف ستر التطور المموء بواذر التخلف والانهيـار تهم أن نحتاج الأمة فلا يـخـدعه التـمويه ولا يـسـترخى للـتـيـار .. لـكـنـه يـبـادر إلى مـواجـهـة المـوقـف كما يـنـبـغى أن يـنـهـض فيـه مـناـضـل يـعـرف مـوقـع قـدمـيـه ، و مـرـمى بـصـرـه ، و حـقـيـقـة دـورـة فـيـثـبـت لـمـوا مـل الحـلـل و الـانـحـراف مـحـاولـا أن يـكـسـر شـرـتـها ، و يـفـل حـدـها ، و يـقـطـع عـلى جـمـاعـلـها الـغـازيـة المـادـيـة طـريـقـها ، دـرءا لـخـطـرـها ، و عـودا بـعـيـثـمـه إلى الـقـيم الـفـضـلى الـى أرسـاء عـليـها الإـسـلام . و هـل مـن يـقـول إن الـخـروج عـلى قـواعـد الأخـلاق ، و قـصـم الصـلات الإنـسـانيـة اللـوثـقـة الإخـاء و العـدالة و المـساوـة — بالـجـنـوح إلى الـأنـانيـة و تغـليب الـتـروا ت الـخـاصـة و المـطامـع الفـردية عـلى صـالح الجـماعة — تـطـور و ارتـقاء ؟ . أم مـن يـقـول إن الدنـيا تـصـلح بـتـدبـير البـشـر — بـكـل ضـمـفـهم و خـطـلـهم و اضـطـراب تـقـديـرهم — مـثـلـها تـصـلح بـتـدبـير خـالقهم الـذي يـحـيط عـلـمـه بـمـشـهـود يـومهم ، و مـجهـول غـدمهم ، و طـاقـة الطـبـائع ، و خـبـء السـرائـر ، و نـزغ الصـدور ، و الخـفـايا الغـيـبات لـهم في الدـهر مـن الصـروف و الأمـور ؟ . . .

وإن يـكـن قـيل شـاء أن يـحـارب في رـجـالـه طـبـيـعـتهم البـشـرية السـكـانة بـتـوفـير رـغـد العـيش و الـاسـتـزادة مـن طـبـيـات الحـياة . فـجـبر عـلـيـهم أن يـبـاغـوا مـشـتـهـام . و ضـيق عـن شـع أو ابتـغـاء و جـه التـضيـيق . فـتـلك قـريـة شـائى خـادع . أو نـظـرة غـر عـخدوع . لأن الإـمـام لم يـرد أصـحابـه عـلى شـئ إلا بـدأ أولا بـنـفسـه . و لم يـحـمـلهم قـط عـلى ما يـجـاوز طـاقـتهم أو يـؤوـدهم حـملـه مـن الشـاق العـسير مـن الأمـور و إن حـمل دأما نـفسـه عـلى الأشـق الأـعـسر ، تـعـفـفا و زهـادة . . .

قال في بعض أحاديثه :

« . . . إني والله ما أحكم على طاعة إلا وأسبقكم إليها . ولا أناكم عن معصية إلا وأنتاهى قبلكم عنها » .

و صدق سيرة قوله . . .

وزار مرة صاحبه الملاء بن زياد الحارثي ، فقال له الملاء :

« يا أمير المؤمنين ، أشكو إليك أخى عاصم بن زياد »

فسأله :

« وما له ؟ .. »

قال :

« لبس العباء ، وتخلّى من الدنيا . »

فأمره :

« على به »

وجيء بمصم وإنه لناسك عابد ، نبذ الدنيا ، واشتد في الزهد على نفسه .
فإذا الإمام لا يحمد له سلوكه ، بل ينكره ، ويلومه عليه :

« يا عدى نفسه ! . لقد استهام بك الحديث . أما رحمت أهلك وولدك ! .
أترى الله أحل لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها ؟ . أنت أهون على الله من
ذلك ! .. »

وكأنما عجب عصام لهذا اللوم على الزهد يسوقه إليه أزهد زاهد ، فقال في
تمعجب :

« يا أمير المؤمنين ، هذا أنت في خشونة ملبسك ، وجشوبة مأكلك ! . »
فكان الجواب الذى تلقاه :

« ويحك ! . . . إني لست كأنت . . . إن الله تعالى فرض على أئمة الحق أن
يقدرُوا أنفسهم بضعة الناس كيلا يتبيخ بالفقير فقره ! . . »

وليس هذا بقول من يرى التضيق على الناس وحملهم على التقشف ، ولكنه
رأى من يحب أن يفسح لهم في الطيبات من الرزق ثم يعمل على أن يحد من الرغبات
النهمة ، ليقمع الغلو في مطالب الجسد ، ويمنع استشراف الرفاهة أن يطغى على الروح .
فإذا ارتأى أن يشد على بطونهم وأيديهم هونا ، ويأخذهم بزجر الشهوات ، فتلك
خطة معلم مصلح ، تروض الطبايع ، وتهذب الغرائز ، وتطهر الأنفس توطئنا لهم
على الاحتمال والصبر ، وتوجيها إلى ما يردم عن الجشع ويجنبهم البطنة النفسية ..

وهي طريق نظيفة مستقيمة إلى توثيق صلاتهم ، وتوطيد روابطهم ، ومنع وحدتهم أن تتصدع لأنها الوسيطة التي يقصر بها مسافة الخلف الاجتماعي بينهم من فرد لفرد ، ومن طبقة لطبقة ، بما تؤدي إليه من المقاربة السمعة اللينة بين ما في أيديهم ، فلا يستطيع بعضهم ، بما يملك ويقتنى ، على بعض . ولا تستعمل سطوة المال التي لا تؤمن بغير الأنانية والفردية ثم لا تثمر سوى التعاسد نتيجة لما تخلقه من تفاوت فادح في الثروات مآله لا محالة وقوع البغضاء واشتعال العداوات . .

وإن يكن قد اختار لهم نهجا جعلهم في مجال الأرزاق والأعطية خلف أصحاب معاوية ، وأقل حظا من المظهر والجاه ، فليس هذا لأنهم كانوا في عينه ، وفي حساب الحقيقة ، دون غرمائهم أولئك درجات أو درجة في السابقة أو في البلاء . . بل لأنه كان يمثل أقوم شرعة إنسانية ، وأحقها بالاتباع في ميدان السياسة وميدان الأخلاق على الإطلاق وهي شرعة المساواة . . فهو يسوى بين قومه كافة ، خاصة وعامة ، قريبين منه أو بعيدين عنه ، فيمنح بالحق ، ويمنع بالحق ، ويسوسهم أجمعين السياسة السليمة التي لا تزن الناس بميزان الأحساب والأنساب ، ولا تقيس أقدارهم بمقياس المداينة والتزلف ، بل تضع العمل في كفة ، والجزاء في كفة ، وترتب الحقوق على الواجبات نوعا بنوع ، ومقدارا بمقدار ، بغير تحيز أو تحيف من زيادة أو انتقاص . . ولم تكن هذه سنة معاوية فيمن رعا من وعيته ، وإنما كان ميزانه هواه . يعطى من شاء كما شاء ، ويسخر على بطائنه ومن يجتنبهم — من دون الناس — السخاء الذي يرفعه في أعينهم ، جنوحا إلى الرياء ، وشراء للسمعة ، وهو عليم أنه بفعله يجافي العدالة ، ويهدر المساواة ، ويجور على حقوق من عداهم من الجمهور . .

واشئان هنا بين مطلب ومطلب ، وبين أسلوب وأسلوب في نظرة الحق ، وفي حساب كبح الغرائز ، وتهذيب الأنفس ، وتقويم الأخلاق ، وتربية الأفراد والشعوب . فصاحب الشام ، وهو يعطى فيفيض ، كان يعمل لنفسه بهذا العطاء والسخاء وإن بدا لأولئك المتفهمين — ولئن بهرتهم أريحيته الظاهرة من أصحاب على — في هيئة المطوف الكريم . والإمام ، وهو يعطى فيقدر ، كان يعمل

للحق ، وللخلق ، وللأمة جمعاء وإن بدا المسك الضيق في ظن أولئك وهؤلاء .
وهل من مرء ، ومماوية إنما كان يبتغى الحكم ويسعى إليه من خلال مداينة
طائفة مستغلة من الزعماء ، مكن لها وضعها الاجتماعي في السيطرة على من تحتها
من أتباع . . . وعلى إنما كان يرتجى وجه الله بحرصه على إعادة بناء المجتمع
الإنساني من جديد ، وفقاً لناموس الحق ، وعلى أساس المساواة التي شرعها
الإسلام سبيلاً للحياة السعيدة بلاء تميز — في جزاء العمل — برفع الخاصة
فوق العامة ، ويضع التابع تحت المتبوع ؟

كانت الإمرة لمعاوية غاية ، وكانت للإمام وسيلة . . . قصارى صاحب الشام
من سياسته ابتزاز الحكم إذ هو الغاية التي يستباح في سبيلها كل مشروع وغير
مشروع من الأسباب والوسائل ، وتهون دونها كافة الغايات والحرمان . . .
ومسلك الإمام تطويع الحكم وسيلة لغاية كريمة هي إقرار إنسانية الإنسان ،
بقمع الانحراف ، وغرس الفضائل ، وسيادة العدل ، وتوزيع نتائج العمل وخير
المجتمع — بالحق — على جميع من فيه . . . ولا عجب وهو من شب في حبر النبوة
ونهل من مكارم خلق الرسول ، وتشرب دعوته بالفكر وبالقلب وبالروح حتى
نفذ نورها إلى كيانه ، وشاع فيه إلى أبد أغواره وأخفى خفاياه . . . ولا عجب
أيضاً وقد طالما تبين معاصروه ، من أقواله وأفعاله ، بيان يقين ، مدى زهده في
نصيب الدنيا ، وعزوفه عن السلطان ، لولا تبعته أمام ربه ، وواجبه نحو شعبه .
اسمه يقول ، في أول حديث له إلى أمته وهو أمير ، تسمع قول متحرز هباب
يقظ الحس ، مرهف الضمير ، يخشى الله ، ويرجو عونه على ابتلائه بمحنة
السلطان :

« . . . ألا وإن الله عالم من فوق سمائه وعرشه أني كنت كارهاً للولاية
على أمة محمد ، حتى اجتمع رأيكم على ذلك ، لأنني سمعت رسول الله يقول :
أبما وال ولي الأمر من بعدى ، أقوم على حد الصراط ، ونشرت الملائكة صيفته ،
فإن كان عادلاً أنجاه الله بعده ، وإن كان جائراً انتفض به الصراط حتى تتزائل
مفاصله ، ثم يهوى إلى النار فيكون أول ما يلقاها به أنفه وحر وجهه — ولكني
لما اجتمع رأيكم لم يسعني ترككم . . . »

واسمعه أيضا بعد ذلك وهو خاشع يناجى الله ، تسمع قول معتذر أسيف
على قبول السلطة ، وولاية أمور الناس :

« . . . اللهم إني أعلم أنك تعلم أنه لم يكن الذى كان منا منافسة فى سلطان ،
ولا التماس شئ من فضول الخطام . ولكن لتد العالم من دينك ، ونظهر
الإصلاح فى بلادك ، فيأمن المظلومون من عبادك ، وتقام المعطلة من حدودك . »
ثم زائفة ، فتراة ، ونقد متهافت مردود ، تؤثم الناقد ولا تؤثم المنقود . . .
فلقد شاء شائئ الإمام ومعارضوه ، فى حين عصره ، وفيما تلاء حق اليوم من
عصور ، أن يلصقوا به إغفال حتمية التطور ، والعجز عن إدراك مقتضياته . فإذا
هم ، يزعمهم هذا الذى زيفوه ، لا يتهمون إلا أنفسهم ، ولا يسمون غيرها
بقصور الفهم ، وكلال النظرة ، وسوء التقدير لحقائق الأوضاع والأمور .

ودعهم وما يدعون . . . فليس بالجسد وحده يحيا الإنسان . وليس بالتعيش
بميش . . . أم يؤثرون — ولا تقول يخالون ! — أن تكون الحياة البشرية —
حركة آلية تائمة ، تضى بأهلها من فراغ روحى إلى فراغ ؟ . . . أم يرون
الإنسان — رأى يقين — كتلة صماء خالصة ، من دم ولحم وعظام ؟ . . .
أم يحلو لهم أن يزفوا مطالبه فى هذه الدنيا بميزان المادة ، فلا تكون بهذا الميزان
إلا حسية ، ولا يكون هو بها غير شهوة بطن منهوم ، ورغبة جنس شهوان ؟ . . .
تلك دعواهم المقتراة ! .

دلالات اختلافهم عليه لا تخفى وإن طالما أضربوها في مظاهر الولاء . .
تجتم في مغاور الشعور . في النظرة المأبرة . في نبوى اثنين . في همس جماعة .
في حركة البنان وإيعاء إلهام . . في الرغبة المكبوتة دليل . وفي التطلع الشره
دليل . وفي النقد المزخرف دليل . وفي التعلل المائع دليل . وفي السلوك المتجانف
دليل . ومن خلال هذا كله يتفجر اللوم فينحرف به كثيرون — عفوا أو عسفا —
ليجرف الإمام ، ولا يصيب بتياره أولئك الحقيقيين بأن يغمرهم فيضة من الأقدام
حق الرءوس ، لو أنه ترك لينطلق في مجراه المنطقي السليم . . .

ولا غرو ، فتلك طبيعة الافتراء . ولا تثريب على امرئ أن يجتهد الرأي
فيضل الطريق ، أو يقدر فيخطئ التقدير . ولكن التثريب أن يعلم ويستيقن
ثم يتأى عن الحق ليأخذ على جانب الخطأ ويعمن في عماية السبيل . ثم يدعو
بدعواه . ثم يستدرج غيره إلى الباطل . . ثم يتهم من أصاب .

هذه خطة في الدعوة وفي العمل يقوم أساسها على التويه . ولكنها سهلة
ميسرة لكل ذى مأرب لا تردده النفس أن يدخل إليه من أى باب ، ويحصل
عليه بأى أسلوب . فما الادعاء إلا تقسم . وما التقسم إلا اعتداء بنقض الحقيقة
أو يقطعها أشلاء . فلا حرائج دون وصول ، ولا حوائل دون ظلام . .

ولقد فشت فاشية الادعاء على الإمام عند ذاك فيمن حسبوا عليه أو حسبوا
له من الأعداء أو من الأولياء سواء بسواء ، على تفاوت في الحجم والسك ، وفي
القيمة والنوع ، بقدر التباين بين الغايات . وما كان لها إلا أن تفسد في ذلك
الأوان وتفيض ، لأنها الظاهرة التي تمايش القلق النفسى الناجم عن تمزق المجتمع
بسبب تأزم الأحداث الذى شارك في تكوينه وظهوره تضارب الأفكار ،
وتصارع الأهواء ، واختلاف الأهداف .

ومن الخطأ أن يتبادر إلى الذهن أن معاوية كاف منبع التمزق الاجتماعى

الذى أصيبت به ، في هذه الآونة ، أمة الإسلام ، لأنه خطأ لا يفتح العاهل لحسب ، بل يحمل الحقيقة أيضاً فوق ما تطيق . لكنه كان رافداً دافقاً غذى المحنة وأمدّها بأقوى مقومات النماء والحياة . أما نبعتها فليست بنت يومها ، ولا هي شامية خالصة ، أو عراقية محض ، تنسب إلى ذلك الرجاء أو هذا دون سواهما من الأرجاء . . . وأما أصلها فضارب في أغوار ماضى هذه الدولة الجديدة إلى غير قريب . وأما نشأتها الأولى فمعزوة إلى عوامل عديدة مختلفات ، شاركت كلها في تخليقها بذرة مخصبة . ثم في غرسها بقربة الاستنبات . ثم في تعهدّها بالسقيا . ثم في استوائها على ساقها دوحة ضخمة ، صلبة الجذع ، مشتبكة الفروع ، مزرقة الأفنان .

عوامل شتى — في حساب الإحصاء — هذه التي أصابت المجتمع الإسلامى بمرض التمزق وهو في أوج عزته ، وعارض واحد جميعها في حساب التأثير . إنها لتباعد عهدا ، وتتنوع هيئة ، وتتغاير مواضع ، ولكنها إنما تختلف لتألف ، وتفترق لتتسق ، وتتناثر لتجتمع ، وتعدد لتتوحد . فإذا بها قد عثلت كتلة متماسكة في آفة « النظرة الدنيوية » التي ملأت الأعين ، واخترقت القلوب ، وغزت الأذهان . ولا عجب أن يقع للأمة مثل هذا التبدل السريع . فخلائق الناس أدنى إلى حملهم على التمجيل بهذا التبدل ، لأن طبيعة الإنسان أميل إلى الأخذ بالمحسوسات منها إلى الروحانيات . ولأن كيانه البشرى ليس به غير روح شفاف يحاول وحده ، كالمستبثس ، أن يتعادل في ميزان التزعزعات ، مع نفسه الكثيفة ، وبدنه الصفيق الذى يضم عدة حواس .

النظرة الدنيوية هي التي سيطرت على الناس ، وصيغت بصفتها الصارخة الرغبات والغايات . . فلقد جاءتهم الدنيا في موكب ثرى يبهز العقول . وراودتهم على البذخ والرفاهة . وفاضت لهم بكل ما تهفو إليه الأمانى وتصبو الأحلام حتى ليوشك المرء منهم أن يبلغ قصارى مشتهاه وهو مريح لا يكاد يدرك إليه لاقتطافه بجهد مذكور كأنما الخير غيث منهمر من سماء مدرار ، سحابها لا يقلع ، وماؤها لا يفيض . . النىء كثير . الرزق موفور . . المعانم تقبل عليهم من كل مكان مشته عليه الفتوح بالمال والسبي والرياش . . فبنوا الجزيرة العربية الذين كانوا ،

في الأغلب الأعم ، يعيشون القشف والشظف والفراغ ، يطعمون الحر ، ويكتسبون الوبر ، ويسامرون أنجم السماء ، سغت عليهم الدنيا بلذاتها . من كل طيب وناعم ومشتهى ، فأكلوا طعام كسرى وقيصر ، ولبسوا الحرير والديباج ، وسامروا الوتر والقيان . أفترأهم وقد تذوقوا هذه النعم ، واستطابوها وألقوها ، نابذوها طائعين ، وآخذين أنفسهم من بعد على ما كانوا عليه من تعط الحياة الغليظ الحشن الذي عاشوه في مستهل الإسلام . . .

عند هذا تخور عزائم وتضعف إرادات فالنفس هي النفس ، والإنسان هو الإنسان وكم من خائر وضعيف أمام ملذات الدنيا ، لا تغمض عنها عينه ، ولا تكف يده ، ولا يتعفف هواه وما أحلى لامرئ من متعة تسعد بها أحاسيسه ، ويرضى بدنه . وأن يحقق من رغباته الأرضية قوة باحتياز سطوة ، وبذخا باكتناز ثروة ، ونشوة بإشباع شهوة . . .

وقد استمر أناس هذا الضعف ، كما يستمرى خدر الحجرة أليف الكأس ، لأنه يدغدغ مشاعرهم ، ويدهان غرورهم ، وعلى لهم في نزوعهم إلى الزهو وحب التفوق والاستملاء ، فكان الأشبه الأليق بهم أن يغدوه لا أن يعجلوا بعلاجه أو القضاء عليه فما برؤم منه إلا قع للفرائز لهم لا يطيقونه ، وأحرى بهم ، إن أطاقوه ، أن يجتنبوه ، مادام يأتيهم من طريق رياضة النفس على الحرمان ، وكبحها أن تنعم بما يروونه لذائد شهية لا تحلو لهم بخيرها الحياة وعرف معاوية فيهم هذا الاستمرار فلم يحاول مناهضة الضعف أو مغالبة غلوائه أن تتفاقم . فلا هو خنقه في ذات نفسه بضمير رجل من رواد الإسلام ليكون قدوة للاحتذاء ، ولا هو حاربه في ذوات غيره من الناس بسلطان حاكم مشغول عن تقويم رعاياه إنما أفسح له في الاستفعال ، وخلي بينه وبين الاستشراء لأنه علمه وسيلته الكبرى إلى استجلاب الأعوان — بل استدلالهم لأمره ، واستغلالهم لأغراضه — جندا كثيفا ينصرونه في صراعه لاستجلاب النفوذ . . .

العاقل الأموى عرف طريقه ممهدا إلى تأليب طائفة من الأمة على الإمام ، وفض طائفة أخرى عنه ، والاستزادة لنفسه ، قبل هذا وبعده ، من الأتباع . . .

من خلال المتع والمطامع لهذا الرجل إلى نفوس الكثيرين بما يخيلهم به من كل ما يشبعهم الأهواء من النشب أو النصب أو المال . . . وبسلطان النزوات وغلبتها على الطبيعة البشرية استعبد الجموع ، سادة ومسودين ، وربطهم بركابه ، ثم ساقهم ، أو قادمهم ، إلى حيثما شاء وهو ضامن أن يطيعوه ، لأنه استطاع أن يثمي غرائزهم ، ويربي شهواتهم ، ويغذي كلهم بالظهور ، فلا غرابة — وهذه كلها ربائيه ١ — أن يكون أصحابها أجمعين عضدا له على بلوغ مرماه . . .

لا غرو إذن أن تصبغ « المادة » فرس الرهان المجلاة في ميدان الصراع بين معاوية وبين الإمام ، إذ هي العون الأول لصاحب الشام على الاستكثار من الأنصار ، ما دامت لها القدرة الفائقة على الإغراء والإغواء ، والقوة الأسطورية للجذب والاستمواء . . . وعندما تقاس بها وسائل على في الدعوة لأهدائه ، وكأها جهاد للنفس ، لا تعجب حين نرى كيف تتقدم الأولى ، وتتخلف الثانية عنها أشواط، ومراحل ، في عالم بدأ يسحو إلى الحسيات ، ويدير ظهره للروحانيات . . .

وهين يسير أن يعتذر لرجال معاوية بالشام إذ يقبلون على الدنيا يطلبون المال ، وينشدون الرغد ، ويصبون إلى الترف والرفاهة ، فذاك سبيلهم الذي شقه لهم صاحبهم ، ودفعهم إلى السير فيه . . . ولكنه عسير مستعص أن يعتذر لرجال الإمام بمثل هذا الاعتذار ، لأنه ، دأبا ، قد دعاهم إلى التحرر من ربة المادة ، وسلطان النفس ، مترفعا بهم أن يكونوا كمثل السوائم قصارى مهم من السعى في الأرض لئلا الجوارح ومتممة الأجواف . . .

إنما قد شاء على لأصحابه أن يكونوا — على ما أرادهم الله — خير أمة أخرجت للناس ، تقاتل لتعيا ، وتحيا لتعمل ، وتعمل لتخلد سيرة عطرة على هذه الأرض ، وأنفسا مطمئنة في رضوان الله . . . فالبدن تبع للروح . . . والدنيا سبيل الآخرة ، وكل حسي مادي ما ينبغي أن يكون إلا وسيلة تخدم المبادئ الرفيعة التي تنقي بها القلوب ، وتطهر المشاعر ، وتصفو الأخلاق ، ويعز الإنسان . . .

فإذا كانوا قد استجابوا لغير دعوته فمن صمم . . . أو مشوا على غير دربه فمن عمى وليس عن قصور منه في بث الدعوة ، أو نهاون في التطبيق . . . وعود إلى

حديثه لهم يوم البيعة يلبيه الغافل ويذكر السهو ان ولا يدع لامرئ فيهم ولا من بعدهم مجالا للتعلم أو الاعتذار . .

في بيانه الجامع الذي ألقاه عليهم إذ ذاك ، نشر لهم صحيفته ، موضحا نهجه ، محمدا أسلوب عمله بجلاء . .

قال بعد استهلال :

« إنا أنا رجل منكم ، لى مالكم ، وعلى ما عليكم وإني حاملكم على منهج نبيكم ، ومنفذ فيكم ما أمرت به إن استقمتم فامضوا لما تؤمرون به ، وقفوا عند ما تنهون عنه »

قطريقه إடன் كتاب الله ، وسنة الرسول . أما استقامتهم له ، امثالاً لما يراه ، فهي عندهم وعهدهم حين بايعوه . .

ثم دار في جموعهم ببصره ، يتنقل بينها من يسار ليمين ومن يمين ليسار ، كأنما يحصيهم عدا ليصرم أجمعين في نظره صرة الدنانير والدرهم ، لا تدع فيها واحدا ، ثمينا أو غشا ، إلا احتوته وأطبقت عليه . وعندما استوعبتهم عينه ، رفع صوته يخاطبهم بجرس جلى وقول صريح ، بلا إدغام أو إبهام ، وبغير مواربة أو تلميح ، لكيلا تكون لأحدهم حجة عليه من بعد ، أو يخوض في عباراته ومعانيه بما لا تطيق من تحميل وتأويل :

قال :

« ألا يقولان رجال منكم غدا — قد غمرتهم الدنيا ، فاتخذوا العقار وفجروا الأنهار ، وركبوا الخيول الفارهة ، واتخذوا الوصائف الروقة فصار ذلك عليهم عارا وشنارا — إذا ما منعتم ما كانوا يخوضون فيه ، وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون : حرمتنا ابن أبي طالب حقوقنا »

أفهر بلاغ ؟ . .

بل بلاغ ونذير بيان أبلج كالنور . ورأى قاطع كالسيف . ونهج مستقيم كالصراط . كلها تعلن على الأشهاد أن ذلك الثراء الفاحش الذي احتازته

طائفة منهم ، فيما خلا من الأعوام ، بغير موجب ، من بيت المال ، قد حانت الآن ساعة الفصل — حقا وعدلا — لرده إلى نبيه الأصيل . وأن ذلك التفاوت بين الناس في قسم المال ، بهذه الحجة أو تلك ، لم يعد له بعد يومهم وجود في مجتمعهم الجديد . ولو كان ما أخذوه ، أو يأخذونه ، منحة صلة لرحم . ولو كان عطية سخية ثمننا لجهاد . . . ولو كان فيثا ضوعف مرة أو مرات لقاء سابقة صحيحة ، وسابقة إيمان ولو كان أيضا في حوزة رجال رفعهم الشرف ، أو قدمتهم الأنساب على من عداهم من الجمهور . فالمال مال الله . والأمة كافة في قسمه سواء . وما سنده الرسول من التسوية فيه بين الجميع لاناقض له ، ولا نرخص فيه بزيادة أو نقصان ، لأى إنسان ، ما بلغ به شأنه من شأو القوة ، أو كرم العرق ، أو عز السلطان . . .

وأردف الإمام :

« ... ألا وأيعا رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله ، يرى أن الفضل له على من سواه لصحبته ، فإن الفضل النير غدا عند الله ، وثوابه وأجره على الله . . . وأيعا رجل استجاب لله وللرسول ، فصدق ملتنا ، ودخل في ديننا ، واستقبل قبلتنا ، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده . . . »

لا إيهام . . .

فلقد جمعهم الإسلام بكلمته وكانوا قبله كقطيع ضال . ألف بين شاردهم وواردهم ، أحمرهم وأسودهم ، كتلة واحدة على تماسك واتساق . وجه منهم القلوب والخواطر ، والجوارح والشاعر ، وسدد الخطا إلى طريق الله ، والجهود إلى العمل في الله . جذبتهم رسالته السماوية الكريمة جيشا قاهرا لغزو النفوس الغلف ، وفتح العقول المستغلقة ، لتكشف عنها غواشي الضلال . دفعت بهم أفيض نور لمحتك الظلام الذى أغرق الدنيا في دياجيرها ، ووضع حجابا كثيفا فصل الآدمي عن إنسانيته ، وأخفى عن البشر حقيقة الحياة . . .

مهمة جليلة تهون أمامها الجلائل العظام ، وتتضاءل كبار اللهام . . . فهي بمثابة جديد . . . لأن الصدوع والشيوخ ، ورتق الخروق والفتوق التي أحدثها في وحدة البشر صراع الطائفيات والمصيبات الممثلة للون والجنس سببا إلى السيطرة (الإمام ج ٨)

وإحباطاً لهم الاستغلال . بناء عالم قاضى على أنقاض ذلك العالم المتداعى الذى أفسدته عبادة الذات واستذلته الشهوات . إعادة الحياة إلى « الضمير الإنسانى » الذى مات . . .

لأولئك الذين كانوا يعيشون ظاهر الحياة جاءت رسالة السماء لتنتشلهم من وهدة السقوط . وإليهم انطلقت قوى الاسلام مجاهدة فى الله ، داعية إلى الله ، ابتغاء رضوان الله ليس ابتغاء عرض دنيوى من سلطة أو سمعة أو ثراء . فالأمر واحد هو الرسالة . والجيش واحد هو المسلمون . والعمل واحد هو الجهاد . والمهدف واحد هو الهداية . ولا تباين قط بينهم فيما كلفوه ووجب عليهم بلوغه بهذا التكليف ؛ لأن التبعة هنا جماعية لا تتجزأ ، أما كأنهم آلة تعمل بكل أجزائها من دقة وغليظة ، معا وطى اتساق ووافق ، ولا سبيل إذن للمفارقة بينهم فى الجزاء بأى حال . .

هذه هى نظرة الامام للناس وللمال ، قضى بها حين قال :

« ... أنتم عباد الله ، والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية ، لا فضل فيه لأحد على أحد ، والمتقين عند الله غدا أحسن الجزاء وأفضل الثواب . فلم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثواباً ... »

وصدق فيما قال . صدق ربه . وصدق رسوله . وصدق أمته بهذه النظرة الواعية التى تطابق الحق ، وتؤكد العدل ، وتتفق ومنطق الواقع الحى الذى كانت تعيشه الدولة فى ظروف الجهاد الفشر كلمة الله . بل قد امتثل عندئذ سنة الطبيعة وقانونها الذى يحكم الانسانية ليجعل منها وحدة ملتزمة ، ويجعل أهلها إخوة على عمائل واستواء . .

ثم صدق قوله فمله ، وهو يختم فيدعوهم إلى لقاء :

« ... إذا كان غدا إن شاء الله ، فاغدوا علينا . فإن عندنا مالا تقسمه فيكم . فلا يتخلفن أحد منكم ، عربى ولا عجمى كان من أهل العطاء أو لم يكن إلا حضر ، إذا كان مسلماً حراً ... »

مساواة كاملة فى مال الله ، بلا مفاضلة ، ولا تمييز ، وإن تفاوتت المنازل ، واختلفت الأجناس ، لأنهم كافة فى الحق سواء .

الفصل الرابع

هل هو تغيير ؟ . .

أم هو نقلة بنظام الحكم ، وسياسة الأمور ، من أسلوب إلى أسلوب ؟ . .
 أم هو ثورة شاملة على المؤلف في المجتمع الاسلامي ابتغاء إعادة بنيانه من جديد ؟ . .

أشبه بهذا وهذه وتلك من الاتجاهات وما قد يجد غيرها من قروض ، أو يلوح وراءها من أهداف ، ما تضمنه حديث على ، يوم البيعة الصاحب إلى الناس ، حين نستقبله على ظاهر عبارته ، في إطار الكلمات المحدود . ولكنه أيضا أبعد كل البعد عن هذا المنحى حين تتعمق معانيه . فغير الإمام ، بلا ريب ، من يفكر مثل هذا التفكير . ومن يهدف بالقول والعمل إلى النقلة أو الثورة أو التغيير ، لأنها ، مجتمعة أو فرادى ، تعنى هدمًا — شاملًا أو جزئيًا — للنظام المقرر ، يدك بنيانه ، ويقوض أركانه إن لم يبحثه من الأساس . .

خطاب أمير المؤمنين عقب ولايته — أو بلغة اليوم : بيان الحكومة ا — الذى ألقاه ، تظن النظرة العابرة أنه يعان عن سياسة مغايرة تهم أن تقلب الأوضاع . فإذا أخذ على روية ، وأمن الفكر فيه ، بدت حقيقته خطة لتغيير التغيير ، وتبديل التبديل ، وتعديل الانحراف الذى سدر فيه الناس — عن قصور الادراك أو خطأ التطبيق — بخروجهم على النظام الأصيل . .

ولا جدال . فلا شبهة فيما قال . ولا سبيل لتأويل على وجه من وجوه الاحتمال . لأن نقض النظم التى تعيشها المجتمعات أو تناول بعض جوانبها بالتعديل يستوجب — حتمًا — تغييرًا لها وإلغاءً هناك فى قوانينها التى تحكم السلوك . وليس هذا ، بطبيعة الحال ، مبتغى الإمام . ولا هو ممكن أن يحول فى بابه . بل هو الحال الذى ليس مثله محال ، لأن القوانين آنذاك لم تكن سوى القرآن . .
 إنما أراد الإمام — بداهة وحقا — أن يكف الانحراف ويعود بشعبه إلى

ما كان عليه من إلزام دستور الله الذي نزل فيهم كتاباً بينا من القوانين والأحكام سارت الأمة في نوره وراء الرسول إبان حياته ، خلفت قلة قليلة بعده من رواد الإيمان زمناً قصيراً لا يكاد يحسب شيئاً في عمر الدول والشعوب . . ثم تفرقت بالمسلمين السبل ، يوماً يوماً ، ومرحلة مرحلة من الامتثال ، إلى الاجتهاد ، إلى التأويل ، إلى التحميل ، إلى التبديل . .

فكان الانكسار . .

وتلك خدعة التحول . إنها لتسير بالأمور والناس ، رويداً رويداً ، بخطا وثيدة لا يكاد يسمع لها دبيب فإذا هم ، عن غير شعور ، يبدلون نظرة بنظرة ، وأسلوباً بأسلوب ، وعملاً بعمل ، وحياة بحياة . . وإذا هم — ساهين — ينتقلون من نقىض لنقىض

وإذا كان الحديث المستفيض الجامع ، الذي واجه به الإمام القوم يوم البيعة ، قد أوماً بمض إيعاء إلى ما غير الحال والنفوس وشدها إلى الوراء ، فإنه قد أفصح كل الإفصاح وهو يصف لهم ما يراه — في حبيبانه — علاجاً ناجماً لهذا التغيير الذي أفسد عليهم دنيا الإنسان الفاضل ، وبث فيها عوامل التقهقر والانحلال . .

وتتكشف للمرء عناصر الدواء الموصوف ، فيقع فيها على ألوان عدة ، تبرىء الفكر ، وتشفي القلب ، وتحيي الروح ، ثم تنشل المجتمع من كبوته قبل أن يتردى في وهدة السقوط ، وتقيم صلبه قوياً شامخاً من جديد إذا ما ترجعت إلى سلوك ممثّل وعمل جاد ، بالوعى المصقول ، والارادة الحاسمة ، والتطبيق الرشيد . .

فما هو العلاج ؟ . .

تناثراً عن تفصيل ما يغنى فيه الإجمال ، واكتفاء بصفة الشامل عن تحليل المشمول ، نكاد نرى كلمة « عدالة » هي المنقوشة على بطاقة الدواء :

عدالة لكل الناس من كل الناس . .

عدالة سهلة ميسرة ، لا تشق على إنسان . معلومة مفهومة ، لا تغمض على

إنسان . شاملة عامة ، لا يحرم منها إنسان . . قاصدة بغير تقصير . ممتعة بغير مغالاة . نسبية بغير إطلاق . . تعيش في الممكن المتاح ، في حدود طاقات البشر ، وفي إطار قدرات التنفيذ ، وفي نطاق التغير المستمر للظروف والأفكار . . واقعية تعرف أحبار قانون الله ، وتدرك طبيعة البشر ، وترتبط بالزمان والمكان . لا تقف حيث تكون فتجمد وتموت . ولا تعدو مع الخيال فتدور في فراغ . ولا تجمع إلى الكمال فتصعد عن الدنيا إلى عالم بلا أناس ، لأن الكمال على الأرض وفي البشر محال .

إنها العدالة الدنيوية التي لا تبغ الكمال ، ولكنها تنسم بالشمول ، ولا تطابق المعنى الأمثل ، ولكنها توافق المفهوم العام .

تلك طلبية الإمام . وهي خلاصة بيانه الذي ألقاه يوم السبت ، لإحدى عشرة ليلة بقين من ذي الحجة عام ولايته إمرة للمسلمين . . وهي أيضاً خلاصة الدروس المستفادة من التجربة الإنسانية العظيمة التي اجتازها مجتمعه في السنين القلائل الماضية منذ غاب رسول الله عن الميرون والأسماع إلى الآن . . حين يتمقب المرء حركة السلوك العام والسلوك الخاص ، لا يفوته أن يتبين كيف يميل خط الانحراف في كليهما إلى الانحدار هبوطاً نحو نقطة الصفر ، أو علامة البداية ، والمجتمع الإسلامي متمسك بالعدالة كتنهاج فسكر ، وخطة عمل ، وأسلوب حياة . وكيف يأخذ هذا الحظ في الصعود — انسياً أو طهراً — نحو أخرج آماده وأخطر ذراه ، كلما تراخى حرص المجتمع على استبقاء هذه العدالة نابضة فعالة ، وأفلتها يده . .

ومع ما هو ظاهر ، للوهلة الأولى ، من سهولة هذه الطلبة وقربها للتناول ، فليس إلى تحقيقها من سبيل إن هي لم تنفذ بدءاً ، إلى وجدان الإنسان . وليست هي بنافذة إن هو لم يحس عدالة عليا ، فوقها وفوقه تراها نحن عدالة الله . . ولا عجب . فالعدالة الإلهية ، بما لها من سمو وإحاطة وسلطان ، قيس علوى يضئ للبشر طريقهم إلى العدالة الدنيوية المنشودة . . ويد هاديه تنزعهم من كهوف الظلم ومغاور الإحجاف لتضع قلوبهم على أول الطريق المضيء . . وورقيب عتيد يلحظ سيرهم ، ويتابع خطاهم أن تتعرف وتعمل . .

فمن المسلمات البديهية أنه بالإيمان — وليس بالعلم وحده — يأخذ الشعور بالعدالة الإلهية مساره إلى النفوس . . فلقد يجهل المرء أمرا فلا يؤمن به . ولقد يعلمه كذلك ثم لا يصل علمه — عنتا أو زيفا — إلى الإيمان به أو قد يعتقد أنه على شك ودخل لاختلاط معرفته إياه بغيرها من حصيلة معارفه الأخرى عن سواء من معنويات وماديات فأما أن يحسه فإنه يشربه ويستوعبه . وأن يستوعبه فإنه يختلط بكيانه فيصبح بضمة منه ، يعيه وعيا روحيا — يملو على الوعي العقلى — لا يفتر وجهه ، ويطنى بأثره على كل مدركاته عدا . .

هكذا هي عدالة الله . أفيض نور تطل من سماء الشعور على البشر ، وتحقق في هذه الحياة كومض السراج . تضيء قلوبهم لتهديهم السبيل . وتحلق فوقهم بحبطة بهم كحارس لا ينام . وتكشف سلوكهم كالأشعة الثاقبة فلا يخفى عنها ظاهر باد ولا باطن خبيء . . فإذا نصب الميزان ، قومت كل بادرة لهم : فعلا وقولا ونية ، قيمتها الحققة ، ووزنت بقسطاس دقيق سليم ، لا يحل ولا يخطيء ، فلا يخسر لهذا ولا يستوفى لذاك ، لأنهم أجمعين يستوون عند ربهم في الحساب . . ومع ذلك فإن الجزاء الذى ترتبه العدالة الإلهية لأى إنسان على الوفاء بالأداء ، يظل سرا مكنونا فى علم الله ، لا ينجاب عنه الحجاب تفصيلا للناس فى حياتهم الأولى ، ويمعز الإدراك البشرى القاصر عن أن يعرف نوعه أو يلم بعداه . .

ولا مرأ . . فالعدالة الربانية أوفى وأرحم من أن نجمل هذا الأداء وحده أساس قياس كنه العمل وقيمته ، ومعيار مشوبة أو عقوبة عليه ، لأن الله سبحانه محيط بعالم يحيط به البشر علما من الأسرار السكونية ، والأسباب والمسببات الظاهرة والخفية ، والمؤثرات المرئية وغير المرئية التى تتحكم عادة فى سلوك الإنسان . ولأن عدله تعالى رهن بعشيقته ، قرين برحمته فيقدر جل تقديره ويعاقب إن شاء ، ويقدر ويعفو إن شاء . .

بين طرفي هذه العدالة العليا يسبح الإنسان ، على رؤاه الوجدانية ، فى عالم فسيح من العواطف والانفعالات . فإذا هو يقع ، فى هذه الرحلة الطويلة ، على صور شتى من مدركات نفسية وذهنية ينطبع منها على صفحة إحساسه حسبا

تكون طاقة هذا الإحساس مهياة للتلقى والاستقبال . . هو آنا يرى بشعوره .
وهو آنا يرى بعقله . ولكنه في الحالتين يستيقن وجود الصور المدركة ، فيؤمن
بها ، عن وعى روحى أو وعى عقلى . وإن اختلفت وسيلتا الاستيقان ، وتفاوتتا
في مقدار الايمان . وإن أنكرت إحداها على أخراها ماتراه أو وافقتها عليه .

أما الوعى الروحى فيروعه من العدالة الالهية ذلك الطرف المجهول ، المستر
بغيب الله عن علم الناس ، المتعلق بعشيئته التى قد تمسك عنهم رحمته ، أو تفسح
لهم فيها ، فتملاً هذه الروعة الإنسان خشية وأملاً ، هية لحساب الله ، وارتجاء
لغفرانه . .

وأما الوعى العقلى فيمضى على الطرف الآخر المعلوم ، الذى يبين الحدود ،
ويوضح النواهي والأوامر ، ويرتب الجزاء نتيجة حتمية لكنه العمل وقيمة
الأداء ، فيدرك الإنسان كيف يسير ، وإلى أين ينتهى به سلوكه الاختيارى ،
عند الحساب ، في درجات الثواب أو دركات العقاب . .

رحلة طويلة للنفس البشرية في عدالة الله . . طويلة طويلة على مدى العمر
وامتداد الدهور . تتراوح فيها خطا ملكات الانسان وقدراته الإرادية والعاطفية
المكتسبة والفطرية ، بين جانبي هذه العدالة العليا : طرفها الحكى اللازم ،
الذى يضع حكماً لكل عمل ، وجزاء لكل أداء . وطرفها المشيئى الراحم ، الذى
يفسح في العفو ، ويرفع المغفرة فوق القصاص .

على هذه المسافة الشعورية من الراوحة بين المعلوم والمجهول ، القضاء
المحسوب المسطور والقضاء المرتجى المستور ، ينشط الضمير الانسانى ، بالعقل
وبالروح ، إلى التزام هذه العدالة المثلى ، أو محاكاتها باستلهاها أصولاً وقواعد
للمعمل والحساب والجزاء ، ترسم المنهج ، وتنظم السلوك ، وتحدد الروادع
والثواب ، فإذا هو ، بالالتزام الممكن والمحاكاة المقاربة ، في ظل عدالة جديدة .
ديوية الصيغة . كفيلة — فيما يراه — باطراد سير الحياة في مجتمعه رضية رحية ،
وبالتشام العلاقات بين كافة أفرادها على غير اضطراب .

ولقد حاول الامام في بيانه أن يظهر قومه على عطف العدالة الديوية المنشود

حتما بين شعور المرء بذاته وبين الطغيان على شعوره بمن حوله من أفراد ، فيجيب في أنانيته كيفما أراد . أو سيفضيان بالفرد إلى اهتزاز إيمانه بمجتمع حين يرى أجماع ذلك المجتمع به . وانحياز به عن إنصافه بمالأة لسواه ، فيضعف إحساسه بالانتماء إليه ، وتفتقر رغبته للعمل له . . ولا قيمة هنا تكاد تذكر للإنصاف المادى المتمثل في تزويد المرء بالطعام والشراب والكساء ، وما إليها من أشباه ، لأن حياة البشر على الأرض ، بمعناها الحق ، وجود حضارى ، وليس وجودا بهيميا قصارا تأمين مثل تلك المقومات . ولأن المناخ الملائم لمعيشة الإنسان ليس وحده ذلك الذى تتوفر له فيه مطالب الأبدان من محسوسات إن تكن تكفى الحيوان الأعجم الذى تسيره القريرة ، فما هى بكافية أبدا لمعيشة البشر ككائنات ذوات إدراك ، للمعنويات وخفقات القلب وخطرات الفكر والاتفعالات النفسية سلطانها المهيمن على كل ما يصدر عن منه من سلوك . .

لهذين الجانبين المتقابلين للعدالة الدنيوية الممكنة ، عرض أمير المؤمنين ، فى خطاب الاستهلال ، عرض خبير يتعمق الأوضاع كما يستكنه النفوس ، ويستخير الوقائع كما يستنبىء التوقعات . فإذا هو لا يغفل الإشارة إلى مقومات الاتزان للضمير الإنسانى ليكون سويا فى نطاق طاقة الإنسان . لا ينكر ذات صاحبه ولا ينكر أيضا ذرات سواه . ويحس بغيره كما يحس بنفسه . فيعمل ، بقيادة هذا الاحساس المتبادل ، للناس قرادى وللناس كجموع . وإذا هو يعنى فى خطابه على بصيرة من هذا المنطلق بين الأثرة والإيثار ، الأخذ والعطاء ، الذاتية والغيرية يضع القواعد الأولية لنهجه : قسمة عادلة بين شطرى طبيعة الناس الحيوية بما يمثلان من مطالب الأجساد ومشاعر النفوس ، وبين شطرى طبيعة حياتهم الحضارية بما يمثلان من فردية وجماعية . فما كان — إذ فعل — إلا كاشفا عن أسلم الأسس وأقومها لقيادة الأفراد والشعوب . وسابقا للنظرة الحديثة إلى العدالة الاجتماعية التى تخدم الفرد ، وإلى العدالة السياسية التى تدير الدولة ولم يحط بأيهما الفكر الإنسانى المعاصر إلا بعد ظهورها فى الإسلام بقرون عديدة مضت بالناس فى نزاع مذهبي بين الفلسفات والعقائد الفكرية ، وفى صراع دموى بين قوى الطغيان التى حاربت للجمود وقرى التحرير التى ناضلت للتغيير .

ففي مجال العدالة الاجتماعية — بفهوم الاصطلاح المعاصر — التي تخدم الأفراد وترعاهم رعاية أناسي لا رعاية سوائهم ، نظر إلى حياة الفرد كنواة لحياة الجماعة ، وإلى الأسرة كبيئة عضوية جوارحها الجماعات . وخلص من نظريته إلى وجوب جمع القوى كلها على اتساق وتلاؤم ضمانا لصحة الجسم العام فوحد الإنسان . وما كان له إلا أن يأخذ بهذا التوحيد إذ هو رأى الاسلام وأحد مبادئه الرئيسية الذي يجمع الناس كلهم في واحد ، ويراهم كافة سواء وإن اختلفوا عنصرا بين عرب وعجم ، وجاها بين خاصة وعامة ، وحسبا بين فقراء وثراء ، ولونا بين سود وبيض . فالتشأ الذي خرجوا منه أجمعين واحد . والأصل الذي تفرعوا عنه واحد . وأسس الخلق ومراحل التكوين — من عناصر المواد الأولية التي تتركب منها الأجسام ، إلى النطف والعلق والمضغ ، إلى خلايا البنية ، إلى أجهزة الحركة والسكون ، ومراكز الحس ، ووظائف الأعضاء ومعالمها الظاهرة والتشريحية — توحد بينهم على غير تباين ، إلى جوار الحقيقة الكبرى التي تؤكد هذه الوحدة وهي انتسابهم بالعبودية لله :

« أتم عباد الله . . »

ولا مدعاة هنا للتساؤل : أهذه عدالة أم هي مساواة إذا وزنا الألفاظ بعيزان الدلالات ، وطابقنا الصفات على المسميات . لا مدعاة لأن الحدود الفاصلة بين معاني المجردات الفاضلة كهذه وتلك وأشباههما من حق وخير وحرية ، تسكاد تشف حق لتدوب ونحفي عن التمييز .

فالحرية — كثال — تنقل إلى الأذهان مدلول الانطلاق . والانطلاق لا يعرف التضييق ، لأنه شمول يستوعب كل مشمول بغير تفرقة ولا تخصيص . فهي إذن على وجه من الوجوه مساواة . .

والمساواة أيضا سمة للكل ، وتوازن بينهم . تمنح هذا كما تمنح ذلك ، وتمنعه كما تمنعه ، فهي قوام بين العطاء والأخذ أو تكافؤ تام في الحقوق وفي الواجبات . فهي إذن عدالة ليس من طبيعتها الإحباط . .

وكذلك الأمر في الحق ، والخير ، والأمانة ، والصدق والوفاء وغيرها من

فضليات المجردات ، تختلف في مظاهر القوالب . ولكنها تنطوى على نفس المضمون إذا ما أخذنا بمعناها العام . .

على أنها جميعا — إن هي ظلت حبيسة في أسوار التجريد — لن تعدو أن تكون صورا ذهنية جميلة ، قصاراها مخيلة الناس بهريق مستعار لا يشمه جوهرها ، بل تضيفه عليها رؤى الأخيلة وجوامع الأفكار كما تضيف الشمس لمعتها على ما يسبح في شعاعها من ذرات الغبار . . إنها خليقة ، عندئذ ، بأن نهيم في عوالم الوهم ودنى الفراغ ، بغير قرار ، وإلى غير غاية ، خفيفة بل ثقل ، هشة بلا تأثير في واقع الحياة . فأما أن نمارس دورها ، ونعيش دلالتها فذاك رهن بأن تجد لها بيئة صالحة يتيح لها الحركة والانطلاق ، ونطاقا معلوما تفشط فيه ، له أبعاد وأحياز ، بداية ونهاية ، معالم وحدود تماما كالماء الصافي الذي لا يرى ، ولا تدرك له هيئة إلا بلون الإناء وشكله الذي يوضع فيه . .

وأنسب نطاق ، كنهج ملائم لهذه المجردات ، يسع مدلولاتها أن تعمل فيه ، ونعصى أشواطها إلى غايتها على هدى وبينة ، هو ذلك الذي رسمها لها من هو أعلم بكنهها ، أعرف بوظائفها ، أقدر على توجيهها لخدمة الحياة . .

وهل أعلم وأعرف وأقدر من الله ؟ . .

وهل أوضح نهجا ، وأنسب نطاقا من القرآن لتطبيقها في دنيا الانسان ؟ . .

لئن يكن العدل — كبدأ — لا يمكن أن يقوم في الأذهان إلا على أساس افتراض وحدة البشر ، فإن تجسيده — كواقع — لا يمكن أن يكون في الحياة إلا بتحقيق وحدة القانون . . فكنتا الوجدتين لازمتان ضمنا للشمول والعموم ومنعاً للتعريف والطغيان . وكلتاها متلازمتان متكاملتان لأن الفكرة — أية فكرة تعيش في العقول — لا مناص من بقائها كلمة جوفاء بغير أثر في حياة البشر ، كل همها أن تحوم في الاخيلة ، وتغيطها الأحلام ، ما لم تعرف الطريق ، من خلال التطبيق ، إلى عالم السلوك . .

وحدة إنسان يجتمع فيها كافة أبناء البشرية : عنصرها ولونها ولغة ومنزلة ، بغير تفاوت يحكم طبيعتهم الحيوية ، ووحدة قانون يحسبون إليه عامة ، ويعملون

في حدوده ، يحكم طبيعتهم الحضارية ، ها قوام العائلة والتقدير ، وميزان المعادلة الذي لا يظلم ولا يجور .

وها هو الميزان ، يبيته الإمام :

« . . . إني حاملكم على منهاج نبيكم ، ومنفذ فيكم ما أمرت به . . »

فليس أحكم شريعة ، وأقوم جادة ، وأعدل في معاملة الأعمال والأقوال ، فضلا عن النوايا ، من كتاب الله كما طبقة وبين تعاليمه الرسول ، لا كما ترتأى فيه النظرات الخاصة ، وتذهب به شطحات التأويل . .

وليس سبيل ، مع هذا التحديد الدقيق للمنهاج اللازم للفروض ، إلى الترخص في أحكامه ، أو تناول أصوله ومبادئه ، جزئيا أو كليا ، بالتعديل . . فهو ثابت لا يقبل التغير ، كامل لا يخضع للتجزئة ، باق لا يعرف الفناء ، لأنه خالد آبد كبقاء الله . . وهو قائم دائم على سطح هذا الكوكب الإنساني قيام حياة النوع البشرى عليه ، ودوام الحقيقة الناطقة بوحدة الإنسان . .

وإذا نحن أمعنا النظر في خصائص القرآن ومقوماته كقانون ، تكشف لنا أنه يتفرد ، دون غيره من القوانين ، براوفاة قوة تساند سلطانه على مجتمعه لم يتوفر مثلها قبله لشريعة سواء ، ولا هي بعده بمتوفرة لكل ما عداها مما عسى أن يجد من شرائع وضعية قد يستحدثها فكر الإنسان في أى مكان إلى آخر الزمان .

فالمفترض بداهة في القوانين الوضعية أن تجيء صدى لرغبات المجتمعات التي سنت لها ، محقة لأمن أهلها ، كافلة لمنافعهم ثم لا يسعها — مع هذا الافتراض — أن تبلغ الغاية المرجوة التي يرتقبها الجميع لأنها ، في حقيقة الحال ، إنما صدرت عن طائفة منهم بيدها النفوذ لا يؤمن تأثرها بنظراتها الخاصة وأغراضها الذاتية عند وضع التشريع . . والمؤكد أيضا أن أى مجتمع إنما يعارس — من خلال قانونه — حقوق سيادته على كل من فيه ، وهم طائعون أو وهم كارهون ، لا على أساس ارتضاؤهم هذا القانون ، بل بمجرد ارتباطهم بالحياة في نطاق المجتمع ، وانتمائهم إليه ، لأن الانتماء يستوجب الولاء ، والولاء يقضى بالاذعان للأمر الواقع والتسليم به تسليما لا رجعة فيه . والمعلوم بعد هذا أن يظل أبناء المجتمع راضخين

— ولا نقول مرتضين — للقانون المسنون ، الذي يحتم عليهم أجمعين الأخذ بنصوصه ، ائتمارا بأوامره وانتهاء عند نواهيهِ وإن اكتشفها هنا تجييف ، أو اعتورها هناك قصور ، إلا أن يسع فئة منهم أن تستحدث تغييرا فيه ثم لا يسلم هذا التغيير من مآلئها إذ هي صاحبة النفوذ الجديد . . .

أما القرآن كقانون ، فليس كهذه التشريعات الوضعية ، لا بطبيعته وصدقاته ، ولا بأصوله واتجاهاته ، لأنه يختلف عنها أساسا ونشأة إلى حيث لا شبه . كما يختلف عمقا وإحاطة إلى حيث لا التقاء .. فهو يجمع الإنسان في وعائه ولا يفرقه شراذم وأجناسا وقوميات بحسب البيئات أو المجتمعات . ويجمع الزمان وحدة ولا يقسمه بين قديم بال ، وحديث حاضر ، وقابل نزاع إلى الانطلاق والتغيير . ويجمع للسكان مقاما واحدا للبشر . في هذه الأرض أيما انطلقوا منها في سهلها أو حزنها ، جذبها أو يانمها ، ولا يوزعها عليهم أوطانا مختلفة تفصل بينها خطوط الحدود .

والسلطة التي قدمت للناس القرآن قانوناً ينظم حياتهم كخير ما يكون التنظيم
سلطة لا يخفى اقتدارها وعدلها عن البشر — على تباين طبائعهم ، وتعارض
نظراتهم ، واختلاف منازلهم في مدارج الادراك — لأنهم يعرفونها بوحى الفطرة
أو ببدائنه العقول ، أو بخفقات الإيمان . .

إنها سلطة لا تسعى إلى تلمس النفع لنفسها من خلال نصوص هذا القانون
استزادة في أسباب القوة ، ومقومات النفوذ ، إذ هي ، بطبيعتها ، قادرة إلى غير
نهاية ، وفوق كل السلطات والشيثات . لها وحدها الخلق والأمر . تلك
وحدها النفع والضرر تصنع وحدها البدايات والمصائر بغير منازع ولا شريك .
فلا حاجة إذن بها إلى استغلال البشر ، أو فئة منهم ، لأنها غنية عنهم كافة وهم
إليها الفقراء . وهي بهذا « محايدة » بكل ما يعنى مدلول هذه اللفظة الحديث ،
فلا وجه إذن لآن تعالى — في قانونها — فرداً على فرد ، أو تنحاز إلى فريق
دون فريق . . . وهي تشرف بحلالها ، من عليها قدرتها ، على الكون ، محيطه
بكل ما يدور في عوالمه ودنائه ، ومنها عالم البشر بما يوجب فيه من نزاع على البقاء ،
وما يعتمد في نفوس أبنائه من رغبات ، أو يغير في حياتهم من مؤثرات ترى
ما يرنون إليه بالميون والآمال وتلم بما يرومون اجتناؤه من فوائد ، وما

يرتجون اجتنابه من أضرار . عارفة ما يعرفون وما يجهلون . مدركة ما يدركون وما لا يدركون . فهي إذن أعلم بما يؤدي إلى استقامة أمورهم وصلاح دنياهم : مناهج العمل كيف ترسم ، وعدالة القضاء كيف تحكم ، ومعالم السلوك وأمناليه إلى أين تقود . أيها أقوم جادة ، وخير عقي ، وأولى بالاتباع ..

وينفرد صدور القرآن — كقانون — بظاهرة فذة عايشته لم تعايش قانونا قبله ، ولا نظما افترنت بعده ، إلى اليوم ، بصدور شريعة وضعية نفس الاقتران .. فلم تجزه السلطة المصدرة على الناس بمجرد إعلانها عنه . ولم تسر عليهم بنصوصه وأحكامه سريان إلزام من خلال الإذعان . بل الواقع للشهود أنه لم يمارس حقوق سيادته على أبناء مجتمعه بأسلوب الفرض الجبري الذي تتبعه القوانين جميعا في مختلفات المجتمعات ، عن طريق التبعية والالتواء . وإعما سرى عليهم سريان اختيار عن طريق التدليل والإقناع ..

فالثابت الذي لا اختلاف فيه ، أن القرآن قد عرض نفسه على ملأ الناس عرض تفهم ونظر ولم يفرضها فرض أمر وإملاء . . تقدم إليهم بنهجه مجملا في « الوحدانية » مبدا عاما تتفرع عنه كافة قواعده التشريعية التي تحدد الصلات بين الله والناس ، وبين الناس والناس فمن آمن بهذا المبدأ فقد دخل الاسلام . ومن دخل الاسلام فقد انتمى لمجتمعه . ومن انتمى لمجتمعه فقد قبل راضيا قانونه المنبثق من كلمة التوحيد .

ولا حاجة بنا لتعليل الوحدانية ليتبين لنا أنها ، حقا ، أساس كل أصل تشريعي في الاسلام ، لأن عبارة : « لا إله إلا الله » تغني عن هذا التعليل ، ولا تفتح السبيل للمكابرة والجدال . فهي قد نفت كل ربوبية إلا ربوبية الله ، ومحت كل قدرة إلا قدرته سبحانه ، وكل مشيئة إلا مشيئته ، وكل سلطة إلا سلطانه . . وهي بهذا قد جمعت البشر في العبودية لله وحده ، وأمنتهم أن تعنو وجوههم لغير وجهه ، فحررت العقل الإنساني من الخوف والخرافة . حررت أن يخشى الناس أمثالهم من الناس وإنهم لجميعهم سواء في المعجز أمام سطوة خالقهم ، في خوف عقابه ، وفي ارتجاء رضوانه ، فأهدرت بهذا عبودية الإنسان للإنسان . وحررت من تحكم الخرافة الذي كان يدفعهم إلى عبادة

الظواهر السكونية أو الأوثان والأصنام ، أو الأبطال ممن سلف من الآل أو من الملوك والأقيال ، فقضت بهذا على ذلة العقول للأوهام .

من خلال مبدئه العام : وهو كلمة « التوحيد » عرض القانون القرآني على الناس ، لو شاءوا قبلوه ، أو شاءوا رفضوه . . فهو هكذا أول قانون في التاريخ — إيماناً بوظيفة العقل ، وقداسة الرأي الحر — يضع نفسه تحت نظرة الاختيار ، ويخضعها طواعية لاستفتاء ، عام ، قبل ممارسة حقوق سيادته الشرعية على المجتمع الذي يعيش فيه . .

هذه هي حال القرآن ، كقانون ، في نظرة الفكر « المحايد » الذي لا يظلم ولا يميل ، وفي رأى الواقع التاريخي الذي تؤيده الأسناد . . كاملاً من كامل ، عادلاً من عادل ، مائداً على أبناء مجتمعه — دون بقية قوانين العالم ، قديمها وحديثها — بحق الارتضاء لا بحكم الاتناء . . فلقد كانت كلمة التوحيد ، ممثلة في عبارة : « لا إله إلا الله » — يعلمها ، بينه وبين نفسه ، من استنار قلبه للإيمان ، ومن اهتدى عقله للحقيقة ، أو يبايع عليها رسول الله — هي جواز مروره إلى المجتمع الإسلامي ، مسلماً كغيره من أفراد . . ووثيقة اعترافه الاختياري بالقرآن ، قانوناً يلزمه ، لأنه اعترف بمبدئه العام . والوسيلة ، على الأثر ، إلى كفالة ماله من حقوق ، واستيفائه ما عليه من واجبات ، تفصح له عنها نصوص هذا التشريع السماوي ، وتضع للمسلمين منها على قاعدة سواء . .

ويتكلم الإمام ، في خطاب إمرته ، عن هذه المساواة الشاملة في الحقوق والواجبات ، فيظهر العدل الاجتماعي — أمنية البشرية إلى اليوم — كيف يكون وكيف هو ، عاماً كاملاً ، في الإسلام ، يحقق تماسك المجتمع ، ووحدة الناس ، لولا أن أنسيه الغافلون الغفلة . .

يقول :

« . . . أيعا رجل استجاب لله والرسول ، فصدق ملتناً ، ودخل في ديننا ، واستقبل قبلتنا ، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده . . » .

ويستطرد من بعد ، في حديثه ، فيكشف عن ركن هام لهذا العدل

(الإمام — ٨٤)

الاجتماعى ، لا بد من توفيره ، هو المساواة الكاملة بين أبناء المجتمع الواحد ،
فى نأج العمل العام

ولا غرابة . فهذه المساواة فى نأج العمل الجماعى ، أو المال العام ، نتيجة
منطقية لازمة ، يسفر عنها تسلسل الاستقراء للوضع الاجتماعى المقرر ، وفرع
لأصل لا بد لهما ، كما تساوى فى البنية ، أن يتساوى فى الصفات ، لأن نظرة الإسلام ،
التي توحد الإنسانية ، تقضى ، كخطوة أولى ، بوحدة أية قطعة « مستقلة » على
انفراد ، أو أية وحدة من الوحدات الاجتماعية لهذه الإنسانية - التي كان
لاضطراب سلوك أبنائها منذ القدم ، وبلبلة الأفكار ، وضغط الظروف ، وحركة
التاريخ أثرها فى تمزيق شملها الطبيعي ، وتقطيع أوصالها ، يخلق هذا النوع
المصطنع من الاستقلال أو الانفصال - إلى أن يحين التمام هذه الشراذم المنتشرة
وضم شتاتها فى وحدة شاملة هي المجتمع العالمى الكبير . . فإذا اتجه الرأى هنا إلى
توحيد المجتمع ، فإنه يتجه ، بداهة ، إلى ضرورة توحيد كافة جهود أبنائه تحقيقاً
لخيرهم العام ، فإلى حتمية توزيع هذا الخير عليهم بالسوية ، إذ هو نأج عملهم
الجميع ، وثمرة جهودهم المشتركة . وإذ هم ، كافة ، مستوون فى الحقوق استواءهم
فى التبعات .

ويوضح الإمام هذه النظرة المنطقية العادلة إلى المال العام ، فيعرضها فى
سهولة معبرة ، ومنطق ميسر ، لا حاجة معهما إلى تدليل . .
فيقول :

« . . . أتم عباد الله . والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية . لا فضل فيه
لأحد على أحد . » .

فذاك رأى طبيعتهم الإنسانية الموحدة وقضاء وضعهم الذى يعيشونه الآن ،
وكان يجب أن يعيش البشر من قبل ، ثم تنزل القرآن فقرره ، كما ينبغى أن
يكون ، وبسلطته كقانون . .

ويقرن الإمام المبدأ بالتطبيق ، على الفور ، ودون تردد ، فيدعو الناس :
« . . . إذا كان غدا ، إن شاء الله ، فآخذوا علينا . فإن عندنا مالا نقسمه

فيكم . ولا يتخلفن أحد منكم ، عربى ولا عجمى ، كان من أهل العطاء أو لم يكن ، إلا حضر . . . » .

كلهم فى الإنسانية سواء .

كلهم لمجتمعهم أبناء .

ويتبع القول الفعل . .

فعلى الأثر يجسد معنى العدل الاجتماعى واقعاً حياً يعيش فى دنيا الناس . فى العمل كما فى الفكر . فى الحق كما فى الواجب . فى اللعانم كما فى اللغارم بغير استثناء بعد أن تعطل هذا العدل منين عديدة كان خلالها مجرد صورة ذهنية جميلة تدور بها الأحلام والأمانى فى رؤى الأخيلة وفراغ الأوهام . . وبعد أن ظل لفظة عذبة الجرس ، وضاعة البريق ، يمسح بها التويه والرياء فوق الشفاء كبسمة محزون . . .

وعرفت المساواة الاجتماعية بين الأفراد ، فى المجتمع الإسلامى ، طريقها مرة أخرى إلى النور . بعثت إلى الحياة من جديد . تحققت صديعة يوم الأحد ، الثانى عشر من ذى الحجة ، وما انقضت إلا ليلة ، أو بعضها ، على إمرة الإمام . . واستوى المسلمون ، عامة ، بهذا القرار الصريح الحاطف ، وكما أمر الله ، فى أنصبتهم من الحقوق المدنية ، وفى حظوظهم من الدخل القومى ، نتيجة طبيعية لاستوائهم فى الخلق أمام الخالق ، ولاستوائهم فى التبعات والمسئوليات ، فى المجتمع الذى يضمهم ، أمام القانون . .

وعرفت المساواة السياسية أيضاً ، بمفهوماً للمقارب لضمون الاصطلاح الحديث ، طريقها واسماً بمهدا إلى الحياة . فلم يغفل الإمام ذكرها وهو يتقدم بمنهاج عمله ، أو بيان حكومته ، إلى الناس . . ولم يخف ما تغنيه دلالتها ، وما نعرفه اليوم من كنهها الحقيقى ، للتمثل لنا فى حق الشعب الكامل ، بغير ترخص ولا انتقاص ، فى المشاركة — بالإرادة الحرة ، وعلى تسكافؤ تام بين جميع أفراد وطبقاته — فى رسم مصيره من خلال اختيار الحاكم ، وتوجيه سياسة الدولة وشؤونها العامة بالرأى والشورى . فمن غير هذا السبيل لأئمة حاكم شرعى ، ولا حكم مشروع .

ولا مجال هنا للمطابقة بين أشكال الحكم « الشعبية » السائدة اليوم ، وبين الشكل الذى ابتدعه الإسلام ، ونهجه الإمام ، فى ذلك الزمان البعيد . . فالقيم قد لا يغيرها تغاير الصور والتراكيب . والمعانى قد لا تختلف باختلاف العبارات والأساليب . وإعنا العبرة بالجواهر لا بالقشرة . وبالب لا بالإطار . وما نظم الحكم ، على تباين الضروب والمظاهر ، إلا وسائل إلى بلوغ غاية تتفق عليها كافة المجتمعات ، هى الخبر العام حسبما ترتأيه نظرة كل مجتمع — وفقا لأوضاعه الاجتماعية ، وعناصر تكوينه ، ومقوماته الحضارية ، وما تتأثر به أفكار بديه من ظروف المكان والزمان ، ويتطلعون إليه تحت تأثير العرف والتقاليد — علت بهم هذه النظرة إلى ذروة السلطة الشعبية العامة ضماما لتحقيق رغبات الأمة ، أو هبطت بهم إلى مستوى السلطة الفردية إيماننا برعايتها حقوق المجموع . .

ومع ذلك ، فالقرار — الذى لا يمكن إنكاره ، أن « الشورى » أصل فى الإسلام ، أقامت الدولة سياستها على عماده ، احتذاء بمسلك الرسول ، صدرا من تاريخها المبكر ، على تفاوت فى التطبيق بين الامتثال والتعديل ، وبين السهولة والتعقيد بحسب دواعى التغير السريع الذى صاحب تطورها من جماعة ، إلى مدينة ، إلى إقليم ، إلى دولة مترامية الحدود والأطراف تشتغل فى وعائها الكبير على الكثير المتعدد من الشعوب والأقاليم .

ومن المسلم به كذلك أن ثمة سمة ظاهرة لاختير الإمام كانت بها خلافته أدنى إلى شعبية القيادة وثمة سمة مثلها لحكمة كان بها أدنى إلى شعبية الحكم ، عنفهم تعبيرنا للمعاصر . . وكلتا السمتين تفردانه بما لم يكن لمن تقدموه ولحقوا به من الخلفاء ، وتميزان عهده بما لم يتح لما قبله وبعده من عهود .

فليس بين المسلمين ، آنذاك ، شخص كان أقرب إلى قلوبهم وأحب إليها منه ، لسابقته وفضله وصهره وصفاته إلى التى تعز فى قرين ، إلى جوار ميلهم إليه ، عطفها ونصرة ، لما أصابه من هضم حقه فى ولاية الأمر ، ثلاث مرات . . وليس أمثل ذكرا فى خواطر الناس إلى الآن منه إذا عرضت الألسن لسيرة البطولة عند مختلف الأمم والشعوب من أقدم العصور ، حتى ليوشك اسمه أن تحفه القداسة

أو يكون له ، بأهون تقدير مكان الصدارة بين شوامخ الأبطال الذين خلدتهم
جلال الأعمال ، وصورهم خيال الأساطير . . .

تفرد في شعبية القيادة ينطق به أسلوب الاختيار الذي جاء به على رأس
الدولة ، بالإرادة الحرة الخالصة للشعب الإسلامي ، على امتداد أراضيه ، ممثلاً
إذ ذاك في قوى الثورة العامة التي اجتاحت الأمصار ، آخر عهد عثمان ، مطالبة
 بالتغيير . . فلم يأت عن بيعة « خاصة » — كيعة أبي بكر — أدلى بها صفوة أهل
مدينة الرسول ، من الأنصار والمهاجرين ، ثم أقرت بها ، بعدهم ، بقية السفين
إقراراً إن يكن عن رضا فليس يخلو من مظهر المتابعة والانقياد إن لم تكن له
هيئة الإذعان والتسليم . . ولم يأت عن بيعة « وصية » كيعة ابن الخطاب —
خصه بها الخليفة الأول ، بتقدير رأيه وحده ، دون غيره من آراء . . ولم يأت
عن بيعة « ثلة » — كيعة عثمان — حصرت بها الإمرة في ستة نفر ، لا تخرج
عنهم ، ولهم وحدهم الحق المبرم في انتقاء أحدهم كأمير . . ولكنه إنما جاء عن
إجماع ، أو ما هو أدنى إلى الإجماع ، بالإرادة العامة للأمة ، ممثلة في أهل المدينة
ووفود مصر والبصرة والكوفة وهي ، حينذاك ، أمهات البلاد والأمصار ،
وموئل أصحاب الرأي ، ودعاة الإصلاح والتغيير .

وتفرد في شعبية الحكم التي تجعل للعاكم نفس ثقل الحكم ، في ميزان
الواجبات والحقوق ، بغير تمييز ولا فضل مظهر يقبلان عليه من خلال هيئة
المنصب ، وسطوة النفوذ ، ويرفمان قدره على الأقدار ، ورأسه على الرؤوس . . .
إلى هذه المساواة الكاملة بين الإمام وبين رعاياه ، يشير في بيانه ، فيقول :
« . . . إنما أنا رجل منكم . لي ما لكم ، وعلي ما عليكم . . »

فإذا ارتضى ، إلى جوار هذا — اختياراً وطوعاً كما خبرناه — أن يكون
أقل نصيباً ، في مطالب العيش والنافع المادية ، مما يتاح لعمامة رعاياه ، فليس
خسب ولوعاً منه بالتمتع ، ونزوعاً إلى التلذذ بهذا في الدنيا ، ورياضة للنفس
وقتما لجراح الرغبات . بل هو أيضاً حسه الإنساني الزهف قد حدا به أن يعيش
معيشة إذفاع ، ليكون أسوة ، فلا تضيق حياة الفقر بهذا يعجزون . . .

وإذا قصر حق الأمة في الشورى على أمورها التي لم تعرض لها أحكام القرآن ، ولم تتناولها سنة الرسول ، فليس ذلك تضيقا على حرية الرأي ، وامتثانا لها ، بل هو الالتزام الواجب بالدستور العام ، والتنظيم الذي لابد منه لتلك الحرية صيانة لها أن تعيث بها شهوة الكلام فتغدو فوضى ، ترتع بها ثروة الألسن بلغو القول ، وسقط الأفكار ، ويسود فيها الادعاء والافتراء ..

وقد أراد على أن يقي قومه مغبة هذا الانحراف عن حدود حرية الرأي ، والخروج على مفهومه ، فحذرهم أن تستخفهم شهوة الحديث وشغفهم البالغ بالنقد إلى المبادرة لمعارضة الحاكم فيما يرى أو يفعل ، معارضة قد تثير تأثرة الشعب عليه لا لا ابتغاء حق ، ولا لاجتناب باطل ، وإنما ولوعا بممارسة هذه الحرية على أى وجه ، تأكيدا لقدراتهم ، وإظهارا لوزنهم في مضمار الحياة العامة ، ودورهم في سياسة الأمور . .

قال :

« امضوا لما تؤمرون به ، وقفوا عند ما تنهون عنه . ولا تمجلوا في أمر حق نبينه لكم ، فإن لنا عن كل أمر تنكرونه عذرا »

ومدلول قوله ، بظاهره وبباطنه ، أنه دعوة عامة ، لكافة أبناء الشعب ، أن يعضوا الفكر في كل « مشروع قرار » تعدة السلطة الحاكمة ، ويتناولوه بالمناقشة الواعية قبل إقراره ، أو إنكاره . . فهو هنا لا يمنع المشورة ، بل يريد على بصيرة . ولا يأبى النقد ، بل يشاء له النهوض على أساس راسخ من الإحاطة السليمة بكل دقائق المنقود .

غير أن هذا الأسلوب القويم لممارسة حرية الرأي — على المستوى الشعبي العام — لم يرض فئة من العلية ، رأت لنفسها فضلا على من عداها من المواطنين يرتب لها — دونهم — حقا خاصا يمنع الحاكم أن يبرم أمرا إلا أن تشير ثم تشاركه الإبرام . . وها هم أولاء ينتقمون عليه ما ينبغي أن يحمده ، وينكرون منه ما يجدر أن يكون موضع إقرار ، ويمسيونه بما يجب أن يكون مشارا لكبار .

ثم لا يكتفون في نفوسهم المييب والنقمة والإنكار ، بل يشيخونها في الناس
خلاف له وحربا عليه . . .

ويأتيه خبر هذه الحرب المعجلة وما مضت إلا ساعات على إعلانه المساواة
الكاملة بين الناس :

« يا أمير المؤمنين . انظر في أمرك ، وعاتب قومك : هذا الحى من قريش .
فإنهم قد نقضوا عهدك ، وأخلفوا وعدك ، ودعونا في السر إلى رفضك . .
لأنهم كرهوا الأسوة . . »

فإن حق للإمام أن يعجب لتعولهم السريع عنه ، ويغضب لانتفاضهم المفاجئ
عليه ، فالبشر كافة أحق بالمعجب والغضب ، لأن هذه القلة منهم — ما بلغ مبلغ
اعتزازها بأنفسها ، واعتدادها بأقدارها — قد دفعتها أثرتها إلى إنكار حق
كل من عداها ، من أبناء الإنسانية ، في المساواة التي كفلتها الطبيعة والشرعية
للإنسان . .

الحرب بينهم وبينه كانت حربا على المبادئ ، قبل أن تكون حربا على النفوذ .
 ما أن جاءت له ولاية الأمر حتى أشعلوا النار . الشرارة الأولى لهذا الحريق لم
 تكن بذت اليوم . . . كانت كامنة فيهم : جرة في الرماد ، منذ سنين . كانت
 هاجسا في خواطرهم ، يشغل أمنهم ، ويعلمك عليهم آفاق السلوك والتفكير ،
 والإمام — بعد — ناء عن الحكم يخشونه أن يقرب منه ، ويسعون بكل
 جهدهم ليعمروه أن يضع قدمه على أول طريق السلطان . .

أولئك وهؤلاء كانوا من حذر بلوغه الإمرة على سواء . . خصمه الذين
 في صفوفه ، كخصمه الذين احتواهم عدوه ، خافوا جميعا سليقته الصافية وشيمه
 البيضاء ، وخطرات ذهنه الملتزم بمحدود الكرامة الإنسانية كما رسمتها الفطرة
 السليمة وأكدها الاسلام . . الأولى أسرعوا فمالوا ، من البدء إلى جانب الشام
 حيث أعجلهم الجشع ، وراودتهم الدنيا الأموية عن نفسها تمرضها لهم ، في قمة
 الفتنة والزخرف ، بضاعة تأخذ القلوب والأنظار : رخيصة بدرهم ، وفيرة
 بقنطار . . . والأولى بادروا إلى الالتفاف حوله ، قد استخفهم الرجاء وهم
 يوقنون الغلبة على دربه ، فلا عليهم إذن من التهل قليلا إلى ساعة الفصل ، وإنها
 لقريب ، وإنها لآتية بالانتصار ولا بد أن يشمنوا على الانتصار . .

فأما خصمه من فريقه الذين توهموا وشك النصر ، واستقصروا في أخيلتهم ،
 أمد الكفاح ، فقد غرتهم نظرتهم ، لأن ذلك الأمد قد طال . . الأمانى التي
 غرسوها في أرضه بذت لهم ، بعد حين كجذع بلا جذور . . وليالى الانتظار
 الرتيبة لم يطلع لها صباح .

وأما خصمه من عدوه فشأنهم شأنهم ، اليوم وأمس ، على نفس الحال . .
 غزيعه دائما يغذى جشعهم ، ويربى شهوتهم ، ويمد لهم في النفع ، إبان الحن التي
 تعتصره ، وإبان الحين الذى يواكبها ، بما يشاء وتشاء لهم نزوات الطمع

أو شطحات الأحلام . إدناء واستلحاق . مناصب وعمالات . أعطية وقطاعات ..
وكلام مضى الوقت نثر لهم من وقاضه مزيداً من المصانعة . من الرياء . أو الجاه ،
أو الأموال حسباً تهوى الأنفس ، حتى تزاخمت على إنانة الكلاب . . .

ولا عجب أن يتعلقوا بدنياء ولا عجب أيضاً ألا يرفعوا عن التدلى في أغوار
باطله إلى القاع ، ابلوغ قاربهم ، لأن فعلهم مسوغ مفهوم بمعار الطبيعة البشرية
التي تأتمر في سلوكها بأمر العريضة الفجة ، وتستجيب لنداء الأجساد قبل نداء
الأرواح . فالاشتياؤ أقوى عليها من التعفف ، والهبوط أيسر دائماً من الصعود ..
ولا خير من بعد على أحد منهم — وعذره حاضر — إن هو أسرع إلى هذا
الطريق الوبيء وله أسوة في نفر غير قليل ، من قادة الرأي في البلاد ، سبقت
خطاهم خطواته على نفس الدرب . كثرة منهم دوو سابقة إلى الاسلام ، وعلم
بالدين ، وصحبة مع الرسول ، وبلاء في الجهاد ، ونظرة ثابتة عند تفحص الأمور ،
ومكانة عليّة بين قومها لا تسكاد تدانيها المكانات .

وكيف لا وتلك فئة بلغت الشأو في رجاحة العقل ، وطيب الذكر ، ورفعة
الشان ، ولها في بناء مجد أمتها ماض مشهود ؟ . أم الناس نسوا منزلة هاتيك
النخبة القرشية ، وعالوها بينهم بالأصول والأحساب ؟ . أم الذاكرات غضت
عنهم وفيهم صفوة من الأعلام ، أئمة المهجرة ، ورواد الايمان ؟ . أم الأعين
عشيت وغم عليها أن تتبين شخوصهم وإن منهم بقية أهل الشورى وإن
عهدا بهم قريب ؟ .

بل كانوا جميعاً كألسنه اللهب فوق أرؤوس الربا وقم الجبال . أعين السادة
وأعين العامة تتعلق بهم إذا طرأ خطيب أو حزبت شدة ، كما تتعلق الأنظار بكل
شملة أوقدت على علم في متاهة الفلاة ، يشم عندها أخو الصحراء ما يروى من
ظمأ ، ويشبع من جوع ، ويؤمن من خوف بعد طول تجواله الضال في
سهول الرمال . . .

كلاماً ما غابوا إلى الآن عن بال . . الأعوام التي انقضت بعد مولد الإسلام لم
تطمس سيرتهم . والفترة القصيرة منذ إسمرة الامام ، لم تمح موقفهم منه ، عندما
أعلن عن المساواة . ومظهر « البطولة » — الذي نحلهم إياه موقفهم ذاك ،

ورفعهم في نظرة قريش عامة ، وسادتها خاصة ، وكل من رأى ، غير هذه وهؤلاء ، الصواب عين الصواب في تناديهم بتمييز المرب على من عداهم من الشعب ، وفي دفاعهم عن « قداسة » النظام الذي ابتدعه ابن الخطاب لتقسيم العطاء في الناس — كان مظهرا فياض السند ، متلألئ البريق ، لا يسهل أن تمشو عنه الأذهان .

فأى بطولة تلك في البطولات ؟ . . .

بطولة تناولتها نقائص التقدير بحسب اختلاف المعايير من الخصوم إلى الأنصار ، فأثارت الإعجاب كما أثارت الإعجاب ، والإنكار مع الإكبار . . .

نظر إليها ، بعين خصومها المعارضين ، فإذا هي على طرف ، أو على حافة هاوية ، يكاد أصحابها أن يتردوا فيها ، حتى لقد قال فيهم قائل ، ينعمهم بآية من كتاب الله :

« . . . لقد جئناكم بالحق ، ولكن أكثركم لا يحق كارهون . . . »

وضور موقفهم من الإمام واستفاضهم عليه ، إذ رأى وجوب المساواة بين كافة المسلمين على غير تباين وبغير تمييز فكانت الصورة المنقولة إليه ، مرسومة بالحروف :

« . . . لما آسيت بينهم وبين الأعاجم أنكروا ، واستشاروا عدوك ، وعظموه . . . فرقة للجماعة ، ونألقا لأهل الضلالة . . . »

فرأيهم إذن ، بهذه النظرة المعارضة ، رأى العناد والجود لا رأى الإنصاف والتعقل تجاه ما أذاعه على من سياسة الإصلاح ، ودواعي المراجعة والتغيير للأوضاع القائمة وهي عندئذ خطأ شائع أو صواب مهجور . وبطولتهم التحولة غريبة في البطولات ، لأنها تنمقر إلى عناصر البطولة الأصلية ، بقيمتها الرفيعة ، من مروءة واستقامة وتضحية . فهي بطولة الأنانية والاستئثار . . . التي تنكر « الغير » لأنها لا تؤمن إلا بالذات . . . التي تستعسك بالوضع ما جاءها بنفع . . . التي تنهرد بالكسب وتوزع على سواها الخسار . . . التي تتذرع بكل الدرائع ، وتتمل بكل الأسباب ، ليتسنى أصحابها الرعوس ، ويركبوا الرقاب . . . التي تقبض

ولا تنفق ، تحوز ولا تبذل ، تكتنز ولا تعطى ، تأخذ من غيرها لثرى ويفتقر ،
للمسمن ويهزل ، لتتخم ويجموع . . .

ونُظر إليها ، بعين أعوانها المؤيدين ، فإذا هي على الطرف الآخر النقيض ،
فوق أعلى قمة ، يكاد أصحابها أن يبلغوا بها الشأو الذى لا شأو بعده لتطلع
إنسان ، حق لقد بدوا لنصيرهم حماة حق ، يذودون عنه أن يهدر ، أباة ضيم
يدافعون عن كرامة قومهم أن يئنهنها جيروت السلطان . .

فكأنهم ، إذ يجابهون الحاكم ذا الحول والسطوة — هم الماطلون آنذاك
من كل قوة إلا قوة رأى الشجاع — دعاة مبدأ لا يبالون في سبيله أن يقتحموا
الهول دفاعا عنه ، وكفاحا لنصرتة ، وإن أيقنوا أنه الدفاع المفلول الذى تشيل به
كفتم والكفاح الخاسر الذى لا غناء فيه . . فهم إذن . بوضعهم هذا في ساحة
فداء ، وبمنزلة شهداء . . .

ولا عليهم أن يروا ما يرون ، معارضين أو مؤيدين ، فلا قيد على التفكير .
ولهم ، كثيرهم ، حق التعبير . ولا حريجة على الناس أن يختلف بينهم الرأى فيما
يعرض لهم من الأمور ، لأن الاختلاف أشبه بهم من الاتفاق ، والتغاير أدنى إليهم
من التماثل . تلك نتيجة طبيعية مؤكدة لتعدد زوايا النظرات إلى الأمر الواحد ،
بسبب تباين عناصر الرأى ومكوناته من فرد لآخر ، وقدرات النظر على الإحاطة
بجوانب هذا الأمر والنفوذ فيه إلى ما وراء سطوحه الظاهرة نحو قاعه البعيد . .

لكنهم يعارضون فإذا هي المعارضة التى تثق بالنية المعقودة على الخلاف قبل
التحصيل ، وبالاتقاض دون موجب له تقتضيه مبادئ النقد السليم للموضوع
المعرض . .

ثانى أيام بيعة الإمام ، تراهم يجتمعون ويجمعون . ونسمعهم يلومون ويتهمون .
فلا نسمع ولا نرى غير زمرة كأنا جميعها النفع الخاص فأبت إلا أن تدعوه ،
وتؤاب حوله ، وتثير ثائرة من تستطيع لعلها أن تحتفظ لنفسها بعزاياها الطبقية
المجففة بالجمهور ، وتستبقى حقا تقليديا احتازته ، سنين طويلة بغير حق ، وهو
يوشك هذه الساعة أن يدير لها ظهره ، ليبدأ أولى خطواته على الطريق عائدا
إلى ذويه . . .

يطالعون علينا بما دعاهم إلى موقفهم ، فيقولون بلسان زعيم لهم من سادة فريق الأعلام ، وكأننا قد أرادوا أن يتملقوا فيه صلة الدم ، ووشيجة القرابة :

« ... نحن إخوانك ونظراؤك من بنى عبد مناف . ونحن نبأبعك اليوم على أن تضع عنا ما أصبناه من المال أيام عثمان ... »

ولاء تجارة . . . سلعة تعرض وتغن يقبض . . . فهل هي بيعة ، أم هي بيع وشراء ؟ . . .

ويبلغونه ، مرة أخرى ، دعواهم ، فيقول له زعيما آخران ، صاحبا سابقة إلى الإسلام :

« ... أعطيناك بيعتنا على ألا تقضى الأمور ولا تقطعها دوننا . وأن تستشيرنا في كل أمر ولا تستبد بذلك علينا ولنا من الفضل على غيرنا ما علمت . . . فأنت تقسم القسم ، وتقطع الأمر ، وتعفى الحكم على غير مشاورتنا وعلنا . . . »

أنهذه ما تبيحهم إياه الشورى مراجعة للحاكم بالرأى ومعاونة له بالصيحة ؟ . أم هو مشاركتة الحسم واجتزاؤهم بنصيب من الحكم معلوم ؟ . أم هو حجر على الإمام ووصاية ما يريدون ؟ . . .

فإذا استفسرهم الإمام سر خلافهم له ، ضربوا ، هذه المرة ، في الإفصاح إلى مداه ، كاشفين عن نواياهم ، كأننا قد آثروا المجاهرة على اللدائرة ، والمواجهة على الالتفاف ، بلوغا إلى طلبتهم المنشودة من أقصر طريق .

يصارحونه بغير التواء :

« ... خلافتك عمر بن الخطاب في القسم . . . إنك جعلت حقنا في القسم كحق غيرنا . وسويت بيننا وبين من لا يعاملنا فيما أفاء الله تعالى علينا بأسيافنا ورماحنا ، وأوقفنا عليه بخيلنا ورجلنا ، وظهرت عليه دعوتنا . . . »

تلك إذن هي القضية . . .

تغن قيامهم بنشر الإسلام ، وإعلاء كلمة الله . . .

قسم عمر . . .

ولا تعلق غير هذه التعلق يمكن أن تجتمع عليها مثل تلك الزمرة الذين لا تربطهم إلا كبرياء السيادة ، ثم يختلفون ، بعد هذا ، فيما يدخل في تركيب طبائهم وما جبالوا عليه من سلائق ، وبإين بينهم من نزعات . . .

فهم سادة في قريش بلا نزاع . وهم سادة بين العرب أجمعين بأصلهم القرشي الذي يعرفه لهم ، ويحلمهم به كل أصيل في الجزيرة العربية من أى قبيل . وهم سادة بالتراث الثالث البعيد ، أو بالتراث الطارف الجديد . . .

زمرة كهذه تضم ، إلى من تضم من ناهى الذكر في أمتها ، أمثال طلحة ابن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعيد بن العاص ، ومروان بن الحكم ، والوليد بن عقبة ، وعبد الله بن عمر ، وغيرهم من أجلة قريش في تلكم الآونة ، لى زمرة خليفة — وإن تفرقت في الصفات والحلال — أن تجتمع على اعتزازها بمكانتها في المجتمع ، وعلى كل ما يرميه الاعتزاز من مظاهر البروز أو ملامح الامتياز . . .

فلقد عرف لأفرادها هؤلاء ، كما عرف لأسلافهم قبلهم ، في عهود الجاهلية المنقضية ، شأن مرموق ، لم يرتفع لشأوه في الجزيرة مقام . كانت لهم ، فرادى أو مجتمعين ، عراقة الأصل ، أو نبيل النسب ، أو جاه الغنى ، أو سطوة الرياسة ، أو وضاعة المكرمات ، أو نخار الوظائف الثموية كالرفادة والسقاية واللواء . . . حتى إذا جاء الإسلام فجب كل شرف إلا شرف الانتساب إليه ، واضعاً عنهم مفاخرهم الموروثة ، لم يتضع لهم منزل ، ولم ينقص مقدار ، لأنهم قد أثبتوا على اعتناقه إياه عزة خيرا من عزة ، ونخارا أعلى من نخار إذ غدوا به وإنهم لأصحاب سابقة إلى الإيمان ، أو هجرة مع الرسول ، أو دعوة إلى الهدى ، أو بلاء في سبيل الله ، أو مشورة للخلفاء . . .

على أن هذه المفاخر العنوية القديمة التي كانت عادة تجشمهم البذل ، ما لبثت أن ترجمت ، بدخولهم في الإسلام ، إلى مال مقبوض يضيف إلى شرف الذكر قوة التراء . . . فقد استحدث عمر بن الخطاب ، باجتهاد رأيه إبأن ولايته الأمر ، نظاما لا قسم رفيعهم في حساب العطاء درجات ودرجات فوق غيرهم من جمهور الأمة بعد

أن كانوا وإياهم ، أيام البعثة النبوية وطوال خلافة الصديق ، على سواء .. ثم جاء عثمان فسار على سنة سلفه في الاجتهاد ، فأبقى على وضعهم الاقتصادي ، للممتاز ، وزاد عليه ، أحيانا عديدة ، إلى أنصبتهم العميرية المفروضة ، ألواناً أخرى من عناصر الدعم المادى ، فى هيئة منح وهبات وقطاعات وأعطيات ، أولاهها من شاء حسبما ارتأى تقديره وشاء ..

ولا مشار هنا لمناقشة حق الحاكم — بل حق أيما امرئ من الناس — فى أن يجتهد رأى عندما تعرض له مسألة تتطلب الحسم ، فذاك معترف به بغير مرأ ، وله بعد هذا ، إن أخطأ أجر وإن أصاب أجران ، كما يقال . ولا مدعاة أيضا لإثارة الجدل حول حق الحاكم فى المنع أو المنع ، فى الحرمان أو فى السخاء ، لأنه الحق الذى يفسح فيه مرمى النظرات ، وتختلف الآراء من نقيض لنقيض بين المعارضة والتأييد ، ثم لا يخلو — مع التشيع فى مساندته — من أثر ولو ضئيل لاتهام صاحبه بانسياقه مع عاطفته ، أو بغلوه فى التقدير ، إن لم يكن بالمبالاة والانحياز ...

فإذا رأت تلكم الزمرة فى بيان على أنه نازل بمكاتها فى أعين قومها ، سألها مناط نحرها الذى تمتاز به بينهم سمعة وثروة ثم ضاقت به أو أنكرت قبوله ، فذاك هو السلوك الذى لا يستغرب لأنه أليق بطبيعة البشر ، وأدنى إلى خلافتهم التى تتعزز — بحكم تكبوتها — إلى الدفاع العريزى عن الميل للتفوق فضلا عن الميل للاقتناء . وإذا قبل مثل هذا الدفاع ممن كلفوا بالجاء ، وألفوا الميض فى أطايب الحياة من أشباه مروان بن الحكم ، والوليد بن عقبة ، وطلحة ابن عبيد الله ، فإنه لا يرفض أيضا من عبد الله بن عمر وإن كان — دون جمعهم — صاحب ورع ورهادة ، لأنه عندئذ ليس دفاعا عن نسب الدنيا أو مظاهر الامتياز ، بل هو الدفاع الخلق بآبى بآبى ، متشيع لرأيه ، معتز بترائه ، وفى لذكراه ...

لكن الاجتهاد ما كان ليكون فى سنة مقررة أو نص معلوم .. وقد وضع عمر نظام قسمه باجتهاد رأيه الخاص ، مندفعاً إليه بكل طاقته التعريرية التى تراها دائما وهى تحاول أن تحكم العقل ، وتعمل نظراته الطليقة المتفحصة على نظرة

المتابعة والتقليد . . . فقد عينا عرف عن ابن الخطاب أنه كان يراجع رسول الله في غير تخرج ، ولا يمثل توجيهه — كشأن سواء — امثال التسليم ، بل امثال التفهم والافتناع ، ثم حالفه التوفيق في أمور . . . وقد عينا عرف أيضا أعماله الفكر ، ومطالعته الصديق بالرأى الذى يعارض ولا يتقبل نظرة الحاكم المألومة بخضوع التابع المتبوع . وأبلغ من هذا وذلك في شجاعة المواجهة ، التى لاتصد إلا عن فكر متحرر ، وذهن نقاد ، أنه كان يراجع نفسه فيما يرى غيره أنه من المسلمات ، فكان يتبصر في شئون دينه كما يتفكر في شئون دنياء قبل أن يقر وينقاد ، حتى لقد أثر عنه أنه كان لا يتردد ، كلما نظر إلى الحجر الأسود ، عن الجهر بقوله : « إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك ! » — فلا حيلة له هنا إلا التسليم . . .

بفكره الطليق التحرر ، وذهنه المتفحص النقاد ، أجال عمر نظرتة في القسم ، حين ولايته خلافة المسلمين ، فرأى أن يحى " بنظام له جديد على غير ذلك الأساس التقليدى الذى كان يلتزم المساواة في التوزيع . . . ولا عيب عليه أن استحدث ما دعاه الوضع إلى الاستحداث ، فتغير الزمن والظروف قد يحمل مقدمات التطور . والتطور ، عادة ، يستوجب التغيير . ولا عيب أيضا ، من وجهة المنطق ، أن يرفع أو يخفض الأنصبة السنوية ، مميزا بين الناس على قدر فضل بعض على بعض في حساب السلوك ، وبعماير المبادرة والاقتدار والعمل والإجادة ، تقديرا منصفاً للههم ، وتقينا عادلا للنشاط ، وجزاء وفاقا للأداء . . . فليس من سارع إلى الإسلام مبادرا كمن تخلف عنه إلى حين . وليس من دخله طائما كمن دخله وهو مقهور . وليس من حارب له كمن حارب عليه . وليس الصريح في انتسابه إليه كالصديق . ولا المؤمن كالمدمن . ولا المهاجر كالطليق . . .

ومع هذا كله فموامل التغيير التى رأى عمر فيها سببا لاستحداث نظامه لم تكن غائبة قبل الاستحداث . . . فهى هى إبان عهد الرسول لم يزد عليها بعده جديد . وهى هى في خلافة أبي بكر الصديق . وهى هى التى أشار ابن الخطاب على سلفه — صدر إمرته — أن يتخذها سبيلا إلى المروحة بين الأعطية بالزيادة والنقصان بحسب الأقدار والنازل ، فرد أبو بكر مشورته ، وأبى إلا أن يظل الناس ،

كلهم ، في القسم سواء .. فإذا رأى الخليفة ، بعد انتهاء عهد صاحبه ، العدول عن نظام لنظام ، فإنها الرؤية التي تبدو للمتأمل كأنها اجتهدت بغير موجب للاجتهاد والعدول الذي كان التزام السنة المقررة يفنى عنه ، إذ هي أحق بالبقاء ، وأولى بالافتداء . . .

بأهون الفروض ، وبأرفق الظنون ، لا يبعد أن يقال عن أوامرك الزمرة « الممتازة » أنها رأت الحق في قسم عمر الذي عاشوه سنين عديدة ، أربت على العشرين ، طوال حكم عمر وخلافة عثمان . فإذا هم تشبثوا به ، واشتصروا القضاة في العدول عنه ، فلهم العذر المبرر ، وإن لم يكن العذر المقبول ، لأن الناس عامة ، خليقون بأن يشق عليهم الخروج مما ألفوه .. وإذا هم أبوا دعوة على التي تعيد المساواة في المطام — وهي تنهم مورد ثراء ، وتسليخ عنهم مظهر نفار — فإياؤهم هنا هو « رد الفعل » النفسى لتلك الدعوة المفاجئة ، أو الدفاع « القطري » الذي تفرزه الغريزة ذيادة عن التقنية ، وحماية لتفوق الذات . .

لهم إذن ، من هذه الوجهة ، العذر الذي قد يسوقه معتذر ، تبريراً لانتفاضتهم للمعارضة الإمام ، فإذا هو العذر الممتسف ، الذي يشبه الأسف ، ويقارب الاعتذار . . . ولهم تبريرهم الذي قد يساند موقفهم ، ولكنه التبرير القائم على التعمل والاحتياط ليس القائم على الحجة والتدليل . . . وما نظنهم قد علموا الحق في جانبهم علم يقين ، بل خالوه ، ثم أطمعهم الأمل أن يلتوا — بحركتهم تلك — بعلى عما قدر وقرر إلى ما قدره وأرادوه . . .

فكأنه التهديد ، مسلحهم هذا ، أو هو التلويح بالتهديد ، من قريب أو من بعيد . . . أما هم فقد نهامسوا بشجورهم . وأما هو فقد طامهم بعزمه الذي لا رجعة فيه . . . فإذا هو ينطلق إلى المسجد مع الصباح يحدث الملاء ، ويومئ في طرف من حديثه المبين الصريح إلى أولئك الذين استمعوا بإعاضهم ، وازدهوا بمنازلهم ، واستمرأوا أن يثمنوا على الإيمان ، مؤثرين أن يظلوا على خطأ شائع على أن يفيثوا إلى صواب مهجور . . .

يقول ، وعجبه منهم ، يتعدى الكلمات :

« ... يا معشر المهاجرين والأنصار .. أعنوني على الله ورسوله بإسلامكم .. بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين .. »

ثم يبصر وإنه ليحذر :

« ... ألا إن هذه الدنيا التي أصبحت تمنونها وترغبون فيها ، وأصبحت تنضبكم وترضيك ، ليست بداركم ، ولا منزلكم الذي خلقتكم له .. فلا تفرنكم فقد حذرتموها .. فأما هذا الشيء فليس لأحد على أحد فيه أثرة .. وقد فرغ الله من قسمته .. »

حجة لا تثبت أمامها حيلة وإعذار لا ينهض له اعتذار .. فلا عن على الإيمان يقبضه إنسان من إنسان .. ولا رخصة لأحد فيما قضى به وأبرمه الله ..

فإذا فرغ من بيانه هذا للناس ، دعا إليه بخاصة القوم الذين يناوئون في القسم ، ويتعلمون لميزتهم الطبقية بما وضعه ابن الخطاب ، يذكرهم ما أنسوه ، أو ما يريد بعضهم أن ينسوا ..

يخاطب زعيمهم ، صاحبي السابقة ، وإنهما لأدنى إلى الرجوع ، وأحق بالإقرار ..

يقول :

« ... قد وجدت أنا ، وأنتما ، رسول الله يحكم بذلك ، وكتاب الله ناطق به .. وقد عا سبق إلى الإسلام قوم ، ونصروه بسيوفهم ورماحهم ، فلم يفضلهم رسول الله في القسم ، ولا آثرهم بالسبق .. والله سبحانه موف السابق والمجاهد يوم القيامة أعمالهم .. »

وتلك نظرة الله والرسول ..

وتلك هي النظرة التي عليها قد عزم الإمام لأنها تحقق المدالة الشاملة ، كما جاء بها الإسلام .. بلا تمييز لفرد على فرد ، ولا لطبقة على طبقة وإن اختلفوا بالمكانات والأقدار في حساب طاعة الله ، وحسن البلاء ، وسابقة الإيمان — دع الأحساب والأنساب ..

ما هو إذن بتغيير هذا الذى طالهم به على ، وشاء حملهم عليه وإن كرهوه . .
بل هو الحق للهجور . تقويم الخطأ . تغيير التغيير . . هو الخروج بالأمة من
كراسة قاعدة « خاصة » إلى رحابة قانون عام يستوى فى ظله الجميع . . والعدول
عن اجتهاد لم يكن له من موجب يدعو له ، إلى سنة مقررة ، ونظام مشروع . .
حتى العتيق والاصيق لهما حقهما فى القسم كالأحرار والأصلاء ، لأن الأمة
بطبقاتها سواسية . فثمرة الجهد فى المجتمع سواء إذن بين أهله . وناتج العمل
مردود على كل من عمل بذهنه أو بمرقه بغير تفرقة ، بدرهم فما دونه « ولو كان
عبدا حبشيا مجدعا » كما يقول الإمام . .

ولا مرأ . فقد أقبل الناس ليقفتموا ، ثانى أيام إمرة على ، استجابة لأمره .
فقال لسكرتيره أبى رافع :

« ابدأ بالمهاجرين فنأدهم ، وأعط كل رجل حضر ثلاثة دنانير . ثم من
بالأنصار فافعل معهم مثل ذلك . ومن يحضر من الناس كلهم : الأحمر
والأسود . . »

وعندما سأله صاحبه سهل بن حنيف :

« يا أمير المؤمنين . . هذا غلامى بالأمس ، وقد أعتقته اليوم ؟ »

أجابه على الأثر :

« نعطيه كما نعطيك . »

فإذا أبت قریش وصادتها ، كتلك الزمرة ، هذه العدالة الشاملة ، فهو الإيلاء
الذى ينبغى مقابلته بالإيلاء ، لأنه يستند إلى زهو الاستعلاء ، ولا مكان له
فى شرعة ترى الناس كافة فى الحق على مكانة سواء .

سخط الأسوة في القسم لم يتبدد من نفوس كثرة غالبية من أنصار النظام العمرى بعد قرار الإمام . . لم تنقضه الحجة الدامغة التي تجب بها السنة المقررة كل اجتهاد . . لم يزل خطره على المساواة الاجتماعية الواجبة بين أبناء الأمة الإسلامية ، ولا على الإنسان — عامة — كما ينبغي أن تكون حياته الحلقية سوية ، أو تكون الحياة إنسانية . . شجرته ظلت فارعة صلبة الجذع . ضاربة الجذور إلى أبعاد عمق . عصية على الاقتلاع . .

الشهور الطويلة من إمرة على ، التي مضت منذ بيان التمديل ، وأصبحت في أعداد السنين ، لم تستطع أن تغير الناس وإن ظن أنها كانت كفيلة بالتغيير . فالأعوام التي عاشوها في ظل النظام الذي غيرهم وزادت على ثلثي جيل ، كانت عمرا من الإلف مكن لذلك النظام في الثبوت والاستقرار . . جعلت منه تقليدا مرجعا ، له قوة التقاليد ، فضلا عنه كقانون موضوع . . نخلته من سيرة صاحبه وهيبته ما يشبه القداسة . . أقامته دعامة راسخة للحياة الاجتماعية ، وأساسا من أسس الهيكل الاقتصادي ، وعنصرا من عناصر الاتجاهات الفكرية في الأمة ، قر في أذهان الكثيرين أن هدمها خليك بأن يؤدي لاحالة إلى الإخلال بتوازن هذه الحياة . . أحواله عادة سائدة انتزاعها شديد وإن خالفت السنة المقررة ، والمنطق السليم ، واستقامة العدالة ، لأن العادات قليلا ما تستجيب للعجيج والبراهين . .

حق محنة « الجمل » التي أودت في حينها ، بطائفة غير قليلة من زعماء أصحاب الامتيازات ، ومزقت وحدة دعاة التفاوت « الوضعي » في الأعطيات والخطوط ، لم يكن بوسعها رد النظرة الطباقية إلى جادة الصواب . . قضت حقا على نخبة من الطبقة الممتازة ، كقوة سياسية مناوئة لها وزنها في ساحة الصراع السافر ، ولكنها لم تستطع أن تقضي ، بحال ، على التمييز كفكرة عشتت في

خواطر جبهة المؤمنين بالفوارق ، الكافرين بالاستثناء ، الطامعين إلى استعادة ما فوته عليهم الإمام من حقوق مكتسبة بقوة القانون ولو بعد حين . .

ولم يكن عسيرا على هذه الفكرة البقاء ، كما لم يكن عسيرا عليها التزود ، يوما وراء يوم ، بما يكفل لها كل أسباب النماء والاستفعال . .

ولا غرو . . فالذين نجوا من الصراع الحربى ، غدوا بعده وهم أشد تشبثا بما غلبوا عليه وحيل بينهم وبينه بإعلان على ثم بقوة السلاح . والذين كفوا عن ذلك الصراع أيديهم ، ونأوا بنفوسهم عن المشاركة في هذه الفتنة الأولى ، لم يكونوا قد اعتزلوا الخلاف — من البدء — إيمانا منهم بصحة مذهب الإمام في التقسيم ، بل إشارة ، لا مناص عنه ، للتريث الذى يجنبهم المهالك ، ويفسح لهم فرص التدبير . . ومن وراء هؤلاء وأولئك ، كان ثمة جمع غيرهم من المستفيعين بنظام عمر ، لا ينبغي إسقاطهم من الحساب ، يعيشون فى صفوف على ، على ولاء له وتأيد ، وعداء لحصمه ولدد ، وهم لا يملكون — أمام كرات الأحداث ، وتوالى حركات الانتفاض والتمرد على السلطة الشرعية — إلا البقاء حيث هم ، والكفاح تحت راية الإمام ، بلوغا لهدف كبير قبل هدف صغير ، أو تقديم مصالح الدولة العام على صالحهم الخاص ، حتى يتحقق السلام ويستقر النظام .

ثم صبت مشاعر الأنفس الزيت على النار . .

بيان أمير المؤمنين ليس ، فى حقيقته ، مجرد إلغاء قسم وإثبات آخر عودا إلى الوضع الأصيل بسيادة المساواة الشاملة فى التقسيم . ولا مصادرة مشروعة لما أصابه قوم من ذوى الحسب والمسكانة من قطائع وأموال فى عهد عثمان بأية حجة وتحت أى عنوان . لم يكن وسيلة لإثراء بيت المال بالنزول بأنصبة « الخاصة » التى فرضها عمر ، إلى الحد الشرعى الذى عمل به فيهم رسول الله . . ولا كان أيضا سبيلا لهذا الإثراء باستعادة « الهبات » والأحباس العينية والمالية التى أخذها من ذلك البيت — بغير حق ، وتميزا — ذوى الحظوة لدى ابن عفان . ولا كـ ، كذلك ابتغاء تسخير فائض العطاء ، المتخلف بعد خفض الأنصبة الممتازة إلى المستوى الموحد ، فى زيادة أعطية عامة الناس . .

لا بهذا ، كله أو بعضه ، من أمثال هذه الأساليب ، كان أمير المؤمنين يرجو من الأسرة بلوغ تلك الأهداف ، بل لغيرها من المقاصد والغايات . . فهمة بيت المال حتى ذلك الحين لم تكن قط الاغتناء والامتلاء على حساب الأعطيات والأفياء ، ولا تسكديس الأموال إظهاراً لقوة الدولة من خلال وفرة الثراء . بل كانت تلك المهمة ، في المقام الأول ، أشبه شيء بوظيفة الجدول الجارى الذى يستقى من النهر ليبت ما يستقيه فيما حوله من أراض وزرع فيها مادة الحياة والخصب والتماء . فقد كانت الأموال ، على اختلاف الأنواع والأشكال ، من نقود ومعادن ومتاع ورياش ، تتدفق على حاضرة الدولة الإسلامية الظاهرة من شق البقاع والأصقاع ، فلا تسكاد تودع بيت المال إلا لتفرز ، وتحصى ، ثم توزع عطاء على المسلمين . . ولقد أثر ، فى ذلك الحين ، أن القيم الظاهرة أو الخفية لهذه المودعات ، سواء أكانت قيمة جمالية أم فنية أم تاريخية ، لم تكن شفيها يمنع توزيعها أو يحيز اكتنازها والإبقاء عليها ، اعتزازاً بروعتها ، أو تخليداً لذكرى احتيازها ، حتى لقد قطع بساط كسرى — وإنه لآية من آيات الفن تفوق كل إئمان — ووزع كغيره من عروض الأموال اتقاء أن يستبيع حاكم لنفسه الحق فى حجب أى نوع من المال عن مستحقه بأية حجة ، وتحت ستر التقدير . وقد علم ، كذلك ، أن الإمام كان يراجع ما فى بيت المال ، كل جمعة ، لينقذ ما لعله جد عليه ، أو فضل منه بعد القسم ، على المسلمين ، ولو كان إيراً أو خيطاً أو مزقاً من إهاب وقماش وما يدونها من سقط المتاع وأهونه غناء ونقما للناس ، ثم لا يهدأ باله حتى يكس المذار ، ويصلى فيها وهى خاوية ركعتين لله ، شكراً وحمداً على أن أبرأ ذمته ، وأدى كل ما تحت يده لكل ذى حق فيه . . ثم ثبت ، بعد هذا ، أن خفض حظوظ الطبقة المتأخرة فى العطاء ، نتيجة لإقرار المساواة الكاملة فى القسم بين الخاصة والعامة ، لم يضاف شيئاً مذكوراً إلى نصيب الفرد العادى من أبناء الشعب ، وما كان ليضيف ، بعد أن تبين لنا أن كل واحد من أولئك وهؤلاء لم يصب — عقيب إعلان على ، وتطبيق الأسرة لأول مرة فى عهده — إلا ثلاثة دنائير . .

فما هو إذن ذلك الغرض الذى سعى إليه أمير المؤمنين . بهذه الاسوة ،

ما دام قصاراها ألا تغل فائدة مادية على المواطن العادى ، أو تضيف شيئا ذا بال إلى دخله الذى كفلته الدولة بما انتقصته من أنصبة الأشراف ؟

ليس فى المقام الاول ، لأجل توفير فائض مال ، يحقق نفعا ماديا للعامة ، ويستخدم لرفع مستواهم المعيشى ، كان سعيه ذاك . . بل لأجل إقادة الشهور على كافة المواطنين ، أبيضهم وأسودهم ، شريفهم ومشروفهم ، باستوائهم الكامل أمام الدولة فى مال الله كاستوائهم الكامل أمام الله . . فالمساواة بينهم فى المال العام تعبير عملى عن نظرة الدين لأنه إحياء لسنة نبوية ما كان يقضى أن تحول أو نزول . . وهى إحياء بليغ ، من الوجهة الاجتماعية قبل الاقتصادية ، إلى رفض الإسلام لذرائع التفرقة بين أهله ، وإلى ضبط مجتمعه عن ضروب المفاضلات التقليدية والوضعية أن تعيش فيه . .

لا مكان فى المجتمع الإسلامى لأية مفاوطة اجتماعية بين أهله ، تميز طائفة على طائفة ، أو إنسانا على إنسان ، وإن استمد هذا التميز مبرراته وأسبابه من علائم التفوق ، ومظاهر الفضل التى تتمثل فى الاعتزاز بالمنصر ، أو الطبقة ، أو الثروة ، أو الجاه ، أو النسب ، أو صراحة الأصل ، أو سطوة السلطان ، أو سابقة الإيعان . . فتلك كلها عروض طارئة على تسكافؤ النوع البشرى طبيعة وفطرة ، وعلى عمائل آحاده حيوية وخلقة . أوجدت تباينا مصطنعا بين أبناء هذا النوع المتوحد ، لأنه التباين الناشئ عن عوامل خارجة عن كنه الإنسان ، وللتعلل بذرائع موقوتة ليس لها استقرار ذلك الكنه وثنائه ، تتغير قوة من ظرف لظرف ، وقيمة من بيئة لبيئة ، وتختلف فيها النظرة بين فرد وآخر ، ثم تتذاب بأوضاع المجتمعات تبعاً لتداول هذه العوامل المتغيرة عليها ، وسيادة بعضها دون بعض على الأذهان ، فإذا هى عندئذ مجتمعات عنصرية أو طبقية أو طائفية أو « رأسمالية » أو على أى شكل مماثل أو مغاير لهذه الأشكال ، نتيجة لازمة لتأرجح موازين السلطة فى كل مجتمع من ظرف لظرف ، ومن عامل لآخر ، بسبب تبدل أساليب التفكير ، وتوارى الأزمنة والعهود ، وتطور الأعراف والتقاليد . .

فإذا نظر ، من بعد ، إلى النظام الذى فرضه الإمام — من خلال صفته

الظاهرة التي تشير إلى وظيفة الاقتصادية ، وباعتبار أنه تعديل يتناول حدود الموارد المالية للأفراد - أوشك ألا يخفى عن خاطر أحد أنه العلاج الملائم الذي كان لا بد منه في موضعه وميقاته ، إذ هو الضرورة المحتومة التي قضى بها واقع الحالة الاقتصادية في الدولة إذ ذاك . .

علاج حاسم لم يكن ثمة ما يغني عنه لمجابهة وضع لامناص من تغييره ، إذا ما أخذ حق الشعب الإسلامي ، لوحدة ، في الحسبان ، وإذا ما روجعت رواسب الماضي ، وعرف دورها في الطغيان على الصالح العام . . توجيه العدالة كما توجيه المنفعة . ويدعو إليه ما بدا من الحل في الهيكل الاقتصادي ، وفي النظام الاجتماعي على السواء . .

ولاريب . . فتزايد القسم ، بنظام عمر ، من حصة بنسبة مائتي جزء - صعودا درجيا - إلى حصة بنسبة عشرة آلاف ، تنحصر بينهما الحدود الدنيا والحدود القصوى لعطاء الفرد ، ثم توالى سريان هذا النظام نيفا وعشرة أعوام ، قد أديا إلى حفر هوة عميقة بين الدخل الفردي زاد في عمقها غورا اقتدار أصحاب الأعطيات الكبيرة على تجميع فائضها لتنمية ثرواتهم ، واقتدار من دونهم من أصحاب الأعطيات الصغيرة إلى ما عصى يكفيهم الحاجة ، أو يرد عنهم ضائقه الإعسار .

رضائح عثمان ، من قطائع وأموال وأحباس ، وغيرها ما كان الخليفة الشيخ يفيئه طوال عهده ، على ذوي الخطوة عنده ، لقرباتهم ، أو لنفوذهم ، أو لبلائهم ، أو لهذه وتلك من تعلات ، قد أسهمت - إلى جوار ذلك الارتفاع الفاحش لأعطية الممتازين - في استئراء الثراء وتفاقمه في جانب من المجتمع تفاقما جعل المال دولة في فرقة من خاصة القوم وعليتهم ، تستطيل به على سواها من المواطنين ، ويسعها معه أن تظل زمانا ليس بالقصير مطلقة اليد ، إلى مدى بعيد ، في السيطرة على الحركة التجارية ، أو على الاقتصاد القومي للبلاد ، وتوجيهه الوجهة التي نخدم آرايها ، وتزيد بها ثراء على ثراء . .

ما خلفه القسم العمري ، وخليفته الرضاخ العثمانية ، كان حربا ، بخير جدال ،

بأن بيت في النظامين الاجتماعى والاقتصادى للدولة من آفات الخلل وعوامل الاضطراب ما كان خليقا بأن يدفع أيما حاكم يحرص على نظافة الحكم ، وصالح الشعب ، واستقامة الأمور ، إلى المبادرة بالتغيير . . فلا استقرار لحياة مجتمع مع تخلخل نسيجه . . ولا ثبات لاقتصاده مع وجود جرائم الاستغلال . وإذا كان الإمام قد بادرنشدن إلى التغيير المنتظر ، فقد فعل ما تطلبته طبيعة الظروف والأوضاع . وحتمته دواعى المراجعة والعلاج . وليس عجبا إذن أن نراه يمد القسم سيرته الأولى على سنة الرسول وخطة الصديق أوصية متساوية لكل الناس . وأن يصادر القطائع والأموال التى أبيعها ذوو اللحظة ويردها إلى بيت المال حقا عاما للأمة جميعا ، لا هدايا أو هبات المحظوظين .

فإذا لم تكن هذه هى المبادرة المطلوبة التى يجمل بمثل على أن ينهض بها في هذه الآونة ، كرجل دولة ورجل دين ، فأى مبادرة سواها كان خليقا به إذن أن يقدم عليها استجابة لمنطق السياسة ، ومنطق الأخلاق — قبل منطق الإسلام — ليقم الحق ، ويمنع الانحراف ، إلى جوار دعم العدالة الاجتماعية لتمارس وظيفتها : تكافؤا بين كل أبناء الشعب ، مع حماية الثروة القومية أن تغدو ثروة خاصة تغذى الاستغلال ، وترفع قلة من الثروة على رقاب كثرة من المحرومين . . ؟

ذلك ضوء على مسلك الإمام . .

وهو تفسير تفرضه وقائع التاريخ ، وشواهد الحال ، كما يؤدى إليه الاستقراء ، لبيانه الجريء الذى جاء ثورة على النظامين الاجتماعى والاقتصادى القاعين في البلاد آنذاك . . .

ولقد يبدو هنا أن في معايرة هذا الذى وقع ، منذ أكثر من ثلثمائة وألف عام بمعايرنا الحالية ، وإخضاعه للنظرة الحديثة — التى نراها اليوم تربط السلوك السياسى لقادة الدول والشعوب بالأوضاع الاقتصادية السائدة فيها حتى تجعله نتيجة مترتبة عليها . . بما يمثل تملاحا يحمل في غير أوانه ، فيخرج بنا عن روح العهد ، ويجاوز خصائص الوقت الذى عاشته الأحداث ، حتى لتغدو المعايرة ضربا معسفا من المبالغة في التصوير ، والتلوين الاستقراء . .

لقد يبدو هذا فإذا هو - بشكاه - زعم مقبول ، ووهم يخامر الأخيلة ، ثم لا يلبث - بجوهره - أن تأباه حقائق الحياة فتمتتهن العقول إلا ما كان منها يتعلق بالهيئة دون المضمون ، متملا بظواهر العروض دون بواطن الأصول ، ومعولا على صور الأسماء لا على دلالة المسميات ، وآخذا بتاريخ مولد الألفاظ وهو يهمل تاريخ نشأة المشكلات . . فأما والتعبير للفرى يتطور بتطور الزمن ، والسمكيات فى أية لغة كالحلايا فى البنية الحية ، بعضها يضم ويضموت ليتخلق بعمده غيره جديد . . وأما والظلال تتراوح دائما ، بتراوح النور ، بين القصر والطول ثم لا يغير اضطرابها هذا من حقيقة الأصول ، فلا وجه إذن لغلوها . . .

فما لا يمكن الاختلاف عليه أن ما اصطلاح عرفنا الحاضر على تسميته « الاقتصاد القومى » ليس وقفا على عصرنا الحديث . بل قد كان ، بلا شبهة من شك ، واقعا يعيش فى حياة المجتمعات الإنسانية العابرة قبل مئات عديدة من السنين معروفا لها بمخصائسه ، مائلا بمعناه تماما كسواء من عشرات الأوضاع والقيم والمبادئ التى كانت تخالط الأفكار ، ونحى بدلالاتها فى دنيا الناس ، ثم ألبدت أخيرا أسماءها المستعذثة ، كالعدالة السياسية ، والعدل الاجتماعى ، وشعبية الحكم ، والعنصرية ، والطبقية ، والطائفية ، والإقطاع ، والاستغلال ، وسيطرة رأس المال ، إلى أشباهها ونظرائها من مختلف الأسماء . .

بتقرير الأسوة فى العطاء ، متى الإمام أولى خطواته على الطريق المؤدى إلى كبح جماح دخل الفرد ، ووضعه فى إطار محدود بالأثم بينه وبين دخول غيره من الأفراد . وبمصادرة القطاعات والهيئات والأحباس أكد أن المال مال الله ، وأن وظيفته خدمة المجموع ، وأنه وهو عام أدعى أن تكور له قدسية تمنع عنه عبث الأهواء ، وسوء التقدير ، وسرف الإنفاق وما إليها من عوامل تحيله قنية خاصة ثم وسيلة للاستغلال . وبظهور هذين القرارين ، بدأت مرحلة من إصلاح اقتصادى كان لابد من بدئها لتصحيح الأوضاع القائمة ، وحماية الثروة القومية ، وكفالة حق الشعب ، كل الشعب ، فى معيشة متسقة ، لا يتجاذبها من طرفها غش الثراء ، ومن طرفها الآخر عسر الإدفع . .

وواضح بالنظرة العابرة ، دع التأمل وإيمان الفسکر ، أن الهدف من وراء قرارى الإمام هو تيسير الحياة لعامة الناس فضلا عن الأخذ بالقيم الاجتماعية التى تدعو لتعظيم حواجز التفاوت الظالم بين الأفراد ، وعن امتثال القيم الخلقية التى تأبى إفساح السبيل أمام الاستغلال والانتهاز والابتزاز تحت ستار حق الملكية الفردية أو حرية تشمير المال . .

نقطة الإمام كانت بلا شك ، حين سوت فى القسم ، اتجاهها نحو ردم الهوة العميقة بين الفقر والثراء بما تحققة من التقريب بين الدخول . . وكانت كذلك ، إذ صادرت جابيا ضخما من الثروات الكبيرة ، مسيرة إلى امتصاص فائض تلك الثروات وغل يدها عن تشمير المال الخاص إلى مدى يحد من طغيانه فى الحياة العامة ، وسيطرته على ثروة البلاد . . ثم كانت ، بعد هذا وذاك ، أداة لتخفيف عبء المعيشة عن كاهل المواطن العادى بما لها من أثر محتوم فى خفض أسعار السلع ، وقمع سمار الغلاء ، نتيجة للإقلال من النقد المتداول فى الأسواق بالملاءمة النسبية بين القدرات الشرائية لمختلف الأفراد . .

ولا ينبغي هنا أن يظن أن الإمام قد أبرم قراره وهو عندئذ لا يعدو أن يكون الرجل الخيالى السكاف بالمثاليات ، المشغوف بالمبادئ والمجردات . إنما قد أبرمه وإنه ، إلى جوار مثاليته المشهودة ، هو الرجل الذى يعيش فى واقع الحياة ، محيطا بظروف شعبه ، عارفا بأوضاع مجتمعه ، علما بالدواعى العملية وحقائق الحال الداعية للتغيير . .

بمثل هذا حدثتنا الأحداث فى عصره وقبل عصره بوقت طويل . . فلغير المتاجرة بالألفاظ أو ادعاء الإصلاح ، أعلن عمر بن الخطاب فى أخريات أيامه كم ود أن يطول به الأجل ليضع نظاماً « يأخذ به من فضول أموال الأغنياء ما يردده على الفقراء » . . وتغير استعجاب الشهرة وتعلق رضاء الجماهير ، راح أبو ذر العفارى — وهو العازف عن الدنيا منصباً وسمعة وثروة — فى زمن عثمان ، ينذر الأغنياء ، ويدعوهم إلى تسخير ثرواتهم المكتنزة فى التخفيف عن ذوى المسغبة والحاجة من مواطنهم ، لأن ما اقتنوه من المال ليس ملكا خاصا لهم ، بل هو مال الله ، وحق لمباده أجمعين هم أمناء عليه ، موظفون لإنفاقه فيما يصلح

شأن الناس ويرد عنهم الحرمان . . . ولغير الأهواء الخاصة ، أو الرغبة الظالمية في تغيير خليفة بخليفة ، وعهد بعهد ، نشبت الثورة على ابن عفان ، وقضت على حياته ، كما قضت على سلطانه وسلطان بطانته وذويه وهم عندئذ رؤس الطبقة المترفة ، التي اجتمعت لها إلى قوة النفوذ سطوة الثراء . . .

ليس بغائب عن الأذهان ما قد بلغه الثراء بين طبقة من الأمة ، أو فريق من العلية المحظوظين فيها ، من استفحال أخل كل الإخلال بالتوازن الاقتصادي بينهم وبين غيرهم من جمهور المواطنين ، وعمق الفارقة الاجتماعية التي تفصل الخاصة عن العامة ، حتى غدا الوضع نعمة غامرة في جانب ، تتقلب فيها قلة مختارة ، عيشها الترف ، ولعبتها المال ، ونقمة مدمرة في الجانب الآخر ، تعبت بكثرة مقهورة ، حياتها الشظف ، وعملها الحرمان . . . فإذا ناء جهد جمهور الشعب عندئذ تحت وطأة المعيشة وقد أعوزته الوسائل لممارسة الحياة كما ينبغي أن تليق بإنسان ، ثم ترامت شكواه مما يكابد من الضيق حتى انتهت به إلى ثورة على حكم هئان ، فذلك هو الطريق الطبيعي لسير الحوادث والانفعالات ، والحنة المفترض حلولها قبل وقوعها بسنوات . . . وإذا كان الادعاء بتجني الثوار قد لقي صدقاً في بعض الأسماع ، وجرت به على الصحائف بضمة أفلام ، فأى مدعاة إذن كانت خليفة بتعريبك السخط ، وإثارة الجماهير ، إن لم تكن لقمة العيش هي المدعاة ؟ . . .

من خلال ما مر من وقائع ، وما تنائر من أحاديث . منذ أواخر أيام عمر إلى بدء عهد الإمام ، لا يفوت التأمل أن يتنبأ بسلوك الثوار ، ثم يبرر هذا السلوك إن لم يسانده بالتأييد وهو عندئذ آمن من العثار . . .

فالفوارق المالية بين الدخول والموارد ، كالفوارق الاجتماعية بين الطبقات والأجناس ، كانت وسيلة لغرس عوامل التفرقة النفسية بين الناس ، وإثارة مرارة في صدورهم فعلت فعلها في تنافر أحاسيسهم ، وانفصال بعضهم ، شعوريا ولا شعوريا ، عن بعض حتى انشطر مجتمعهم شطرين : طائفة منه تستمرى الحال وترتع فيه فهي منتهمة به ، وطائفة تبرم به لأنها مغلوقة عليه . واحدة عالية قادرة محسودة ، وأخرى راسية عاجزة حاسدة . . . قلة تملك وتستمتع بالحياة ، وكثرة لا تكاد تعرف طعم الحياة

تنافر في المشاعر ، وتناقض في الأوضاع ، يعلو بهما مستوى للعيشة بأناس إلى القمة ، ويهوى بغيرهم إلى القاع ، ثم تلتهب على آثارها الأحقاد . ولا غرو . فالأسعار ترتفع ، والغلاء يستشري كما لم يهد أحد ، فيشقى على عامة المواطنين احتمالها . والسام الضرورية تعز على كثرة الناس ، لا لندرتها أصلا في الأسواق ، بل لمبادرة الطبقة القادرة — من ناحية — إلى احتيارها ، انتفاعا بها ، أو استغلالا لها بالاحتكار ، والافتقار الكثرة — من ناحية أخرى — إلى القدرة على الشراء . . . وكفى هنا أن يقال إن النخلة ، وهى طعام العربى ، كانت تباع بألف دينار ، ليبين إلى أى مدى كانت جمهرة الأمة تنسقط قوتها على عناء . . . وكفى أن تذكر سيرة فئة ليست بقليلة من خلاصة الخاصة أصحاب الخطوة أو ذوى النفوذ فتذكر لهم ثروات تجاوز خيال الخرافات ، من سبائك الذهب ، وفاخر القصور ، وأصائل الجياد ، وقطعان الإماء والعبيد . . .

هذه الفوارق لم تكن مجرد صور فردية التقطها بعض الموثورين لاستغلالها نكاية في الحكم القائم ، وإثارة للسخط عليه ، بل قد كانت ظاهرة عامة في المجتمع الإسلامى ، يملها كلا طرفى التناقض الاجتماعى ، وإن أغضى عليها طرف إغضاء استعراء ، وبرم بها آخر برم إنكار . . . وفيما بين الطرفين كانت قلة مستبصرة من الألى يتعمقون الظواهر ، ويستكهون الدلالات ، تعيش في قلق من الغد ، وخشية من المصير الذى ينذر الأفق به ، فلا تكف عن الإيعاء إلى الخطر المنتظر ، وإلى الدعوة إلى ضرورة المبادرة بالإصلاح فما كانت البيئة النفسية للشعب الإسلامى آنذاك إلا تربة صالحة لاستنبات الحسد الذى يشعر الحقد والتباغض بين الناس . . . ولا كان الوضع الاجتماعى المختل إلا مؤذنا بالانهيار أو مشفيا على الانفجار . وما كان الحرمان فى يد الكثرة الغالبة من الأمة إلا سلاحا خفيا بهم أن يضرب ضربته ، عسى أن يحصل كل غان محتاج ، عنوة وقسرا ، على ما كفله له الإسلام من مقومات الحياة الكريمة حقا مشروعا مادام الوفاق والسلام يحجزا عن تزويده بهذا الحق ، وما دامت الفئة القادرة الثرية قد بخلت به ، بل ابتزته عن سوء نية أو سوء تقدير . . .

ولم يكن تجاه على — كحاكم ورجل دولة ، دعه إماما ورجل دين — إلا أن

يسارع إلى العلاج وإن كان كياً يوجع من استمرأوا من قبل مزايما تلك التفرقة الاجتماعية، أو استرخوا لما ألفوه من أوضاع . فهو لا يجهل حقيقة الحال . وهو قد شام بوادى التدمير طرفاً من عهد عمر ، ثم عاش فترة السخط طوال عهد عثمان . وهو قد رأى حصاد الانفصال النفسى بين الشعب وحاكمه ، وبين العامة المحرومة والخاصة الثرية ، ممثلاً فى الثورة الهوجاء ودم الخليفة الصريح . فإذا التفت فور امتلاكه السلطة إلى مقابلة الأمور بالحسم ، ولا معدى له ، بحال ، عن السكى وقد استفحل الداء . ولا حيلة له إلا أن يندفع بكل قوته نحو التغيير . . وإذا كان نمة من يدعى أن ما فعله الإمام لمجابهة الموقف ليس سوى جانب من خطة سياسية بارعة يهدف بها إلى كسر شوكة خصومه ، وتقليم أظفار قوتهم ، بلوغاً إلى القضاء قضاء مبرماً على نفوذهم الذى أفاء عليهم سلطان المال وهيبة التقاليد ، فذاك ادعاء تنقضه نظرة الدين ، ونظرة العدل الاجتماعى ، ونظرة الواقع الاقتصادى فى تلك الآونة ، لأنها كلها تحتم التغيير العاجل الحاسم ، ولا تدع سبيلاً إلى إرجائه أو المهادنة فيه . .

ولو أن الإمام وزن لأنصاره بميزان ووزن لمخالفيه بميزان وهو يطبق سياسته فى المال ، لآسعت الحجة لمثل هذا الادعاء . . ولكن الرجل لم يقصر قراره بمصادرة القطاعات والأموال المهداة على أولئك الخصوم ، بل شمل به كافة المنتفعين بغير استثناء . ولم يقل أحد إنه ، حين سوى فى القسم بين المسلمين ، قد أعنى أصحابه من التسوية فتركهم وأنصبتهم للقدورة منه وإن كثرتهم — على خلاف خصومه — لمن ذوى الحظوظ الباذخة فيه ، إذ هم من آل الرسول الأمين ، وأصحاب الهجرة ، ورجال السابقة إلى الإيمان ، وأجلة الأنصار ، وكلهم بهذا من أوائى المميزين فى المعطاء بشرعية عمر بن الخطاب . .

خطوة محتومة تلك التى خطاها الإمام حينذاك ، كان حرياً به ، وبأى حاكم سواء ، أن يبدأ بها عهده ، مادام يعيش ظروف زمنه ، ويتنفس أحداث مجتمعه ، ويستشعر أحاسيس أمته وهو يدرك إدراك واع خبير حقيقة الدوافع والأسباب التى حركت مواجد الناس ودفعت بهم إلى التبرم بماضيهم والثورة على ما فيه . . فالوضع الاجتماعى كان فى حاجة ملحة إلى التصحيح ، تهرراً من استفحال

العصبية ، أو تخفيفا من الضغط الطبقي الذى تمارسه ، وخلاصا من استبداد قلة من أبناء الأمة بالكثرة الغالبة فيها تحت ستار الامتيازات المالية المقتنة أو الجاه التقليدى الموروث . والوضع الاقتصادى كان أيضا فى حاجة ملحة إلى تعديل يعيد توزيع الثروة الأهلية ، أو يعيد تنظيمها ، على أساس جديد يحرر المال من أنانية الخصوصية ، ويخرج به إلى رحابة العمومية ، لينأى — إلى حدود مقبولة — عن تناول الجشع الفردى ، وسوء استغلال حرية التملك ، ولينهض بوظيفته الأصلية الحقبة التى تهدف إلى صالح الجماعة ، فلا يصبح سلاحا فى أيدي فئة من المواطنين ، دون كائهم ، تحركه كيف شاءت لاستغلال الناس وتسخير قواهم وقدراتهم لفعها الخاص عن طريق استرقاق الأرزاق .

وإذا كانت هذه الخطوة فاتحة السير إلى تطبيق مبادئ العدالة بجانبها الاقتصادى والاجتماعى تطبيقا عمليا لا يقف عند حافة التشديق بالألفاظ ، فقد كانت الخطوات التى تلها على الأثر تعزيزا لهذا التطبيق ، وتثبيتا لأقدامه على الطريق . فما عثم الإمام ، كما عرفنا من قبل ، أن مضى شوطه ، حثيثا ، إلى رسم الإطار السلوكى الذى ينبغى أن يتحرك المجتمع فى نطاقه ، ليعيش كل أهله معيشة إنسانية كريئة . . . ولو أننا تتبعنا ما وضعه من قواعد ، وما فرضه من أوامر لتنفيذ هذه القواعد ، لنبدى لنا إلى أى مدى قد أسهم ، بالرأى والنصيحة والقُدوة والسلطة ، فى تطوير النظم على النحو الذى يكفل الموازنة بين الطبقات من ناحية ، وبين الأفراد من ناحية ، لتصبح الحياة خليفة بأن يحياها كل أبناء الأمة وهم على وفاق وارتضاء إذ هم على تسكافؤ واكتفاء ، ما دامت لا تعضل بعضهم تضيق به وتشق عليه ، وتخف على بعضهم الآخر خفة تقسح له فى التجبر والطغيان . .

وتأمل النظم التى جسدها الإمام — ولا نقول وضعها — فى ذلك الحين ، وكانت المراءة المجلوة الصافية التى انمكست على صفحتها الرائقة مبادئ الإسلام وقيمته ، لا يسوغ أن يحمل امراء على الزعم بأنها لا تزيد عن مجرد وسيلة مؤقتة لتخفيف عبء المعيشة عن كاهل عامة الشعب أو طبقاته الفقيرة ، بل ينبغى — إنصافا — أن يقال فيها ، وبغير مجاوزة لدقة الوصف وصدق التعبير ، إنها نظم رائدة فى مجال الإصلاح الاجتماعى إذا ما نحن اكتفين منها بجانبها هذا دون

طرفها الاقتصادى والسياسى اللذين هدفا : فى طرف إلى تصحيح مفهوم المال وتقويم وظيفته ، وفى الآخر إلى تحرير الرأى والإرادة بتحرير لقمة العيش وتخليصها من سيطرة الاستغلال .

ولا جدال فى أن ذلك الاتجاه الجديد ، الذى أروضه ونحاه إليه الإمام ، قد سبق النظرة الحديثة بمئات عديدة من السنين حين رسم دور الدولة فى رعاية أبنائها ، وأوجب عليها كفالة حقوقهم الإنسانية الأساسية كفالة فعلية ، لا تقوم على شعارات لفظية ، رنانة الجرس ، منمقة البناء ، بل على الدعوة الجادة المقترنة بالتطبيق . .

فالمجتمع الإسلامى ، كحقيقته ، وفى نطاق نظم ذلك الاتجاه ، مجتمع من الإخاء والمساواة والكرامة . لكل عضوه دور تلتقى فيه الحقوق بالتبعات لتتفاعل وتثمر العمل الإيجابى المجدى الذى يؤدى إلى منفعة الأفراد وصالح المجموع . وأبنائه كافة فى رحابه متساوون ، بلا تمييز أمام قواعد تشريعه ، لأنهم « إما أخ فى الدين ، وإما نظير فى الخلق » فلا وجه إذن لتباين واختلاف يترتب عليهما تفرقة وتفضيل .

وجهور العامة من بنيه — عندما تحتم الضرورات الاحتكام للمفاضلة — أولى لدى الدولة بالرعاية من بقية الطوائف ، إذ هم كثرة الأمة ، وقاعدة دولتها ، وصلب قدرتها ، لأنهم « عماد الدين ، وجماع المسلمين ، والعدة للأعداء » . . ولأن « سخط العامة يحسف برضا الخاصة ، وسخط الخاصة يحسف برضا العامة » فالكثير إذن له التقديم على القليل . .

والرعاية الخليفة بأن ينالها الشعب من السلطة الحاكمة ، هى تلك التى توفر له أسباب الأمن ، وأركان الحرية ، والمقومات الرئيسية لعيش كريم على نحو ما نسميه اليوم بالتحرر من الخوف ، والتحرر من الجهل ، والتحرر من المرض ، والتحرر من التعطل ، وأمثالها من مقررات ومبادئ تحملها كفالة الحريات السياسية ، والضمان الاجتماعى ، والتأمين الصحى ، وأمثالها من الأساليب التى تدرأ غوائل الحرمان — بتعدد صورته وشمول معانيه — عن كل مواطن ،

فتوفر له طلاقة الرأي ، وحرية الحركة ، وحق العمل ، والإعالة ، والعلاج وغيرها من ضروب البذل والعونة التي تهيم له حدا لاثقا للمعيشة لا يخل بكرامة الإنسان . « فلكل على الوالى بقدر ما يصلحه » حقا مقدورا لا نزاع فيه ، ولا عدول عنه ، سواء أكان عمالما يصلح المرء ويقيم شأنه أم كان إعانة .. وعلى الحاكم أن يرصد من مال الدولة ما ينفقه على من قبله « من ذوى العيال والمجاعة » تحقيقا عليهم من ثقل الكلفة ودفع الكوارث وهو مسئول أيضا عن غيرهم من مواطنيه الذين ينوءون بالحياة بسبب طبيعة الفوارق المالية والاجتماعية التي لا يخلو منها أى مجتمع ، ونتيجة لتفاوت القدرات والمستويات الطبيعية لدى الأفراد . فعليه أن يرأب صدوعهم ، ويسد مواضع الخلل فيهم ، ويغضى عجزهم أو ضعفهم برواتب تقسم من بيت المال لهم ولأمثالهم من أبناء الطبقة الدنيا الألى حرموا العمل أو القدرة عليه بمن « لا حيلة لهم » فى ذلك ، كالمساكين والمحتاجين ، وأهل البؤس ، والزمى ، أصحاب العلل والعاهات ، ضمانا لمعاشهم ، وتمكيننا لهم فى التداوى والعلاج ..

تلك إطفاء عجلى بأسس النظم التي اختطها الإمام لمجتمعه ، وأدخلها ، بسلطان الحكم ، فى حيز التنفيذ . . . وهى لا ريب سابقة لم يكن لها فى العالم ، قبل الإسلام مثيل حتى اتخذتها أخيرا ، فى القرن الحاضر ، وبعد ألف وبضع مئآت من السنين نادرة من المجتمعات الإنسانية الحديثة فى قلة معدودة من الدول الثرية المتقدمة التي أكرهتها الثورات الدموية وحركات التناحر بين الطبقات — فيها أو فى سواها — على أن تعرف لرعاياها حقوقهم عليها كبشر كما عرفت حقها عليهم كسلطة . فرفضت من مالها للمتعطل والطفل والشيخ والعاجز والعليل . . . ومع ذلك فشتان بين عمل المضطر المسكرو الذى يمليه ضغط الظروف القاهرة بقوة الصراع وبين عمل الطامع المختار الذى يلبعث عن نظرة إنسانية صمعة ، وحس مرهف ، ووعى محيط . . .

ولا حاجة بعد للقول بأن مقومات نفاذ أى قانون أو نظام لا بد فيها من اجتماع ضمان إيجابية العمل بتقريره إلى الاطمئنان لسلبية الانحراف بتقليم أظفاره ، أو تلازم الحفز والردع ، والتعليل والتعريم ، درءا لموامل الاختلال عن ذلك

النظام ، وتحقيقا لاعتدال ميزان السلوك ، وكفالة لاتساق خطا المجتمع عليه . .
فإنصاح أى قانون عما هو مقبول لاجدوى منه إن لم يقترن بالإفصاح عما هو
مرفوض . وتقرير ما هو محظور ضرورة واجبة كتقرير ما هو مباح ، لأنهما
معا يعكسان الطبيعة البشرية بمحاذي الشر والخير فيها ، أو جانبي الخطأ والصواب ،
ويلائمان بين خلائق الإنسان التي يستقيم شطرها بوحى الضمائر النقية ، وينحرف
شطرها بنزغ النفوس الأمارة بالسوء . . ومن ثم فلم يغفل الإمام إبراز التواهي
والممنوعات التي يتأكد بها استواء السلوك بلوغا إلى سلامة التطبيق . فلا محاباة
في حق مقرر ، تزييدا وسخاء . ولا ترخص في حد مانع ، رياء ومصانعة . .
لا اختيار لمن يتولون الأمور العامة « إلا بالاختيار » . لا استثناء لأحد « بما
الناس فيه أسوة » أكفاء ، من حقوق ومنافع ، ما بلغ شأوه من النفوذ والجاه . .
لا إنصاف إلا بانتصاف الحاكم « لله والناس » من نفسه وأهله وخاصته وكل من
له هوى من الرعية فيهم كانتصافه من غيرهم من الجمهور وعرض الناس ، إقرارا
وتسليما باستوائهم أجمعين ، وتطبيقا منزها لسيادة القانون . .

مبادئ وعموميات اندرجت في سياسة الإمام لمجتمعه ، وترجمت إلى خطط
وأساليب تنفيذ ، تعبيرا عمليا عن شريعة الله ، وإدراكا واعيا منه بأن الزيادة
على الحق والمبالغة فيه كالاتقاص منه ، كلاهما خليق بأن يؤدي إلى اضطراب
للمعايير واختلال النظام العام . . فالمحاباة — كشال — ترجيح متحيف ، أخرى
بالظلم أن يثبت في تربتها ، ويتزعزع ، ويفرغ إلى غاية السقوط . . هي ، في
حقيقتها ، تطفيف للسكيل في جانب ، يقابله إفساد في الآخر ، استجابة لدواعي
خاصة تنبعث عن الليل المغرض للذات أو الأهل أو الصفوة للقربين من أصحاب
والأتباع ، فتجانب الحق مستهينة بالعدالة . . وهي مجلبة للفوضى ، مفسدة للحاكم
والمحكوم . . وهي البريق الخلاب الذي يستهوى الأتقى الضعيفة والضمائر
للريضة فتطير إليها على أجنحة الملق والذفاق . . وهي الطريق المفتوح إلى غير حد
معلوم أمام كل ملتزم لقومات الافتدار ، كلف بالمظهر ، ولوع بالنفوذ ،
منهوم للاستغلال . .

من خلال هذه القواعد انبثقت لأمر المؤمنين بيانات وتعاليم نشرها على

مجتمعه ، تحدد المحظورات تحديدا واضحا كما حدد قبلها الممنوحات . . فالمنع والبذل لدوى الافتقار والإعسار كان لا بد أن يقابلهما التقييد والمنع لأصحاب الاقتدار واليسار ، ملائمة بين الكفاف والترف ، وتضييقا على الاتهار والاستغلال ، وضمانا لحياة معيشية لا تطفئ الغنى ولا تفدح الفقير . . فهو يرفض أن تثرى الدولة على حساب إعواز أبنائها بفعالانها فى تقدير الخراج . . وهو يسقط حقها فى جباية دينها على المواطن إن كان اقتضاؤها هذا الدين يجيئها عن طريق « بيع كسوة شتاء أو صيف ، أو دابة يعمل عليها المدين » . وهو يمنع احتكار السام « لأن رسول الله يمنع منه » درء الاستغلال الجشعين وحماية لجمهور المستهلكين . وهو يضع أسسا للبيع والشراء سمعة بموازين عدل ، تحدد لكل سلعة سعرا مناسبا ، « لا يحجف بالبائع والمبتاع » على نسق التسعير الجبرى الذى نعرفه الآن . .

وكيفما كانت نظرة بعض طبقات الأمة ، من رجال التجارة ، وأصحاب النفوذ وذوى الثراء ، وزعماء العصبية القبلية والسياسية إلى هذه النظم والأساليب التطبيقية التى وضعها الإمام ، فقد كان ، فى حدود القرآن وتحت ضوئه ، ذلك الحاكم الذى استطاع — تفاعلا مع الواقع — أن يترجم شرائع الإسلام إلى أسلوب عمل ميسر ، تجرى الحياة اليومية لمواطنيه على سننه . كما كان ، بلغة عصرنا الحديث ، رائدا على طريق الحكم الشعبى بمعناه الذى يهدف — عن إدراك سليم لحياة رعاياه ، وبوعى إنسانى مرهف — إلى تسخير طاقات الدولة وقدراتها : مالا وجهدا وتنظيما ، فى إقرار آدمية الناس ، وتوطيد كرامتهم ، وتحقيق مطالبهم المادية والمعنوية من أقرب وجهة وأفوم سبيل . . ولا جدال فى أن أية محاولة كاشفة أو فاحصة ترمى إلى تعقب خطاه على هذا الدرب الطويل لن ترى قط أن عمله ذلك مسبوق ، أو تجده نظيرا ، فى عصره وفيما قبله من عصور ، بمثل نفس الشمول . . بل لنوشك أيضا ألا تجد خطاه متبوعة أو محتذاة إلا بمسد مسافة من الزمن شاسعة ، امتدت لعدة مئات من السنين ، لمحت عليها أنفاس البشرية ، ونشرت أقدام المصلحين والدعاة المكافحين للعق والحريات العامة ، قبل أن تهتدى إلى مساره ، وتلتحق بآثار غباره . .

وهين أن يمسك امرؤ في التغيير . وعسير أن يشرع فيه . ولكن الأعسر الأشق أن يحمل الناس على قبوله لأن البشر ، في كل زمان ومكان ، عبيد ما ألهموا ، أعداء ما جهلوا ، ذوو نفور مركب في خلائقهم من المستحدث الجديد . وإذا كان الامام ، لقاء عمله هذا ، لم يوف نصيبه العادل الحق من تقدير معاصريه وغاله منهم كافة ، في الأغلب الظاهر ، جحود ونكران ، فذاك موقف متظر لا غرابة فيه ، قد كان عنده خاصتهم وعامتهم : الألى ضيق عليهم وأخذ منهم ، والألى أفسح لهم وأعطاهم ، على سواء متعادين . .

لا عجب .

فالخاصة من الثروة وذوى الحول ، قد آذتهم نظمهم ، وشقت عليهم أساليبه ، لأنها انتقصت مما كانوا ينالونه ويرونه حقهم بغير نزاع ، ونزلت معه بأقدارهم . الاجتماعية المكتسبة أو الموروثة إلى دون ما يرضون وترضيه لهم نزعة الاستعلاء .

والعامة من المستضعفين وذوى الحرمان ، قد فاتهم فهم التغيير المستحدث وغمت عليهم حكمته البعيدة الرامية إلى الملاءمة بين وحدات المجتمع ، والتفسيق بين مختلف القدرات المعيشية لطبقاته وإن أنام بخير يجعل ما كانوا لولاء بالفيه . . فهم بطبيعة حياتهم الرتيبة التي تواترت — بهيئتها تلك — أعصرا طويلا ، لا يكادون يفكرون في التغيير . . وهم ، بفعل وضعهم الاجتماعي المضغوط ، وطاقتهم المادية المحدودة ، لا يقدرون عليه وإن فكروا فيه . . وهم بهذا وذاك أدنى إلى أن يكونوا أهيب لكل جديد ، أبعد عن التطلع إليه ، كأنا عيونهم معصوبة بالقديم لا ترى سواه ، كأنا مستقرهم هو ذلك الولاء الأعمى لآرائهم الاجتماعي الذي جعلهم أسارى مذهبى الحول ، يعيشون عمرهم في رتبة كل مألوف متواتر كدمى جامدة بلا إرادة تتلعب بهم الطبقة العالية القادرة التي لها عليهم — نتيجة اصوله التقاليد الموروثة — حق الانصياع والطاعة بحكم وصاية المشيخة القبلية ، أو هيبة عراقة الأصل ، أو قوة سطوة النفوذ ، أو قدرة سلطان المال . .

فإذا كانت استجابة عامة الناس في المجتمعات لمنطق المؤلف المتوارث فيه من التقاليد والعادات تبدو — بنظرنا الحاضرة — التزاما ذليلا بأوضاع مقيمة ، وخضوعا مستكيننا لواقع واجب التغيير ، فذاك ما لا نحسب قد دار بخلد مجتمع تلك الأيام ، وما لا يخلق غيره أن يدور . فمجتمعهم عندئذ ، في معظم صورته وأشكاله ، مجتمع أسرى الطابع والسكنى ، أصله قبائل وعشائر ووحدات ، يلتئم نسيجه بوشائج من الدم ، وصلات من النسب ، وعلاقات من التبعية والاستلحاق والولاء هي التي تربط بين أفرادهم ، وتنحكم في سلوكهم ، وتحدد لهم طرائق العمل والتفكير . وكلها ، كما هو معلوم ، عرى اجتماعية وثيقة ، يعسر التحلل منها ، ويتعذر فهمها ، لأنها تقوم على أساس عاطفة بشرية بعيدة المنابت ، غائرة الجذور في النفوس ، قد فطروا عليها من النشأة ، وأشربوها — إيماناً واعتياداً — هي إحساسهم الطبيعي بالبنوة للكبير ، واعتقادهم الراسخ بضرورة طاعته وتوقيره . .

ولست هذه وحدها هي كل أسباب وقوفهم غالباً حيث هم ، دون حركة جديّة إلى الأمام نحو التطور ، تشبثاً بالماضى أو جموداً عليه . بل قد يفوقها ويسبقها ، في استرقاقهم لذلك الماضى ، تدلى الوعي الشمسي في هذا العهد الغابر إلى مستوى دون ما لعننا نرى الآن عليه أقل شعوب الأرض حظاً من الإدراك العام لحقوق الأفراد وحقوق الجماعات ، بجوانبها الاجتماعية والسياسية ، قبل السلطة التقليدية الوصية التي تسوس الوحدات الاجتماعية عادة بسلطان العرف ، أو السلطة الحكومية الرسمية التي تسوسها بسلطان القانون . .

فما لاختلاف فيه أن العالم آنذاك لم يكن وحدة إنسانية متسقة ، أو سائرة إلى الاتساق ، على غرار ما نعرفه الآن أو ما نرى أنه موشك أن يكون وأن شعوبه كانت كالوصلات المقطعة ، تفصل بين بعضها وبعض مسافات واسعة من الأبعاد الأرضية والزمنية ، تعرقل اتصالها ، وتعوق تلاحمها العضوى ، فتؤخر تفاعلها ، ثم تحول ، إلى مدى بعيد ، دون تبادل الآراء ، وتلاقح النظرات والأفكار . .

وما لا يشكر أيضاً ، أن المجتمع العالمى ، إلى ذلك الحين ، لم يكن يمثل في

حقيقته سوى أعداد من تجمعات شعبية إقليمية ، قد تناثرت على سطح الدنيا ، أحدها هنا ، وغيره هناك ، إن يكن لكل تجمع منها ذاتيته المستقلة أو خصائصه المميزة ، فإنها كافة كانت مفتقرة إلى المحور الفكري العام الذي تدور آحاديها حوله ، ساجحة في ذلك ، ومؤمنة فرادى ومجتمعة بقيمة دوره في حياتها كسار موحد يحدد اتجاه السلوك البشري العام ، أو كمنأخ مشترك تعيش فيه وتتحرك وتنمو حقوق الإنسان . .

وما لاجدال فيه بعد ، أن ذلك الجزء من الوطن الإسلامي الكبير ، وهو المجتمع العربي - بحدوده الإقليمية المعروفة الذي كان آنذاك بؤرة التغيير ومركز إشعاعه - لم يكن ينفرد بما يكاد يغير خصائص مجتمعات ذلك العالم المتمزق القديم ، كما لم يكن أيضا ، في صلاته الإنسانية والفكرية بما حوله من القريب والبعيد ، إلا أشبه بالأرض التي يمش فوقها أبناءه ، حق ليكن القول إنه كان ، مثلها ، جزيرة . . جزيرة اجتماعية متتحة ، يوشك أن يفصلها عما يحاورها من المجتمعات البشرية المعاصرة بحر لجى واسع من العزلة والانقطاع . .

هذه الصورة الوصفية لحال شعوب العالم في ذلك الأوان ، نهم أن تضع أمام التأمل مرآة تنعكس على صفحتها هيئة الوعي الشعبي - أو بدقة التعبير مدى قصوره - في نفس الفترة الزمنية عهد الأحداث في دولة الإمام . . ولقد يكون نعة من الخلاف بين حالة الوعي بها وبين حالته في سواها من بقاع الأرض ما لعله يلفت النظر أو يحمل على التدبر والتفكير . ولكنه ، مع ذلك ، هو الخلاف الذي يفارق بين الأصل والظل ، وبين القوام والخيال ثم لا وجه معه للمفاضلة بين أحدهما والآخر من ناحية السمات الشكلية أو الشكل العام .

لا سبيل ، في الحق ، للمفاضلة بين الوعي الشعبي في المجتمع العربي وبين أضرابه في غيره من المجتمعات القائمة ، النائية أو المتأخرة ، التي لم تكن بعد قد غزتها العقيدة الإسلامية وإن كانت للمفاضلة أخرى بأن تقدمه إلى مكان الصدارة ، وأن تختصه دونها كلها بالترجيح . . لا سبيل ولا وجه أو نكون إذن قد انسقنا إلى تقديم نظري لفظي يقوم أساساً على « الفكرة » دون أن يقوم على تحقيقها ، وإلى ترجيح شكل مظهرى قصاراه الاستناد البحت إلى « النظرية » مع إغفال تطبيقها كل الإغفال . .

فمع ما هو ثابت مؤكد من سبق الدين الإسلامى إلى ارتياد مجالات حقوق الإنسان ، سياسية واجتماعية ، سبقا لم يباره في مضماره ولا لحق بغباره غيره من الأديان والفلسفات ، فإن العبرة في نضج الوعي الشعبى بهذه الحقوق ليست بانتظامها في نصوص ، ولا بنشرها في تشريع ، بل بمقدار إدراك الناس لحقيقتها وانفعالهم بحكمتها ، واستجابتهم لفتحها ، وشوقهم إلى مراميها ، ومبادرتهم الجادة إلى العمل على تجسيدها كأسلوب حياة ..

ولا يعنى هذا ، بطبيعة الحال ، أن كل ما اتصل بتلك المجالات من تعاليم الإسلام كان دبر كل الأسماع ، خلف كل الأبصار ، مفصولا ما بينه وبين كل العقول والأفهام بحجاب . . . كلا . ولكنه يعنى أن النفوس وإن علمته لم تشربه . وإن أشربته لم تمتصه . وإن امتصته لم تتمثله إذ كان عندئذ فوق قدرتها على الامتصاص . . . كما يعنى أيضا أن قلة من بين الناس ، غير مذكورة الأثر والعديد ، هى التى لعلها قدرته حق قدره ، ووعته كما ينبغى أن تقيه غفالت — وسيلة وغاية — دماءها وقد استنارت بصائرهما ، واهتدت أذهانها ، واستضاء أمامها الطريق .

كل هذه حقائق لا يجدر أن تغيب عن البال في سياق التأمل والتحليل . ولا يحسن بعبير الحقيقة أن يمر بها ثم لا يفتن لها كعالم تدانا على قصور طاقة المفكرين إذ ذاك عن ملاحقة مسيرة التغيير الاجتماعى التى أعدها ونظمها القرآن . . . وهى معالم بارزة الدلالة ، عظيمة التأثير في تعويق الوعي الشعبى وعند خطوانه إلى الوراء . وهى ، فوق هذا ، بضعة من عوامل غيرها معرقة إن لم يحصرها جميعا الإحصاء فلا أقل من أن يوردها التمثيل . . .

فلم يكن غريبا ، كئثال ، أن يتأخر الوعي العام بحقوق الإنسان « المدنية » عن الظهور — وبخاصة في الجزيرة العربية — أثناء ذلك الطور المبكر من تاريخ الدولة الجديدة التى خلقها الإسلام ، وهى بعد مشغولة بدواعى الإعداد ومقومات البناء . . . ولم يكن — كئثال آخر — مغايرا لطبيعة حركة التطور ، وهى عادة تسير على مهل ، أن تعوز الوعي الشعبى القدرة على مواكبة الأحداث

الجارية التي كانت عندئذ تطهر ، بل تطير بجراح . ولم يكن كئناث — مخالفاً المنتظر في مثل البيئة الاجتماعية القائمة ، التي تستمسك بالقديم ، وتخاص المألوف ، وتنفر من الجديد ، أن يمجز هذا الوعي عن فرض نفسه على حياة الجماهير . ولا عجب . فقد كان الناس في تلك الحقبة ، في شغل شاغل عن أمور دنيام بحرصهم الدائب على ترسيخ العقيدة الدينية الجديدة في نفوسهم ، وتنمية غرسها الروحية الغضة . ثم شغلهم ، على الأثر ، واجب الدفاع لدرء الأخطار المتحفزة من كل حضارات العالم القديم للانقضاض على دولتهم الناشئة ، وعلى الدين الذي اعتنقوه . ثم وكلاهما ، من بعد ، بالجهاد في سبيل الله لنشر راية الإسلام عالية ، ترفرف ديباجتها بالنور وبالمعرفة على عالم تلك الأيام الضال . ثم فاجأهم ، ولما يفرغوا من أداء رسالتهم للقدسة ، غوائل الانقسام الداخلي ، وعوادي الحرب الأهلية ، التي شها الخلاف والتنازع ، تحقيقاً للمآرب الشخصية ، وبلوغاً إلى جاء السلطان . .

هكذا تحالفت على الوعي الشعبي ، في تلك الفترة المتقدمة من أطوار تكوين الدولة ، عوامل عديدة متباينة من الأوضاع والأحداث : بيئية وعالية ، نفسية ومادية ، أصلية ودخيلة ، ألزمته البقاء طويلاً ، وإلى مدى ليس ينتظر في نطاق ماضيه المنهالك العتيق ، بعيداً عن إدراك دواعي التطور واستيقان جدوى التغيير . .

فقد قصر المفكرون وقتذاك ، عن الخروج بأذهانهم — بالسرعة الواجبة — من عزلة الحياة الدينية ، المحجزة بالاهتمام بالشعائر والعبادات ، إلى ضجيج الحياة الدنيوية وما يمج فيها من قضايا فكرية ومشكلات إنسانية على الإسلام بها عناية كبيرة ، وأبرزتها نصوصه القرآنية ، في وضوح وترباط ، وهي تطرحها كغيرها من آيات الله ، أمام التأمل . فلم ينبج العصر مفكراً حاول أن يخصب الفكر الإسلامي ، في مستهل نمو الدولة ، بما كان خليقاً بأن يثريه من أقباس الإشعاعات الفكرية التي ألقاها القرآن على هذه القضايا والمشكلات . لم يتج لأحد من الأئلي تدارسوا كتاب الله ، وتعمقوه ، أن يلهم نظرة محيطية برأى الدين في الإنسان من حيث هو محور الوجود على الأرض . وفي فطرته من حيث هي

العامل المشترك الثابت الذى يسوى بين آحاده . وفى التجمعات البشرية للتناثرة على وجه الدنيا من حيث هى مجتمع إنسانى واحد ، ووحدة عضوية متكاملة ، شرقت أو غربت بأفرادها وجماعاتها المسافات والأبعاد ، وفرقت بينها العصور والآماد . ومع ما لعلنا نراه قد تواتر على السنة فريق من أعلام الإسلام حينذاك من ذكر بعض هذه المسائل ، فإن حديثهم عنها لم يجاوز أن يكون مجرد ترديد لا تأمل ، وإطافة لا إحاطة ، وإيعاء لا استقصاء . . فقد مضت الحقبة وما تقدم امرؤ خلالها من أصحاب رأى بنظرة شاملة فى أمهات المسائل الإنسانية العامة ذات الأثر فى تطوير حياة الإنسان ، وتوكيد كرامته ، وتوجيه سلوكه إلى الخير المشترك لمجتمعه العالمى الكبير ، كقضايا الحريات ، والحقوق المدنية ، ووظيفة المال ، ونحوها مما لا يزال يشغل الأذهان إلى الآن . .

بهذا القصور الفكرى ووجه الإمام . وبموامل تخلف الوعي حوصر طوال عهده ، وحوصرت معه دعوته التى كانت تهدف إلى تفتيق أذهان الشعب ، وخلق نوع من رأى العام المستقبر يستطيع أن يهضم وسائله التطبيقية المؤدية إلى تثبيت دعائم القيم الإنسانية ، الخلقية والاجتماعية ، وتحويل المثل الكريمة من عبارات إلى أسلوب حياة . ولئن بدا للكثيرين من معاصريه أنه كان عندئذ أشبه بمن يدور فى فراغ ويمحرت فى الماء ، فنظرتهم تلك لم تستطع أن تردده عن موالاة الدعوة ، خطابة وكتابة وتشريعات ، آونة بالتوجيه والإرشاد كلما لاحت له من الناس بارقة إصغاء ، وآونة بالنذير والتحذير ، كلائنوا عنه الأعطاف ، وصموا الأسماع ، وأسلموا نفوسهم ذليلة للتغافل ، أو استسكانوا لجهالتهم العمياء . وهل كان يهدأ أو يكف ، وإنه ليعلم ، يقينا ، أنه ينطق عن حق ، ويعمل للغد ، ويفتح آفاقا من السلام والأخوة والنور أمام الأجيال لبناء عالم جديد . .

كل ما تحرك على رقعة الأرض الإسلامية الفسيحة من أمور وأحداث وفواجع ، إلى عهود طويلة مقبلة استغرقت عمر أجيال ، هو وليد ضعالة الوعي الشعبي عطائب التقدم ، وغرس قصوره عن الاحاطة المدركة بدواعي التغيير .. كان الإمام عندئذ يعيش في « الغد » المتوئب ، والأمة كلها ، خاصة وعامة إلا نادرة غير مذكورة القوة والتأثير ، تعيش في « الأمس » الراكدة .. كان يسبح مندفعاً إلى الأمام نحو الأمل المرجو على تيار التطور ، وكانت تقف جامدة بغير مبالاة ، على الشاطئ المهبور .. كان يدعو ولا تسمع . يعمل ولا تقنطري ، يحبل من تراب طبيعتها البشرية ممزوجاً بالجهد الدائب ، والتجربة المستنيرة . وتعاليم الدين الهادية ، قالب الإنسان الأمثل الجديد ، لعلها تتشكل فيه . فإذا هي بعد طول الحرص والبذل والمعاناة ، تنبذ القالب ، وتكاد تحطمه ، وتحاول — بالنفلة الضالة والجهالة الرعناء — أن تعيد مرة أخرى إلى الحياة هيكل إنسان واقعها الأجوف العتيق ! ..

وتلك شيمة البشر على الدهر : نفور من التغيير ، وتشبث بالماضي ، ونزوع إلى الجمود ..

ولقد طالما عانت البشرية من هذه الطبيعة المعوقة تخلفاً عن استشراف الفجر ، وتأخراً عن مواكبة النور ! .. كم جهد قادتها على مدى الأعصر ، وفي شق الأرجاء ، لتقويم خطأ أبنائها ، عن طريق تنقية الروح والارتقاء بالنفس ، وتهذيب القيم الخلقية والاجتماعية ، والتسامي بأعماط السلوك ارتقاء بالفكر والعمل ، بالنظر والتطبيق ، من أجل إعادة صياغة حياة الإنسان ، في نطاق الطور الزمني الذي يعيشه ، لتكون حقاً حياة إنسان ! .. كم طلع منهم على الدنيا ، مع كل جيل ، مكافح هنا ، ومناضل هناك ، وترددت لهم في ربوعها الترامية دعوات وصيحات ! كم مشوا على الشوك ، وفتوا الصخر ، وحرثوا الأرض القاحلة بالأظافر ، ليذروا فيها حبات الفكر المتألق ، ويرووا تربتها الجافة الحشنة بقطرات المرق والدماء ! ..

ومع ذلك فلم يكتب للكثرة الغالية من أولئك الرواد أن يشهدوا الحضرة
تغطى الجذب ، ولا أن يروا — وهم أحياء — ثمرة ناضجة قد استوت على
ساق . . . حتى أصحاب الرسائل من الداعين بدعوة السماء ، قل منهم من عاصروا
أوان القطاف . . . إنعاموا عن الدنيا والبذرة المغروسة ما زالت تحت أطباق
الثرى نواة . أو نبته واهنة تفتت عنها نقطة رخوة من التربة الصماء . أو عودا
عاطلا من الورق والنوار . أو برعما لما يتفتح عن زهرة . أو ثمرة فجأة لا تطاب
الاجتناء .

لكنهم غرسوا ، وتركوا الحصاد للأجيال . وضموا المعالم على الطريق .
سبقوا زمينهم فمشوا في الأمل ، وعملوا له ، ومهدوا لمن بعدهم أن يقطعوا الشوط
المرسوم عندما تحمل اللحظة المرتقبة وتهتدي البصائر وتستخير الأذهان . .

من هذا الرهط الفارس الذى سبق عصره كان الإمام . إلى نحو الغاية التي
ابتغوا واقتضتهم الجهد جهادا والدعوة مكابدة سدود خطواته . فليس كمثل في
البشر ، بعد الرسل ، من غرس قبا عالية ، ورفع مثلا سامية ، ودعا وعمل لكي
تكون الحياة حقا وعدلا وفضيلة . . وليس كمثل ، بين الشهداء من قويل جزاء
صنيعه بالتغافل والجحود والعدوان . .

فكانما كان غريبا في قومه ، أو كان منهم في دين سوى دينا . . كأنما كان
ينطق بغير لغتهم ، ويدعو لغير حقهم ، ويسمى إلى غير خيرهم ، ويضرب الأمثال
لأئمة غلف ، وآذان صم ، وأعين ملؤها ظلام . .

ولم تدره أبدا عن الكفاح للحق بالحق مظاهر انصراف قلوبهم عن أسلوبه ،
ولا بوادر جمود عقولهم دون ملاحقة ما يريد . . وأنى له أن يكف عن استرساله
في رسالته الإنسانية وإنه لمسئول عن غدهم كمشوايته عن يومهم ، وعنهم كمن
غيرهم من الأمم الشاهدة والأجيال المستكبة في جوف المستقبل . . وإنه كذلك
لموكل بفعل طواياهم ، وشجذوعهم ، وتفتيق أذهانهم المستغلقة لتطل ، من
خلالها نفوسهم الحبيسة وراء أسوار المألوف على الأفق المشرق الجديد . .

طويلا طويلا ظل فيهم يبلغ ويبين . يذكر ويعذر . يحذر وينذر وإن كاد

لا يلقى لديهم إلا أصداء جوفاء . . . كلهم كان يسمع ، وقلة كانت تنصت ، وندرة نادرة كانت هي التي تتأمل أو تستوعب أو تستجيب وإن بدت جموعهم الحافلة — رياء أو مصانعة — كأنما كانت له على طاعة ، ومن دعوته على استيثاق . . .

غير أنه لم ينخدع قط بما أغرقوه فيه من عبارات الموافقة والارتضاء . . . لم يضلله شعوره . . . لم يخنه فيهم ذكاء قلبه . . . لم تفرر به سجيته النقية الصافية التي تشفى على الإلهام . . . فعلا ثم الاقتناع والانقياد التي طالما زيفتها الألسنة ، ورسمها الادعاء المنافق على وجوههم بالألوان ، لم تكن لتستطيع أن تحجب عنه الكثير الجسم أو القليل النزر من طواياهم الخفية ونواياهم للمستسرة وإنه ليستشفها ، سافرة مفضوحة ، من خلال ما قدموه ، حياتهم معه ، من سوابق الفعال وشواهد الخصال . . .

ما كانوا ، مع استخفائهم ، معجزيه بتظاههم للزخرف ولفظهم الخلو عن معرفة ما يكونون وله فراسة ثاقبة وامضة تقشع الغياهب كأنما هي شمع ، ونظرة نقادة نفاذة في أغوار الأنفس ومجاهيلها إلى أعماق الأعماق كأنما هي سطحات إلهام تضيء الغيوب . . . قلو أنه شاء لما أعوزه أن يكشف لكل امرئ منهم عما سبره في ضميره ، ولا أعجزه أن يرسم صوراً نابضة من المستقبل القريب أو البعيد وهو بعد نطفة غير مخلقة لم تتمخض عن جنينها الليالي ، ثم يوشك ، مع هذا ، ألا يخطئ الرسم والتقدير . . .

وليس هذا ، بحال من الأحوال ، تقبها على غيب الله . ولا هو بانتحال لقدرة غير بشرية تجاوز ملكات الإنسان . لكنه استشفاف دقيق للتكوين النفسى لكل فرد منهم . واستقراء واع لطبائعهم التي تم عنها صفاتهم أجمعين . ورحلة مستقيمة في منطق الأمور والأحداث — على ما يند عنهم من خفجات المشاعر وطرائق التفكير وأنماط السلوك — إلى النتائج الحتمية المنتظرة التي تؤدي ، لا محالة ، إليها المقدمات ، تماماً كما تشير الأرقام إلى الحصييلة النهائية لأية مسألة حسابية ، مهما بدا من غموضها ، إذا أحسن فيها استخدام دلالة الملامات والرموز . . . أفيعضل إذن به أن يتعرف خفاياهم ، ويستقصي نواياهم ، فيشارف غدهم ، هو الذي خبرهم ، وأحاط بعالم عصره وأسراره وبقياراته السياسية

والاجتماعية الظاهرة والخفية ، ثم ألم بدقائق ميولهم ونزعاتهم من خلال الأقوال والأعمال ، ومن ثانيا الصفات والحلال ؟ . . . وكيف يفوته أن يكتنه المجهول ، أو ما يحسب معاصروه أنه مجهول ، وطريقه إليه واضح عمهد ، تسدد خطاه على نهجه حاسة مرهقة حادة الاستنباط والاستدلال ، يسندها علم راسخ لم يتح قط لاصريء سواء في الناس ، قد اختصه به الرسول ؟ . .

فيما سلف من أحاديثه ، أنذر رجاله ، مرارا مرارا ، بغلبة معاوية على الأمر ، وانتهاء أعنة الدولة إليه . . . ولم يكن ، إذ فعل ، آخذا بتنبؤ أو راجما بغيب وتلك فعالمهم وفعال عدوهم ماثلة له ، فيها الغناء كل الغناء عن التنبؤ والادعاء . فهل عسير عليه بعدها أن يتوقع زوال الملك الأموي القاهر بعد فترة من الزمن ، كما توقع قيامه ، وإن هو إلا دولة أسست على باطل ، وتذرعت إلى الحياة والبقاء بالزيف والخداع والظلم والبطش والإرهاب ، وكلها ذرائع وأساليب من الزبد والجفاء والهباء عمرها بلا ريب قصير ؟ . .

بريشة استنباطه ، صور لهم ما يصيبهم من بني أمية ، ومن دولتهم الآتية ولما تضع قدمها على عتبة التاريخ . فإذا هو يرسم ما وقع فعلا بعد سنين لأنه كان وحده الخلق بالواقع . . . وإذا تصويره لا ينصرف عن جادة الحقائق المقبلة ، لا بقيد شبر ، ولا شعرة ، لأنه لم يحد عن منطق الاستدلال السليم الذي يستقرىء من سلوكهم ما يؤدي إلى هذه النتيجة المخدومة بغير احتمال للمفارقة أو الاختلاف . وإذا كلماته هي القول الفصل الذي ينبثق من خلال الخصائص المميزة لواقعهم وواقع عدوهم ، والرأى القاطع الذي تميز عنه النظرة المحيطة الشاملة بما هو حادث ، المهتمة المتأملة في الملامح السكلية للوقائع ، والصفات الجامعة للنزعات ، دون الاهتمام بالاستغراق في التفاصيل . .

كان مما قال :

« ... والله لتجدن بني أمية لكم أرباب سوء من بعدى . . »

وكان منه :

« لا يزالون حتى لا يدعوا محرما لله إلا استحلوه ، ولا تعقدا إلا حلوه . . »

وحتى لا يبقى بيت مدر ولا وير إلا دخله ظلمهم ، ونبا به سوء رعيهم . . . وحتى يقوم الباكيان ييكيان : باك ييكي لدينه ، وباك ييكي لديناه

فما عدا قوله الصواب وكيف يمدوه ، وإنه للقول الحقيق بالتحقيق والجدير بالتصديق لأنه لا يرجم بغيب ، ولا يستند إلى أحداث تتذاب بها شطعة الخيال . بل المبر بدقة المنطق ، وإحكام الاستدلال منطقاً بغير عوج من شواهد الحال إلى حوادث الاستقبال .

ولا مجال هنا للمراجعة والجدال . . . فقد صدقه الزمن . وتابعته على نظريته الأيام . وكفى شاهداً مؤدياً إلى رأيه الذي ارتأى مسلك رأسهم معاوية معه . ثم دليلاً مؤيداً له مسلك من تلا العاهل الأموي من خلفائه وإن سيرتهم ، من قبل ومن بعد ، في الأمة ، وفي آل بيت الرسول ، لشهادة عيان تغني عن كل دليل وبرهان . . . وإذا كان الهوى والكذب والزيف والبغي والحيف والإرهاب ، وكل ما يوهن الحق ، ويمز الباطل ، ويركب الناس بالمت والشقة والإكراه ، لا تستطيع مجتمعة أن تدبيل دولة وتطوى سجلها من الوجود ، فأى السياسات والسير غيرها إذن كفيلاً بأن يطوى ويبدل . . .

سيرة موسومة ، توارث حلقانها متصلة على صفحة الأرض الإسلامية ، أعواماً وأعواماً ، منذ رنا الأمويون — عسفاً وبغياً — من خلال أطباع معاوية وأخاذه إلى استلاب السلطان ، حتى اللحظة التي تهمشت فيها شوكتهم ، وانطفأت جذوتهم مستعيلة إلى رماد . . . وإذا كان الإمام قد دمع حكمهم قبل أن يقوم ، فلا عن ترة نراه فعل شفاء لغيل . ولا لإثارة الشغب عليهم نزولاً بأقدارهم واستزادة لنفسه من الأنصار . . . بل هي كلمة حق دله عليها استقراؤه المحكم للأحوال الجارية تحت سمعه وبصره . وبيان صدق صراح به الناس قبل أوانه ، سابقاً به رأى المستيقن للتعزز وظن المتردد للستريب . . . وهل يمكن أن تكون الأمة ، في عهده وبعده ، قد خلت من أفراد ، كثروا أو قلوا ، كانت تراوهم الخشية من الغد وهم يتأملون ذرائع معاوية في صراعه على السلطة ، ثم أساليبه في تدبير الحكم ، أو يتفحصون سلوك من خلفوه . . . أم يمكن أن تكون أيضاً قد عقرت أن تنجب نقرأ توقموا سوء العاقبة ووبال المآل لدولة كذلك سارت على

مثل هذه الذرائع وتوسلت بنفس الأساليب في سياسة الرعية والأمور ؟ .

أدنى إلى الحال ألا تختلج خواطر القوم ، طوال ما يقارب قرنا هو عمر الدولة الأموية ، بما قد يهيج الوسوس أو يحرك الشكوك في استقامة نهجها ثم يؤدي بعد هذا إلى الوصول — بالترجيح والاحتمال — لا عسى أن ينتظرها ، عاجلا أو آجلا ، من مصير غير كريم . فلا عجب إذن أن يسبق على غيره من أمته إلى استشفاف هذا المصير . ولا أن يتوقعه لها بمده كثيرون . ولا أن يستيقنه أيضا أناس كفوا — بحكم ارتباطهم بها وولائهم لها — عن المجاهرة به ، إشفافا منه ، وإيهاما لأنفسهم بأنه بعيد ، أو أنه لن يكون . . . ودائما يستدنى المرء في باله المحال للارغوب ، ويستبعد التفكير في المحتمل السكريه . .

سئل أحد شيوخ بني أمية ، عقيب سقوط دولتهم بأيام :

« ما كان سبب زوال ملككم ؟ . . »

فأجاب ، وهو عندئذ لا حاجة به ، ولا جدوى عليه ، لو أوهم نفسه بما لن يكون بعد أن كان :

« جار عمالنا على رعيقتنا فتمنوا الراحة منا . وتحومل على أهل خراجنا فجلا عنا ، وخربت ضياعنا ، خلت بيوت أموالنا . . ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا ، وأمضوا أمورا دوننا أخفوا عليها عنا . . وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا ، واستدعاهم عدونا فظافروه على حربنا . . وطلبنا أعداءنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا . . وكان استنار الأخبار عنا أوكد أسباب زوال ملكنا . »

وذاك هو الجواب الذي لا قول بعده لزار غثب على الدولة الأموية ، طاعن فيها وفي رجالها حكاما وعمالا وبطانة ، لأنه جمع لها من المناقص : الافتقار إلى العدل ، وإثقال كاهل الناس بالحراج ، وإبتزاز الأموال العامة ، والتسكالب على المنافع الشخصية ، والتلهى عن تدبير شئون البلاد ، وإهمال رعاية الجند ، والإغضاء على المظالم ، والجهل بما يدور حولهم من أمور . . وهو الشهادة التي تنطق بها لسان أموى فتدمغ أهله من المثالب والأوزار بما قد لا يظن لبعضه

المدو والغريم ثم يجدر ، مع هذا ، أن يأخذها سامعها بغير حذر لأنها تجيء من هو أميل -- بحكم القرابة -- إلى كتمان ما عسى أن يسمعه كتماناً من مساوى ذويه . . . وهو ، إلى كل ما احتوى ، إيعاء كأنه إفشاء ، وتلميح كأنه تصريح ، وإعلان عن تواتر الأخطاء والميوب ، والنقائص بمختلف جوانب السياسة الأموية ، تباعاً وعلى مدى طويل ، في سلسلة متصلة الحلقات ، لأنه ليس مما تسيغه العقول أن تكون كل هذه الرلات والردائل قد وقعت دفعة واحدة ، في ساعة ، أو يوم ، أو عام ، ثم حطت فجأة أمام الشيخ الأموي فانتبه إليها وهو مبغوت . . .

شهادة تتمثل لنا وثيقة تجريم وتأييم تدين بنى أمية على ما اجتروه ولكنها تبدو أيضاً ، من خلال السطور ، كأنها صحيفة تبرير . . . فالشاهد ، وإن أسهب في تعديد أسباب الانهزام ، يحاول جاهداً أن يبرئ ساحة أهله ، فيلقى بالتبعة على من عداهم ، ملصقا كل مساوى الأمويين بأعوانهم من العمال والوزراء وأهل الخراج . . . وتلك محاولة ، إن تكن جداً وحقاً فيما لعله يحال ، فهي حجة عليهم وعليه لا لهم ولا له ، لأنها عندئذ الغفلة التي لا تعفى من التأثيم . وإن تكن مراوغة ، وإنها كذلك ، فكفاها زيفاً طبيعة الحكم الفردى الذى اختطه عواهل الدولة ، واستأثروا في ظله بكافة أسباب السلطان .

بل هي المراوغة التي لا تخدع أحداً ولو لم يمش في نطاق سلطتهم ، ولا عرف حقيقة سيرتهم ، ولا شهد مظاهر سلوكهم ، ولا عانى مما أبرموه أو نقصوه . . . وها هو ذا ملك النبوة لا تجوز عليه الحيلة حين أراد أحد الأمويين أن يسوق إليه نفس التبرير . . .

كان هذا عندما انطوت صحيفتهم بمصرع آخر خلفائهم ، مروان بن محمد . . . فقد عرق جيشهم . وهلكت كثرة من أمرائهم ، وشرقت البقية الباقية منهم وغربت تضرب على غير هدى في الآفاق إلى مأمن هنا أو ملاذ هناك بحفظ عليهم الحياة . . . إذ ذاك انتهى الفرار بعبد الله بن مروان ، ولد الخليفة الصريح ، إلى أرض النبوة يلتبس فيها النجاة . . .

وعلم ملك النبوة بنزوله فأمر رجاله أن يكرموا مشواه ثم أقبل عليه يزوره

بعد أيام في وفد من أصحابه ، قضاء لحق الضيافة والتكريم .. فلما أن رآه عبد الله ، حتى هب لاستقباله ، يتنمى له عن صدر المجلس ، ويدعوه للجلوس . .

لكن الملك آثر اعتماد الأرض العارية ، محليا لضيافته مكان الصدارة . فلما عجب عبد الله ، وسأله :

« ما منعك من التعود على الفراش ؟ . . »

كان الجواب :

« إني ملك . وحق للملك أن يتواضع لله ولعظمته إذا رأى نعمه متجددة عنده . وفد رأيت تجدد نعمة الله عندي بقصدكم بلادى ، واستجارتكم بي ، بعد عزكم وملككم ، فقابلت هذه النعمة بما ترى من الخضوع والتواضع . »
فكأنما خدشت هذه الكلمات بعض كبرياء عبد الله ، أو كأنما حركت أشجانه ، فأخذ إلى الصمت وهو لا يكاد يجد ما يقول .

أما الملك فقد أغضى مليا . رأسه مائل على صدره . وعينه ملتصقة بالتراب . ووجهه الأسود اللامع لا تبين منه إلا جبهة مفضنه ، قد انعقد فيها ما بين حاجبيه كأنه يدير فيها — على مهل وعناء — فكرة شغلته تحاول أن تجد لنفسها طريقا إلى شفتيه . .

ثم انتبه فجأة وبادر ضيفه :

« أيها الأمير . لماذا شربتم الخمر وهي محرمة عليكم في كتابكم ودينكم ؟ »
فهزت المفاجأة عبد الله . . ولكنه تعال كجاشه بعد هنيئة ، وأجاب :

« اجترأ على ذلك عبيدنا بجهلهم . . »

قال الملك :

« فلم وطئتم الزروع بدوابكم والفساد محرم عليكم في كتابكم ودينكم ؟ . . »

« فعل ذلك أتباعنا وعمالنا جهلا منهم . »

« فلم لبستم الحرير والديباج والذهب وهو محرم عليكم في كتابكم

ودينكم ؟ . . »

« استعنا في أعمالنا بقوم من أبناء المعجم كتاب ، دخلوا في ديننا ، فلبسوا ذلك اتباعا لسنة سلفهم ، على كره منا . »

عندئذ لاح طيف بسمة على وجه الملك ، وهو يطرق برأسه ، ويقلب يده ينكت في الأرض . ثم ما لبث أن قال بלהجة حاول أن تخفي سخريته :

« عبيدنا وأتباعنا وعمالنا وكتابتنا . . . كلا . ما الأمر كما ذكرت . . . ولكنكم قوم استعملتم ما حرم الله عليكم . وركبتم ما عنه نهيتهم . وظلمتم فيما ملكتم . فسلبكم الله العز ، وألبسكم النذل . وإن له سبحانه فيكم لقمة لم تبلغ غايتها بعد . . . »

وانتفض واقفا يقول :

« أيها الأمير . إنى لأخاف أن يحمل بكم العذاب وأتم بأرضي فينالني معكم . »
ثم أردف بهدوء كهدهوء السكين لو غاصت عندئذ بطعنة مصمية في قلب الأمير المذهول :

« .. الضيافة ثلاث . . اطلبوا ما احتجتم إليه ، وارتملوا عني »

وغادر المكان .

كما كاشف رجاله بيزوغ نجم معاوية ، وارتفاعه في أفق الحكم ، أنبأهم أيضا
بانهيار الدولة الأموية ، بمدشوقة وعز وطفيان ، وسقوطها بعد حين صريعة تحت
أقدام أعداء لها ، أشداء لا يرحمون . .

شريط من الصور الحزينة القاعة ، مرسوم بالدم ، كان يمر دائماً في باله ، على
مهاقب زمني — محددا ملامح الفواجع التي لن يلبث أن ينجاب شر الأيام —
ما أكثر ما عرض منه أمام الآذان والأفهام . فكم تحدث إليهم عن محن العدا .
كم أفصحت لهم عبارته عن مآسيهم المقبلة ، ومآسى أمة كانت ، على ضوء حاضرها
القريب المشرق ، تنتظر عهدا من المحبة والوئام والسلام . . . كم أعلن لهم
إعلان يقين عن مصائر خفية توشك أن تقع فتمزق الأمن وتزلزل اليقين . . .

الكنهم ، تهاونا وغفلة ، استقبلوا أحاديثه تلك بغير احتفال ، بعضهم لوى
عنها سمعه وهم يحملونها على محمل الحدس والتخرض . وبعضهم أدارها في خاطره
ثم ظنها من قبيل اللبالة في الزجر والتعريض . . . وعندما لاح لقلة منهم أن تشيم
من خلالها ما أشاع في نفوسها خوف المستقبل ، أسرفوا في تقدير مراميه ،
وتقديره ، إلى أبعد مما تحلم العقول أن يشطع إليه خيال . .

حتى حين استشعرت كثرتهم في سلوكهم بوادر تنبيء ، بالهيئة والمضمون ،
عن استغراقهم في تخاذل هو التقهقر والانحدار ، وفي سلوك عدوهم خطرا يزحف
ظلوا على غير مبالاة كأنما كانوا يحاولون درء المصير المستظر بالاختباء خلف طمأنينه
نسجوها من خيوط عنكبوت . . .

يقول لهم وهو ينذر بمحنة قادمة ، توشك أن تم أمتهم على يد خصم عنيد
جائر ، يعمل ويجهد ويسهر ، وهم في طمأنينتهم الزائفة نيام :

« . . يظهر أهل باطلها على أهل حقها ، حتى تملأ الأرض عدوانا وظلما
وبدعا ، إلى أن يضع الله عز وجل جبروتها ، ويكسر عمدها ، وينزع أوتادها . .

ألا وإنكم مدركوها ، فأنصروا قوما كانوا أصحاب رايات بدر وحنين تؤجروا .
ولا تألثوا عليهم عدوهم فتصرعكم البلية ، وتحمل بكم النعمة ... هـ

اسكن إفصاحه هذا لا يشير فيهم نخوة لأنه الحقيقة التي بدت لهم حينذاك
كرجة الظن ، والنتيجة التي يريهم أن يلبسوها ثوب الأوهام ...

ويزيدهم بيانا وكشفا حتى انهم كلاته ، وهي ترسم حالهم الحى ، أن تجسد
المستقبل بعده خفاقا بنقض اليقين :

« مكنتم الظلمة من منزلتكم ، وألقيتم إليهم أزميتكم ، وأسلمتم أمور الله في
أيديهم ، يعملون بالشبهات ، ويسرون في الشهوات ... وأيم الله لو فرقوكم تحت
كل كوكب لجمعكم الله لشر يوم لهم ... هـ

ولا يكفيه أن يعلمهم عاقبة ثبوت همتهم ، ومآل عسف عدوهم ، بل يزعج عن
مجهول الغد سترأ آخر يطلع عليهم النعمة المحيطة وقد جلاها عن الأمة قوم شداد
صلاب ، يركبون بنى أمية بالفهر والحزى والذلة : حتى ليتمنى رجالها ، في كبوتهم
لو لم ينازعه أسلافهم حقه ، أو يناصبوه العدا ...

يقول :

« .. ثم يفرجها الله عنكم . بمن يسومهم خسفا ، ويسوقهم عنفا ،
ويسقيهم بكأس مصيرة ، لا يعطيهم إلا السيف ، ولا يلبسهم إلا الخوف . فمعد
ذلك تود قريش ، بالدنيا وما فيها ، لو يروثنى مقاما واحدا ... لأقبل منهم
ما أطلب اليوم بعضه فلا يمطونه ... »

وصدق فيما قال ...

فلقد آن ، من بعد ، موعد هذه الأمية الأموية التي أنجبها الندم من زواجه
بخشية المغيبة حين أزفت الآزفة ، ودامهم البلاء ، ولم يعد لهم من دونها كاشفة
ووقاء ...

يومذاك كان مروان بن محمد ، آخر الخلفاء الأمويين ، قد نزل بالزاب ،
يتنبأ لحماية عرشه وعرش آبائه من انتفاضة الشعب التي تزعمها الباسيون . كان

في عدة قوية من مائة ألف فارس من رجاله ، على مائة ألف قارح يرتبهم ، وينظم موافقهم ، ويعد نفسه وإياهم لحوض معركة المصير ..

وأشرف من مقر قيادته يرمى بعينه على جحافل أعدائه . يا لهذا السواد الذي يعلأ الأفق أمامه ويكاد يحجب الشمس عنه . . . أمن كثرة عددهم وكثافة الصفوف ؟ .. أم تلك عمائمهم وأعلامهم السوداء هي التي تنشر الظلام ؟ أم هذه الأسراب من الغربان التي تتابع تحوم على كشب منهم ، وتدانيهم ، حتى غدت تلتهم بمقدمتهم ، وتؤلف مع جموعهم المنتشرة مثل ستارة من دجنة تقبت ضياء النهار .

وتشام مروان ، وتلفت حوله يسبح بنظرة متوجسة في صفوف جيشه اللجب ، وهو يهمس بصوت أسيف :

« إنها لعدة . ولا تنفع العدة إذا انقضت المدة . . . »

وأردف ، وبصره يومي* إلى أعدائه ، كأنما ليبرر توجسه :

« أما ترون رماحهم كأنها النخل غلظا . . . أما ترون أعلامهم فوق هذه الإبل كأنها قطع الغمام السود . . . أما ترون إلى السواد قد اتصل بالسواد . . . »

ثم مال على أذن رفيق له يسأله :

« من صاحب جيشهم ؟ .. »

أجاب الرجل :

« عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس . . . »

فهل لسمه الاسم بشواظ نار ؟ ..

لقد صاح وهو مبغوت :

« ويحك . . . أمن ولد العباس بن عبد المطلب ؟ .. »

« نعم . . . »

فأخفى رأسه كالمضجع ، وقال :

« لوددت والله أن طي بن أبي طالب مكانه في هذا الصف . . . »

فتعجب رفيقه :

« يا أمير المؤمنين . . أتقول هذا عن طي مع شجاعته التي ملأ الدنيا ذكرها . . . »

« نعم . . إن عليا مع شجاعته صاحب دين . وإن الدين غير الملك . . »

لكنها الأمنية التي لم يعد لها اليوم مجال . فقد مضى ذلك الذي كانوا يأمنونه لأنه يصف عما لا تميزه شهامة الفروسية ، ومروءة الإنسانية ، وسماحة الخلق ، من البغى والنكال ولو بخضم مسرف غاية السرف في الحق واليغض والعداوة . وكأنما برزت لروان بوادر نهايته ، فبعث طي الأثر برسالة إلى عبد الله ، يستأمنه فيها بعض استئمان . .

كتب إليه :

« يا ابن عم . . إن هذا الأمر سائر إليك . فاتق الله واحفظني في حرمي . . »
فإذا جواب عبد الله :

« . . إن الحق لنا في دمك . وإن الحق علينا في حرمك . . »

ومع ذلك فلا الحرم أقيلت من مرة الامتحان ، ولا الدماء أهرقت بميزان بل اندفع غول الانتقام يميث فيهم دمارا وقتلة وغيلة ، لا يكاد يردده رادع عن سرفه . .

وكم من صور للانتقام . .

. جىء بإحدى بنات مروان ، بعد مقتله بيومين في مصر ، إلى أحد رجال أعدائه ، فإذا هي ترعد كورقة ذابلة يتقاذفها أعصار حتى إذا مثلت بين يديه ، بدا أمامها كمن يحاول أن يذهب عنها الروح ، فقال مخاطبها بنبرة رقيقة :

« لا بأس عليك أي بنية . . »

فس نفسها بعض اطمئنان ، وقالت تنفس عما تحسه من قلق واضطراب :

« وأي بأس أعظم من إخراجك إلى حاسرة ولم أر رجلا قبلك قط . . »

ابتسم لها وقال في هدوء :

« اجلسي . . »

لكنها ما كادت تفعل ، حتى رمى في حجرها برأس أبيها مجزوزة من عنقه
قد تجمدت عليها الدماء .

فهل هو الملح ، أم الرعب ، أم القسوة الفاحشة ما طفر بالفتاة من مقعدها
تصرخ وتصيح ؟

أما الرجل فلعله ما أحس إلا بنشوة الثباتة تملك عليه مشاعره ، وهو يشهد
نتيجة فعلته ، حتى لقد قال لمن استفسروه سر غلظته التي لا تدانيها غلظة
الوحوش :

« فعلت بها فعلهم يزيد بن طي . . لما قتلوه جعلوا رأسه في حجر زينب بنت
طي بن الحسين . . »

... وأدخلت بنات مروان وحرمة ونساؤه إلى صالح بن طي وهن بعد
النكبة مهيضات مفعوجات . فتقدمت منه كبرى بنات الخليفة الصريح تحاول
أن تستثير شفقتة ، عسى أن يكف عن بقية أهلها بعض النكال . .
قالت له مسترحمة :

« يا عم أمير المؤمنين . حفظ الله لك من أمرك ما تحب حفظه ، وأسعدك
في أحوالك كلها ، وعمك بخواص نعمه ، وشملك بالعمافة في الدنيا والآخرة . .
نحن بناتك وبنات أخيك وابن عمك ، فليسمعنا من عدلكم ما وسعنا من
جوركم . . »

فغضب لقلوبها الذي عرضت فيه بجور الدولة الجديدة ، ورد وهو يزأر :

« إذن لا نستبق منكم أحدا . . »

ثم وإلى حديثه وسبابة يئناه تعد طي أصابع يسراه :

« . . إنكم قتلتم إبراهيم الإمام . وزيد بن طي ، ويحيى بن زيد ، ومسلم بن
عقيل . . وقتلتم خير أهل الأرض : حسينا . وإخوته . وبنيه . وأهل بيته . . »

وسعتم نساءه سبابا — كما تساق ذراري الروم — على الأتقاب إلى الشام . . .
وكانت الدماء تفيض من تحت جلد الفتاة كلما أحصى وعدد ، وثنياتها تكادان
تقضبان سفلى شفيتها من أسف على ما بدر من كلامها الذي أثار ثورته . حتى إذا
رأته يلقف بعض أنفاسه اللاهثة ، أسرعت تستدرك لعلها تصلح ما أفسدته من
مزاجه وتهدي قليلا من غضبته المندلعة .

قالت على خوف وندم :

« يا عم أمير المؤمنين .. فليس منا عفوك إذن ! »

فكأنما فتحت بقولها في فؤاده الصلدة ثغرة إلى الرجاء ، لأنه تعهل هنية ،
ولم يلبث أن قال :

« أما هذا فنعم »

... ومشت إحدى نساء بنى أمية إلى سليمان بن علي ، وهو عندئذ بالبصرة
يعن في قتل آلها الأمويين ، كأنما يتلهم بقتلهم للمتعة وإزجاء الفراغ . . فلما
جمعا مجلسه ، قالت تحاول أن تكنه عن متعته الدموية :

« أيها الأمير إن العدل ليل من الإكثار منه ، والإسراف فيه . فكيف
لا نعل أنت من الجور وقطيعة الرحم . . . »

فلم يزد الأمير على أن أجابها في غير مبالاة مذكرا بعلمك ذويها :

« سنتم علينا القتل لا تنكروا . فذوقوا كما ذقنا على سالف الدهر »

وأطرق لحظة مد بعدها إليها بصره وأردف :

« يا أمة الله ! . وأول راض سنة من يسيرها ! »

.. وعندما جرى برأس مروان لأبي العباس السفاح ، سجد وأطال . ثم
نهض من سجوده وقال يخاطب الرأس المقطوع ، وومض الفرحة لا يغيب عن
حياء ، وجرسها الرافض لا يحتفي من حديثه :

« الحمد لله الذي لم يبق ثأرنا قبلك وقبل رهطك ! .. الحمد لله الذي أظفرنا

بك ، وأظهرنا عليك . . ما أبالي والله متى طرقت الموت وقد قتلت بالحسين ألفاً
من بني أمية ، وأحرقت شلو هشام وابن عمي زيد بن علي كما أحرقوا شلوه . . »

والتهبت عيناه بحمى شماته وهو يتمثل :

« لو يشربون دمي لم يرو شاربهم ولا دماؤهم جمعاً ترويني . . »

وحول وجهه إلى القبلة يسجد مرة ثانية . ثم اعتدل وقال :

« أبي قومنا أن ينصفونا فأنصفت قواطع في أيماننا تقطر الدما

إذا خالطت هام الرجال تركتها كبيض نعام في الثرى قد تحطها . . »

صور وحشية . أم هي صور إنسانية تكشف عن ضراوة البشر ، وترديهم
في وهدة القسوة والعنف إلى أبعد الأغوار ؟

بل هو الثأر ، دائماً ضربة بضربة ، ونكال بنكال يتعاقب جانباً على أديم
الدنيا حيثما كانت في ربوعها معالم للحياة البشرية ، واختلط هواؤها بزفير إنسان .
وقد تعاقب الجانبان على الأرض المريية ، كما يتعاقب ليل ونهار . وتغل في الصراع
الهاشمي الأموي ليرزا لنا — إلى جوار طبيعة البشر البشمة ، انقطاع أنفاس
الظلم والظلام ، مهما طال الأمد ، واستمكنت القوة ، وبعد الرجاء ، وصبرت
عليهما الأيام . .

إنها الحكمة الداهية ، والظاهرة المتكررة التي تتجدد على أطراد بين الآن
والآن ، في كل زمان ومكان ، لتؤكد أن الطغيان لا محالة إلى انتهاء وإن
حرص ذووه — غفلة أو صلفاً — أن يعمكوا له في البقاء . . فلك بديهية
البدييات التي يتناساها كل طاغية ، عن اغترار واستكبار ، ولا سبيل لدولة
أول إنسان إلى نقضها مهما أفسح لأيهما في الفرعنة والتجبر ، لأنها القانون الطبيعي
القاهر الذي يفرض نفسه على حركة الحياة ليحفظ لميزانها الاعتدال . . فما تعرف
الدنيا الإطلاق . وما شيء بها أو لأمر أو لأحد دوام . . إنما إرادة الله قد
قضت بالمرأوحة في الوجود بين النقائص ، وبالمداولة بين الأضداد كالنور والظلمة ،
الأصل والظل ، القوة والمقاومة ، الفعل وردة ، الصوت وصداء ، ليتلى الناس
ويختبر سلوكهم إلى الخير أم إلى الشر ، وإلى الخطأ أم إلى الصواب ، لتحقيق
عدالة الجزاء . .

ولقد أسلف الإمام إلى بنى أمية النذير وهم من بعد فوق بر الأمان أقدر
عندئذ على كبح الأنفس أن تتقحم بهم في المهالك ، وتخوض ، بدفع الأطماع ونزع
الشهوات ، بحاراً من الدم تفضى بهم بعد حين إلى عادية الثأر المنهوم . . فأقلعوا
لو ارعوا . . . وسلموا لو فهموا . . . ولكنهم في غمار الأمانى استغلقت منهم
العقول وانطمست الأفهام ، فعاب عنهم ما لهم المحتوم الذى نشره أمامهم دون
إخفاء . .

أما قال لهم :

« .. ألا وإن لكل دم ثأراً ، ولكل حق طالباً . وإن الثأر فى دمائنا
كالخاكم فى حق نفسه وهو الله الذى لا يعجزه من طلب ، ولا يفوته من هرب .
فأقسم بالله ، يا بنى أمية ، عما قليل لتعرفنها فى أيدي غيركم ، وفى دار
عدوكم . . » ؟ .

قال .

ووقع ما قال بعد السنين الطوال .

وكان الواقع هو النتيجة التى لا معدى من حلولها ، هجلى بها الزمن أو تأخر ،
ترتيباً على ما اجتروه . . كان القضاء اللازم ، والقدر الهام ، الذى حذروه
وأغفلوه . . كان ثمن الطغيان . .

وضربة بضربة . ونكال بنكال . .

لم تكن قط انتفاضة بالغضب لحق ، ولا انتفاضة بالثار لدم ، كذلك الثورات التي تفجرت من بعد في دولة بني أمية ، على مراحل حياتها ، وفي مختلف مواضع نفوذها ، طلبا لحق على ، وانتقاما لدماء آله ، وهي تنشر في جنباتها الدعر والوت والدمار .

وكم لهذه الثورات من دوافع . ولوقدى نيرانها من ذرائع . ولأهلها من أولياء وأنصار . . . لكنها مضت لغايتها ، بغير تردد ، تطوى سجل عدوها وتمحو آياتها . بعضها بداعي القرابة . وبعضها بحكم الولاء . وبعضها صدى للندم . وبعضها عن ادعاء . . .

وكيفما كان من أسباب تلك الحركات القاصمة ، وجميع مشيرها ، فقد قطعت الشوط المنتظر ، وغطت الأرض الأموية بالأشلاء ، غير مبالية أن تقصد في العنف ، أو تميل — عمدا أو عفوا — عن جادة القصاص للقبول إلى أقاصي النكال والبطش والمثلة وهي تضرب ، ماوسمها ، بسلاح السخط والحلق ، لتشفى غيظها ، وتبرد نارها ، فتسقى عدوها من نفس كأسه للمرة التي طالما أترعها في جبروت سلطانه واستكباره لحصومه الهاشميين ، ثم تقهره قهرا على احتسابها ولعل بقاياها إلى المآلة . . . ولا عجب . . . فلا هزادة في حقد ، ولا تحرز مع ثأر . فتورات الجماهير عادة بلا عقول ولا قلوب . وحركات المد الانتفاضى الغاضب لا يكاد يردّها عن انتشارها الجائح جزر إلا أن تبالغ مداها ، وتحقق أربها ، لأنها دائما جموح حرون كاندلاعة الحريق ، أو اندفاعه العواصف والأعاصير .

وحقت هكذا قولة الإمام ، مع الأيام ، في الظالم وفي المظلوم .

ففي المشرق ، إن هي إلا فترة من الزمن قصيرة ، لا تكاد تذكر كمع دولة حتى كان آخر الخلفاء الأمويين مروان « الحمار » يذرع الأرض من الموصل ،

إلى الشام ، إلى مصر ، عبر الفلوات والأنهار ، وهو يفر بجنده من أسياف الهاشميين من بنى العباس ، أبناء عم رسول الله ، فرار الحر المستنمرة أمام قسورة ، ثم لا يجد لنفسه منهم جنة إلا حينه . .

وفي المغرب ، إن هي إلا فترة أخرى عقب هذه حتى انقصف فرع البيت الأموي بالأندلس بعد طول عز وصوله ، ثم ديست معاله ، في إفريقية ، تحت أقدام هاشميين آخر من أبناء الحسن بن علي ، سبط النبي ، هم بنو حمود . . .

ولم تكن جماعل الثوار آنذاك هاشمية خالصة تضم آل الرسول وحزبهم الذين طالما ألهمتهم سياط الأمويين . بل قد لقيت الثورات عوناً قوياً من كثير من العناصر الشعبية البعيدة ، بوضعها الاجتماعي ، عن مجال الصراع بين البيتين الكبيرين اللذين انحصرت فيهما زعامة العرب ، شرقاً ونبوة ، ورنّت إليهما في اضطرابة الحوادث الأنظار . . كانت عناصر شتى ، من الألى لاهوى لهم في السياسة ، ولا مطمع برجونه من وراء التغيير إلا أن يرجعوا كفة على كفة ، ويرفعوا جانباً على آخر . منهم الماطف . ومنهم الحاقد . ومنهم أكثر من أولئك وهؤلاء باحث عن اللغامرة يتسقط الحياة التي يرتضيها وتحلوه من أغوار برك الدم على رنين التعام الحراب . . . وإذا كانت دعوة الدعاة قد طففت ، عاما وراء عام ، وجيلاً في إثر جيل ، تستعجيش كل حاقد على الحكم الأموي ، موتور منه ، لتستزيد من الأنصار ، فإن الجانب الأكبر من الجماهير التي انخرطت في صفوف الثوار ، وأشهرت في وجه بنى أمية سيوف الانتقام ، لم يكن يشدها ، في الأغلب ، إلى هذا الانخراط إلا إحساسها بإنسانيتها ، ووقاؤها للطبيعة البشرية التي تدفع المرء دائماً ، حنوا ورقة ، إلى الانعطاف للمحروم المظلوم ، والانحياز إليه ، انتصافاً له من ظالمه ، إذ يكاد يرى نفسه ذلك المحروم المظلوم . . وهل في السواد الأعظم من الناس أحد لا يسيطر عليه شعور غلاب بأنه فريسة حرمان وظلم ، لم ينل في الدنيا حظاً يكافئ قدره وملكاتة ؟ . .

ودع عنك أيضاً تلكم الزمر الكثيفة التي التحقت بصفوف الثورات الهاشمية وفاء دينياً لله كرى رسول الله قبل ولائهم سياسياً لهذا أولئك من آل بيته الذين تنادوا بحقهم في ولاية الأمر بحكم وشائج القرى وصلات الدم . . ودع عنك

مدم تلكم الزمر الحافلة من الأعاجم أبناء فارس الدين رأوا في انتصارهم آل البيت إحياء لنظرتهم القديمة التي تربط بين الحكم وبين العقيدة فتجعله حقا لهما ، ليس أحد أولى به من ذوى القداسة ، فليس أجدر به إذن من الأئمة آل بيت الرسول . .

طوائف شتى ، لأسباب شتى ، تضافرت على ضرب حكم الأمويين ، وتقويض نفوذهم الباقى حتى سوته بالتراب . . وصور شتى ، بألوان شتى ، من القهر والذل والعذاب . طاردت ذوبهم وأذاقتهم النكال . . وليس كل ما أصاب حليفهم الأخير ، والكثرة الكثيرة من أمرائهم ، من قتلة ومثلة ، هو نهاية مطاف الكارثة التي حلت بهم ، إذ قد امتدت الفواجع أعواما عدة بعد ذهاب ربحهم كقوة سياسية ذات خطر ، واستتباب الأمر لبني العباس . . فما أكثر من قتل وصلب ! . وما أكثر من قضى حياته حبيس السجون ! . . وما أكثر ما هدمت دور وأحرقت قرى على من فيها ومنهم من الأتباع ! . . بل إن منهم من نبش عن قبره ، وأخرجت جثته البالية لتعرق على ملأ الناس ! . .

فظائع إن يكن أسرف في تلوينها التهويل ، وأغرق في ابتكارها الخيال ، فإن بها ، لا ريب ، لمحات صدق تنبئ عن الكوارث التي أحاق بالأمويين ، وأطبقت عليهم — أمراء وأتباعا — من كل جانب ، تحاصرهم بالوبال والدمار ، ويغمرهم بطوفانها الهادر كل حاقد ومنافق وموتور . . فكما لقوا من الدولة الناشئة . ومن أشياءها التأثيرين . ومن طوائف مختلفة من الجماهير التي تحركها غريزة القطيع للاندفاع مع تيار التنكيل الذي أطلقته النعمة أو مع سكرة الانتصار . .

حتى بعد أن هدأت هونا غضبة بني العباس ، وخفت عندهم شهوة الانتقام ، لم تعدم البقية الباقية من الغرماء المقهورين ممن أفسح لهم عندئذ في النجاة والحياة ، أن تتحرك إليها ، من هنا ومن هناك ، عوامل الدس والحسد والبغضاء ، لتتلاها الدنيا عليها تحريضا ، وتعيد من حول جوعهم وأفرادهم تأريث النار . .

ولقد جرى من هذه الكوارث للفظعة على السنة الروايات والشائعات كثير وكثير . .

قيل . .

... دخل مرة مولى لبنى هاشم ، طى أبى العباس السفاح ، وقد ثبت ملكه ، واستقرت دولته ، فإذا هو يرى عنده فريقا من أمراء الأمويين ، قد أمنهم الخليفة ، وأوسع لهم فى مجلسه بعد أن اتسع لهم عفوه ورضاه . .

وغص المولى . لم يطق هذا المظهر من الصفاء والألفة يقوم بين صاحب الأمر ومن كان بالأمس يطاردكم بأسيايف تقمته . . فأسرع يسأل عليهم أسانه ، مقبلا طى الخليفة بشمر يشيره ، ليوقظ فى نفسه وحش الانتقام الذى نام . .

أنشد يقول من بين ما قال :

« يا ابن عم النبی ، أنت ضیاء استبنا به الیقین الجلیا
جرد السیف ، وارفع العفو ، حتى لا نرى فوق ظهرها أمویا
لا یغرنک ما ترى من رجال إن تحت الضلوع داء دویا
قطن البغض فی القدیم وأضحى ثابتا فی قلوبهم مطویا . . »
لما هو أن فرغ من شعره ، حتى كان سم تحريضه قد سرى فى قلب السفاح ، فغير وجهه ، وحرك حقه ، ودفعه يطرق هنية كالنادم ثم يرفع وجهه ليقول :

« خلق الإنسان من عجل . . »

وأردف يتمثل :

« أحياء الضغائن آباء لنا سلفوا فلن تبید ولآباء أبناء . . »

والتمت نحو غلمائه وقد اشتعل فى نظراته الشر ، يومئ لهم إلى جلسائه الأمويين :

« خذوهم . . »

فقتلوا . .

وقيل :

... نزل مولى آخر للعباسيين طى عبد الله بن طى وعنده طائفة من بنى أمية قد صلب عنهم ، ودعاهم بمجلسه إلى سمط طعام مد لهم ولبن حضره من أصحابه .

فما أن وقعت عينه على الشهيد ، حتى تغير ، كما تغير رفيقه الآخر ، وأسرع ينفث دميسته ، وينفض الرماد عن الجمر . . .

أنشد يحرّض الأمير :

« لا تقبلن عبد شمس عثارا واقطنن كل رفلة وغراس
 ظلها أظهر التودد منها وبها منكم كحد اللواسي . . .
 أنزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والإتعاس
 واذكروا مصرع الحسين »

وراح يعدد شهداء بني هاشم . . .
 فذكر عبد الله ما كان أسيه . . . وإن هي إلا لحظة حتى شدخت رؤوس
 ضيوفه الأمويين بالعمد ، وبسطت عليهم البسط ، ومدت فوق جثثهم المهشومة
 — وإن يبعثها لبقية حياة — موائد الطعام . .

وقيل وقيل ، غير هذا كثير ، بتنطق الصدق أو يسرف التحويل .

نكال ما بعده نكال ليس يخلو من معالم الحقيقة وإن أغرق في الانسياق
 للخيال . . ومع ذلك فهو ، على أي نحويه كان ، حصاد ما زرعت دولة الأمويين
 في عنفوان طغيانها من دم وخراب . وهو جنى مر لما غرسته في النفوس من
 إحن وعداوات . . ولقد توشك اللبائعات أن تلقى بأكشف الظلال على ما سلف
 من مظالم الحكم البائد حتى لتنعله من صنوقها ما لم يقترف ، ولكننا نوشك ألا
 نرى أيضا عهدا في تاريخ الإسلام قد شهدت ، على طول المراحل ، مثل ملامح
 الشطط في الفسوة والعنف التي أبدتها ذلك الحكم لمنافسيه ، حقداء عليهم أو خوفا
 منهم . ولا مثل فعل أساطينه بالشعب ، الذي دان للمكهم واحتوته قبضتهم ،
 بلوغا إلى تغيير مشاعره نحو الهاشميين عامة ونسل فاطمة خاصة ، وانحرافا بتأييده
 إلى الجانب المضاد . .

أبدا لم يدع شو أمية سبيلا إلى إشاعة البغضاء على خصومهم إلا طرقوه تأمينا
 لدولتهم التي قامت على ادعاء حق لا نصيب لها فيه إن لم نقل قامت على الاغتصاب . .
 فيكل ما وسعهم الدعوة والحيلة والإكراه حاولوا القضاء على خصومهم ، كقوة

قيادية ، في مجال السياسة ، لها وزنها في تنبيه الأفسكار وتحريك الجماهير ، أو كسيرة عطرة ، في مجال المواطف ، تتعلق بها الخواطر وتمفو إليها القلوب . تذرعوها بكل ذريعة : محظورة أو شريرة . توسلوا بكل وسيلة : كرية أو لثيمة . . . بالسكامة والسيف . بالابن والعنف . بالوعد والوعيد . بالإحسان والحرمان . بطمس الحقيقة . بتشويه القيم . بتدليس الأنبياء . بتزييف الأحداث . بابتداع أمور ووقائع لم تنسم الحياة . بما قد يستطاع أن يحمل . بلغة يومنا — في عبارة « غسل للخ » بمختلف أنواع الإلحاح في المغالطة والتهميه ، دحضا لحجج غريهم عليهم ، وفضا لأنصاره من حوله ، واستهواء خادعا يستجلب لهم مزيد من التبع والخلفاء .

والحديث في هذا الوجه يطول وإن بوعد ما بينه وبين الإحصاء وأخذ فيه على طريق التمثيل . . . لكن قصة واحدة قد تغني عن كلا السيلين لأنها أبلغ تعبير يستطيع أن يرسم نتيجة « حملة الكراهية » التي شنها بنو أمية على الإمام وذويه كما قد لا يرسمها مثله تعديد الصور ، والإفاضة في استقصاء الشبهة والنظير

وهذه هي القصة . .

ارتحل رجل إلى الشام يحول فيها ، فلفته أن أحداً من أهلها — على كثرة من عرفهم ، وصر بهم ، وسمع منهم — لا يتسمى باسم على أو حسن أو حسين ، أو ينادى به غيره ، وإنما تفشو فيهم أسماء : معاوية والوليد وزيد ، وأمثالها مما يحمل أهل الأسرة الحاكمة ورجال الدولة . .

وعجب . . وهل كان لظاهرة كهذه أن تشيع في أمة على صفة شيوعها ذاك الذي بلغ الإجماع ؟

ثم قاده ذات يوم عطشه إلى شامى ، ببعض الطريق ، ليستسقيه . .

فما كان أهد مجبه حين سمع الشامى ينادى أبناءه ليلبوا طلبه :

« يا على . . يا حسن . . يا حسين . . »

عندئذ لم يملك المسافر أن يسأله :

« يا هذا . . إن أهل الشام لا يسمون بهذه الأسماء . . »

قال صاحب الماء :

« صدقت . . إنهم يسمون أبناءهم بأسماء الخلفاء . . »

« وأنت ؟ . . »

« كرهت ذلك ، لأن أوامرك إذا لمن أحدم ولده أو شتمه فقد لعن خليفة .
أما أنا فقد سميت أولادى بأسماء أعداء الله ، فإذا شتمت أو لعنت فإنما ألعن
أعداء الله . . »

إلى هذا الحد بلغت حملة الكراهية الأموية من « غسل المخ » بغضا
لأمير المؤمنين ونبيه . . وإلى نحوه من الغلواء أمعن الأمويون بعنفهم وقسوتهم في
التنكيل بعقبه وآل بيته ومن شايهم من الناس . . فأما وهذه هي قوة « الفعل »
فمن الطبيعي أن تناظرها قوة « رد الفعل » حين يتاح الانتفاض . . ومن الطبيعي
أيضا أن تستشف النتيجة المنتظرة لهذا الارهاب الطاغى قبل وقوعها . ويستشعرها كل
متأمل كال حينئذ مع بنى أمية أو عليهم ، من خلفائهم وأمرائهم وسادتهم أو من
عرض الجمهور . . وإذا كانت الرؤى والأحلام ، فيما تحدثنا العلوم النفسانية
العصرية ، تفصح في نوم المرء عن أحاسيسه المكبوتة ، فتعكس أحيانا شعوره
بالذنب ، وتعبّر أحيانا أخرى عن المخاوف أو الآمال ، فليس من شك تحت
هذا الضوء في أن رؤيا سليمان ابن هشام بن عبد الملك ، أحد أمراء الأمويين ،
صارحته بما كان يكتم من شعوره بذنب ذويه ، وصدقت في إفصاحها له عن خوفه
المكبوت من مصيرهم المنتظر . .

.. يقول العلاء بن رافع مؤنس الأمير :

« إني لمع سليمان ، وهو يشرب تجاه رصافة أبيه . . وعنده الحكم الوادى

يغنيه . . »

ونعنى القصة . .

يجيد المغنى ما شاء . ويشرب سليمان ما شاء . ويشرب معه رفاقه حتى يسكروا

جميعا ، ويتوسدوا أيديهم كالغفاة النيام من فرط الشراب .

ثم يحس الملاء كأن يدا قوية عنيفة تحاول تحريكه . فينتبه مذعورا على الأمير وهو يهزه متعجلا وقد بدت في عينه نظرة وجوم . .

وبغت الرجل ، وقال :

« ما شأن الأمير ؟ . . »

قال سليمان كالماس ، يقص رؤياه :

« . . . رأيت كأنى فى مسجد دمشق ، وكان رجلا على يده حجر ، وطى رأسه تاج أرى بصيص ما فيه من الجوهر ، وهو رافع صوته بهذا الشعر :

أبى أمية قد دنا تشتيتكم وذهب ملككم وليس براجع
وينال صفوته عدو ظالم كاسا لكم بسام موت ناقع »

فصاح الملاء :

« أعين الأمير بالله من وساوس الشيطان الرجيم ! . . هذه أضغاث أحلام . . »

وأطرق الأمير مليا وقد استغرقته أفكاره . فلما أن رفع وجهه ، كانت ملاحظه كابية ، وكان فى عينه سهوم . وكان ثقل التشاؤم يكاد يهوى بحروف كلماته قبل أن تلتئم عبارة مكتملة ، وهو يقول لرفيقه :

« يا حميرى . . بعيد ما يأتى به الزمن قريب ! . . »

وكان حقا قريبا ذلك البعيد الذى تحت أحلام قومه غيابه وراء خط العدم لا تطلع به عليهم الأيام . . فقد وقع . لم تحمل بينه وبين سقوطه عليهم كسفا ما اصطنعوا من حذر ، وما أعدوا من قوة ، وما ساروا به من البطش والعسف والإرهاب فى الناس ، تسكيا للأفواه ، وغلا للأيدي ، ولبا للعقول والأفهام . ولم ينفعهم كذلك الذكر الذى طالما جرت بهم أحاديث على وهو يحذرهم للغبية ، وينذرهم سوء المآل . . وهل كانوا ليذكروا وإن بوارق الاطماع لتغشى منهم (١١ — الإمام ٨)

العيون وتغلف الأفئدة وتوقر الأسماع ؟ . . . وإنه لعدو أولى بهم ألا يحملوا كلامه على عمل الجد بل على عمل التوبة والإيثار . . . وإنهم ، إبان ما عدد من نذره ، كانوا على أول الطريق إلى تسنم قمة الصولة ، ودونها — في حسابهم — يقصر شرط غيرهم ، وتنهر ألقاسه ، ولو حاول أن يطير إليها على جناح الخيال ؟

وكيف لا ، وهام أولاء يرون أصحابه اللاصيقين به ، العاملين لنصرته — فيما تبدى لهم وللناس — لا يكادون يلقون بالآ إلى هذا القدي قال وردده يوما وراء يوم في المقال تلو المقال . . . بل تحذيره إذن تخريف لأولئك وحث لهؤلاء ، ونذيره إذن من قبيل الدعوة الشبطة هناك والمهرضة هنا عسى أن ينال ببلاغة الكلام وصرير الأقلام ما فاتته أن يناله في ساحة الوغى وحومة الصدام . . .

لو أنهم أصغروا إليه ، فربما تغير لهم الوضع ، واختلف بهم المصير ، ومشى التاريخ معهم على غير نهجه الذى ساروه ، ووعته لنا بعدهم بطون الأسفار . . .
 لكنه القدر اللازم ، حين يبدأ خطواته ، لا يرده شيء عن الانطلاق .
 والقضاء الدائم ، لا تنفى عن وقوعه حيلة . بل الحيلة دائماً تكون له
 ولا تكون عليه ، لأن العيون تعمى ، والبصائر تنطمس ، والعقول تذهب ،
 وتقدير الأمور — بداية وغاية — تضطرب معايره ، فيهول المرء عندئذ ما يهون ،
 ويهون عليه ما يهول ، فإذا هو يحذر ما لا ينبغى الحذر منه ، وتسوقه الغفلة
 — آمنا — إلى الانزلاق نحو المحذور المقدور . . .

وتلك خلاصة قصته معهم . . . يبصر ، فكأنما غير ذوى بصر . ويردد ،
 فكأنما لغير ذوى سمع ! وهم ، من دونه ، يظنون الأمان فيما لا أمان لهم فيه .
 ويرون الخوف فيما لا خوف عليهم منه . . . وبين اليقين والشك قد اختبل سلوكهم ،
 يميلون للإيسار حين يقصدون إلى اليمين ، ويمعنون في الشك وهم يحسبونه اليقين .
 لا عن جهالة فعلوا ، فقد علم . ولا عن ظن ، فقد بين . ولكنهم قوم كانوا
 على اعتداد تعالوا به إلى حد الاغترار . فلم يتعبد لهم طريق التصديق . إنما كلفوا
 بالمراجعة ، فأسلتهم إلى المسكابة ، فوقعوا في الشدة ، فذالوا إلى التكذيب . . .
 ولا غرابة أن يكون هذا ديدنهم ، لأن الجيلة البشرية مركوز فيها لإنكار
 ما لا تعرف ، واستبعاد ما يفهم عليها فهمه أو تبريره . وقد كان ما يحدثهم الإمام
 عنه أحياناً — حثاً وتحذيراً — من غوامض الغد وأسراره ، أبعد من امتداد
 نظرهم القاصرة ، وأكبر من إحاطة علمهم المحدود . . .

كألى يخطف البرق أبصارهم فلا يرون إلا الظلمة وإن أثار ، كانوا
 لا يستطيعون رؤية الحقيقة فيما يقول ، فيسملهم عمام على التكذيب ، ويقودهم
 جهلهم إلى الإنكار . تماماً كدأب المشركين والمناقضين الأولين مع محمد ، نهرتهم

رسالة السماء فراوها دعوة إلى الصبوء لا دعوة إلى الهداية ، ورأوه معها كشاعر وكاهن وساحر ، ولكنهم لم يروه قط كرسول . وكذلك الإمام .

في رجاله كثر من كذبه . . فكلما أفصح لهم عن حدث مكنون لما يتفتق الزمن عنه ، أو أوماً إلى أمر من الأمور المغيبة عن عقولهم ، افتروا عليه ، وألصقوا به الادعاء . . بعضهم ، عن حماقة وجهل ، جاهره بالكذب في غير محرز . وبعضهم خباؤه تحت الألسنة ، نفاقاً ومراعاة ، وإن طالما ألحمهم أجمعين بما لم يكن لهم معه محيص عن التصديق . .

فكأنما نسوا ما مر بهم من شواهد صدقه وإنها لناطقة بأبلغ بيان ، ماثلة أمام العيان ، ثابتة في الأخلاء والأذهان ليس يسمع الأشهر القلائل التي تقضت أن تطمس منها الكثير ، بل اليسير . .

وكم تلبجت لهم الأمثال .

فتنة الخارجة مثل .

مصارع أهل النهر وان مثل .

قصة المخدج ذي الثدية مثل .

ألوان عدة من أنباء المغيبات جرت تحت أسماعهم على شفثيه حديثاً وأحداثها ما زالت خلف ستر الزمن لم ينسج منها خيطاً ، ولا صاغها القدر في حروف . .

ولم يكن يرجم بظن ، ولا يستقرى* النجوم ، ولا يلتجئ* للسكينة وهو يرمى بعينه إلى ما وراء العلوم المنظور لآياتهم بشذرة من المجهول للمستور . . .

إنما كان ينطق عن حق لا شبهة فيه ، لأنه كان عندئذ يطلعهم على بعض علم محمد الذي اختصه به من دون الناس ، وهو ليس بالذي يفترى على الرسول . .

وقد سمعوه يقول :

« . . إذا حدثتكم عن رسول الله فهو كما حدثتكم ، فوالله لأن آخر من السماء أحب إلى من أن أكذب على رسول الله . . »

لكنهم لم يراعوا عن تكذيبه وإن كانت لهم في سيرته — لو عقلوا —
ما ينأى بهم عن هذا الافتراء المدحوس . .

وجادلهم في نظرتهم المنعرفة مرة فقال :

« . . . بلغنى أنكم تقولون : على بكذب . . قاتلكم الله ! . . فعلى من
أكذب ؟ . . أعلى الله ؟ . . فأنا أول من آمن به ! . . أم على نبيه ؟ . . فأنا
أول من صدق به ! . . كلا والله ! . . لكننا لمجة غبتم عنها ، ولم تكونوا من
أهلها . . . »

ثم أتبع ، وهو يعجب ويأسف لافتقارهم — فكرا وروحا — إلى النفس
الشفافة التى تحس ، والعقل اللماح الذى يدرك بعض ما كان يوصىء إليه من
علمه المكنون :

« . . . ويل أمه كيلا يغير ثمن ، لو كان له وعاء . . . ولتعلن نبأ بعد
حين . . »

ليس بالثمن كان يدعوهم للشراء من كنوز حكمته . ولا بالقطرة كان يقتر
في كيله لهم من أفياض معرفته . إنما كان يسخو عليهم غاية السخاء بما وعى من
نعم ربه وآلاء صفيه رسول الله من شذور هادية من العلم الإلهى والنبوى
لا مقطوعة ولا ممنوعة . غير منتظر جزاء يحجزونه إلا أن يتفهموا ما يطالهم
به ، أو يفسدوا لبعضه جانبا في القلوب والصدور ، عسى أن ينفعهم ذكره
في حياتهم هذه الحاملة الجاهلة ، الجامدة الجاحدة ، المملقة المغلقة ، التى يحيونها
وهى لا حياة ! . .

كانت دعوته :

« ها إن بينى جنبي علما جما لو أجد من يحمله . . »

فلا هم أقبلوا ، ولا هم نهلوا . . كأنما قد أبوا عليه أن يرفدهم بما لديه ،
وأبوا على أنفسهم أن تغتذى بنوره ، حتى بدوا قلوبا من صخر صلد عسير عليها
أن تتشرب ما ينزل لها ، حللا طيبا ، من ماء عذب يذهب عنها قهولتها ،
ويهبها النضرة والحضرة والنعاء . . .

ولم يكف عنهم نداءه . كلما حانت لحظة لتبصيرهم خف مشوقا مهموما يبحث ويستوى ، مجاوزا مهم دور « التاجر » العارض سلعته أمام العيون إلى دور « الدلال » المتلهف على ترويج ما عنده من بضاعة بكل ما يسعه من أساليب الإغراء ووسائل الاستمواء ، لعله هكذا يجتذبهم الإقبال عليه قنصا لفرصة سانحة ما كانت لتتكرر لو أنه طوى متاعه ورحل عن السوق . . .

أهاب بهم ، ذات يوم ، ليعرك فيهم رغبات التطلع الدفينة تحت ركام التغافل وقلة البلالة .

كان مما قال :

« أسألوني قبل أن تفقدوني . . . فوالذي نفسى بيده ، لا تسألوني عن شيء بينكم وبين الساعة إلا أخبرتكم . . . ولو قد فقدتموني ، ونزات بكم كرائه الأمور ، وحوازب الخطوب ، لأطرق كثير من السائلين ، وفشل كثير من المستولين . . . وذلك إذا قلصت حربكم وكانت الدنيا عليكم ضيقا ، تستطيون أيام البلاء عليكم حق يفتح الله لبقية الأبرار منكم . » فلم تنل إهابته هذه من اهتمامهم شيئا ، لأن علمه — فيما بدا — كان سلعة غريبة عليهم ، خليفة بأن تيور في سوق جهالتهم الجهلاء . . .

ثم خطر له أن يكرر عليهم نداءه ، مرة أخرى ، ممنيا نفسه أن يجد بينهم سميعا يقبل ، ومنصتا يتأمل ، وإن كاد ليوقن تماما أنهم مستقبلوه بالتكذيب الموغل في الضلال ، والافتراء قبل الإهمال المستند إلى المكابرة والادعاء .

قال :

« والله لو أمرتكم بجمعتم من خياركم مائة ، ثم لو شئت لحدثكم من عدوة إلى أن تغيب الشمس ، لا أخبرتكم إلا حقا . . . ثم لتخرجن فلتزعمن أني أكذب الناس وأجفهم »

ولئن نطق حديثه هذا بمنطق الآيس من صلاح أمرهم ، الذي يرى الخير في أن يكف عنهم دعوة قصاراها أن ترتطم بأسماع صماء ، وقلوب عليها أكنة ، فإنه لينبئ أيضا عن علم سابق بمسلكهم قبل أن يكون ، وبصدقه القاطع الذي

شاء لهم غيهم واستكبارهم وضيق ألقهم أن يغشوه دائماً بأقذع الشبه وانكر
الظنون . .

ولا جدال ، فقد حدثهم فصدق ، وسمعه فكذبوه ، حين وقف ، عقيب
وقعة النهروان ، يذكر لهم أطرافاً من القدر المجهول . .

إذ ذاك خطبهم خطبة مستفيضة ، نحا فيها إلى الإيحاء دون الإفصاح ، وإلى
التلميح بدل التصريح ، وهو يشير إلى ماسوف يركب القوم من أخطار نهول ،
ومن كوارث نزحهم أيامهم ، ولا تزال تأخذ منهم ، وتثخن فيهم ، حتى يقبض الله
لهم من يماديه الإمام من وراء ستر الغيوب :

« . . . يا ابن خيرة الإماء . . . متى تنتظر . . . أبشر بنصر قريب من
رب رحيم . . . ألا قويل لمتكبرين عند حصاد الحاصدين ، وقتل الفاسقين
عصاة ذي العرش العظيم . . . فبأبي وأمي من عدة قليلة ، أسماؤهم في الأرض
مجهولة ، قد دان حينئذ ظهورهم . . . »

ثم يلفت الناس إلى ما يدخره الزمن لهم من سوء المآل ، وإنه ليقصد
في إخبارهم بعض القصد ترفقا بهم أن يفترسهم الجزع ، وخوفا عليهم أن
يضلهم الافتتان :

« . . . لو شئت لأخبرتكم بما يأتي ويكون من حوادث دهركم ، ونوائب
زمانكم . وبلايا أيامكم ، وغمرات ساعاتكم . ولكنني أفضيه إلى من أفضيه
إليه مخافة عليكم ، ونظرا لكم ، علما مني بما هو كائن وما يكون من البلاء
الشامل . . »

لكنه لا يمنع نفسه أن يحذرهم العقبي الخوفة ، فيصف لهم تلك التربة التي
تنبت الأهوال المنتظرة ، وذلك الأوان الذي يحصدون فيه جنى ما تبذر أيديهم ،
لعل منهم من يقلع عن غي سلوكه ، ويحد من غلواء ضلاله ، تخفيفا من غضب
الله عليهم واستفادة لرحمته وعفوه :

« . . . ذلك عند تمرد الأشرار ، وطاعة أولى الخسار . . . ذلك عند
ظهور العصيان ، وانتشار الفسوق . . . حين لا قال للعيشة إلا عصية الله في

سمائه .. حين تسكرون من غير شراب ، وتحلفون من غير اضطرار . وتظلمون من غير منفعة ، وتكذبون من غير إحراج ، تتفكهون بالفسوق ، وتبادرون بالمصية .. قولكم البهتان . وحديثكم الزور ، وأعمالكم الغرور »

حق إذا ختم كلامه ، بنبذة الأسيف الحزين ، رمى يصره إلى بعيد ، كأنما إلى القدر المكتوب :

« عند ذلك لا تأمنون البيات . . وياله من بيات ما أشد ظلمته عند ذلك تقتلون ، وبأنواع البلاء تضربون ، وبالسيف تحصدون ، وإلى النار تصيرون . . فيا عجبا كل العجب من جميع أشتات ، وحصد نبات . . . سبق القضاء . . . سبق القضاء . . . »

هنا لم يعدم من بين جمهورهم الحاشد غالبا في الحق والحقه غلوا يصعب الجهل ويركب الشطط ، يقول :

« أشهد أنه كاذب على الله ورسوله . . . »

فما كان ذلك من هذا الآثم بغريب . بل الغريب حقا أن أحاديث الإمام عن الأمور اللغوية كانت تدفع الناس من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين . من المغالاة في الإنكار والتكذيب إلى حد التكفير ، إلى المغالاة في التأييد والتصديق إلى حد التأليه .

في يوم قال لهم ، كاشفا عن علمه لعله أن يشير فيهم فضولا يدفع بهم إلى الاعتراف من معينه :

« لو كسرت لي الوسادة ، لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم ، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم ، وبين أهل الفرقان بفرقانهم . وما من آية في كتاب الله أنزلت في سهل أو جبل إلا وأنا عالم متى أنزلت ، وفيمن أنزلت . . . »

فإذا كان هذا القول خليقا بأن يحرك عجبهم ، فلا عجب معه وإنهم ليعلمون أنه ارتوى من علم رسول الله . وإذا كانت الدهشة قد تؤدي إلى الشك فما كان

أحرامم بأن يستنبطوه ما شاءوا ليقطعوا الشك باليقين . . لكنهم لا بهذه ولا بتلك أخذوا ، بل جنحوا إلى الغفالة في شأنه من تقيض إلى تقيض . . .

بعضهم أنكر فقال :

« يا لله والدعوى الكاذبة . . . »

وبعضهم أيد فقال :

« أشهد أنك رب العالمين . . . »

على مشقة عاش بينهم الأشهر الطويلة الأخيرة محاولاً جهده أن يبلغ بهم غايتهم
وغايتهم ، وهم في أسلوبهم ذلك من التفكير والسلوك .. إذا دعا تغافلوا . وإذا حث
قدموا . وإذا حذر راوغوا . وإذا أوماً إلى مصير لا يرضاه ولا يرتضونه يوشك
الغد أن يتكشف عنه انحرافوا في تقدير إيمانه إلى أقصى اليسرة فهو كاذب ،
أو أقصى اليمين فهو إله تفتحت له مغالق العيوب . . . فلام يقنعون منه بالتلميح
الذي أيدت بعضه الشواهد الماثلة والأحداث التي جرت أمامهم تحت السمع
والبصر . ولا هو كان يسه أن يزيدهم بياناً فيكشف لهم ، بالتصريح السافر ،
ما قد أوثق عليه من أسرار .

وبين ضيقه بجهلهم الجاحد لملئه الذي تلبجت لهم منه آيات ، وصدقته — من
قبل ومن بعد — الأمثال ، وبين حرجه من المبادرة إلى إفصاح هو موقعهم ،
لا محالة ، في فتنة مضلة ، مضى يعالجهم ما استطاع . . .

ولم نره قط تهاون في إراز النذر الحربية بأن تحملهم على التراجع عما سددوا
فيه وإن عبر بالإشارة التي تجزى الجزاء كله عن المكاشفة المفضوحة . . . فليس
مأموراً بأن يهتك الحجب ويزعج القناع . ولا بمقدوره أن يأخذ بأقدامهم أخذاً
فيضنها على الطريق الذي يتفرون من ولوجه . ولا أن يلقيهم ويضع على أطراف
السنتهم كلاماً يقولونه ، كأنهم قردة أو يغاوات . . . فما جدوا وجدواهم من
صعوف متراصة ترحم الطريق ثم لا تسير ؟ وما يفيد ويفيدهم من قول أجوف
يرددونه ولا يقترن به إيمان يترجم حروفه إلى أفعال ؟ . . . بل إن مقتضى شوقهم
على هذا النحو فيه ما ينضو عنهم الإرادة ، ويجردهم من ملكات التفكير ،
ويفقدهم جزاء العمل الدأى ، حتى ليبلغ دورهم في الحياة ككائنات عاقلة ذوات
إدراك ، ثم ينفي عنهم التبعة ، ويرفع التكليف وما هو بمرفوع عنهم لأنه العبء
الذي ينفرد الإنسان بين كافة الخلائق بحمله ، ومعيار الحساب الذي يوزن به
سلوكه فترجع كفته إلى الثواب أو تشيل إلى العقاب . . .

أشبهه بمحالمهم في هذا المقام ، فبما حدثنا الذكر القدسي ، حال بني إسرائيل حين أهاب بهم موسى :

« . . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ، ولا تترددوا على أدباركم فتقلبوا خاسرين . . »

فما دفعتهم دعوته إلا إلى التعلل ، ولا حملهم نذيره إلا على الثبوت . .
قالوا :

« يا موسى ، إن فيها قوما جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها . »
فلما قيل لهم ، إغراء وعدة :

« . . ادخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون . . »
أصروا على تمردهم الزنيم :

« يا موسى ، إنا لن ندخلها أبدا ، ماداموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا ،
إنا ها هنا قاعدون . . »
ذاك أشبه بمحالمهم معه . .

أما حاله معهم ، فأشبه أيضا بحال موسى حينذاك من بني إسرائيل ، وقد تقطعت به الوسائل . وتمزقت الأسباب ، دون عطفهم على غايته :

« رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . »
قلولا أن أثارة من أمل كانت لا تزال تومض في ظلمة يأسه بكجرة بها بقية
من حرارة وهي تحت الرماد . . ولولا إحساس أمين ببقته أمام ربه وأمام
الأجيال كتيبة كل ذي رسالة عليه البلاغ ، لنفض من الأمر يديه ، وتركهم
وما يشاءون . .

لكنه بقي وما نذر له نفسه ، ثابتا في الميدان . . يحارب بالتبصرة التفاعل ،
وبالتذكير الاستهانة ، لعله أن يهز في أعماقهم شعورهم بإنسانيتهم ، ويبعث في كل
منهم حيا الانسان العاقل للدرك الذي دفنوه تحت ثوبا كلهم ، ليعيش مرة

أخرى دوره الحق الذى هيأته له طبيعته ، وعيا عاملا وعملا واعيا ، لا يعرفان سلبية الجود . .

قال لهم ، كأننا ليحركهمهمهم ، ويذكر كلامهم بذاته ، كقوة حية عاقلة عاملة ، لها ملكاتها المميزة ، وإرادتها التى لا ينبغي أن تترك لتصدأ ، أو تهمل فتموت : « . . وأيم الله ، لولا أن تتكلموا فتدعوا العمل لحدثكم بما قضى الله على لسان نبيكم . . »

وتلك غاية ما يمكن أن يصل إليه تكريم إرادة الإنسان ، وتحرير سلوكه ، ليعملا « اختيارا » بوحى مشيئة صاحبهما وتفكيره الخاص دون قهر أو إجبار . .

وكما حرص على توفير هذه الحرية لأصحابه ، وحثهم على ممارستها ، فقد كان دائما يعمل على أن تسير فى طريقها المأمون ، بهداية التقدير السليم الواعى ، الذى يستند إلى منطق العقل ، ولا ينحرف مع شطحات الأخيلة المخمورة . وإذا كان بعض رجال أمير المؤمنين ، كما شهدنا ، قد انطلقوا على غير السبيل الطبيعى الخلق بأن تقودهم إليه أحاديثه ، فغالوا فى تقدير وضعه إلى تأليهه ، وأمعنوا فى إيمانهم به إلى غاية المروق ، فما استطاع أن يقال إن تفكيرهم هذا كان نتيجة لازمة لإيماءاته بين الهيئة والفينة إلى أحداث « غدوية » كانت حينذاك خافية عنهم ثم ما لبثت حتى أيدتها لهم الأيام .

ليس هذا بمستطاع . بل محال المحال الذى لا يطوله التوقع ولا يدانيه الاحتمال . . فمن المرفوض المردود أن تكون « إيماءاته » تلك علامة لقداسته الربانية التى أفاءها عليه قومه عن ضلال . ومن الخطأ أى خطأ أن تتخذ ذريعة للتسويع العذر لأولئك المارقين الغالين . . وكيف لا ، وهذا رسول الله ، قد أخبر قبله فأكثر الإخبار عن الغيبيات ثم لم يدع له أحد من أصحابه نفس الإدعاء ؟

أقرب إلى الصواب أن يقال إن أولئك الرجال ترسبت فى نفوس بعضهم بقية من عقائد قديمة لم تسكن ترى أى ضير فى اجتماع الطبيعة الإلهية إلى الطبيعة البشرية فى إنسان رفعت مكابته فى عيونهم مكانا عليا فقدسوه . أو دفنت بعضهم

الآخر تقاليدهم السياسية ، المنعدرة فيهم من خلال تراث ماضيهم إلى تأليه الحاكم ، وإنعاء نسبه إلى السماء أخذاً بنظرية الحق الإلهي للسلوك في حكم الشعوب . أو دعت فريقاً ، غير أولئك وهؤلاء ، دواع من الحق تحركها اتجاهات شعوبية أو قومية ، إلى السكيد للإسلام والمسلمين ، بإشاعة أمثال هذه الفكرة المنكرة في الدين الغالب الجديد . . ولا غرابة في هذا ، لأن رقعة الدولة الإسلامية قد راحت تتسع ، في تلك الآونة ، لاشتغال كثير من البقاع التي تضم أمماً وأجناساً شتى ، منها ما وتره العرب في الفتح ، ومنها ما كان له تراثات وفلسفات ثقافية وعقيدية وسياسية ترى التثنية ، والتثليث ، والتقداسة الإلهية لصاحب الأمر والسلطان . .

وكأننا لم تغب كل هذه العوامل الضالة المضللة عن الإمام ، وهو يومئذ لرجاله بعض الإيحاء إلى الغيبات ، كلما حملة موقف من مواقفهم على انتهاج هذا السبيل ابتغاء التحذير . . فكلم طالما صارحهم ، وهو يحدّثهم أحاديثه الإيمائية ، أنه ناقل عن الرسول . وكلم طالما ، فرق هذا ، أقصر وأقل من أمثال تلك الأحاديث ، محاولاً أن يكتم عنهم ، وسعه ، ما يستشف أو يقدر أو يعلم عن صفيه رسول الله من أسرار النفوس والزمان ، خشية أن يفتتنوا به ، ويدعوا له العلم بغيب لا يدعيه ، قد أكرهته الظروف على التلميح بطرف منه عسى أن يكون في ذلك بعض ما يرجو لهم من صلاح . .

إن نبع العلم النبوي الذي لا ينضب كان ، لا ريب ، غير محجوب عن الإمام بحال . بل كان هو الأثير به ، منذ طفولته ، دون صفوة أصحاب رسول الله وخاصة أهله . يستقي منه . وينهل حق الارتواء . ويراجع محمداً فيما قد يستسر ويلهم من الأمور ليزيد بهذه المراجعة معرفة . فإذا لم يفد على من معين النبوة الفياض — وهو الذي كان « ولداً » لمحمد ، صفياً له ، لصيقاً به ، قد أوتي ما أوتي من ذكاء القلب ، وصفاء النفس ، وحيدة الدهن ، وتوقد اللواهب واللكات — فأى امرئ غيره كان أولى بأن يفيد ؟ . .

ومع ذلك فلم ينههم التحذير ولا الإقصار . .

قال لهم ، من بعض كلام له ، يعرض فيه عليهم علمه لا انتفاعهم ، وهو لا يفسى ،
مع العرض ، تحذيرهم الافتتان :

« . . سلوني . . فوالله لا تسألوني عن فئة تفضل مائة ، أو تهدي مائة
إلا أنبأتكم بناعقها وسائقها . . ولو شئت أن أخبر كل رجل منكم بمخرجه
ومولجه وجميع شأنه لفعلت . . ولكن أخاف أن تكفروا في رسول الله . .
والذي بعثه بالحق ، واصطفاه على الخلق ، ما أنطق إلا صادقا . ولقد عهد إلى بذلك
كله . . وما أبقى شيئا يمر على رأسي إلا أفرغه في أذني . . »
ومع ذلك افتتنوا . .

صدق فيهم فراسته . تحقق ما كان يقدره منهم ويخشاها عليهم . ضل منهم من
ضلوا وغاصوا في الكفر من القدم إلى أعلى الهام . .
طائفة ادعت له النبوة . .

طائفة خفت الادعاء ، فتنادت بأنه شريك الرسول في الرسالة .
طائفة قلت أخطأ جبريل عند تنزله من رب العرش ، فنزل دونه على محمد
ابن عبد الله .

طائفة جأرت بأنه هو الذي بعث محمدا رسولا من لدنه إلى الناس .
طوائف عدة آخر ، سدرت غاية السدور في الروق والضلال ، منها ما زعمت
له الحلول ، وما ادعت له الاتحاد في الله ، وما رأته الله .

قال له قائل منهم :

« أنت الله . . »

وقال فيه شاعر لهم :

« إنما خالق الخلائق من زء زع أركان حصين خير جذبا

قد رضينا به إماما ومولى وسجدنا له إله وربا »

وأنشد فيه شاعر آخر :

« ومن أهلك عادا وثمودا بدواهيـه

ومن كلم موسى فوق طور إذ يناديه
ومن قال طى للنبر يوما وهو راقيه
سلوى ، أيها الناس . فخاروا في معانيه

وكم من قائل ومن أفوال ، ذهبت بهم وبها الأعصر طى إدبار وجاءت بغيرهم
على إقبال . . . فإذا هم جميعا ضلال من ورائه ضلال . وإذا هو بالأواخر ممنوع
في سيرته وفي ذكراه . وبالأوائل ممنوع في حكمه وفي صبره ، يحملهم على « الكفر »
به طوعا أو عنوة ، فلا يرتضون — لاجبة في العناد والغنى — إلا المصيان ،
باسم الإيمان .

فما كان أعجب أنصاره حينذاك من حزب العراق . . . لاهم عيده كإله
فأحسنوا العبادة وأطاعوه . ولاهم عاهدوه كإمام فوفوا بالعهد ونصروه . . . إنما
عاشوه أجمعين على رياء ونفاق ، وحالفوه بالخلاف والشقاق . . . الألى قدسوه
كان تقديسهم إياه ترانيم جوفاء ، وزرائيل خرقاء ، قد تظهر الخشوع بالسجود
والركوع ، ولكنها لا تبرز الطاعة بالولاء والأداء . كأنما آمنوا من « الرب »
وهم يصونه ، بطش عذابه ، وثوقا برحابة غفرانه . . . والألى بايعوه على
النصرة كإمام ، خفروا الدمة ، ومزقوا الموثق ، مخلصين لدعة هي الضمة ،
وآملين في سلام هو الاستسلام . فإذا هم حين الدعوة أسود كلام ، وحين البأس
تعالب ونعام . . .

الفصل الخامس

بكل الحسرة في القلب . بكل المرارة في الفم . بكل الأسى في العين . بكل الاستهانة والاحتقار والزراية تقطر من حروف كلماته وهو يعصر عنها شفثيه كما يعصر الباكي الدموع من مآقيه ، ارتقى الإمام النبر ، على ضجر وملالة ، ليحدث تكم الجموع الزاخرة أمامه عددا كالموج ، الهشة في خلدته وزنا كالسكلا الدابل . . .

بدأ فقال :

« ما هي إلا الكوفة أقبضها وأبسطها . . . »

وأطبق أصابعه ، وأطلقها مرة فمرة فمرات ، فما انطبقت ، في كل مرة ، إلا على خواء ، ولا انبسطت إلا عن خواء . . . وهل الكوفة حين ذاك من الدولة العريضة ، الآخذة في التداعي ، إلا كقطرة من بحر طام ، إن هو جف فليس بالقطرة بعد غناء . . .

ثم صوب نظراته إلى البلدة المائلة له في أشخاص رجالاتها المجتمعين حياله ، وأكمل في ازدياء :

« . . . إن لم تكوني إلا أنت تهب أعاصيرك ، فقاتلك الله . . . »

فلقد برم بها وبهم .

برم بهذه الكوفة . . . وهان شأنها عليه . . .

إنها الحاضرة الضخمة التي تصدر غيرها من البلدان والدائن الخاضعة لحكمه ، وتقودها إلى هدفه على الطريق . . . ولكنها أسوأ قدوة ، وأذل عنوان .

وهم قومها ، وهان شأنهم عليه . . .

إنهم خلاصة الأقوام من مهاجرين وأنصار وأهل الأمصار الذين وانفروا

على وحدة أمتهم ، وأخرجوه من المدينة للجهاد حرباً على الانقسام . . ولكنهم مالبثوا أن نسوا الهدف ، وخانوا الميثاق ، وهبت خلافاتهم عليه كالأعاصير . .

مسلك عجيب غاية العجب أن يروموا الوحدة من غيرهم ، ثم ينقسموا على أنفسهم مثل هذا الانقسام . .

على أن العجب قد يخف هونا حين تعلم أن الخلاف كان مركزاً في خلائق فئة فيهم غير قليلين ، عسير عليهم التحرر منه لأنه محال انتزاع الطباع . فهم بحكم بدوهم بعضهم ذوو عناد غال ، ومراس شديد . وبحكم انحدار بعضهم من ثقافات فكرية معقدة ، كالثقافة الفارسية ، أو تأثرهم بها ، ذوو نظر في الأمور يدفعهم إلى البحث عن البواعث والمقارنة بين النظرات . ومن التزاوج بين العناد والمقارنة ، ينشأ الترجيح والجدل واختلاف الآراء . واقد ذهب أسلوبهم هذا في التفكير كل مذهب إلا إلى يسر الطاعة وسهولة الانقياد حتى وصفوا على لسان كثيرين بأنهم أهل شقاق وشغب وميل إلى اصطناع الصراع . ولعل كلام الحجاج عنهم أدنى الكلام إلى الإفصاح عن خصائصهم ، وإن هو أضعف بتعبيره — نكصم أعماء لده — في الإقذاع . .

قال لهم مرة .

« يا أهل العراق . . يا أهل الشقاق والنفاق ! إن بمتكم إلى ثغوركم غلتم وختم وإن أمتهم أرجفتم . وإن ختمت نافتهم . لا تذكرون حسنة ، ولا تشكرون نعمة . . »

ففسير بلوغهم مبلغ الرضا بما يكون . .

واستنكر خلافهم عليه وإن كان حرياً منهم ، في حقيقة الأمر ، بأعنى الخلاف . .

« هل استخفكم ناكث ، أو استغواكم غاو ، أو استفزكم عاص ، أو استنصركم ظالم ، أو استعضدكم خالع ، إلا اتبعتموه وأويتهموه ، ونصحتهموه وزكيتهموه . . هل شغب شاغب ، أو نمب ناعب ، أو زفر كاذب ، إلا كنتم أشياعه وأتباعه ، وحماته وأنصاره . . »

وعجب لعنادهم الذى لا تثنيهم عنه مرارة التجربة ، فقال :

« ... ألم تزجركم المواعظ .. ألم تنبهكم الوقائع ؟ .. ألم تردعكم الحوادث ؟ .. »

وكيفما كان إفداع الحجاج بن يوسف الثقفى لهم فى الهجوم ، وغلوه فى فحش الوصف ، فقد كانوا قوما خليقين بأن يعضل سلوكهم بأى حاكم وضعت الأقدار منهم بـمكان قيادة ، بسبب شكيمتهم الذهنية الوعرة . . فلكل حجة عندهم ناقض . ولكل خلاف يمارسونه تبرير . . وإنهم ليتذاءبون دائماً بين الرضا والسخط حتى ليتفتت الراى بينهم ، وتنشعب السبل ، فيغم عليهم الخطأ كما يغم الصواب . ويتأرجحون بسلوكهم بين المعارضة والتأييد حتى لتتعطل قواهم المنتجة ويصيبها الشلل أو يصبىها الاضطراب نتيجة لهذا التجاذب الذى يشدها من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين . . وفيما سلف من ألوان سلوكهم مع الإمام ما يكشف هذه الطبيعة فيهم فإذا هى آخر الأمر تردد عن العمل ، وإحجام عن الإقدام ، وسلب بدل إيجاب . أو هى ردة مباغتة عن اليهود ، ونكسة على العقب إلى الوراء بعد انطلاق . أو هى شطحة مع المغالاة تنكر لكل تعقل ، وتمعى عن كل واقع ، وتعمى فى الشطط إلى أقصى الأبعاد . .

وفيما بدا اليوم له منهم أيضاً مثال مقيت . . فلقد تشاقلوا عن النهوض للجهاد معه ، وللذود عن بلادهم التى راح معاوية يتخطفها بغاراته الإرهابية وينتقصها من الأطراف . ، فعلى ما وضع لهم من سياسة خصمهم ، وانتهاجه فى حروبه الجديدة سنة تسوم أرضهم الخوف والدمار ، وتزعزع ثقة ناسها فيهم ، فقد ركنوا إلى الدعة والتشاقل كأما استمروا هذا الإذلال . . وهامهم اليوم والغارات الأموية تدوس ذمارهم ما شاء هواها ، قد بلغ بهم تعاوتهم أن قبعوا فى ديارهم غير آبهين لصيحات على كأما لا يعنهم الأمر ، وإنهم ليمهلون علم اليقين أن الإرهاب الوحشى يحترق حدودهم بالحرق والقتل والنهب من الشمال إلى الجنوب البعيد .

فهل يعنى الآن عنهم النذير ؟ .

بل إنما عليه البلاغ . .

وبالمرة يقول :

« .. أنبئت بسر اقد اطاع اليمين . وإني والله لأظن أن هؤلاء القوم سيدالون منكم ، باجتماعهم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم . وبمعصيتكم إمامكم في الحق وطاعتهم إمامهم في الباطل . وبأدائهم الأمانة إلى صاحبهم وخيانتكم . وبصلاحهم في بلادهم وفسادكم .. »

ولو شاء لعدد من خطل سلوككم فأكثر .. لكنه رأى أن يقصر . وهل جدوى من الإكثار ؟ ..

لكنه رفع كفيه نحو السماء يبتهل :

« .. اللهم إني قد ملتهم وملوني ، وسئمتهم وسئمونني . فأبداني بهم خيرا منهم ، وأبدلهم بي شرا مني . » .
وليستجيبن الله . . .

فكأنني بهم قد اضطرب في جنوبهم شيء من القلق لهذا الدعاء الذي هز فيهم مشاعر صدئة ، وحرك مخاوف نائمة تحت أطباق كثيفة من الاستهانة والغفلة والاستهتار . لكنها هزة خدرة لم تجل الصدا ولم تذهب أدرانته ، وحركة فائرة ما كانت لتوقظ النيام . . .

أما قائد الحملة الإرهابية المدمرة ، بسر بن أبي أرطاة فقد مضى شوطه إلى غايته المرسومة ، وفي باله ، مع كل خطوة يخطوها ، أن ينفذ أمر عاهله معاوية حرقا بحرف وأن يزيد من عنده لو استطاع في النكال والعذاب والحراب التي خرج لها من الشام بفرقة الدمار ..

واستعاد بسر في باله خطة معاوية وهو آخذ على الطريق :

« سر حق تمر بالمدينة ، فاطرد الناس ، وأخف من مررت به ، وانهب أموال كل من أصبت له مالا ممن لم يكن دخل في طاعتنا .. فإذا دخلت المدينة فأرهم أنك تريد أنفسهم ، وأخبرهم أنه لا براءة لهم عندك ولا عذر ، حتى إذا ظنوا أنك موقع بهم فاكفف عنهم . ثم سر حتى تدخل مكة ، ولا تعرض فيها لأحد ، وأرهب الناس عنك فيما بين المدينة ومكة ، واجعلها شردات .. حتى تأتي صنعاء والجند ، فإن لنا بهما شيعة ، وقد جاءني كتابهم .. »

ثم استعاد شعار هذه الخطة ، كما وضعه له ابن أبي سفيان :

« اقتل شيعة على حيث كانوا . . »

وعلى هذا انطلق قائد العدوان . .

سار حق نزل بدير مروان . ثم مضى على طريق المدينة ، كلما نزل على ماء
عنّف بأهله ، وشرّد جمعهم ، وركبهم بكل ألوان العنف والإرهاب ليخلوا بينه
وبين ما يريد ، يستبيح من أموالهم ، وينال من متاعهم ، ويتخذ إبلهم وخيولهم
مطايا لرجاله تنقلهم مرحلة حق يقع على ماء آخر يتزود منه بمطايا جديدة ، ويدع
هذه تضرب في البلاء . .

وبلغ مشارف المدينة وسيرته المرغبة قد سبقته إليها طليعة . . فإذا بقضاة
تحف إليه قرب مداخلها تتملقه لتأمين ثمره فتحرّ له ولأصحابه الجزور . . وإذا
أبو أيوب الأنصاري ، عامل البلدة ، يهر بنفسه من بطش الطاغية ، وماله
ولا لها ، رده من أهلها يحميا ويحميه . .

وانعقدت في سماء مدينة الرسول سحائب الدخان بعد قليل منبثة من أسنة النار .
فقد أشاع بسر الحريق في الدور كما أشاع الهلع في الصدور . . أحرق دار
أبي أيوب ، ودار ابن رافع ، ودار زرارة ودورا غيرها كثيرة لتكون عنواتا
موجزا يفصح به عما يدخر للسكان يعني عن كل بيان . . وعندما دخل المسجد ،
وارتقى المنبر وتحمته قد تنكست رؤوس الناس ، خوفا وخزيا ، تلا وهو يحمل
نبراته التهديد والوعيد :

« ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها من كل مكان ،
فكفرت بأنهم الله ، فأذاقها لباس الجزع والخوف بما كانوا يصنعون . . »

وأردف :

« . . وقد أوقع الله تعالى ذلك المثل بكم وجملكم أهله لم تشكروا
نعمة ربكم ، ولم ترعوا حق نبيكم ، وقتل خليفة الله بين أظهركم فكنتم بين قاتل
وخاذل ، ومتردّص وشابته . . »

وشتم الأنصار :

« . . . يا معشر اليهود وأبناء العبيد . . . أما والله لأؤقمن بكم وقعة تشقى غليل صدور المؤمنين وآل عثمان . أما والله لأدعنكم أحاديث كالأُم السالفة ! »

ثم حمل الناس على الدخول قسرا في طاعة معاوية ، لا يؤمن منهم جمعا ولا قوما على حياتهم إلا أن يبايعوا ويباع زعيمهم معهم . فإن غاب ذلك الزعيم ، جعل قومه كفلاء بإحضاره إليه ، أو يهدر دمهم كافة . . .

. . . . قدم عليه شيوخ المدينة يبايعون ، فأرسل بصره فيهم متفقدا ، وقال :
« مالي لا أرى جابر بن عبد الله . . . »

فالتصقت الألسنة بالخلق . . . وهل منهم من يشى بمقره . . .

لكن ابن أبي أرطاة التفت إلى قوم جابر يتهددهم :

« يا بني سلمة . . . لا أمان لكم عندي أو تأتونى بجابر . . . »

فانتشر القوم على الأثر ، خشية الوعيد ، يسعون في فجاج البلدة ، وإلى حينما ظنوا أنهم واقفون على صاحبهم بمنأى بعيد عن بطش السفاح . . حتى إذا وجدوه راحوا يناشدونه :

« نشدك الله يا جابر لما انطلقت معنا فبايعت ، خففت دمك ودماء قومك ؟ »

إنك إن لم تفعل ، قنلت مقاتلينا ، وسبيت ذرارينا . . . »

واستنظروهم الرجل الليل . فلما أمسى خرج خفية من مخبئه يترقب حتى دخل على أم سلمة زوج الرسول لعله أن يلتبس عندها فرجه من ضيقه . . .

وقالت له السيدة ، بعد أن أصغت لحديثه :

« يا بني . . . انطلق فبايع . . . احقق دمك ودماء قومك ، فإنى قد أمرت

ابن أخى أن يذهب فبايع ، وإنى لأعلم أنها بيعة ضلالة . . . »

وكما فعل بسر بالمدينة فل بعدها بمكة والسلب والحراب والقتل تسعى على الطريق إليها بين يديه . فإذا هو يدخلها وهي توشك أن تكون خاوية . إذ خرج منها عاملها قثم بن العباس . وتنعى عامة أهلها ينأون عن الهلاك المقبل .

ولم تبق منهم إلا قلة من ذوى الحسب ، استقبلت إليه تستقبله ، وكأنما ظنت أن لها من أحسابها جنة دونه . . . فما أن أقبلوا عليه حتى ابتدرهم بفحش القول وأفزع الشئام ، ثم عقب يقول :

« أما والله لو تركت ورأي فيكم لترككنكم وما فيكم روح تشى على الأرض . . »
فأسرعوا يضرعون إليه :

« الله الله في أصلك وعنزتك . . »

غير أنه رعى ضراعتهم وراء ظهره ، وكأنما لم تحترم كلمة منها أذنيه . . ومضى عنهم إلى البيت يطوف وهم وقوف بالباب وكل زفرة نفس تلتقطها صدورهم المضطربة تسكاد تقول لهم : أنا الأخيرة . . .

وجبههم بعد الطواف ، بشماتة واستعلاء :

« الحمد لله الذى أعز دعوتنا ، وجمع أنفسنا ، وأذل عدونا بالقتل والتشريد . . هذا ابن أبى طالب يباحية العراق فى ضنك وضيق ، قد ابتلاه الله بخطيئته ، وأسلمه بحريته ، فتفرق عنه أصحابه »

ودعاهم للبيعة معاوية فسارعوا ، لأن إباءها فى كفة ، وراءوسهم فى كفة . . . وعندما هم بأن يبرح بعد بضعة أيام ، رعى وجوههم بمزاج من وعيده وصلفه :
« يا أهل مكة ، إني قد صفحت عنكم . . فإياكم والخلاف ! فوالله إن فملتم ، لأقصدن منكم إلى القى تبيد الأصل ، وتحرب المال ، وتحرب الديار . . »
وغادر مكة إلى بقية الرحلة .

دهاء كريات . أو رياء كدهاء . لم يعدم أيهما أهله وبسر يمشى بهوله على أرض دولة الإمام من الرأس إلى الذيل ، ناشراً عليها الخراب كالضباب . . لم يعدم . ولا كان ليعدم وفي الناس آنذاك مثل المغيرة بن شعبه . فهذا العملاق الثقفي الأعور الذي وسعه أن يصانع الغريين بالعراق وبالشام ، ويصانع الأحداث المضطربة منذ فار الرجل وانفجر البركان ، لم يعضل به أن يستقبل طاغية الإرهاب بما يرضيه . .

كتب إليه ، إذ علم بمخرجه من مكة قاصداً إلى بلدته الطائف :

« بلغني سيرك إلى الحجاز ، ونزولك مكة ، وشدتك على المريب ، وعفوك عن المحسن ، وإكرامك لألى النهي ، لحمدت رأيك . . قدم على صالح ما كنت عليه ، فإن الله إن يزيد بالخير أهله إلا خيراً . جعلنا وإياك من الآمرين بالمعروف ، والقاصدين إلى الحق »

فهل من عنوان أفصح بيانا عن سبق بلدته بالولاء للقادم وصاحبه ، من هذا الكتاب ؟ . . وهل نعمة حاجة ببسر ، بعد ، إلى ممارسة الإرهاب ؟ . .

بل إنها كوثيقة طاعة كما أنها رسالة استئذان ، ما كان ليعنف معها بسر بأهل الطائف ، أو يسير فيهم كنهجه الذي انتهج في مدينة الرسول والبلدة الحرام . . فلقد كفاه أعور ثفيف مشقة انتزاع الولاء بالعنف وبالسيف ، وجاءه به هدية حق لشمر الطاغية عندئذ أنه جدير منه بالتقدير . .

لذلك التقيا لقاء صديق بصديق ، وافترقا فراق حليف وحليف . فما كاد بسر يظهر حق خف إليه المغيرة ، وخلا به يتناجيان . .

وقال بسر لصيفه يحتم الحديث :

« صدقتى ونصحتى . . »

وخرج المغيرة معه ، فى اليوم التالى ، فشيعة ساعة ، ليسله إلى الطريق للجنوب . .

ومن عجب أى عجب أن الحملة الإرهابية الأموية لم يشهر فى وجهها سلاح ، ولا قوبلت بكلمة إاء ممن أخذتهم يبطشها المهين ، لا من خاصة أو عامة ، ولا من حكام أو محكومين ، طوال رحلته المشثومة حتى نزل بصنعاء ، كأنما الناس قد خلت نفوسهم عندئذ من الحمية التى تحمى على الذود عن المال والدار والآل . أو كأنما مسيرة الدمار قد سبقت إليهم بالدعر طليعة تشل منهم الجوارح ، وتخدر العقول ! . .

فأخذ انحدر الوحش بحملته الرهيبة فأوغل فى الانحدار بها قوة مدمرة من الشام إلى المدينة إلى مكة إلى أرحب إلى صنعاء إلى جيشان ، مجتاحا مخاليف اليمن وإماراته ما شاء الاجتياح ليكر عائدا مرة أخرى إلى صنعاء . فإذا هو فى انحداره ذلك لا يكاد يعرف بمحاضرة ولا بادية ولا أهل ماء تلمسوا الرى والسكلا فى لجج الصحراء إلا صب عليهم العذاب . يقتل ويحرق ، وينهب ويسلب ، ويدمر ويخرب ، مفضعا فى غاراته كل الإقطاع حتى ارتفع عدد ضعاياه إلى ثلاثين ألف قتيل . وإذا هو يصل فى انحداره إلى أسفل درك يمكن أن تهبط إليه إنسانية بشر من الحسة والقدر ، والمنف والتسكيل ، لم يردده وازع من خاق أو دين عن انتهاك حرمة ، أو هتك أمان ، أو الغزو على أعزل ، أو نحر شيخ كبير ، أو ذبح طفل صغير ، أو الفتك بالزمر والجماعات وإن لم يبادروه بعداء ، وإن استقبلوه بالهدوء أو الاسترضاء . .

. . . . فى نجران قتل عبدالله بن عبد المदान وولده مالكا ، وكل جريرتهما أن الأب كان صهرا لعبد الله بن العباس عامل الإمام على صنعاء . .

. . . . فى صنعاء حين آب إليها بعد بطشه بأهل المخاليف المجاورة ، قتل مائة شيخ من أبناء فارس ذنبهم لديه أن امرأة من بنى جلدتهم ، قيل إنها آوت إلى بيتها طفلى عبيد الله . .

من مأرب قتل وفدا بأكله بمث به أهلها ، ليعلم له عن طاعتهم ، ويطلب منه الأمان . .

ثم دع بمد هذا من قتل من شيعة علي ، زمرا عدة ، سواء من كان قد كف عن لقاءه ، أو من حاول أن يدرأ حملته بالسلاح . . فقد راح يتعقبهم فرادى وجماعات في الدروب والدور ، وفي المدن والبيداء ، لا يقع منهم على فريق أو فرد إلا أعمل فيهم سيوف الإفاء . .

غير أن سلوك هذا الطاغية السفاح إن يكن أعلم بشيء يصمه أبد الدهر ، ويذهب به على الأعصر مثلاً للوحشية والحسة ولؤم الطباع ، فذاك فعله بطفل عبيد الله . فلقد علم وهو يبعض طريق عدوانه ، أن الصغيرين وأمهما عند رجل من بني كنانة ، فتحركت على الأثر شهوته للدم . .

هب من لحظته بين جمعه الكثيف إلى الكناني يضرب عليه بابه ، ويطلب إليه تسليمه الغلامين . . وريع الرجل وأيقن الشر في ثياب بسر ونحت عمامة فما كان ليقدّم كل هذه المسافة الطويلة وهو يضمّر غير ماعهد القوم فيه منذ أخرجه المشثوم من أرض الشام . .

وعلى الفور طالع رجل بني كنانة الطاغية وجعله بسيفه في يده ، وقد وقف دونهم في فجوة الباب . وعجب بسر . وغضب واشتعل حنقه حتى غدا وجهه من غيظه بلون الرماد . فكيف يجترأ أمرؤ فرد عليه ، ويعترض شيشته ولو بلفظة لسان ، فضلا عن السيف الذي التمع من غمده ، هو الذي عنت له جباه الجموع وذلت أمام صولته ؟ . .

صاح بالرجل يهدر :

« ثكلتك أمك ! . . والله ما كنا أردنا قتلك . . فلم عرضت نفسك

للقتل ؟ . . »

لكن الكناني لم يبال منه ثورته ، ولا لهجة وعيده للبطنة بالأمان ، بل رد عليه في إباء :

« والله لأن أقل دون جارى ، لهو أعذر لى عند الله والناس . . »
 وعد منفردا ، وهو حاسر ، على الطاغية المنمر وأصحابه الذين تحلقوه
 كالسور ، وهو يرتجز :

« آليت لا يمنع حافات الدار
 ولا يموت مصلتا دون الجار
 إلا فى أروع غير غداراء »

وراح يضرب فى الجمع الحاشد ، لا يدرى أين يقع منهم سيفه ، حق
 نالوه ومزقوه . .

هذا خلا الطريق أمام السفاح لغرضه ، فتهلل بحياه ، وسالت بسمه مقبلة
 على جوانب شفقيه كلمات الثعبان ، ثم أمر بالطفلين فقدمتا بين يديه ، وذبحا ذبحا
 كما تذبح الشياه . .

كلا . . ما هي بمسوة طاغية . ولا هي ضراوة موتور . . ولا هي لوثه
 مجنون هذه الفعلة الشنعاء . . بل هي القدوة والضراوة واللوثه جميعا قد
 تفجرت من قلب صلد ، لا يعرف الإيمان ، كتفجر اللحم من بركان . . إن
 الناس عندئذ من الحادث شهود كغياب . . الأعين جمدت ، لا ترى من ذهول . .
 الآذان ملاءها طنين الدوار . . القلوب كفها هلعها عن الوجيب . الخلق قاب
 الغيان . . وعندما بدرت أول بادرة للحياة بين هذا الوجوم ، كانت إحدى
 الكنائيات هي التي حركت صفحة السكون والآسن ، إذ صاحت فيمن حولها ،
 بصوت خفته حشرجة بكائها ، تقول فى استنكار :

« هذه الرجال يقتلها ، فما بال الولدان . . »

وانتقلت نحوها بسر وفي نظراته نار . .

لكنها لم تأبه ، ومضت تم ما بدأته ، بغير اكتراث ولا احتفال ، وعينها
 ثابتة على السفاح لا تريم :

« . . . والله ما كانوا يقتلون فى جاهلية ولا إسلام ! والله إن سلطانا

لا يشتد إلا بقتل الزرع الضيف ، والشيخ الكبير ، وقطع الأرحام
لسلطان سوء . . . »

وكانما لقي حديثها صدها في نفوس غيرها من الكنائيات فهدرن بالتقريع
كما هدرن بالنواح ، لأن ابن أبي أرطاة لم يجد له عندئذ مخرجا مما وضعه فيه
إلا أن يجابههن بالتهديد :

« والله لعممت أن أضع فيك سيف . . . »

فردت المرأة تنهدها :

« والله إنه لأحب إلي إن فعلت . . . »

عى عن الجواب على تحدى المرأة الكنانية ، فلم يعقب . وما كان ليحسن التعقيب في ذلك الموقف لو أنه أراد . ومضى عن مشهد الصريحين الصغيرين ، وهما على الثرى غريقين في الدم ، وحنقه الصامت يصرخ في الناس بلغة ملاحه الحرساء . فإذا هو ، من خارجه ، في نظرة الأعين الرائية : « بسر » .. وإذا هو ، من داخله ، في نظرة الغد القريب : « مجنون » .

فما كانت سيرته الشنماء في ضحيته هاتين ، وقبلها في عشرات الألوف من ضحاياها ، إلا بادرة لوثة ، أو خطوة واسعة على طريق الجنون ..

وما لبث القدر غير قصير وقت ، ثم كشف الغطاء عن غده المخزون ، فكشف جنونه المدخر للعيان ..

وإذا كانت امة الإمام ، من بعد ، قد أصابته وحقت فيه فلائها اللامنة التي سبعت على تيار الشواهد الماثلة من سلوك السفاح إلى النتيجة المنطقية التي كان لا بد أن تكون ..

أقد استمر ابن أبي أرطاة ، بعد أن نفص يديه من حملته ، يعيش بين الدماء والأشلاء ، وعلى الكر والفر في أحلام وهمه وخيالات رؤاه ، قاتلا حارقا مدمرا ، لا يستطيع العودة ثانية إلى حياة السلام ..

كانت صحيفة ذهنه قد تشبعت بالدم . فلا موضع فيها لفكرة سواء ..

كان يحارب أشباح ضحاياها ..

إنها دائما تتراءى له . تطبق عليه من كل جانب ، تطارده موتورة في اليقظة وفي المنام . فلا يلوذ منها إلا إلى سيفه ، كما كان يفعل إبان وعيه ، يقاتل به ، ولا يكف عن الهيال به بين الأشباح النازية عليه ، في وضعة نور ولا في عتمة ظلام ..

لكنه كان عندئذ سيفاً من خشب ، يضرب ضرباته المصلية في الهواء ..

لحين ألحت عليه اللوثة ، واستشعر الخطر الذى جسمه له شعوره بجرمه ،
كان يهذى ويصيح بمن حوله :

« أعطونى سيفاً .. أعطونى سيفاً أقتل به .. »

وحين أعيانهم أن يمدوه لرشده المسلوب ، ويكفوه عن الهذيان ، وضعوا فى
يمينه السيف الخشبى ، وقدموا له وسائل لينة تمل فى ذهنه أعداء الموهومين ،
ليشخن فيها ما شاء ..

أما لعنة الإمام التى أصابت بطل الإرهاب ، فكانت ضراعة توجه بها إلى
السماء ، حين بلغت السيرة الدموية التى جرى بها ابن أبى أرطاة فى قوم أمة ،
عزل من السلاح ..

دعا ربه آنذاك :

« اللهم إن بسرا باع دينه بالدنيا ، وانتكح محارمك ، وكانت طاعة مخلوق
فاجر آثر عنده مما عندك .. اللهم فلا تمته حتى تسلبه عقله ، ولا توجب له رحمتك
ولا ساعة من نهار .. »

وصدقت الدعوة ..

فكأنى يبسر ، لو عقل عندئذ ، لأدرك أنه إنما يدفع جزءاً من ثمن وزره
الذى أنساه القدر إياه ! بل كأنى به قد عقل من قبل وهو خارج لغارته فأدرك
أنه لا بد مؤد ثمن عدوانه الوحشى بعد أشهر أو بعد سنوات .. فما يمكن أن
يقال إنه أغار ، فقتل وأحرق واستباح ، مسرفاً فى اقتراف كل ما اقتترف من
أبشع ألوان العذاب والنكال ، وهو لا يدري أنه يأتى بفعله ما تأباه أعراف
الناس فى الكهوف والغاور ، وفى الجبال والغابات ، فضلاً عن شرائع السماء ..
فلعله حين يخرج له حملته تلك ، قد خرج إليها وهو مخمور الفكر ؛ مسحور
العقل ، بما صبه العاهل الأموى فى أذنيه من استمراء . ولعله لو أفسح له ، يوم
بعثه ، فى تدبر أسلوب تنفيذه حملته ، لحارب حربه كمقاتل شريف ، ينضج عن
مبدأ يمتنقه ، ويناضل له ، كيفما كان قرب مبدئه هذا أو بعده عن الخطأ
أو الصواب ، فى رأى سواه ..

غير أنه انزلق إلى أسفل درك من الحسة والغدر ولات حين صعود . . .
وإنه ليلم فعلته ، ويعود في هيئة ظافر ، ويحظى في مجلس سيده بمكان صدارة
وموضع تكريم ثم لا تخلو حياته ، بين يوم ويوم ، فيما نخال ، من لحظة تأمل
ينى فيها إلى ما سلف من « بلائه » الضارى تنفيذا لأمر صاحبه ، فلا يملك ،
وهو يقرأ بالفخر صحيفة نصره ، إلا أن تعتلى خياشيمه برائحة الدم والجيف
والدخان . . . ولا يملك أيضا إلا أن تنقرز نفسه من مشاهد الضراوة التي
تناثرت تحت قدميه وفي أعقابها كما يتناثر الغبار في إعصار ويشور ، فيغشى الأفق
ويحجب النور . . .

ما أحسب الرجل ، في بعض لحظات الخلوة الهادئة — التي يشوب فيها المرء
عادة إلى إنسانيته ، صافية منقاة من آثار نزواته العارضة ، وأهوائه الرعناء —
إلا قد كابد وخزة ألم ، وشرق بغصة ندم ، على ما فرط منه خضوعا لأمر ابن أبي
سفیان بتأثير قوة الإيحاء ، وبراعة الاستهواء ، وفتنة الإغراء والإغواء . . .
بل ما أحسبه إلا قد لام نفسه فأثقل عليها باللوم حتى ناء بما يحمل ، ثم ود
لو استطاع أن ينفذ بعض عبثه عن كاهله المثلث ، ويلقى به — تخففا أو تنصلا —
على كاهل الرجل الذي حمله إياه . . .

وكان . . .

فقد اجتمع عبيد الله بن العباس ، وبسر بن أبي أرطاة ذات يوم ، بمجلس معاوية
بعد أن خلا وجه الخلافة للعاهل الأموي ، وانفرد في الدولة بالسلطان وحركت
هيئة بسر مواجع عبيد الله وذكرته رزاه الفادح في صغيره ، فالتفت للخليفة يومه
وهو يومئ بنظرة مقت ومسخط وازدراء إلى السفاح . . .

قال :

« أنت أمرت هذا اللعين السيء القيد بأن يقتل ابني . . . »

فبغت معاوية . ولكنه أسرع ، بنبرات معذرة ، ينكر التهمة ، ويغسل

يديه من جريرتها الشنعاء :

« ما أمرته ! ولوددت أنه لم يقتلها . . . »

وعلى الأثر هاج بسر .

يا لهذا الداهية الزئبقى الرواغ . . ١

من إذن قد أمر وهو الذى دبر للعملة ، ورسم الأسلوب ، وحث بسرا أن
ينهب المال والمتاع ، ويحرق الدور والزرور ، ويحصد النفوس والأرواح . . ؟
من الذى دفعه إلى مطاردة شيمة على أينا وجدهم بالهلاك الذريع ، واجتثاثهم من
الأصول والجذوع والفروع . . ؟

وما ابنا عبيد الله فى ضحاياه ؟

أوليسوا شيعة ؟ . فهم إذن أولى بالقتل قبل من عداهم من شيعة الإمام
لأنهم بعض أهله . والإمام قبلهم أولى بالقتل لو أمكنته منه الظروف . أم ترى ،
لو فعل ، كان معاوية بعدها يلحاه . . ؟

ومع ذلك فقد ملأت الفرحة قلب المعاهل يوم عاد بسر من حملة الدمار ، كما
لم تملأ فرحة قلب إنسان . . خف يستقبل قائده الذى مشى أنباء نصره بين يديه .
وخف القائد إليه بهدية الدم التى اعتصرها له من حياة ثلاثين ألفا من الناس !
قال له بسر مبشرا يومذاك :

« أحمد الله يا أمير المؤمنين أنى سرت بهذا الجيش ، أقتل عدوك ذاهبا جائيا ،
لم ينكب رجل منهم نكبة . »

فابتسم معاوية من راحة ومن خلاء ، وهو يقول معلنا عن رضاه عليه لإنقاذه
أمره فى إحكام :

« الله قد فعل ذلك لا أنت . . ١ »

لكنه الآن ، وفى حضرة عبيد الله ، ليس يكفيه أن يحمى الجاهد جهدا ، وطاعة
الأمور ، بل يروقه كذلك أن ينكر أنه هو الذى أمر بما كان . .

وهال بسرا من أميره هذا السكود . وحز فيه أن يبوء وحده — بلسان
المدير الفعلى للمذبحة الوحشية ، والامر بها خدمة لأرأبه — بكل الإثم ، وفحش

الجريرة ، وسوء السيرة وما كان ، في الحقيقة ، سوى أداة صماء في يد العاهل حركها فانطلقت حين شاء لتلتقم من شاء . .

وكأنما عادة بعض ندمه الذي كان يستشعر في لحظات تأمله الهادئ وفيته إلى إنسانيته المصفاة من نزوات الهوى وفتنة الإغراء ، فصاح حائقا بالعاهل السكوند :

« اقبض سيفك ! قلدتني ، وأمرتني أن أخبط به الناس ، ففعلت . . حتى إذا بلغت به ما أردت ، قلت : لم أهو ، ولم آمر ! . . »

ورمى إليه بالسيف الذي شهد كل مشاهد السفح والعدوان . .

ولعله ، بعد ثورته هذه ، لم يهز سيفاً يمينه يخط ويضرب ويحارب ، إلا ذلك السيف الخشبى الذى كان يخط به الوسائد ، ويضرب فى الهواء والقراغ وهو يحارب أشباح ضحايا . .

بدأ الإرهاب البصري الدموي بشرارة صغيرة تطايرت من صنعاء . .
كانت كلعة من طرف عين . . كلمة برق خاطفة . . كومضة جمرة خابية
دقنها الرماد . .

لكنها ما لبثت أن غدت نظرة ثابتة الحلاق . . طليعة عاصفة هوجاء . .
حريقاً مسعوراً مسعر الأوار . .

فلو أن عبيد الله بن العباس قد اصطنع الحكمة ، أو مارس الحزم ، لجنب الناس
والبلاد كل ما أثارته تلسم الشرارة التهاافتة من كوارث ، وما سببته من ويلات .
. . . . عتب الإمام ، بعد غارة ابن أبي أرطاة ، على سعيد بن عمران ، عامله
على « الجند » أنه وعبيد الله لم يقاتلا بسرا حين سار مسيرته المشثومة إلى صنعاء
فاجتاحها وغيرها من البلاد والمخالف ، وفعل بها وبأهلها الأفاعيل ، دون أن
يبرز أيهما سيفاً في وجه الطاغية . . فدفع سعيد التهمة عن نفسه ، وقال :
« قد والله قاتلت . . ولكن ابن عباس خذاني ، وأبي أن يقاتل . . و . . »
واندلعت النار . .

فلقد كانت بصنعاء طائفة من شيعة عثمان ، تعيش بها في استخفاء ، وهي تعظم
قتله ، وتسكنم أمرها عن الناس ، وتبدي أمم الأعين على ولاء للإمام ، حتى
تحين لها فرصة تجمع خلالها كلتها ، وتلم شعنها ، وتعلن الانتفاض . .

وجاءها الزمن بما تروم . فالأنباء تترى تباعاً عبر الجزيرة ، من الشمال إلى
الجنوب ، عن اضطراب الأمور في دولة الإمام . . الخلاف يستشري من أصحابه
بعد صفين . . والحرب تقع في النهروان . . ومصر تضيق من ابن أبي بكر . .
وغارات أهل الشام تطأ الأطراف . . والانقسام يقع في صفوفه حتى ليتفرق رجاله
عن طاعته إلا بشقشقة الألسن التي لاتغني شيئاً في دفاع ولا هجوم . . حتى إذا

شامت عثمانية صنعاء أن اللحظة التي طال انتظارها قد حانت ، سارعت إلى خلع
بيعة علي والتنادى بشار عثمان . .

وبلغ فعلهم عبيد الله بن عباس ، وهو عندئذ عامل الإمام علي اليمن ، فآثر
اللين والأناة على الشدة والحزم وهو بحسب أنه قادر بهذه السياسة أن يعيدهم
إلى الصواب .

بعث إلى فريق من وجوههم ، فجاءوه .

وسألهم سر التذمر :

« ما هذا الذي بلغني عنكم ؟ . . »

فلم يخشوا أن يصارحوه :

« إننا لم نزل ننكر قتل عثمان ، ونرى مجاهدة من سمى إليه . . »

فلولا أنهم يشعرون بقوتهم لأخفوا عنه ، ودفعوا التهمة للريبة التي تأخذهم
بنقض البيعة ، والخروج على شرعة الولاء . .

وكأنى به وبهم قد حاورهم وحاوروه . ولعلهم أسرفوا عندئذ في المكابرة
والعناد . وعسى أن يكونوا قد أبوا النفي إلى الطاعة ، والإقلاع عن دعوتهم التي
تؤدي إلى انقسام الأمة ، ووقوع الفتنة ، لأننا لا نلبث أن نجد قد أمر بهم
خبسوا درما لشغبهم ، ومنعنا للخلاف أن يذيع إذا غابوا عن العيون ، وخلا
منهم للبدان .

لكنه لم يصب التوفيق . فما كانوا وحدهم جند الفتنة ولا كان خروج
من عرفه منهم بصنعاء على واجب الطاعة إلا كمثل إعماء خفية ، أو « كلمة سر »
تدعو سواهم من العثمانية للتواريين بها وبغيرها إلى مباغلة أولى الأمر في الإقليم
بالوثوب عليهم وهم غافلون عما يدبرون . . فإن هي إلا أيام حتى تحرك الرسل
والرسائل بينهم وبين رفاقهم لإنشباب الثورة وأمسكت الشرارة الواهنة بالمشيم
وكذلك وقع ما ظن عبيد الله أن لن يقع . .

التأم جمع فريقهم بصنعاء ، واشتد خطرهم ، حتى خافهم العامل ، فأغضى عنهم ،

وقع ورجاله الثابتين على العهد ، بلا حول ، يرقبون ما يكون . .
وفاجأ حزبه بالجند عاملها سعيد بن نمران فاستولوا على السلطة ، وأظهروا
أمرهم ، وأبعدوا سعيداً عن البلدة . .
ثم انضم عثمانية صنعاء إلى عثمانية الجند ، قوة موحدة ، شديدة الأيد ،
تستطيع أن تؤثر في تحويل الأحداث . .

ثم التحق بهم قوم آخر لم يكونوا على رأيهم ، ولكنهم أرادوا أن يمنعوا
الصدقة ولا سبيل لهم إلى ذلك إلا بالشغب ، والخروج على النظام العام .
ثم كتبت عصابتهم تستعدى معاوية على الحكم الشرعى القائم ، فأوفد
حملة الإرهاب .

أما عبيد الله بن العباس فقد ظل ، طوال هذا ، على تردد ، لا يكاد يقطع
في أمرهم برأى إلا أن يجمع لهم أنصاره ثم لا يتناجزهم . . أو يشاور بعض
صبيه . أو يكتب إلى الإمام بالكوفة ينبئه الخبر ، وينتظر منه أن يشير عليه
بما يفعل معهم ، كأنما قد أيقن أن الجمع والمشاورة والكتابة مغنية عنه ، أو أن
الزمن قد تجدد وكف عن دورانه فلا خوف من تغير الظروف .

كان من أحاديثه مع رفيقه حاكم الجند ، سعيد بن نمران :
« . . لقد اجتمع هؤلاء ، وإنهم لنا لمقاربون . فإن قاتلناهم لا نعلم على من
تكون الدائرة . . »

فرد سعيد :

« إن ابن عمك لا يرضى منى ومنك بدون الجد في قتالهم . . »

لكن ابن عباس أجاب :

« لا والله . . ما لنا بهم طاقة ولا يدان . . فإني لنكتب إلى أمير المؤمنين ،
نخبره بخبرهم وفدحهم ، ونعزلهم الذى هم به . . »

وكتبنا إليه :

« . . إن شيعة عثمان وثبوا بنا . . وأظهروا أن معاوية قد شيد أمره ،
واتسق له أكثر الناس . وإنا سرنا إليهم بشيعة أمير المؤمنين . وذلك أحشهم . .
فجأوا لنا ، وتداعوا علينا من كل أوب ، ونصرهم علينا من لم يكن له رأى فيهم ،

إرادة أن يمنع حق الله المفروض عليه . وليس بمنعنا من مناجزتهم إلا انتظار رأي أمير المؤمنين . . . »

وعجب منهما لهذا التردد الذي ترك الشرارة تتطير لتسمر الحريق . . ثم دعا إليه يزيد بن قيس الأرحبي أحد أشياخ اليمن في صفوفه :

« ألا ترى إلى صنع قومك . . . »

قال يزيد ، وما زالت بنفسه بقية من أمل أن يفيء بنو إقليبه إلى الرشاد :

« إن ظني يا أمير المؤمنين بقومي لحسن في طاعتك . فإن شئت خرجت إليهم فكفيتكمهم . وإن شئت كتبت إليهم فتنظر ما يجيبونك . . . »

غير أن حسن الظن لم يصادف أهله . . .

كتب الإمام لعامله :

« . . . قد علمت أن نخب أشدتكما ، وصغر أنفسكما ، وشتات رأيكما ، وسوء تدبيركما ، هو الذي أفسد عليكما من لم يكن عليكما فاسدا ، وجرا من كان عن لقاءكما جباناً . . . »

وبعث إلى أولئك الخارجين بكتاب مع رجل من همدان :

« . . . بلغني تجرؤكم ، وشقاقكم ، وإعراضكم عن دينكم ، بعد الطاعة وإعطاء البيعة . . . فإذا أتاكم رسولي فتفرقوا إلى رحاكم . . . فإن لم تفعلوا فاستعدوا لقدم جيش جم . . . يقصد لمن طغى وتجبر . . . فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد . . . »

لقد أعذر من أنذر !

وقرى عليهم كتابه ، في ملائ وجهرة .

لكنهم تلبثوا بالرسول لا يجيبونه بشيء ، كأنما يديرون أمراً بينهم ليروا الرأي . . . وما كانوا كذلك . فإن هي إلا مراوغة ، وتربص بالوقت ما وسعهم عسى أن تجهيهم الأيام القلائل القادمة بما ينتظرون .

ففي تلك الأثناء كان كتابهم ، الذي أرسلوه خفية إلى معاوية ، على الطريق . . .

وعندما تعجلهم الحمداني ردهم على رسالة الإمام ، وألح في التعجل ، اصطنعوا حيلة جديدة لطردة ، والاستثناء بكلمة الإمام الفاصلة فيهم أن تأتيهم قبل أن تتضح لهم الأمور . .

أصغوا له :

« إني تركت أمير المؤمنين يريد أن يوجه إليكم يزيد بن قيس الأرحبي في جيش كثيف فلم يمنعه إلا انتظار جوابكم . . »

فأظهروا الانصياع :

« نحن سامعون مطيعون إن عزل عنا هذين الرجلين . . »

ثم شيعوه ومعه طاعتهم الشروط . .

وما يضيرهم منها ، قبلها الإمام أو أباه ، وإن رسوله لن يبلغ مشارف الكوفة إلا ونجدة معاوية المأمولة تطوى إليهم الأرض طيا في سجل العذاب والإرهاب ، منعدرة كالسيل الهادر من الشام . .

ولقد صح حدسهم .

بسر يقبل . . يمصف بالحجاز . . يطغى على البيداء . . يبلغ من اليمن قلبها والأطراف . . يسلب الأموال والرواحل . . يدمر الدور والرحال . . يحرق الزروع والأحياء . . يذبح الشيوخ والأطفال . . يقتل الأبرياء والعزل . . يعيش بالهلاك على البلاد والناس . . ثم يأخذ البيعة لعاهله بسن حسامه . .

والكوفة أيضا تتناقل . . كدأبها ظلت هامدة . . تعيش في نوم . . تنام في تعاوت . . الأعين حسيرة . . الأسماع صماء . . البصائر مطموسة . . القلوب غلف . . الأيدي سلاء . وفي جنباتها تتردد صيحة الإمام ، تحريضا ونذيرا : أنبثت بسرا قد . . . » فلا تخلف إلا أصداء يتلهمها الهواء . .

وبكل الحسرة في القلب . بكل المرارة في الفم . بكل الأسى في العين ، عقد الإمام لجارية بن قدامة السعدي على كتيبة من ألفي رجل ، اجتمعوا له بعد أيام طويلة من الدعوة والاستنهاض ، ومن المظل والراوغة ، ومن التمل والاعتذار . .

وخرج جارية من الكوفة محاولا أن يسبق الزمن ما استطاع عسى أن يلتقي
بالسفاح . . مضى يتنسم الأخبار ويقفو الآثار ، وهو ينفض البلاد والبيد نفضا ،
وينقب فيها تنقيا عن غريمه الذى كان لا يكاد ينشره جبل إلا لتطويه وهدة ،
وتظهره بلدة إلا لتخفيه مفازة . وكانت له على كل مكان بصمات من الويلات . .
ومع ذلك فلم يلتقيا . .

وأين اللقاء وإنه بحملته الرهيبة لثل حصاة بين صحراء من الرمال . .
وكيف أيضا ، وبسر ، ما إن علم بمقدم كتيبة الكوفة حتى جعل لأقدام
حملته أجنحة تطير بها فى الأودية كما تطير فى الجبال . .

الطاغية السفاح أثر الفرار من اللقاء . ذابت على الفور جسارته الزائفة
التي نسجها اقتحامه الوحشى للأقاليم والبلدان . تبخر اعتداده بقوته وطغيانه
وما التقى بعد إلا باسم مطارده دون ملاحه . . راح يستخفى بعد طول ظهور فى
الجماع والناس . . يعرج يمنة ثم لا يكاد حتى يياسر . يهبط ثم لا يلبث أن يعلو .
يتأخر حين يظن أنه يتقدم . يسرع حين يحسب أنه يريج . يلتوى بعد اعتدال ،
ويرجع بعد إقبال . .

ومن ورائه دائما كان جارية . لا يكاد يعلم بوجه مضى إليه ابن أبي أرطاة
حتى يخف إليه عسى أن يسبق الزمن إليه . . لم يهاود فى سيره . لم يقف لراحة .
لم ينفض عن رجاله قط وعشاء شقة قطعوها وإن طال بهم عليها السرى والسير .
لا يلتفت إلى مدينة مر بها ، ولا إلى أهل حصن إلا إن أراد الاستنباء .
ولا يعرج على مكان إلا أن أرحل بعض أصحابه وتقصم الزاد ليتزود لهم ، أو تسقط
بعض مطاياها ليأمر الراكب من جنده أن يعقب الراحل . .

غير أنه لم يصادف غريمه . . غنم بسر السلامة بالفرار . وترك وراءه باليمن
وصنماء شيعة عثمانية مضية ، غرها بقوته ، وغرتها الأمانى ، ثم انكبت فجأة من
حلمها لتجد نفسها بلا ردد يحمها بجزيرة معزولة وسط بحر من العدا ، فهرعت
بأرواحها إلى الجبال . .

وعادت السكينة . وانطقات النار . .

أما بسر فكان قد بلغ الشام ناجيا بأفراد حملته وما يكاد . . . فقد توائب عليهم في طريق العودة أناس كان مجرد ذكر اسمه أمامهم حين مجيئه يشلهم عن الوقوف لمقاومته ، بل التفكير في الوقوف . . . فلقد هان الآن أيما هوان . وملكه من خوف لحاق جارية به ذعر مجنون كان يردده عن الدفاع أو استرداد ما يسلبونه إياه من ثقل ومتاع ، وهل في وقته فسحة إلا للهروب ؟ . . .

ومع ذلك فقد استطار الطاغية المذعور فخرا بما فعل حين ضمته حدود الشام ، فسمعناه يقول لما هله الأموى ، يوم استقبله ، في خيلاء صلف مغرور :

« . . . إني سرت في هذا الجيش ، أقتل عدوك ذاهبا جائيا ، لم ينكب منهم رجل نكبة . . . »

لقد فخر بنصره ، إن مى نصرا ما يصيبه أى قاطع طريق . . . وما له لا يفخر وقد أنفذ بعثته ، وأنجز مهمته ، وأرضى أميره ، وكتب لنفسه في سجل الدولة المقبلة سطورا حمراء من البلاء في سبيل تشييدها على دعائم من الجماجم ، عداد من دم . . .

« تم الجزء الثامن »

رقم الإيداع ٤٢١٤ / ١٩٧١

الامام
عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ

الجزء التاسع

تأليف
عبد الفتاح عبد المقصود

مَنْشُورَاتُ مَكْتَبَةِ الْعِرْقَانِ
بِكُرْت

الفصل الأول

مرة أخرى رأى نفسه بذات الموقف ، كيوم ابن أبي أرطاة حين عاث بالبلاد إلى صنعاء . كيوم النعمان بن بشير في عين التمر . كيوم ابن مسعدة الفزارى في تيماء . كيوم الضعاع بن قيس على واقصة وطريق الحاج . كهذه وغيرها من أيام الغارات الأموية التي استباح فيها رجال معاوية الأرواح والأموال والحرمان . لكنها الآن غارة مجاورة .. ليست موعلة في البادية إلى الأعماق . ولا فرقة في الأطراف . ولا مساحة مع البحر إلى الغرب أو إلى الجنوب .. إنما هي منهم على كثر . كأنما على مرمى سهم . كأنما على قيد نظرة . كأنما على مد مسمع لو كانت لقومه أعين ترى وآذان تسمع ! ..

بعد قليل من عودة جارية من مطاردة بسر ، وعلى مسيرة قصيرة من الكوفة التي غدوا بها مثل قوقعة مغلقة حبستهم صدقتها عما يدور خارجها من أحداث ، ومن جد العمل ، ومن حركة الحياة ، ضرب معاوية ضربته الجديدة ، بيد الغامدى ، في الأنبار ..

ليست حرباً إذن ما يريد الماهل بهذه الغارات التي يسيرها إليهم بين فينة وفينة .. ليست حرباً معلنة كما كان قديماً العهد بالحروب يتصاف فيها الفريقان المتناجزان ثم يبدأ اللقاء . ليست أيضاً تسلل سرايا للاستطلاع . ليست أيضاً ترص كائن للباغية . ليست أيضاً مناوشة كتائب لتشغل الجيوش ، وتفسد عليها خططها ، أو تعمق قدرتها على التقدم أو الالتفاف .. إنما كانت ضربات انتقامية أعادت إلى الحياة ثانية أساليب قطع الطريق على المسافرين ، وانقضاض القبائل على بعض في ساعة غرة ، إدلالاً بالقوة ، أو رغبة في السلب ، أو تفرداً باللاء ، أو استجابة لدواعي الثأر والانتقام ..

ولقد نجح الماهل الأموي حقاً في هذا المجال . ورجال فيه مستمرنا مرعاه ! فهو يعمل وإن لموشك أن يكون حر الثقل ، مطلق اليد ، ملأوت العنان ،

يحيث ويعبث على هواء . وهو يعمل وإنه لموقف أنه لن يلقى في سبيله من المقاومة ما يحمله على الإقلاع إذ يأمر رجاله النأي بأنفسهم عن مواطن التزال والصراع . . لا حريجة . لا قلق . لا خطر عليه . فما أثيب غارة بغارة — إلا في النادر الأقل الذي يغفل — فيردعه عن الاستمرار أن يذوق طعم ما سقى سواء . . وما خسر في حملاته تلك شيئاً ذا بال لأنها كانت توجه دائماً إلى الأمانة العزل من السلاح . . ذلك أسلوب في القتال أخذ به معاوية في غير تحرز ، وبلا خشية أن يكال له منه صاع بصاع . وكيف لا وهو الأسلوب الذي لا يقبل الإمام أن يباريه في ميدانه تعففاً أن يصيب الأبرياء ، والتزاماً بقواعد الفروسية الكريمة وتقاليده الحرب المشروعة التي تحرم العذر ، وانتهاك الحرمات ، والفتك بالشيوخ والصغار ، والتصدي لغير الجنود ، وفي غير ساحات الوغى ، إلا بعد إعلان ، والنزو الباطش على السكان الآمنين . .

ولا ينبغي هنا أن ينحى باللوم على الإمام لأنه يرعى مبادئ الأخلاق ، وأصول السلوك القتالي النظيف مع من لا يؤمن برعاية خلق أو حفظ فضيلة . . فالسرقة ، مثلاً ، إن استباحها السارق من المسروق لا يمكن أن يقتربها مسروق شريف ولو تمويضاً لحقه السلوب ، والخطأ لاشفاعة لتصحيحه بخطأ آخر مهما كانت الدواعي والمآذير . وإذا كان على قد حاول جهده — وعلى الرغم من ثقل رجاله عن المبادرة إلى الردع — أن يضرب تلك الغارات الأموية العدارة الفاراة ، فضررها كان لقاء جند بجند ، وسلاح بسلاح . ولم يكن قط من سياسته أن يحذو نفس حذو غريمه فيغير . .

إنما كانت سياسته الثابتة أن يشنها حرباً صريحة على معاوية ، شاملة عامة كصفين ، يلتقي فيها وإياه في احكام إلى قتال مشروع . فما يفض النزاع بينهما — في رأيه — غارة أو عدة غارات قصارى شأوها ضربات قد تخرج ولكنها لا تميت . وما يغير من الموقف بينهما أن يسلب مال ، أو يحرق زرع ، أو تهدم دور ، أو يقتل نفر من « المدنيين » من هنا أو من هناك . . فما أتباع معاوية ، في حقيقة الأمر ، سوى ذيل بغير حول ، أفيقطع الذيل ويدع رأس الثعبان ؟ . .

« إحياء صغين » هو العمل الذي كان دائماً محور تفكيره ، وجوهر دعوته وتبشيره بين رجاله ولا عمل يحسم الأمور سواه . .

ومع ذلك قالقارة الجديدة عرض خطر لا بد له من علاج سريع . . وها هو الآن ، وقد جاءتة عنها الأنباء ، يخف إلى الناس ليهبوا انجدة المنكوبين . .
وقف على المنبر يخاطب الجموع :

« . . إن أخاكم البكرى قد أصيب بالأنبار . وهو معتز لا يخاف ما كان ، واختار ما عندالله على الدنيا ، فانتدبوا إليهم حق تلاقوهم . فإن أصبتم منهم طرفاً أنكتموهم عن العراق أبدا ما بقوا . . »

وتلبث ينظر ما لعله قد عرا القوم من هذا الخبر الذى أتى به إليه عالج من أبناء البلدة التى اجتاحتها القارة ولم يأت به رسول من قبل صاحب السلطة أو عامل الإقليم ، وما كاد يضى على سالفاتها باليمن غير قليل . . أفقد أحيط هناك برجاله ؟ . . أم عصفت بهم ؟ . . أم بلغ من كثرة المغيرين أن أخذوا على الناس بها طريقهم إلى الكوفة فلم يعد فى مقدور أحد من ذوى السلطة من عماله وأعوانهم النفاذ من بين « سور » الاعتداء الكثيف ؟ ..

عوامل كلها خليفة بأن تثير القلق ، وتحرك الاهتمام ، وتدفع السامع إلى الانفعال الفورى بالخبر المفاجىء ومجابهة دلالاته الخطرة بعمل سريع ، لأنه عندئذ خبر يحمل فى طواياه النذير بتهديد الكوفة نفسها التى لا تقع عن موطن القارة إلا على مبعدة بضع مراحل قد تغرى العادين بالتقدم إليها إن أمنوا خلو الطريق . ومن يدرى أن قوات الغامدى ليست مقدمة لغزو عام ؟ .

وتلفت يطالع الوجوه . .

فلو أنه نظر عندئذ إلى صحيفة بيضاء لم يمش عليها قلم بسطور أو بكلمات ، فلربما كانت أكثر تعبيرا من السحن المائلة أمامه صفوفاً وراء صفوف . . ما من رجل وخزه النبأ اللامع فانتفض انتفاضة ملسوع . ما من أحد انطلق لسانه ، يوحى شعوره قبل وحي تفكيره ، بكلمة أو سؤال . لا لفظة إنكار . لا عبارة تعليق . لا همسة توجس . لا حركة اضطراب أو اكتراث .

وعاود التفرس عجبا في الملامح الآسفة الراكدة . . لاحت كأنها قد اكتست
من الجلود أقنعة سوداء ككسف من ظلام كثيف في أمسية شتاء أطبقت فيها
قبضتا الليل والنعم على الأفق فاخفت النجوم . . أفهم أصنام ؟ . . أم هم موتى
ولا يسمع الدعاء من في القبور ؟ . .

وفي هم واصل وصمت حزين ، غادر المسكان في هدوء . .

مضى على وجهه يهيم ، بعيدا عنهم ، إلى خارج بلدتهم الناكثة الغادرة ،
العاصية الجاحدة ، يحمل قدميه على المسير إلى النخيلة وما يدرى امرؤ إلى ما يسير ،
وفيم السير إلى ذلك المنكر المهجور ؟ . . أيلوذ منه بثل صومعة يخلو بها مليا
إلى همومه ؟ . . أم يريد لها قطيعة وعزلة عن أولئك الحاملين الهامدين ؟ . . أم لعله
أن يجد فيها بقية من أعوان يؤازرونه على الكفاح ولو كانوا حفنة لا تغنى عنهم
أنفسهم شيئا حين قتال ؟ . .

اثنان أو ثلاثة من أشرف البلدة الذين خلفهم بالمسجد انتبهوا من غشية جمودهم
على خروجه ، فأسرعوا خطاهم إليه ، يحاولون رده عن الطريق . لا معدل لهم
عن رجوعه . غيابه سيملأ حياتهم بالفراغ . لا بديل للكوفة وأهلها دونه وإن
هم خالوا أنه يحس ، بلاء شعوره ، أن هجره إيها ، ونفض يديه من أمرها ،
وقطيعة رجالها ، هي له الخلاص مما يعاني ، وخير بديل . وأسلم سبيل . .

وهتفوا به يترضونه ، ومن ورأهم تقاطرت عليه الزمر والحشود . .
قالوا له :

« ارجع يا أمير المؤمنين . . »

لكنه لم يبال دعوتهم . وهل هي إلا ، كغيرها من أحاديثهم له ، جوفاء ؟ .
وعادوا يناشدونه ، ويمدونه :

« ارجع ، ونحن نكفيك . . »

فابتسم ساخرا وقال :

« ما تكفوننى . ولا تكفون أنفسكم . . »

ظلوا به حق أعادوه إلى منزله بالكوفة ، على كره وضيق . يبديت مهموما ،
ويصحو مهموما ، وقد آيس منهم اليأس الذي يفرغ الصدر من الثقة ، ويدفع المرء
إلى تلمس الراحة في الخروج من حياته إلى الانتظار إن لم يكن إلى الشرود . .

وظل بهم يشهد ما يكون منهم ، بعد الذي أبدوه من ندم طالما بدر منهم مثله ،
وهو يرقب ما لعلهم فاعلوه في المحنة القائمة ، ويسائل نفسه : أيستقيمون ،
أم يهبون ! . . أيدركون أم يحمقون حق ينتهى أوان الخروج إلى الغارة
الأموية بالمقاومة والردع ، أو ملاحقها بالمطاردة والتأديب ؟ . .

أيام قلائل انقضت منذ غضبته تلك وهو يرقب الأمور بعين ساهرة ،
ويستقبل الأخبار بقلب محرور . .

مظاهر الاهتمام ، فيما يخال ، تتجمع على اللامح ، رويدا رويدا ، كقطرات
المرق التي يفرزها الجهد ، لحظة فليحظة ، لتغمر وتنثال قدر ما تعمل السواعد
وتنشط الأوصال . . ضوضاء الحركة عملاً المدينة وهي تبتثق من وقع الخطأ ،
وخيبط الحوافر ، وجرجرة الإبل ، وصهيل الأفراس . . جرس النبرات يتعالى
على ضجة التنقل ، متناديا بالدعوة والتحريض ، ومختلطا بالقعقة والصليل . . أفهذه
يقظة جادة ، أم هي يا ترى فرقة جوفاء ؟ . .

وكانت المحنة أيضا تندلع من كل خير كألجنة النار . . الويل يزيد . الخطر
يدنو . القلق يكبر . الخوف يسرح من تخوم المواقع التي اجتاحتها إعصار الغارة
ليغمر ما حولها من البلدان ويطرد الناس أمامه إلى أي ملاذ آمن ، أو مهجر
بعيد ، يقيم الموت والعذاب والتشريد . وهل ثمة اليوم ملاذ أو مهجر هو آمن
لهم ، وأبقى عليهم ، من أرض الشام موطن أولئك الذين يأنفرون طائعين ،
ويخرجون مسرعين ، ويغيرون قادرين ، ويرجمون موفورين ؟ . .

... يقول معاوية لصاحب غارته سفيان بن عوف بن المغفل الغامدى ، بعد أن رسم له طريق الحملة ، ولقنه أساليبها ، ونصحه بما يحقق له الانتصار للمأمون :
« ثم أقبل إلى ، واتق أن تقرب الكوفة . . واعلم أنك إن أغرت على أهل الأنبار وأهل المدائن فكأنك أغرت على الكوفة . . إن هذه الغارات ، يا سفيان ، على أهل العراق أرعت قلوبهم ، وتفرح كل من له فينا هوى منهم ، وتدعو إلينا كل من خاف الدوائر . . . »

فيصدق الواقع رأيه . إذ نزلت هذه الغارة ، كثيلاً منها ، من أهل العراق كثيرين كانوا على طاعة على ففروا بأرواحهم إلى ذلك الملاذ الأمين .
... ويقول أيضاً ، كشفاً عن سياسته الكرارة الفارقة ، وسيرته بها في أعدائه ، وجدواها المؤكدة على مطامعه :

« واقتل من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك . وأخرب ما مررت به من القرى . واحرب الأموال ، فإن حرب الأموال شبيه بالقتل ، وهو أوجع للقلب . . . »

فيصدق الواقع رأيه ثانية ، لأن هجرة العراقيين أمام الغارات جمعت في وعائها أولئك الهاربين بحلوهم خوفاً على النفس ، إلى أولئك الهاربين بمتاعهم حرصاً على المال .

... ويقول أيضاً لأهل الشام ، حين قر عزمه على إنفاذ بعث سفيان ابن عوف بن المغفل للإغارة على الأنبار والمدائن ومايدانى الكوفة إلى مدى غير بعيد :

« أيها الناس ، انتدبوا مع سفيان . »

فيصدق الواقع رأيه في أصحابه ، قبل صدقه في حالته هاتين ، فيخلصون له الطاعة ، وينزلون على أمره ، ويخفون سراعاً إلى إلهاب النار ، وإشاعة الدمار .
يقول ابن المغفل ، وهو يتحدث عن أثر دعوة معاوية عندئذ في الناس :

« فوالله الذي لا إله غيره مامرت ثلاثة حق خرجت في ستة آلاف . »

ثم يقول عما حدث بعد عودته ، نتيجة للحملة الفعيرة :

« . . . فما لبثنا إلا يسيرا ، حتى رأيت رجال أهل العراق يأتونا على الإبل هرابا من معسكر على . . »

هذا أمر أولئك ، وذلك أمر هؤلاء . . استجابة وطاعة ، لقاء مطل وعصيان . مبادرة وتأهب ، أمام تردد وتشاقل . تشرع وكر ، مقابل تهاون وإحجام .

على أنهم أخيرا ، غادروا الكوفة ثمانية آلاف بقيادة سميد بن قيس ، يأخذون على شاطئ الفرات في طلب سفيان . .

كانت غارة ابن المغفل الغامدى قد فعات ، آنذاك فعاها ، وبلغت من الأرض التي داستها الغاية التي شاء لها عاهل الشام وشاء أسلوبه الفذ في القتال أن تبلغها من العزل الأبرياء . . مضى بها فئدها منحدرا من الولاية الأموية بغير تهمل ، جادا خفيضا إلى التدمير ، حتى طالعه ماء الفرات داخل الحدود العراقية فلزمه إلى بلدة هيث . . لكن خبره فيما بدا ، كان قد سبق خطاه إلى أهلها الأمانة الذين لا يملكون ردعا من دونه ، نخشوا أن يغشاهم الإرهابي بقواته المغيرة ، ولم يروا عاصما لهم منه إلا عبور النهر إلى الضفة للمقابلة ، فرارا بالعمر ، عسى أن تحاجز شريعة الماء بينهم وبين الموت الزاحف . .

ودخل ابن المغفل ورجاله البلدة بعد قليل ، فإذا هي فارغة كفلاة ، هامة كقبرة ، خرساء الحركة والصوت كأنها لم تحال قط ولم تتردد بحجباتها أنفاس . . كانت الدور خاوية والطرق مهجورة ، والسكون المطبق على أطرافها وقلبها لا يشي بظل إنسان . .

وخلى العدم الذي فرش الفراغ على هيث بينها وبين المغير فشى عليه بجيشه العاصف مشية إعصار ، يهدم هنا ، ويدمر هناك ، ثم يدهس ويحتاح ما استطاع ليضيف إلى صورة الجواء في إطارها ألوانا من الخراب .

ثم اخترقها إلى صندوقاء لعله أن يشفي فيها غلة نفسه النهومة بالدم . . لكنه — ليعظه — لا يلتقي بهذه الفريسة الجديدة إلا بآثار فرار . . فقد هجرها أهلها كسنة رفاقهم أهل أختها هيث ، قفاتهم ، وتركوها له دمية من خزف بين يدي طفل نزق يتلهى بتعطيمها كيف شاء . .

حينذاك كان النذير بعسير الحملة واقتلاعها معالم العمران أينما انطلقت بها الأقدام قد بلغ مسامع ابن حسان البكرى صاحب مسلحة الأنبار . . . الغارة تنساب إليه كثعبان . الدمار يخف بجناح . الموت يوشك أن يقتحم عليه الباب . . . لكنه لا يرى الفرار .

يجنان ثابت وقلب ركين ، تدبر الأمر تدبر المؤمن بانتهاج ما يجب لا بطأطأة رأسه للظروف . . . إن عمله ليس الهروب . وإن دوره هو حماية الأرض التي يقف عليها مابقي سيفه في يمينه ، وما حملته قدماء . . . وإن خلقه ، وشعبه ، وبقينه لتأبى جميعا عليه أن يذل لصولة الإرهاب فيفر كغيره من الذين فترت عزائهم من اعتلاء قمة الكفاح وآثروا الانزلاق للسفوح . . .

كان في قلة من أصحابه قليلة يعلم أنها لا تغنى شيئا أمام كتائب المغيرين . . . ولكنه يعلم أيضاً أنها تستطيع أن تصبر ما استمسك بالصبر . تثبت للمادين طرفا من ليل أو آونة من نهار . ترد عليهم ضرباتهم بضربة أو بضربات . وإذا لم يكن لها سبيل إلى النصر ، فإنها لاشك قادرة على أن تصيب من القوم ، فتقتل من تقتل ، وتخرج من تخرج ، وتغوت وهي قائمة على أراها ، ودونه ، ليعلم المدوان أنه لا يفلت أبدا بغير قصاص ، عظم أو هان ، ثم لا يقال بعد هذا إن البكرى ورجاله خانوا واجبه ، وخذلوا أميرهم ، وثبطوا عن أداء دورهم الوطني ، وسلكوا أمام عدوهم المدل بالصولة والبأس مسلك جبناء . . .

ولقد أثار ما ذاع من التزام ابن حسان الوقوف في وجه الغارة المقبلة ريبة للمغير ، وأفسح أمامه رقعة الحدس والتخمين . فما ألف الغامدى ، حتى لحظته هذه ، من أمثال الرجل فيما طرق من مواقع وبلدان ، قبل الأنبار ، غير الفرار . . . ما خف إليه صاحب مسلحة أخرى بالمقاومة . ما اجتمع نفر في طريقه يسده عليه . ما جال بخاطر امرئ أن يعترضه بكلمة إباء فضلا عن إشهار سلاح . . . فأما وهذا هو عزم البكرى . فإنه إذن في جيش كفء يحميه . أو قد أعد فأحسن الإعداد للقاء . أو قد بث كائن المباغته والانقضاض . أو هو واثق أن أمدادا من أهل الكوفة على الطريق .

وتوجس الغامدى . . ومضى يفساب بقواته صوب البلدة على حذر وتمهل .
ليسكاد يشم فى الجو رائحة تربص . . كأنما فى كل ركن كمين . . كأنما الظلال
متر لجند كثيف . . بل إنه ليخرج من الحذر ليدخل فى الخوف ، ومن التهل
إلى تجميد السير . ومن كليهما معا إلى رهبة آتلك عليه أمره حتى يلح ذهنه
وأمنه عليه بالرجوع . .

فيما يحس ، لا ضير عليه لو أنه آثر الإياب وها هو الخطر يرنو بعين إليه ،
ويشير بأصبع ، ويتحرك بثبات . . ليس إذن قولا أجوف ماتراحت به إليه الأنبياء .
ليس خدعة افتخاضة القوم للدفاع . ليس وها ما جرى بظنه وتقديره عن الإعداد
أو السكائن أو الإمداد . . وإذا كان نعمة الآن ما يؤيد حدسه فهو هذه المبادرة
التي دفعت البكرى للخروج بقواته إلى مشارف البلدة مهيأ عاجلا للقاء . .

وسمر الغامدى فى موقعه أقدام رجاله . . كف عن التقدم . ووقف ينفض
بالنظر الحذر ما حوله من معالم . ثم أرسل نفرا من أعوانه طليعة تلصص وترقب
وتستنبى* حسبا يسهم أن يقوموا له على ما قد يغير من حدسه ، أو يؤكد تقديره ،
فيستيقن حقيقة الأمور . .

ولم يطل به الانتظار . . أقبل نفرة عليه بعد قليل بخلعان من أهل الأنبار ،
لعلهم كانوا بأطرافها يلعبون لاهين عن الخطر وعن غارة اللغير . فما أن رآهم ،
حتى راح يحاول معهم حيله ، عسى أن يخلص منهم إلى بعض ما يفيده عن قوة
الدفاع . .

وسألهم :

« . . وكم بالقرية من أصحاب طي ! . . »

فاختلفت الإجابات .

فتية قالوا :

« عدد رجال المسلحة خمسمائة . »

وزادت طائفة :

« لكنهم تيددوا ورجعوا إلى الكوفة »

وقدر فريق :

« قد يكون مائتين . »

وبين هذا التفاوت ، وقع الغامدى على ما يطمئنه ، لأنها الحامية التى لا تبلغ من عديد رجاله ما يجعل لها قدرة على المقاومة ، وإن قاومت فليس لها طاقة بالثبات ، وإن ثبتت فلا إلى تفوق ونصر . . ومع ذلك فقد بدا الرجل مشفقاً على أصحابه وتقسه من الممركة المنتظرة . متردداً عن هجوم طوفانى كاسح يحرق القوة الصغيرة . مترثلاً بساعة الفصل ما استطاع .

آثر الغامدى الهوى فى السير . . فتت اللقاء . كتب جنوده كتاب متعاقبة كالأمواج ، ثم راح يرميها إلى حفنة المدافعين عن بلدتهم ككتيبة من بعد كتيبة ، لا تكاد إحداها تصيب شيئاً من عدوه إلا ارتدت لتخلأ فراغها على الأثر كتيبة جديدة .

لم يعمل للحامية الصغيرة فى الراحة . ولا فى التقاط الأنفاس . كان يداول عليها جيشه اللجب صفاً وراء صف ، ليثلم سلاحها ، وينهك قوتها ، ويجعل منها فريسة سهلة للمصارع ، ويأمن أن تبقى له إبان الاحتدام ، طال أو قصر ، قوات ضخمة مدخرة تقية العرة إن انشقت البلدة ، أو تفتقت مشارفها ، عن نجدة خبيثة . .

ومع ذلك فلم تكن فى البلدة عندئذ نجدة مخبوءة بعد أن تفرق معظم جندها إلى الكوفة . ولم يكن ثمة مدد أيضاً على الطريق من ناحية الكوفة وقد تراخى أهلها وتصاموا ، كعادتهم ، عن دعوة الجهاد . ولم تكن حامية القرية ، إلى جوار هذا وذاك ، خمسمائة من المقاتلين . ولا كانت مائتين . بل قد كانت دون الرقمين لا مرأى ثم لم يخف منها إلى اللقاء غير نصفها ، أو أقل ، عند بدء القتال . أما بقية رجال رباطها الموكول إليهم الدفاع عنها فقد استسلموا ، من اللحظة الأولى ، إلى التنحي عن واجبهم مؤثرين السلامة ، حين ظهر لهم من كثرة اللغيرين وعدتهم ما أيقنوا معه أن ليس فى الاشتباك إلا الهلاك . .

تعللوا وهم يبرحون :

« ما لنا بهم طاقة . »

ولم يغالوا . فجموع الغارة ، في الحق ، كانت خليفة بأن تهول مثل هذا النفر
الذين يزنون الأمور بقيمة النتائج القرية المنظورة ولا يزنونها ببطافة المسلك
وصمو الغاية . . كان المغيرون يغطون الأرض . يعلأون الأفق . على صفوفهم
للمتراسة الكثيفة تلمع الأعين لتعم ، وتعم لتلمع من دهشة وبهر . حشودهم
من خيول وجنود لا يكاد يحتملها ظن ولا تخترقها نظرة . إذا مضت سيوفهم
تصلصل فرعود وكتائبهم تسير فطوفان . .

اسكنها ، مع هذا كله ، لم تكن لترهب دايقين ! . . ولئن راحت تهجم
مستمزة بياسها وقوتها ، بعددها وعدتها على ابن البكرى ، فإن مدها كان يرتفع
لينحسر ، وموجها كان يندفع لينكسر على صخرة ثباته وصبره .

بنفريه القلائل وقف صاحب مسلحة الأنبار في وجه السيل المتدفق الذي
جفريه عليه ابن المغفل الغامدى ليجتاح البلدة . . لم يرح لحظة يده . لم يرح نفسه .
لم يدع فرصة لقوات خصومه العارمة لتثبت بـ . . قاتل الموت ، ليقتل أو
يقتل . . كان كزوبعة مجنونة . . سلاحه يتأرجح ويدور . وقدمه تتوثب
وتتطفر . والأرض تحته تنطوى وتنتشر فإذا هو هنا وهناك ، مرة أمام عدوه ،
ومرة خلفهم ، وفي كل مرة عصى على التناول ، عزيز على الحصار ، كأنه زئبق
لا تستطيع أن تطبق عليه كف أو تثبت أصبع .

لكم طاردوه ، وكم أطبقوا عليه . . غير أنه كان دائماً يستطيع الإفلات ،
ويعدل وضعه ، ليكر عليهم بخفته ، فإذا هو وراءهم يطارد ، وإذا هم أمامه ،
بمحشدهم ، مطاردون . . مرارا عديدة كان يقلب الفرkra ، والدفاع هجوما .
ومرارا عديدة كان ينتزع المبادرة من أيديهم ، ويقتحم عليهم مواقعهم فيجلبهم عنها
وينقضهم نفضا عما اجتازوه أو احتلوه من أزقة ودروب . .

ثم حانت أخيرا لحظة الخاتمة الحزينة التي كان لا بد أن تحين . . فلا مناص
للزوبعة بمدثورة من مكون . . وللجمر بمدتسر من خمود . . وللتبع بمد
تدفق من نضوب . .

تماقب الصراع أوهى القوة الصغيرة . شيوخ الجراح فيها أوهن العدد ،

واصطفاق السلاح أثم العدة . والإعياء الذي بثه في رجالها تواصل القتال ودوام التنقل ، وسرعة الطراد ، قد جمدت منهم المفاصل وخدرت الأوصال . . . وها هو ابن الغفل ، إلى جوار هذا كله ، ينهز هذه الساعة فيجيش فرقة من مائتي راجل ، خفافا أعقياء . لم ينل بعد من أحدهم جهد الصراع ، ولا تغبرت أثوابهم بغيار الميدان ، ليدفع بهم في وجه القلة المناضلة ، مؤيدين بكنية فرسان . . . وتفكر البكرى . . .

ثم حزم أمره على الفور . . . الستار لا محالة سينسدل . . . والنهاية مقبلة تسرع . والشهادة تخايله برضوان الله . . .

والتفت يخاطب أهل بلديته خطاب مؤمن مستعين ، وكلماته تسبح إليهم على لسانه :

« من كان لا يريد لقاء الله ، ولا يطيب نفسا بالموت ، فليخرج من القرية ما دنا نقاتلهم . . . فإن قتالنا إياهم شاغل لهم عن طلب هارب . . . »
ثم وجه حديثه إلى الثمالة الباقية من جنوده :
« . . . ومن أراد ما عند الله فما عند الله خير للأبرار . »

عندئذ لباه ثلاثون في السلاح ، ما إن صفهم حتى استبقوا إياهم ، على طمأنينة وبشر إلى المهجوم على حشود أعدائه ، ليلتقي بهم لقاء الأخير . . .

وكان يتلو من التنزيل ، وسيفه يضرب ويدور ليفتح ثغرة في سور العدوان :
« ومن المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فممن من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا . . . »

وخاض ورفاقه الموت . . .

لم يفتر عن الإمام همه . .

أينما سار أو أقام ، كانت الكآبة تظلال عيائه . . المبسة على جبينه . .
السهر في عينيه . . الألم قد شق خطوطا عميقة فارقت بين القسمات . .
أما نفسه فمجروحة ، وأما قلبه فشقي . .

وكان الصمت دائما طريقه ، والحزن رفيقه . إذا صحا فالعلم ملء فيه . .
وإذا رقد فعلى شوك . وإذا مشى فعلى حجر . . أيامه ولياليه موصولة بخيوط
كثيفة من الندم والضجر ، ومن الأسف والوجوم . .

والأنباء ، إلى هذا ، لا تزال ترى عليه من الأنبار . جوفاء حينما كأنها
الفراغ ، تثير من القلق بقدر لحظات الترقب والانتظار . ثقيلة حينما — كوقر
الآثام على قلب النادم — بما تحتوى من قواجم . .

وكان الهدوء أيضا ، حوله في كل مكان . . الكوفة ما كنه لم تتغير بها
الحال . آمنة الحركة كبركة عفنة . . باردة العاطفة كالجليد . . هامة
بالانفعال كالموت . . لا بادرة فيها لتأثر بما دار هناك ، على مراحل دانية
منهم . أهلها في طمأنينة . . البال رضى ، والنفوس هادئة ، والقلوب في مواقعها
ثابتة ، كأنها لا تعرف الوجيب . .

لكأنما الأمر لا يعنى القوم . . كأنما هذه المحنة على نخوم بلستهم تقع بعالم غير
عالمهم ، بعيد بعيد ، لا تطويه المراحل ولا تبلغه الأسفار . . كأنما الأخبار قصة
مروية ، تنقل لأسماعهم حدثا باليا أغفى طويلا في سفر التاريخ .

لا مبالاة . .

ومع ذلك فقد أفلتت من أيديهم فرصة التأثر . ذهب مع الريح جهد حملة
التأديب . . فالاعتدى الإرهابى آب إلى أرضه وهو ملء جلد . . فى يساره
(٢ — الإمام ج ٩)

هوانهم ، وفي عيینه انتصاره ، لم تطأ الحملة ظله . ولم تلحق بغياره . لم تصب من رجاله موقع قدم وهم ينطلقون آمنين بثمار الحقد : بالأسلاب والغنائم ، وبالزهر والشهامة إلى الشام . .

أخفق سعيد بن قيس ورجاله في اللحاق بالمغير . . الأيام التي بددها تشاقل الكوفة قطعت خيط الاتصال بين السابق والمسبوق . . وسعت الشقة وأطالت الطريق . . . وعندما انتهى من أولى مراحل الحملة ، وأصبح وجنده يلزمون ضفة الفرات ، كانت القارة قد بلغت أربها ، وحملت سلبها ، وغسلت يديها من دماء ضحاياها ، ثم قفلت راجعة من الأنبار . .

ولم يكن أمام سعيد بن قيس حينذاك إلا أن يلقف الريح ليشم أين للمغير . . وما كان ليعلم عن يقين وقد خلت الأرض من آثاره ، ونضبت الأنباء ، وكادت المناطق المحيطة لا تشي له إلا عن هجرة للناس بمد هجرة ، وفرار في إثر فرار ، نجاة بالأنفس والأموال أن تطولها سطوة العدوان كلما خطر للغارات الأموية أن تدوس ثرى العراق بالمذابح . . . ومع ذلك فقد قر في روعه أن يحاول الصعود للشمال بدل انحداره للجنوب إلى الأنبار ما دام قد فاته أوان الانحدار . . وما يدريه ؟ . . فلعل الغامدى مازال يرجع الهوى إلى إقليمه بثقة الآمن لا بخشية الطريد . . لعل الجراح الذي أصابه حين المجيء قد أغراه بالاستزادة من النهب والسلب حين الأوبة فقصر خطاه . . لعله شاء أن يريح بجيشه الظافر هنا أو هناك ، بهذه المفازة أو تلك ، سجاما من تعب السفر ومشقة القتال . .

كيفما كان من صحة حدسه أو اضطراب تقديره ، فقد آثر سعيد الاتجاه من فوره إلى عانات ، فهي بموقع يعترض الطريق إلى الشام . . وهي تدانى هيث ، وتسكاد تتوسط المسافة من الأنبار ، ضحية القارة ، إلى الرقة منفذ المغيرين إلى أرض العودة ملاذهم للنجاة . فإذا بلغها قبلهم فإنه إذن لقاء الثأر . وإذا بلغها وقد فاتوه ضاقت الشقة بينه وبينهم وربما وسعه أن يلحق بهم ، أو بمؤخرتهم ، وهم بعد خارج الحدود الأموية لم يجتازوها إلى نطاق الطمأنينة . .

لكنه خشى ، إن هو سار إلى بلدة عانات بكل رجاله ، أن تثقل كثرة
نفره ووفرة عتاده قدرته على متابعة العائدين . فلا بد إذن من التخفيف . لا بد
من قوة صغيرة ، سريعة الحركة ، لا يعوق من انطلاقها إلى عدوهم كالسهم ، وعلى
الفور ، ما يعوق انطلاق جيش كبير مثل جيشه ، لا تتأني له القدرة القتالية الفعالة
إلا بعد درس ودقة وإمعان فسكر لرسم خطته ، وترتيب كتائبه ، وحشد
معداته ، وتخطيط مسالك تموينه وتزويده ، إلى ما نحوها من أساليب معقدة
ومتشعبة يستغرق إنجازها وقتا ليس باليسير .

وعلى الأثر حزم سعيد الرأي ، فسرح إلى مظنة سير القارة الراجعة فرقة من
جنده ، عليها هانيء بن الخطاب الحمداني ، أمرها أن تمجّل نحوهم ، طاوية
الزمن عدوا ، عسى أن تلحق بمؤخرتهم ، وتمرّقل انسحابهم إلى مأمنهم حتى
يخلص هو إليهم ببقية جيش التأديب . .

وخف هانيء إلى مانب له ، آخذا على شريعة النهروان جيرته ، من عانات ، مصوبا
إلى الشمال نحو مشارف الرقة . ثم انفلت منها غربا حتى دخل أداني أرض قدسرين ،
وهو ينفذ الربا والوهاد والربوع والزروع ، ومن ورائه انطلق سعيد بن قيس
ببقية الجيش لتسكون حشوده جنة لتلك الطليعة السريعة ، ومددا لا ينضب
لو نشب قتال .

غير أن العدو كان قد فاتهم ، وأوغل . فدخل الشام . وحط رحاله .
ووقف قائده سفيان أمام طاغيته يقص عليه من أنباء غزاته المظفرة ماهر
بالبشر عطفه . .

وقال له معاوية آنذاك ، مترجما عن رضائه :

« كنت عند ظني بك . . . والله لا تنزل في بلد من بلداني إلا قضيت فيه
مثل ما يقضى فيه أميره ، وإن أحببت توليته وليتك ، وليس لأحد من خلق الله
عليك أمر دوني . . »

وآب الغامدى لأمته فأصاب التقدير . .

وآب سعيد إلى الكوفة مقهورا بإخفاقه ، مهزوما ولا هزيمة ،
يرتد على حسرة ، ويمشى على كمد وتشاقل وهو يقود وراءه ثمانية آلاف
شمشا مغبرين من طول السرى والسير ، وسرعة الجرى والطاردة ،
وكأنما يجر خلفه ثمانية آلاف ذيل للخيبة . .

الحسرة التي رافقت سعيد بن قيس الهمداني وجيشه ، طوال الطريق للعودة
المريرة ، لم تكن وحدها هي التي أشاعت كل هذه السكابة في أفق الكوفة . .
كان في الجو معها قلق مكتوم ، وصمت واجم ، وفراغ أجوف مأوئ الإحساس
بالضياع . .

وكانت الحياة ، بالبلدة الأولى في الدولة ، مثل ليلة حزينة ، مطها الهم
والسأم إلى غير نهاية . . ضريبة بغير نجم . أبدية بغير فجر . سوادها وشبه ظلمة ،
وظلامها حشوه سواد . . والناس في دجائها السكثيف كالأشباح . . يهيمنون .
يلهون . يعملون . يمشون في رنابة ثقيلة ثم لا أثر ، بعد ، للهو والعمل والعيش
عس القلب ، أو يحرك للعاطفة ، أو يثير الشعور والأوصال فيغير الصورة الماثلة
بذبضة أو انتفاضة ، لأنها كلها حركة فارغة إلى غير هدف ، خامدة بغير روح ،
كأنها خيالات منام ، ورؤى أحلام . .

ومع هذا كله فكهم حاول الإمام أن يهز الصورة ليحرك النائم . . . ليس
هذه اللحظة وحدها مد يده ليوقط الشعب الوسمان . . ليس أمس الذهاب .
ليس باقي الأمسيات المواضي ، القرية أو البعيدة ، التي تقضت ، منذ نشطت
الغارات وانتشر الخطر ، وهو ينقض عليه القراش عبي أن يقلق مضجعه ،
ويفتح جفنيه للطبقين على سحر الحذر ، وراحة التواكل . .

طويلا طويلا ، منذ سنين ، ظل قائما على رأس نائمه ، يضحج بالحركة وبالندير .
وكثيرا كثيرا كان يرج استرخاءه . لمدى سنوات لم تغمض عينه . لم يهدأ لسانه .
لم يكف لحظة عن محاولة نقض الجمود عنه ، وبعث الحياة في جسده الجامد يقظة
واعية تسمع وترى ، وتدرك وتعلم ، وتعمل وتجد خلاصا من الرقدة المستكينة ،
ونهوذا إلى مجابهة التبعة ، ومبادرة لصنع الصير . .

منذ سنين وهو يقض على هذا الشعب النائم مرقده . بالدعوة . بالصيحة .

بالضجة . . بكل ما يحمل عضوا على الحركة ، ويقهر عصباً على الانقباض . .
بكل ما يحفز الهمّة ، ويشير الغيرة ، وينخس الضمير . .

لكن الكوفة ظلت الكوفة . مستكينة ، كمهدّها ، للاسترخاء . مخلدة
إلى التهاون ، وغارقة في النعاس . حتى صليل السلاح قرب مشارفها ، وصهيل
الحيل ، وصرخات العذاب والنكال ، لم تمسح عن عيونها المغمضة فتور النوم .
حتى الفشل الذي لازمها شهورا عديدة ، مرة بعد مرة . وهي تنحلق في اللعاق
بغارات الإرهاب ، لم يحرك في نفوسها شيئا من الحية ، غضبا للكرامة ،
وثارا للدم !

بغير أثر من انفعال ، مضت الكوفة ، على عادتها ، تعيش حياتها اليومية ،
رحية رتيبة ، بلا مبالاة . . بغير أنه من ألم لما هو واقع . وبغير دمعة من ندم
على ما فات . وبغير مسحة من خشية . مما هو آت وإن تعاقبت عليها التجارب
مرة وتوالت النذر تلوح لها بالوبال . . لا شيء يهم . لا خطر يشير . لا بلوى
تكرث كأنما القوم ، فيما تبدى ، قد فقدوا السمع والبصر ، وعدموا الحس
والشعور ، وحرّموا القدرة على التقدير . .

امرؤ فرد كان وحده يحمل الهم كله . يحس وحده . يفكر وحده . يقدر
وحده . يدبر وحده ، وهم من حوله حلقة من التيه . . . فقد أعضلوا به أيعا
إعضال ، وشق أمرهم عليه أيعا مشقة ، حتى لضاق صدره وانقبض قلبه ، وعانى
من خيخته فيهم من الألم والحزن والحسرة ما كان يقتله مرة في كل لحظة من
ليل وهنية من نهار . . . ولقد أسأمه منهم ، إلى حد الغثيان والتفزر ، ذلك
الفراغ الأجوف الذي حاصروه به في كل آن ومكان ، حتى لأسقمه ، وجرى
بالمرض حثيثا في جسده الموصوب . .

ويوم عاد سعيد من الرحلة الحاسرة ، لم يكن نعمة بالكوفة الحزينة إحساس
إلا بالمار . . بذلك التخاذل الممين الذي كأنما أهلها قد راقهم طعمه ، فعاقروه
كالخمر ، وداوموا عليه مداومة إدمان . . . بتلك الاستكافة الدليلة لتعبر

معاوية وصلفه ، وعدوان غاراته الرهيبة ، استسكانة رفعت هيبة عدوها في أعين الناس ، ومرغت شرفها في التراب . . .

ولم يكن لها خلاص إلا في انتفاضة من النوم . . . في هبة يقظة تقطع التردد في إرادة تعزم ، وحزم يحسم . حتى أولئك الذين استمروا أو الدعة لم يسعهم — في دخالهم — أن ينكروا أن الحرب الشاملة هي وحدها دواء الداء ، والعلاج الذي لا علاج غيره لهذا الضيم الذي أصابهم من أهل الشام ، وذهبت به بلدتهم المنكوبة مثلاً في الأعصر لارتضاء الهوان . . .

وتحقق يومذاك ما ألفه القوم في طوايا الشعور وإن هم أطبقوا عليه الشفاء . فقد خرج عليهم الإمام ذابلاً حائل اللون ، عليلاً مبهور النفس ، من سقم وسأم ، ومن كدر وهم ، وهو يحجر رجلين لا تسكadan تقويان على حملة ، وقد استند بإحدى ذراعيه إلى الحسن وبالأخرى إلى الحسين ، حتى إذا انتهى به سيره إلى باب السدة المفضية إلى المسجد ، وتعهل قليلاً ليخف عنه بعض جهد الحركة . .

وعندما هدا صدره ، وخفت من حوله لغط الجمهور ، وأرهفت له السامع ورنّت الأبصار ، راح يتحدث إلى الجمع الحاشد بصوت ثابت النبرات ، حاسم للقاطع ، وإن كان واهن الرنين . .

قال مما قال :

« . . . إن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فتحه الله لخاصة أوليائه . وهو لباس التقوى ، ودرع الله الحصينة . . فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل ، وشمله البلاء . . وأدبل الحق منه . . وسيم الحسف ، ومنع الصف . . »
وكان يضغط على الكلمات كأنها يعهلها قبل أن تبرح شفثيه لتخرج بأحرفها ومعانيها وهي ملء فيه . . . وكان يقرن دائماً كل كلمة بنظرة معبرة حارة يكاد الشرر أن يتطاير منها إلى اللامع الشاهدة . وبين الكلمة والنظرة رباط من الضيق نسجه غضب مكظوم غطى جبينه العريض بمقعدة كبيرة من العيوس .
وانثنى من وعظه اللأثم ذاك إلى ما طالما سلف أن أنصح لهم عنه ، ودعاهم

إلى امتثاله . إلى تذكيرهم بسياسة المرسومة التي يرى اتباعها مع معاوية وحزبه ، واحتذاءها أسلوبا مستقيما وفعالا ، لا عوج فيه ولا بديل عنه ، لحسم الموقف ، وردع التمرد ، وقتل الفتنة ، يبلغ بهم النصر ، وينقذ الشرف ، ويحقق الوحدة ، وينشر العدل ، ويضمن الاستقرار . .

أردف معرجا على سياسته إحياء صليبي ، فقال :

« . . . ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم لبلا ونهارا ، وسرا وإعلانا ، وقلت لكم : اغزوهم قبل أن يغزوكم فوالله ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا . فتواكلتم وتخاذلتم حتى شنت عليكم الغارات ، وملكتم الأوطان . . . »

وعرض بإشارة عابرة إلى غارة سفيان بن عوف بن المغفل الغامدي على الأنبار وما أصاب الناس فيها من نكال وأصابهم هم من عار . . . وهل هي إلا مثل من أمثلة عدة لتخاذلهم ، ونتيجة محتومة لاختلافهم عليه ، ومظهر من مظاهر استهانة عدوهم بهم استهانة تورث الكمد ، وتعقب الحسرة في قلب كل حر ، حتى « لو أن امرأ مسلما مات بعد هذا أسفا ما كان ملوما ، بل كان به جديرا » كما قال . .

ثم جمع غضبه كما لم يجمع به قط من قبل ، فثار على الزمن الذي جعله لقي بين أيديهم ، وعلى الصلة التي ربطته بهم ، وعلى هوانهم الذي سجل لهم سيرة في سجل الحوادث صحائفها سود ، ومدادها كنود وجحود ، ليس فيها على كثرة الأسطر إلا أحرف من المسكابة إذا التأمت ألفاظا فهي عصيان وتمرد ، وإذا جرت عبارات فهي تشاقل وتردد ، وإذا تكشفتم دلالات فهي خور وجبن عن نصر الحق وحماية الحرمات . . .

يصيح بهم وكلماته التلهية كالشواظ تكاد تحرق أنفاسه :

« . . . قبحا لكم ونرجسا . . . صرتم غرضا يرمى . . يغار عليكم ولا تغيرون ، وتغزون ولا تغزون . وينهى الله وترضون . . . إذا أمرتكم بالسير إليهم في الصيف ، قلتم : هذه حمارة القيظ أمهلنا يسبح عنا الحر . . وإذا

أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء ، قلت : هذه صبارة القمر أمهلنا ينسلخ عنا البرد .
كل هذا فرارا من الحر والقمر ؟ . فإذا كنتم من الحر والقمر تفرون ، فأنتم
والله من السيف أفر . . . »

ثم اخبرهم بنظرات ثاقبة حادة :

« يا أشباه الرجال ولا رجال ! لوددت أني لم أركم ، ولم أعرفكم معرفة
— والله — جرت ندما . . . قاتلكم الله . . . لقد ملأتم قلبي قيحا ، وشحنتم
صدرى غيظا . . . وأفسدتم على رأيي بالمصيان والخذلان حتى لقد قالت قريش :
إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب . . . لله أبوهم ! ! وهل أحد
منهم أشد لها مراسا وأقدم فيها مقاما مني ؟ . . . لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ،
وها أنذا قد ذرفت على الستين . ولكن . . . لا رأي لمن لا يطاع . . . »

وخلف مكانه وهو يطوح رأسه إلى الوراء ويهز كتفيه من برم ويأس ،
ويصفق كفا بكف من حسرة وأسف ، كأنما كان ينفذ عنهم عن كاهله ،
وينظف من أمرهم يديه . . .

لو تحدث الصمت عندئذ لكان أبلغ دلالة عنهم من الحسر . ولو تحرك
 لكان أشد نكاية فيهم من السيف . فالسكون الذى حاصرتهم به عبارات أمير
 المؤمنين لم يكن بغتة عى . ولا وجهة خزى . إنما كان صدمة ضربت عليهم الخزى
 والحواء ، وجردتهم بمرارة صراحتها الحادة ، من معالم الحياة فبدوا كتهائل ..
 على ملاحظهم الظاهرة ران الجود فى قلوبهم سرح الحزن . بضائهم عربد
 الندم .. وفى دحائلهم الخفية كان هذا كله يؤجج ثورة باطنة لأنفسهم على أنفسهم
 راحت تعمل كالبخار المكنوم ..

كانت الحسرة تنمش الصدور . وكان الشعور بالإثم يجرى فى الدم .. فما من
 ذنب إلا أورث صاحبه حسرة وإن لم تدم إلا كلمة خاطفة . وما من مذنب ،
 مهما غلظت أحاسيسه ، أو تحجرت مشاعره ، يستطيع أن يجتاز الحد الفاصل
 للفضيلة عن الرذيلة دون أن يحس باجتيازه ، ولا أن ينسى — بينه وبين نفسه —
 ما قد قارف من الإثم وإن هو حاول ، جهارا وعلانية ، أن يبرره أو يتناساه ..
 لكن الإقرار بالجرم ثقيل ثقيل على النفوس . كربه كربه إليها إلى ما فوق
 قمة الطاقة وجهد الاحتمال . . وخجل المرء من الخطأ الذى يرتكبه ، عادة يدفعه
 إلى محاولة إخفائه عن الميرون . ودأما يحمله على تبريره إن هو كشف وشاع .
 وأحيانا يسرقه إلى العناد إصرارا وادعاء بأنه صواب . ونادرا ما يهديه إلى
 الاعتراف ! ..

وذاك ما جرت عليه الكوفة ، هذا اليوم ، بعد سماعها الخطاب . .

واحد من رجالها ثقل عليه بفردده ما قد فرط من مواطنية ، شهورا عديدة
 متعاقبة ، فى حق أميرهم من التخاذل والعصيان ، فدفعه ندمه ، أو دفعته شجاعة
 الرأى وأمانة التعبير ، أن يجاهر بالإقرار بخطيئتهم ، ثم يسلم نفسه إلى التوبة . .

بقلب مكود ، وعين دامعة ، ونبرة مرتجفة من الأسى والحياء ، تقدم جندب
ابن عفيف الأزدي يقول للإمام :

— « يا أمير المؤمنين .. إني وأخي هذا كما قال الله تعالى : رب إني لا أملك
إلا نفسي وأخي .. فمرنا بأمرك ، فوالله انتهين إليه ولو حال بيننا وبينه جمر
انفضا وشوك القناد .. »

فابتسم الإمام لجندب وأخيه عبد الرحمن بسمة حائلة اللون ، ندية الرضا
والتقدير ، وأجاب :

« وأين تقمان مما أريد ! .. »

ورد طرفه عنهما إلى الجمع الحاشد ، فإذا هم حينذاك كتلة من الوجوم
والشرود .. بلقع من الجود .. لكأنهم فراغ .. كأنهم من كثافة الصمت
ظلام وظلال .. كأنهم من خوائهم أطياف سراب .. فأما الأرض التي شغلوها
بقاماتهم ، فهي من قرط السكون الأجوف قد حاكت مقبرة موحشة ، ردوسهم
بها معالم اللعود ..

وهم أن يرجع عنهم ، كما جاء ، مطبق القم ، هابط القلب ، ثقیل الخطرات
يزحف على ضيق .. ولكنه رأى أن يراجع عزمه ، ويقهر رغبته ، ويعاودهم
-- مرة أخيرة -- بجرعة من الدواء ..

أشار إلى الحارث الأعور الحمداًني فهمس له . ثم انطلق بعد الحمسة يعود ..
وامثل الرجل الأمر فهب في الناس ، حين مبارحة الإمام ، ينادى
بصوته الجهير :

« أيها الناس ! .. أين من يشتري نفسه لربه ، ويبيع دنياء بآخرته ؟ ..
أين من يشتري .. »

وتكرر النداء .

وترددت أصداؤه في جنبات السكان إلى أبعاد ومسافات وجرس العبارات
يلازم خطوات العائد نبرة بحركة ، ومقطعا بوقع حتى بلغ على من البلدة منزله ،

وبلغت الدعوة من القوم الأسماع .

وعندئذ انثنى الحارث مخاطب مدعويه :

« . . . أيها الناس ! . . . أصبحوا غدا بالرحبة إن شاء الله . ولا يحضر
إلا صادق النية في السير معنا . والجهاد لعدونا . . . »

غير أن الغد الذي أقبل كان كالعائب عن النداء . . . فما استجاب سوى نفيرة
من القوم قليل نفذت الدعوة من أذانهم إلى قلوبهم ، فأمنوا بغايتها ، وبايعوا
لربهم ، وصدقوا العزم على الولاء والخروج للجهاد . . .

من الكوفة كلها انطلق إلى الرحبة ذلك الصباح دون الثلاثمائة من أهلها الجم
في عدة القتال . . . لو أنها كانت عند ذاك دعيت إلى نزهة لإزجاء فراغ ، لما بخلت
بعدد يفوق أولئك بضعة أضما . . . لو أنها خويلت بمرض تافه من عروض
الحياة ، وإن كان دراهم معدودة ، ولم تخايل بالجنة ، لحفت إلى ذلك العرض
بالآلاف . . . فأما والمهدف الآن الشرف ، والرحلة في الحق ، والغرض الله ،
فليس لها إلى المبادرة بالعمل سبيل . . .

وبمين ملؤها التمسك والازدراء ، طاف الإمام بالحفنة المائلة حياله ، يقيس
أبعادها نفرا ودلالة . ثم يصورها في نظرة وانية وهو يقول :

« لو كانوا ألفا . . . »

وما كان ألف يعنيه . ولا كان ضعفه أمثالا عدة ليفعل شيئا في لقاء حربي
شامل . ولكنه ، على أي حال ، العدد الذي قد يوصى — في أول أيام الإعداد
والتجهز — إلى عقد العزم وصدق النية ، ويبشر بسيل من الجند خليق بأن
يتدفق على الرحبة خلال أيام . . .

وأقبل عليه إذ ذاك بضعة من العلية وسادة الزمر يلقون بزخرف من القول
بين يديه ظاهره ولاء وطاعة وباطنه تمرد وثبوط . . . جاءوا إليه يخفون بألوان
من الحجاج شقي ، تبيحهم التخلف ، وتمنعهم السير للقتال وإنهم ليعلمون ، لاريب ،
أنها وسائل تمويه وتعلل ، حروفا اعتذار ومغزاه عسيان . . .

ولم يجد خيرا من أن يتلو فيهم من قول الله ما سلف أن تلا محمد في أمثالهم
من العصاة :

« وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم ، وقعد الذين كذبوا الله
ورسوله . . . »

وامتد بعد هذا ترقبه الحشد المنتظر ..

أيام ثقيلة طويلة مرت عليه وهو ينتظر ، كلما طلع عليه منها يوم بما يحرك
الأمل ثلثه أيام بما يثير القنوط . فالتقوم ، فيما يلوح وكما اعتاد ، لا يأخذون الأمر
مأخذ الجد ، ولا يرون غضاضة في التثاقل والاسترخاء لأنهم لا يكادون يحسون
حقا في حقهم الذي دعاهم إلى النهوض فيه ، ولا باطلا في باطل عدوهم الذي
يريدهم القضاء عليه ، لفرط ما ألقوا من التخاذل والخور والاستكانة .. وهل
من حريجة على من ضمرت فيهم مضغة الحية ، ونضب نبع الاعتزاز ، وخذت
جذوة الضمير ؟ ..

وكذلك انطوت سلخة من عمر الإمام ، في هذه الآونة التي اختتمت عهده ،
كان فيها يتطلع ولا مطلع ، ويأمل ولا مأمول .. فالحلم مطبق عليه كاضباب
السكتيف يطمس المرأى ويكتم الأنفاس . والوقت ثقيل كالطود ، طويل كالدهر ،
ممتد كالأبد بغير انتهاء وإن لم يجاوز — بلغة الأرقام — أياما قليلة وساعات .
ومع ذلك فقد بدا الزمن عندئذ وقد اجتمع له الضدان : الحقة والثبات . فهو آنا
راسخ لا يسير حين يراوده الرجاء في غد يبزغ عليه بحال سوى الحال . وهو
عادة خفيف يطير ، يتسرب من بين أصابعه كالماء ، أو ينبخر في الهواء . وفرص
الحسم تفلت تباعا منه ومن العراق الشهر بعد الشهر ، واليوم في إثر اليوم ..

ولم يطاوعه صبره على مغالبة ضيقه ، ولا تماسكه على كتم حزنه ، فاكتمى
عجاء السأم ، وملا قلبه الغم ، وشرق حلقه بالمرارة .. ولكنه نشط ، مع كل
ما يعانى ، إلى القوم لعله أن يبلغ منهم الساعة ما لم يبلغ في الليالي الطوال . وراح
يبث فيهم دعائه ليجتمعوا له ، ويسمعوا منه صيحة النذير الأخير ..
والتأمت حوله كثرة منهم ذلك النهار من شتاء عام خلافته الخامس ، والجو

يومذاك قر ، والهواء من برودته له في الأجساد وخز الإبر ، وعلى السماء من
جهامة الغيوم كمثل الكتابة التي تغشى عيانه .. فما أن أصغوا له ، حتى وقف يلقي
إليهم بما بقي في وفاض أحاديثه الذي استترقوه ! ..

خطبهم فكان من خطابه أن قرنهم بالأنصار عند البعثة النبوية وإن جاوز
العدد العدد ، وخالف الفعل الفعل ، وجرى القرينان في صحائف التاريخ وهما
ضدان ! ..

قال :

« أما بعد ، أيها الناس ، فوالله لأهل مصركم في الأمصار أكثر
من الأنصار في العرب وما كانوا يوم أعطوا رسول الله أن ينعوه ومن معه من
المهاجرين حتى يبلغ رسالات ربه إلا قبيلتين ، قريبا مولدهما ، ما هما بأقدم العرب
ميلاداً ، ولا بأكثرهم عدداً ، فلما آووا النبي وأصحابه ، ونصروا الله ودينه ،
رمتهم العرب عن قوس واحدة .. تحالفت عليهم اليهود . وغزتهم القبائل قبيلة
بعد قبيلة . فتجردوا لنصرة دين الله ، وقطعوا ما بينهم وبين العرب من الحبائل ،
وما بينهم وبين اليهود من الحلف . ونصبوا لأهل نجد وتهمامة ، وأهل مكة
واليمامة ، وأهل الحزن والسهل . وأقاموا قناة الدين ، وصبروا تحت حماس
الجلاد ، حتى دانت لرسول الله العرب »

وأضاف مؤكداً أن بأيديهم الآن من الحول ما لم يكن لأقرانهم أولاء :

« وأنتم اليوم في الناس أكثر من أولئك ، ذلك الزمان ،
في العرب »

فمن عجب أن ييؤء بالاعتراض والمراجعة بمثل هذا الحديث الذي يكشف للقوم
عن بعض موطن القوة فيهم ، فيندفع أحدهم — بمادة المكابرة والجدال المعروفة
عنهم — يفترض ، ويقول :

« ما أنت بمحمد . ولا نحن بأولئك ! .. »

فغضب على لحق الرجل ، وصاح يزجره :

« أحسن مما تحسن إجابة ١ . »

ثم وجه إلى الجمع لومه .

« . . . تكلمتم الثواكل ١ . ما تزيدوني إلا غما . . . وهل أخبرتكم
أنى عهد ، وأنكم الأنصار ؟ . . . إنما ضربت لكم مثلاً . وإنما أرجو أن تتأسوا
بم ٠٠ »

وكأنما حلت هذه المقابلة بين أمس واليوم عقدة الألسنة ، فانخرط القوم
في نقاش متشعب مضى بأحاديثهم أفانين شق . منهم من يقارن . ومنهم من يفارق .
ومنهم من يستعيد من الأمثلة والذكريات ما يؤيد جانباً أو يخالف آخر ، وكلهم
مع هذا يوشك ألا يلقف أنفاسه حتى تشابكت الأصوات ، وعزقت العبارات
ألفاظاً ومقاطع وحروفاً متناثرة تداخل بعضها في بعض فغدت ضوضاء لا تكاد
تنقل إلى سمع السامع غير الإبهام ١ .

ومن بين سورة هذا التشويش ، انطلق صوت عال يحاول أن يرتفع فوق
الضجيج :

« ما أحوج أمير المؤمنين اليوم وأصحابه إلى أصحاب النهران ١ . »

وكانت القوة ، بلا ريب ، الماحة إلى حقيقة تلقى على قائلها والذين معه — من
حيث لم يشأ ولم يريدوا — ظلالاً كثيفة من الاتهام . فهي ترميهم بتفريق الرأي ،
واختلال النظام . وهي تدمعهم بالثبوت والتثاقل . وهي تدينهم بالافتقار إلى الجدة
وإلى سرعة البت في الأمور ، وكلها — مهما اختلفت النظرات — صفات لم يكن
عليها الخوارج الذين كانوا أرباب صلابة وحسم وعزيمة ما كان أجداها على أهل
الكوفة في هذا المقام . .

وتزايدت الحمسات والهمهمات . ونمت الضوضاء . وخيم اللفظ على أفقهم
كأنما انعقد فوق رؤوسهم سحابة ١ . . . وصرخ رجل من بين الجمع بأعلى صوته
وقد أثاره الضجيج :

« استبان فقد الأشر على أهل العراق . . . أشهد لو كان حيا لقل اللفظ .
ولعلم كل امرئ ما يقول . . »

هنا بلغ الضيق بعلى غايته فزار غاضبا يصيح بالناس :

« هيلتكم الهوابل . . . أنا أوجب عليكم حقا من الأشر وهل للأشر
عليكم من الحق إلا حق المسلم على المسلم . . »

فسرعان ما ذر غضبه الهيبة في الأعين ، والأسف في الصدور ، فقاء القوم
من اللغو إلى الجد ، ومن العبث إلى الرزاة . وأخذ اللفظ المنتشر فيهم ينحسر ،
رويدا رويدا ، عن المكان حتى ذابت الضوضاء في السكون . .

وطى الأثر خف حجر بن عدى الكندى ، وسعيد بن قيس الهمداني إلى
الإمام يزجيان إليه معذرة الجموع ، ويمرسان باسمها ، عليه الامتثال والخضوع .
قال أحدهما :

« لا يسوءك الله ، يا أمير المؤمنين . . مرنا بأمرك ندبته . . »

وأردف الآخر :

« مرنا ، فوالله ما نعظم جزعا على أموالنا إن فقدت ، ولا على عشارنا إن
قلت في طاعتك . . »

وبدا كتهما وبعن حولهما الندم على ما فرطوا في حقه . . وبانت الرغبة جلية
في استعادة ثقته التي بددتها الأيام ، في كل لحظة عين ، وكل همسة لسان ، وكل
حركة جارحة ندت عن الحشد المائل جموعا وأفرادا ، أصحاب زعامة أو من عرض
الجمهور ، حتى لقد رد الإمام في هدوء :

« تجهزوا للسير إلى عدونا . . »

وغادرهم ومعهم التوبة ، ومعهم الرضاء . .

غير أن أمسية يومهم هذا لم تمر إلا وقد شهدت قادة الرأي وشيوخ العشائر
في لقاء مع على بداره . . توافدوا عليه مؤكدين الولاء ، موثقين العهد ، يعلنون

عزمهم على الجهاد . . فلما أن أيقن منهم ، هذه المرة ، الجد وصدق النية ، عقد مجلس حرب راح يقاب وإياه وجوه الرأي في الموقف ، ويناقش الظروف والأوضاع ، بلوغا إلى أمثل طرائق إحراز النصر . .

وانتهى الإمام ، بعد للدارسة والمشاورة ، إلى قرار . .
قال لأصحابه المجتمعين :

« أشيروا على رجل صليب ناصح ، يحشر الناس من السواد . . »

لم ير الآن أن يدع مهمة حشد المقاومة ، وأسلوب الإعداد ، كسابق العهد إلى كتب منه يبعث بها إلى عماله . بل أراد أن يضع الأمر بين يدي رجل واحد ، أمين كفء ، يهابه أهل العراق ، ويسمعون له ، ويؤمنون بأقناده .

وتفكر الجمع مليا ، ثم قال سعيد :

« أشير عليك ، يا أمير المؤمنين ، بالناصح الأريب الشجاع الصليب :

معقل بن قيس »

فاقتضى الإمام الاختيار :

« نعم . »

ووجه الرجل من فوره .

فإن تكن السكوفة ذاقت الندم ، ليلتها تلك ، فلعل كثرة فيها نامت قريرة بين ذراعي الشمور بالعزة ، لأول مرة منذ يوم صفين . . وإن تكن شهدت فسهرت إلى مطلع الفجر ، فشاغلها عن الوسن إذن حديث موصول عن القديس القريب لم تهدأ عنه الأفواء ولا فرغت منه الأصماع . . فالحرب كانت على كافة الشفاه . . والحجاسة والرهبة تنازعتا القلوب : من ناشطة وثابطة ، وراسخة ومذعورة . . واللقاء الحاسم المنتظر كادت تطير به أشواق المنتصرين وأحداث المتخاذلين غدوة وروحة ، وأوبة وجيئة من أرض الوقعة المجهولة إلى مهاد الأحلام . .

أما الإمام فعساه قد بات رديحا من الليل غير قصير وهو يسبح بفكره بين

أمس واليوم ، بين حديث ليلته وأحاديث ما قبلها من الأمسيات ، فلا يملك إلا أن يتأرجح بهذه المقابلة الفكرية بين اليقين والشك ، وبين التصديق والإنكار تجاه ما ظهر بالاجتماع من متابعة وطاعة وانصياع . . . أقدم صدقه قومه النية ، حقا ، بعد روغان ؟ . أخلصوا له الولاء بعد خذلان . . . أم هي فورة حمية عارضة ان تلبث أن تنفى — تماما كالزبد : هيئة تهول وجوهر جفاء ؟ . . . أم مهاودة هي . أم مخاتلة ، أم رياء ؟ . . .

ما كان عجبا أن يقابل بين سلوكهم الماضي وسلوكهم الحاضر . . . وأن يتساءل إذ يقابل . وأن يحذر كما يطمئن ، ويتشأم كما يتفاءل . . . وإذا كان قد بدا لهم ، وهم يرحلون داره أمسياتهم هذه ، أن جأشه هدا ، وباله قر ، وقلق الأشهر الثقيلة الماضيات استحال في فؤاده طمأنينة ، فتلك نظرة منهم لم تسبر بعد غوره ، ولم تبلغ مد بصره . . . اسكن فيهم . بلا ريب ، طائفة حسبت جلستهم الأخيرة قد انتزعت له من الزمن أمنية عمره . وخالت الأيام القلائل المقبلة آتية له ، لا محالة ، بلحظة دانية ، يذل فيها جند الشيطان لجند الله ، فتتكسر شوكة الباطل ، وترتفع واية الحق ، وتعمو آية النور آية الظلام . . .

وامتضاء عحياء بلحظة سلام . . .

قدر القوم أم شاءوا لسوف تجرى بغير مشيئتهم الأقدار . . .
وابتسم .

فثمة لقاء غير هذا اللقاء الحربي ، الذي تخايلهم به الظنون والأحداث . . .
ثمة قبله لقاء مودة كان بينه وبين رسول الله تبينت له فيه الخفايا ، وتكشفت الحجب ، وتجلت الأسرار . . .

ثمة عند أفق الغيب فاجعة مروعة ، ونهاية حزينة .

ثمة هامة مفلوقة ، ولحمة مخضوبة ، وقطرات دم مهراق ستنتظم سطورا
حمرات تسجل الختام . . .

الفصل الثاني

إلى هدفهم نشط معقل .

لم يبدأ ظله . . . كان يمرق كالسيف . يطوى للمراحل كأنه نظرة . يعبر
التخوم كأنه طيف . . في النور سار يرتاد الليل ، وفي الليل أسرى ينشد النور .
ومن الخصب ، إلى الجذب ، إلى حيثما شام نصيرا قادرا أن يحمل السلاح ، كانت
لهفة الشوق تسبق خطواته إلى فجر النصر .

الخلص الأوفياء من أصحابه ، رجال الإمام ، عاشوا حياتهم ، أيام رحلته ، بوقع
أقدامه كأنما كانت خطاه لقلوبهم الواجبة نبضات . . ولا غرو . . فالأمل معه .
والخشود العبادة في عدة القتال توشك أن تكون ملء الأحلام . والعمل الجاد
ينتظر عودته من السواد . وإذا كانت الغاية المرتجاة قد تجلت تخايل الظنون
والعيون ، فما أصلب المهم ، وما أنسب الوقت ، وما أيسر الانطلاق . . وما دام
أفق الأحداث قد أطلع الآن لهم فرجة تبهث ضياء على مواطنهم يؤمن السير ،
فهذا الشماع الندي بشير إذن بالشروق .

لا تردد الآن .

فمن خلال النقاش الذي دار بينهم بمنزل أمير المؤمنين ، تحدث الأسف فأفصح ،
وتكلمت التوبة فأبانت ، ودبر العزم فأبرم . معقل استشمر ، كرفاقه ، في الصدور
الثقة ، وقرأ على الوجوه التصميم . من كل فرد شهد ذلك المجلس ، تبين الندم
على ما فات . رأى هدى بعد غي ، وهمة بعد ثبوت ، وصلاية بعد استرخاء . وهذه
الرغبة في تغيير واقعهم الخامل التي صورتها العبارات اللتبية ، وجسدتها اللامح
المشدودة ، أنبأت عن نزوع مشوق إلى الجدد الصارم ، وحماة متحفزة لقاء
الحاسم الأخير ، يؤكد كلاهما انقياد رأيهم على صدق الولاء ، وقوة الإرادة ،
والثبات في القتال ، والصبر إلى الظفر أو إلى الموت .

الآن استبانّت النيات . عُرفت الوجهة ووضعت المعالم . خلصت الأنفس من الحور فنفضت التواكل . تجردت القلوب من الهوى ففادت إلى الحق ، ومن الخوف فارتبطت بالله . لاح أعوان الإمام وقد أجمعوا على الطاعة ، وفي الطاعة اتساق التفكير . ومن اتساقه وحدة كلمة ، ووحدة أسلوب ، ووحدة تنفيذ لا تستقيم بدونها الأمور .

غير أن البصيص المنبعث إليهم من خلال فرجة الظروف كان كاللاهث . . . وهذا يترشح كأنما من إعياء . . . ذابلا يتأرجح كأنما من دوار . . . شاحبا كأنما انبهرت أنفاسه . . . كان يتلمص آونه في تردد ، ويذحف أخرى على تشاقل . . . يقسل في خشية ليتواري من استعياء . . . نادرا كان يتوهج . أحيانا كان يومض . غالبا كان يختنق بين الغيوم .

وكيف لا ؟ .. وما تلك إلا معالم لا تقوت التأمل ، وحقائق تطفر على الجدل والإنكار .. فالوضع القائم ، بكافة جوانبه السياسية والاجتماعية ، مهتز مائع . والمواقف التي تعترض سبيل التغيير ليست قليلة . وحيط المبادرة إلى العمل الناجح متسكث ، بل هو ضائع من الأصابع . والظلمة المنتشرة حول البلاد والعباد ، وعلى البصائر والأخلاق ، كسف تملو كسفا ، وأطباق فوق أطباق .

تل من المشكلات ١

ركام هائل من رواسب الماضي وأخطائه تجمع طوال السنوات الأربع النفضية ، عسير الآن كل العسر على الفئة الأمانة المناهضة للركود ، للتوثية للتغيير ، أن تزيجه أو تفتته ، أو تحترق كتلته الصماء الصلبة لتنفذ منه إلى المستقبل المضيء . . . كان عقبة ضخمة دون روع التمرد ، وكسر شوكة الانقسام رأبا للشدخ الذي فتحته الأهواء في جدار الوحدة الإسلامية وشطرت به الشعب شطرين . كان قرة ضاغطة أو مرقلة ، لطاقت الفكر ، وقدرات الإنجاز تحاول وأدها وكنتم حركتها كلما همت بالظهور ، أو تمثيرها وشدها إلى الوراء كلما همت بالانطلاق . . . كان

صداء نيعا حديديا أمام تقدم العمل القومى الذى يتوق إلى إقامة مجتمع سليم على قواعد من قيم الإسلام ، ودولة قوية على أسس من وحدة النظام . .

وتتعدد بالارباب مظاهير الأمراض والأسقام التى دنت فى جسد الأمة الإسلامية الناشئة تميث فيه ، وتشيع بنسجته الجديد الجروح والقروح . وتتعدد أيضا الأسباب والعوامل الباعثة لكل هذه الملل والأدواء . . ومع ذلك فما من داء ، مهما كان — كراسى الفئة المتطلعة إلى الإصلاح بين صفوف الإمام — يعضل أمره على العلاج . وما من دواء إلا أنمر وحقى الشفاء إن هو كان وليد وصفة بارعة ، وجاء فى أوانه ، ثم اقتحم على الملة وكرها قبل الاستفحال . وإذا تسكّرت الأمراض على عليل ، وأخذته نهكها ، كان أوّل الأدوية فيها وأشدّها خطرا عليه من سواه ، هو الأولى قبلها ببراعة الطبيب ، وأحقها بالمداداة . .

بهذه النظرة كانت الشام ، بوضعها ذاك ، علة الملل وآفة الآفات . فهى تمثل فكرة الانفصال عن الدولة الأم ، وتكاد توحى بها لغيرها من الولايات . وهى رائدة التمرد على سلطة الحكم الشرعى ، وموقدة ناره خارج حدودها الإقليمية فى كل مكان ماوسعها أن توفد أو أن تقود . وهى بخروجها على النظام العام شاغل للدولة أى شاغل أن تفرغ للعناية بأحوال الشعب حق العناية . وهى بموقعها الجغرافى المتطرف ، حائل دون ولى الأمر المسئول والدين معه من دعاة الإيعان أن ينفذوا سياستهم العقيدية بنشر الإسلام فيما يجاوز تخوم هذه الولاية « الأموية » من أرض الروم . وهى بعد هذا وقبله ، بؤرة الأضواء الدائية والطامع الشخصية التى تستعبد الأنفس امروض الدنيا وزخارف الحياة ، وتستذل القلوب المغريات والمغويات فتوسع الطفرة بينها وبين الله !

بغير الحق استعكم سلطان الشام . وبغير سيرة الإسلام سار فى الناس وساس . وإذا كانت شعائر الدين وطقوسه بقيت هنالك قائمة لا تهدر ، ومناكب العبادات وصورها ظلت فى إطارها للألوف من مظاهر التقدير ، فليس الدين ،

في حقيقته ، مجرد قشرة أو طلاء . ليس مجرد شمائر وطقوس ، وحركات وإطارات ، بقدر ما هو قيم ومبادئ وأسس ، تنسق معا ، وتؤلف بانساقها خطة سلوكية متكاملة تربط علاقة الإنسان بالله بعلاقة الإنسان بالإنسان في خيط واحد هو الإيمان .

ومن البين أن معاوية بن أبي سفيان قد حاول ، طوال سنوات عمله على الشام — إبان خلافة الإمام ، وقبلها على السواء — أن يتألف حوله الأهواء ، ويحتذب الرغبات ، عسى أن يضيف بها إلى نفعه نفرا ، وإلى قوته قوة ، وإلى فترة حكمه للموقوتة بها قليلا أو كثيرا من الأعوام . ومن البين أيضا أنه استطاع ، مع الأيام ، أن يحنى ثمار محاولته ويضم إلى وجاره كل متطلع لنفع ، راغب في حظوة ، مقتون بنفوذ . .

ولا يكاد يجاوز الواقع إلى بعيد أو إلى قريب أن يقال إن عاهل بني أمية قد غدا ، بطريقته « الأموية » تلك ، وهو قبلة للنهازين ذوى الأطماع ، يحطون عندها الرجال ، ليوقدوا الشموع ، ويحرقوا البخور ، إن لم يعفروا في ترابها الجباه . . ولا مغالاة أيضا أن يقال إن الشام غدت عندئذ ، بصاحبها ، وهي سوق كبيرة للرق « الخلق » تروج فيها تجارة القدم ، وتؤمها قوافل « عبيد » الأوطار مقبلة عليها من كل صوب ، لتعرض بها سلعها الآدمية ، وتبيها نفوسا وشمائر ، مثقالا بدرهم ، وقنطارا بدينار . .

ولم يعرف قط عن الرجل ، وهو يسمى لاحتياز السلطان ، أنه كان — في انطلاقه إلى هدفه — يتعرج أن تنصرف به وسائله عن جادة السلوك السوى أو تحرق شرعة السجايا الكريمة مادام الانحراف والحرق كلاهما أو أحدهما مبلغه وطره . . فالوسائل كلها مطايا . وللطايا جميعها نظائر وأشباه . أى وسيلة كأي وسيلة . وكل أسلوب كـ كل أسلوب . السوى للشروع من الفعل والأقوال كالملتوى والمنوع . والنظيف للألوف كالمرتب والغريب . والمقبول كالردود . فالعبرة عنده بالنتائج لا بالمسالك ولا بالمقدمات . والنتائج هي التي تبرر

الذرائع وتقر الأسباب . . فسواء لديه إن هو اعتلى الحف ، أو ركب الحافر ،
أو انساب على ذات شراع . . سواء ، في شرعه ، عدل أم ظلم ، صدق أم مان ،
أوفى أم خان سواء كل المطايا والمراكب ، وكل المثاب والمناقب ، وكل
الدروب والطرق ، ما أمن أن يبلغ من خلال أيها أغراضه .

العصى على معاوية بن أبي سفيان — سليقة وطبيعة — كان أن ينطلق إلى
هدف له على خطة مستقيمة ونهج سليم ، فيصارح ويواجه ويحابه ثم يعصى بغير
التواء . واليسير أن يسير إلى ذلك الهدف ويراوغ وهو يبدو كمن لا يبتغيه ، فيمويه
ويلتف كما يفعل ثعبان . تلك طاقة خلائقه التي ركزت فيه وادعى بها أصحابه له
الدهاء ، وبعد النظرة ، وحسن السياسة ، وسعة الحيلة وما إلى مثيلاتها من
قدرات ثم تابعهم كثيرون ، يومئذ وإلى الآن ، على نفس الادعاء . ولو أنهم
تعمقوا دوافعه وسببوا طباعه ، وعايروا ملكاته بعميار عدل لبدلوه صورة
بصورة ، وأوصافا بأوصاف . ولو رسموا خفايا النزعات التي جسدت سلوكه ،
لقطعت الدلالات بتغيير أسماء هذه الملكات ، ولما أعبي الكثرة ولا القلة منهم أن
يصفوا الماهل الأموى — منصفين غير متعجنين — بما هو أهله من نقائص
ما أسبغوا عليه من نعمت وصفات .

ولا حرج هنا على الواصف كما لاحيلة للموصوف . فلم يكن ابن أبي سفيان
إلا ابن أبي سفيان . . . لم يكن إلا نفسه . . . فما كان مستطيعا ارتضاء الخروج
من جلده ليشق سبيله مستقيمة معتدلة إلى ما يريد . ما كان أعسر على طبيعته ،
وعلى اقتداره كذلك ، أن يعيش غير حياته . أن يتخير غير أساليبه . أن يقصر
سميه على الطرائق الأمينة . أن يلاقى غريعه وجها لوجه ، لقاء الأنداد الأكفاء ،
والخصوم الشرفاء في ساحة وغى أو في معرض جدال . .

ولقد أنبأت عن كل هذا الأحداث . .

فطوال السنوات الأربع الأخيرة ، التي قضاها في اختلافه على الإمام ، كان
معاوية — في صراعه على السطة — كمن يقدم رجلا لبوخر الثانية . كالواقف

السائر . كالمتحرك في فراغ . . . كان يقارب ولا يقترب . يشاغب ولا يحارب .
يطرق ويوالي الطرق ولسكنه لا يقتحم الباب . ومن خلال معالم سلوكه ، كانت
النظرة للتأمل لا يفوتها أن تراه يأمل في العدو وهو مشفق منه . ويتطلع إلى
المستقبل وهو ينتظره ولا يسمى إليه . كان كأنما يروم أمرا يقع في نطاق أحلامه
ثم يملو فوق قمة احتماله . ويهيمو إلى نصر يعلم أنه لا يظهر إلا في رؤى خياله .
فأما محاولاته العدائية التي سخر لها نفسه وحزبه ، جهده وكيد ، سله وشغبه ،
فلم يكن بطمع — بعد درس صفين — أن تصبح فيصل النزاع بين علي وبينه ،
فتحيته بالنصر ، بقدر ما كان يتخذها وسيلة لإيهام الناس بندية لغيره ، ثم يتفوقه
عليه ، ثم باقتداره ، لا محالة ذات يوم مقبل ، على تحقيق أطباعه العريضة
بأحراز النصر .

لعب معاوية بسلاح عصره ! .

لكي يبدو الرجل وهو الأقدر ، كان عليه أن يبسط كفه فلا يقبضها ، وأن
يشهر سيفه فلا يغمده .

كان هذا هو منطق الأوضاع .

ففي زمان « انقلابي » كزمانه ، أخذت النفوس فيه تتعرف عن الجادة ،
المثل الروحية تنهافت ، القيم تنكس ، الجباه تعنوا للدنيا ، والقلوب تبتعد عن
الله ، لا يكاد فصل الخطاب يصبح لغير المادة في نظرة الجماهرة الكبرى من
الناس ، وعند وزن المزايا وتقدير الأشخاص . للمادة وحدها ، محنة في دعامق
القوة : السيف والمال .

وقد أتقن معاوية ، حقا ، استخدام هذا السلاح ، أو هو أتقن كل الإتيان
« المناورة » به إذا ما تحدثنا بأغة الألاعيب والحيل ، وقسنا الوسائل والغايات
بذلك المقياس . .

بالسيف ، بمشوقا ، خايل العاهل الأمـسوى معاصريه ، أولياء وأعداء ،
ليخطف إليه نظرات عيونهم بوهج الشفرة المصقولة ، فلا يرى أحد في الحلبة سواه .
وبالمال ، مبدورا ، اشترى النفوس ..

وبهما معا اجتمع له — بمقياس زمانه — شرف البطولة الحربية ، وشرف
السخاء والأريحية ، ولا شأ فوقهما لطاب شهرة ، أو لساع لسلطان .

تفد معاوية إلى غريمه من خلال « اللاتقيات »

واستعدى عليه القرائز والشهوات ، والأهوال والخاوف ، والرغبات
والأطماع ..

وكان « بارعا » في النفاذ « بارعا » في الاستعداد

حين نعرض — بخاصة — لأعماله أثناء عام الصراع الأخير ، نراها سلسلة متصلة الحلقات من التمرد ، تهدف بدوا ونهاية إلى الإيهام بأنه ، في مجال ذلك الصراع ، هو الأقدر الأنفع ، الأدنى إلى النصر ، الأقوى على الأمر ، الأولى بولاية الناس ..

ولا نغنى بهذا أن غاراته الحربية وحدها — كما في عرف كثيرين — هي التي دفعت به إلى مكان الصدارة ، وهيأت له ، في خواطرهم ، أسباب الترجيح .
ولكننا نغنى أنه أخرج كل ما يجعبته . لعب بكل ما في يديه . ناور بكل أساليبه التي يدخلها أنصاره في نطاق الدهاء والحذق ، ويضعها من عدام في صفوف الاحتيال والترصيف ..

على أى حال ، بدت فعالة آنذاك كلعبة سياسية ماهرة ، متقنة الإعداد ، متسقة الخطوات ، مضمونة الغاية بما انبنت عليه من جهود محشودة ، وانطوى فيها من مكر ذكي ، وزودت به من توقيت محسوب ، إلى جوار إحكام الربط — في مجال تنفيذها — بين الدقائق والجزئيات بما يحقق انتظام التحرك ، وتماكب المراحل في تسلسل منطقي وموضوعي سليم إن لم يؤد بصاحب اللعبة إلى النجاح ، فهو مؤد ، لا محالة إلى اقتناع الناس بمجاريته بالنجاح ، ثم بختمية وصوله ، مع الأيام ، إلى النجاح ..

مناورة بارعة ، بغير مرأ ..

بارعة في حساب « الوصولية » التي تستبجح ما لا يستباح ..

وبارعة في اعتبار « السياسة » بمفهوم أحدث اصطلاح ..

أو هي بارعة بمفهوم « المكيا فيلية » التي وضغ معاوية أسسها ، وأرسى قواعدها ، قبل أن يخرج إلى الوجود ، بعدة قرون ، أبوها « غير الشرعى » الذي تنسب إليه الآن ! ..

ولا غلواء ..

فها هو صاحب الشام ينتهج إلى غرضه أى سبيل وإن أهدر فيه كرامة الإنسان والإنسانية ، وامتنع مبادئ الأخلاق ، وتسكر لـكل شريف من تقاليد الحرب والسلام ..

يرسل جنوده لتغير على أطراف غريته فتعصد الأرواح ، وتنشر الخراب ، وتنهب المال ، وتفتك الحرمات ، فلا يكون قصاراها إلا ترويع الأمانة الأبرياء ، وقتل العزل من السلاح بغير ضرورة قتالية ، ودون إعلان حرب على خلاف ما جرت به شرائع القتال المرعية فى ذلك الأوان .

ويستميل إلى جانبه رجالا من علية القوم من أعوان على ، أو من معتزلة الخلاف المشيوب بين حزبه وحزب العراق فإذا هو — حين يستميلهم — إنما ينصر المثاب على المناقب ، ويسود النقائص على المكارم ، لأنه لا يبلغ أربه إلا فى عبيد المآرب ، ولا يبلغه فيهم إلا من خلال أوضاع الحلال ، وبإحياء العصبية ، وإنعاش الغرائز ، وإضراء الشهوات .

ويكيد لمن يناهضونه ولا يتبعون سبيله من قادة الراى وذوى النفوذ فى الأمة الإسلامية ، فلا يتعرج ، وهو يرم كيده ، عن « ابتداع » الأخبار ، وقلب الحقائق ، وتزييف الوقائع ، ونشر الشبهات والأكاذيب .

حلقات من الأساليب وحلقات ، تواترت فى سلسلة طويلة من أفاعيل معاوية عام الصراع الأخير ، ما نراه كان يرمى بها ، حين أطلق أجناده ، أن يغزو أرضنا لئملك ، ويحارب جدا لينتصر . وحين ألقى دعاواه ، أن يدحض باطلا بحق ، ويعمو خطأ بصواب ، ليقنع اللاتذنين بغير ظلاله باستقامة نهجه ، وشرف مقصده ، وعدالة مسماه ..

كلا ..

بل هو قد فعل ليحمل الناس ، شاهدتهم وغائبهم ، دانيهم ونائبهم ، على الاقتناع بأن أبى سفيان وابن أبى طالب سيان . ندان فى ميدان ..

ثم فعل لبيدو في الميون والحواطر البطل الجلد والحصم العنيد ، الأصبر من غريء ، على موالاة النضال ، الأثبت في مواقع القتال ..

ثم فعل ليعلم من لم يعلم أنه الأخلق بالنصرة ، الأحق بالتأييد ، لأنه قبله كل قاصد ، وملاذ كل لاجئ ، ورجاء كل راج ، يأمن في رحابه الخائف ، ويعز المستمين ، ويفخر النصير والمعين ..

ثم فعل ليروه أولى سائس في الدولة المريضة بسياسة الأمور ، وأقدر ربان على قيادة السفينة إلى شاطئ الأمان ..

ثم فعل ، أخيرا ، فعل المتفضل ، الذي لا يبخل بالجور على صالحه الخاص فينزل عن بعض ما يملك لمن لا يملك ، ويسخو ببعض حقه المضمون على خصمه المضيع من أجل حقن الدماء ، وإناءة السلام ..

تلك مراحل من المسكر الحبيث ، سلكها معاوية في خيط واحد في أخريات عهد الإمام أعدها بعهارة ، ونظمها بحذق ، ومارسها باقتدار . لبسها التمويه لتجوز على الناس ، فإذا هي تجوز آنذاك لأنها جاءت في أوان طغيان المظاهر على القيم ، وطوفان الزخارف على اللباب ، وغلبة المادة على الروح . وإذا هي تجوز إلى الآن على كل من يتخطف المعالم ولا يتعمق الأغوار ، ويهره بريق القشرة فلا يجاوزها إلى ما تغشى من الحقائق الخفية المسترة من الخدع والأكاذيب بألف ستار وستار .

ونجح الماهل المخادع حيث كان ينبغي له أن يخيب إذا ما عويرت وسائله بعميار الحق والفضيلة . وفشل غريعه الأمين حيث كان ينبغي أن ينجح لولا نكسة القيم وتهافت الأخلاق .

كانت غارات الشام — مع تردد العراق عن مقابلتها بالرد الرادع — أكتف
أفئدة البطولة الأموية التي نقب بها معاوية بحياء لتخفى عن الناس بعض ملامحه
الحقيقية المهزوزة ، وتبرز لهم منه الصورة الأسطورية البراقة التي عمل طويلا على
تلوينها لتلفت إليه الأنظار . .. كانت أقوى وسائله لاجتذاب الإعجاب .. كانت
أبلغ حججه ، وأدمغ براهينه لنشر الإقناع ..

ونجحت الحيلة فيما أراد لها صاحب الحيلة بأيسر الجهود ، وأبغض الأتقان .
فقد لعبت تلكم الغارات الوحشية دورها المرجو ببراعة ، كاملا متعدد
الشعب والأفانين ، متقنا مضمون النتائج والغايات .

وهي سيف إرهاب .

وهي مورد مال .

وهي عنوان بأس .

وهي مطية اشتهار .

وهي ، بهذا وأمثاله من ميزاتها وخصائصها ، مجلبة رعية ، ومصيدة أنصار . ..
ولا غرابة . لأن العرق النافر ، والمضلة المشدودة ، والصيحة المدوية ،
وغيرها من معالم العنف والبطش والتجبر ، خليق بها أن تبدو للمواطن البشرية
الفريرة كأنها دلالات تفوق وقوة ، أسرع إلى إثارة عجب الأنفس وإعجابها ،
وأقدر على استمالتها وكسبها من سماحة الحق التي تتحدث ، عادة ، إلى العقول
بالجرس المهادي الذي لا يعرف الضجيج ، وباللنطق الرصين الذي لا يعرف
التهويل ..

فتلك طبيعة الطبول .

ومع أن معاوية قد استطاع بهذه الغارات أن يلبس غير ثوبه ، ويجاوز مدهاء في الاقتدار .. وأن يرتاد الأرض « العلوية » من الشمال للجنوب ، يظاً منها ويقتسم ما شاء متى شاء .. وأن يغصب أهلها العزل الأمن والراحة والمال ثم يتخذ بعضهم رعية مواليين بعد أن يحملهم الرعب الزاحف ، في ركاب قوائمه المغيرة على هجرة الوطن والأهل ليأذا بإقليمه القدي لم تحاول قط أن تنوشه جنود العراق ، وقراراً من بطشه الضاري إليه ا .. مع هذا كله فقد ظل الرجل المستأسد وفي نفسه من الإمام شيء لم يشفه منه تلاحق ضربانه ، وشدة سطواته ، وما حققت له غاراته الإرهائية المدمرة في حومة الكر من « نصر » وفي أعين الجماهير من تقدير ..

فما نحال ، كان يخرج كبرياء ابن أبي سفيان — وهو يجهد جهده ليدو الند الكف للإمام — أن يحس بافتقاره إلى مثل حنكة غريه الحرية في مجال قيادة الجيوش بساحات القتال ، وإلى مثل شجاعته البطولية التي برزت كل ما عرف من شجاعة الأبطال عبر التاريخ ، في الغابر وفي الحال .. فلمله تعنى بكل قلبه لو أنه مائل علياً في هذا الميدان ، وعادله بنفس لليزان ، فإذا هو لا يبلغ بأمنيته هذه غير حلم حلم ، ووم محوم ا .. وأمله طمع أن يقع لنفسه — ولو في أحاديث خلصائه — على كلمة تهم عن عمره بالحرب ، وقوة جأشه عند اللقاء ، فإذا هو لا يقع بطموحه ذاك ، على حرف واحد من حروف الكلمة للرتجاء يقرنونه بسيرته وإنهم في سيرة غريه ، في هذا المضمار ، لينشئون الطوال وينظمون القصار ا ..

إلى القدرة القيادية في حومة الوغى ، وإلى ثبات الجنان عند الالتحام ، كان الرجل يقتقر بعض افتقار أو عساه كان يقتقر أشد افتقار ا .. وبمحصيلته المقدورة من كليهما كان عليه محالاً من المحال أن يطاول الإمام .. فما خاض على بن أبي طالب معركة قط ، منذ صباه ، إلا شق لنفسه طريقاً في أعدائه بسن حسامه ، ومشى إلى النصر على جماجم خصومه . ولا صاول قط ، في موقع نزال ، فارساً له في سجل الفروسية مآثر ، إلا صرعه وجرعه حتفه ..

بهذا وهذا تحدث عنه إلى عالم البطولة منطق الوقائع كما تحدث إقرار
الأشخاص .. وإذا كان عاهل الشام قد نجح بجلبه في صفين ، فبغير شجاعته ،
وبغير حنكته الحربية كانت حينذاك نجاته ، وإعنا بالجن ثم بخدعة التحكم . وإذا
كان قد طالما نعم في ذلك الأوان بثناء الأعوان والبطانة ، فقد كان يعلم أنه الثناء
الذي لا يستطيع أن ينفض عنه إحساسه بالمهانة ، لأنه في الحقيقة ثناء مناقق ماله
من سبيل إلى الخطوة لديه إلا أن يقرنه بغيره إن لم يقدمه عليه . أو هو ، في
أقل القليل ، ثناء رفيق رقيق شاء ، بزخرف الحديث ، أن يهون عليه وطأة
ذلك الشعور بالقصور ..

حتى بعد أن آلت الخلافة إليه ظلت مرة تخلفه عن الإمام في مجال الطعان
تلاحه ونطل عليه . . . طارده في كل سكة خلا فيها إلى نفسه مع الذكريات .
وطالعه من كل لحة من لمحات ذلك الماضي جرت بهجسه على لسان . وخايلته
مع كل كلمة أطلقها عليه خصم ثار في ساعة غضب ، أو خليف ساخر في مقام
تندر .. وما نطن أذنيه إلا بقينا ، إلى آخر لحظة من لحظات حياته ، وهما مليتان
بعبارة صدق مريرة خاشنه بها — في معرض حوار — وليه ورفيق حيله عمرو
ابن العاص وإنه لأقدر امرئ على ابتداع الرياء لو شاء ، وأخلق خاصته بإسماعه
أعذب الثناء ..

... . فلقد طاب لماوية يومئذ أن يرداعب صاحبه ، إبان خلوة ، فقال له :

« يا أبا عبد الله .. لا أراك إلا ويغلب الضحك » .

فسأله :

« بماذا ؟ »

« أذكر يوم حمل عليك أبو تراب في صفين ، فأزريت نفسك فرقا من شبا

سنانه ، وكشفت سوانك له . »

وعلى الأثر عاجله عمرو :

(٤ — الإمام ج ٩)

« أنا منك أشد ضحكا . إني لأذكر يوم دعاك إلى البراز فانتفخ سحرک ،
وربا لسانك في فمك ، وغصصت بريقك ، وارتعدت فرائصك ، وبدأ منك
ما أكره ذكره لك . »

فتنصل الماهل :

« لم يكن هذا كله ... وكيف يكون ودوني عك والأشعريون ؟ . . . »
غير أن ابن العاص كان أعرف بزيغ هذه التهمة ، فأجاب :

« إنك لتعلم أن الذي وصفت دون ما أصابك ا . . . لقد نزل بك ودونك
عك والأشعريون ، فكيف كانت حالك لو جمعكما موضع الحرب ا . . . »

فبهت معاوية . ما كان أغناه عن هذه المداعبة التي وضعت حيث يكره ،
وأثابته سخرية رقيقة ، وذكرته ما لم يكن يحسب أن يذكر بعد أن لفت الحادثة المهينة
في غلاف كثيف من مدهانة أعوانه وكادت تتوارى خلف ستر النسيان .

لكنه ما لبث أن استرد جأشه . .

فما هو بالذي يصيبه الحسر وله من ذخر لبقائه ما ينجيهِ ا . . . على الفور استعان
مقدرته على المداورة ليداري خزيه ، فاستضحك كمن لا يبالي . وأقبل بكل وجهه
على محاوره ، ثابت النظرة ، يقول في هدوء :

« يا أبا عبد الله ا . . . إن الجبن والفرار من على لا عار فيهما على أحد . . . »

وحسم الحوار بهذا الإقرار ا . . .

أبدا لم ينس معاوية ، عمره كله ، خفة وزنه في كفة الشجاعة ، ولا ضآلة
قدره في قيادة الجيوش ، كلما رأى أن يقيس نفسه بالإمام ، بل يظل الإمام ا . . .
هو لا ينكر ، وإن ود الإنسكار . ثم يقر وإن كره الإقرار . . . ولاضير عليه من
هذا النقص ، ولا عار كما قال ، ما ظل نفسه سرا بينه وبين نفسه يجتره في خفاء
لا يهدر خيلاءه ، ولا يجرح كبرياءه . . . لكن الضير كل الضير ، والعار كل العار
أن تلوك مهانتك الذكريات ، أو تتندر بها الشفاء بينما القزم المستقر في إهابه يحاول

جاهدا أن يعط رقبته ، ويشب على أطراف قدميه ، ليشمخ بأنفه مفاخرا وكأنما
أوهم الناس أن رأسه ارتفع حقا إلى ما فوق مستوى رأس العملاق ! فأما وقد
لوت غاراته إليه الأعناق ، وبهرت الأعين ، وشغلت الخواطر ، فلير الجاهل إذن
— رأى واقع — أن النصر الذي حازه له مغبروه في محاليف اليمن ، وبلاد
الحجاز ، وعلى مشارف العراق ، إنما كان من تدبيره ، وصنع يديه ، وليس لقادة
الغارات من أصحابه فيه دور مذكور غير دور الأدوات . . . وأن الحسكة الحربية
التي مارسوها بتلك المواقع المشهودة ، وعلى ذلك النحو من النجاح المؤزر إن هي
إلا من وحي فكره ، ونتاج كفايته . . . وأنه يستطيع ، لو شاء ، متى شاء ، أن
يقترع على عدوه غريبه ويفعل تحت سمه وبصره ما بدا له أن يفعل ، وهو مدرك
لما يفعل ، عامد إليه ، قادر عليه .

بهذا أراد أن يبدو للناس عسى أن يرفع في اعتبارهم قدره . عسى أن يطمس
معرته . عسى أن يحور من أخلاصهم ما قر فيها طويلا طويلا من افتقاره إلى مثل
شجاعة ابن أبي طالب ، ومثل تمرسه بالحرب ، ومثل اقتناره على القيادة . . فما
أن فرغ بعض قادته من بعض غاراتهم على أطراف على ، وثبت له تقاعد عدوهم
عن مبادرتهم بالردع ، حتى عقد عزمه على السير بنفسه إلى مواطن غريبه سير
محارب جلد ، وقائد مغوار ، يتحدى الأخطار . . .

وفعل .

فقبل ختام السنة التاسعة والثلاثين للهجرة بقليل — ومد الغارات الأموية
المدوانية قد سرح على السهول والوديان ، وارتفع إلى الحزون والبقاع . وسيرة
الطهول التي ثرت في المواقع المضروبة قد ذاعت في كل مكان من المناطق «العلوية»
تلتشر الطلع ، وتمصر الأفئدة ، وتحرق المدامح ، وتحرق المسامع — خرج الماهل
الأموي من قاعدة حكمه دمشق على رأس حملة عسكرية كبيرة ، ذات كثرة وأيد
من الثغر والسلاح ، يؤم بها الترخوم البليانية إليه من بلاد العراق .
وتلفت الأمس يتابع رحلة الثأر للكرامة ، وغضبة معاوية الكبرى

المجروحة ١ . . إن الرجل ليطير الآن بجناحيه باشقى يتهاى للالتقاض . . ملء قلبه ثقة واثق . ويمينه بأس جبار . في الجو حوله رائحة الحرب . الأرض تحته تهتز باعتزازه . هو كالمعصم وجنده السوار . والنقع الثائر من خطا الأقدام وحركة الخوافر يؤلف غمامة كثيفة من الضباب تسكاد تخفى عن العيون معرفة جبينه يوم صقين .

وصعد بجيشه إلى الشمال حتى بلغ أعالي الفرات . ثم يامن به نحو الشرق حتى وصل إلى مجرى دجلة . فلما أن بلغ برزخ الأرض بين البحرين ، انحدر قليلاً إلى الجنوب ، وحط رحاله وأجناده قرب الموصل على الماء . . فسكأنه كان يشرف من قمة عالية على الماضي والحاضر . .

على مسافة غير بعيدة من معسكره ، كانت مدينة « نينوى » حاضرة آشور ، تزهى بعجدها الخالد الذي كانت تضرب به يومئذ في قاع التاريخ إلى عمق ألفي عام ، وظلت تخايل ، بعنفه وجبروته ، عالم ذلك الزمان عدة قرون . . ومن خلال الجبال ، تحت ظلال شواحق الشجر ، كان دجلة ينساب في واديه إلى مصبه البعيد في الخليج ، تتوالى معالم الأحداث على صفتيه . فها هنا يلامس القادسية التي شهدت سقوط فارس بحسن بلاء ابن أبي وقاص وصدق جهاده انشر الإسلام . وفي انحداره منها يمرج على النهر وان ليعيد للذاكرات مصارع الخارجة على يد الإمام . . ومن بعدها الدائن التي هم سفيان بن عوف بن المغفل الغامدي أن يجتاحها بغارته لولا أن ثبت لآلافه الستة حسان البكرى في ثلاثين من رجاله استشهدوا معه في الأنبار . .

مراحل من التاريخ تصل بين أمس واليوم ثم تنطلق مع رحلة النهر الجاري كأنما إلى غد مقبل سوف تتجلبب عنه الغيوب . . ومعالم من البطولات تطل من الغابر السحيق والقريب على دجلة وهي يانعة نضرة ، وإن تماقب عليها زحام الأعوام واستطالت عهود الآماد ، كأنما النهر الدافق كان يرويها بغائه لتبقى دائماً حية في الخواطر ، تذكرة للغافل ، وعبرة للذاكر . .

فإن يكن ابن أبي صفيان قد استعاد في باله ، بمستقره هذا وهو مشرف على مدينة الموصل ، بعض صور البطولات الماثلة لحياله من وراء الضفاف ، فذاك أخرى عن كان مثله منهوما بالبطولة ، مشغوقا بالمجد ، نزاعا إلى العلياء . . وإن يكن ، حين إشرافه ، قد أعاش نفسه في إطار إحدى هذه الصور البراقة كما تعيش شرنقة الدودة في غلافها الحرير ، فذاك أدنى إلى اتجاه أحابيسه ، أولى بحالته النفسية الجذيرة بأن تذهت خياله ، وتلهب آماله . .

وماله لا يفعل وقد تقضت عليه بضعة أيام ، ندية كريح الشمال ، رخية كهداة الجبل ، فوق الأرض « العلوية » عند تلسمك المدينة وهو على طمأنينة كأنه يعمض أعماه ؟ . . لقد أقبل شوطه الطويل من دمشق إلى مكانه هذا فيمابين النهرين عبر الجزيرة ، وما تصدى له في انطلاقه مناجز . . وأقام هناك ما أقام ، في غير موطنه ، متحديا عدوه ، فلم يقب به اللقام ، ولم يهتز بنان — دع السنان ! — في وجه تحديه . . ثم ارتأى أن يطوى الرحلة ويعود بالحللة ، فإذا هو آمن في الغربية ، آمن في الأوبة كأمنه في الخروج ، لم يعكر عليه إقامته معكر ، ولا اعترض رجوعه معترض ، ولا لاحق خطواته الوثيدة الوثيقة مغير . . أفلا يحق له الآن بعد هذا أن يفخر ، ويفخر بفخره مريدوه ؟ . .

بلى . . ا .

أم ليس في الناس ، هنا وهناك في العراق والشام ، من تسامع من بعد بهذه المغامرة البطولية فأكبر في العاهل اجتراءه إن لم يكن قد قرنه — في الشجاعة — بغريمه ، وقومه كتنقيعه ؟ . . أم لم تكن عاقبة حملته له ، نوعا من نصر وقدر من ذكر ، يعوان ما سلف من هوانه ، ويرجعان بميزاته ؟ . .

بلى ولا جدال . . ا .

وكيف لا وإنما حقا لمركة ، كتب له فيها الظفر ، وإن يكن خاضها بلا سلاح ، وكسبها بغير قتال ؟ . .

فقد اقتنع فيها على غريته حدوده . مشى الحيلاء فوق سلطانه . أوطأ خيله
عرينه . عسكر في حرمة . بث بأرضه طلائعه . حرك فرقه وسراياه . وقف
في الأهبة والدرية يتعدى اللقاء ، وهو ثابت القدم ، جلد الفؤاد ، مرفوع الرأس ،
فإذا الصباح ينسخ الليل ، وإذا الليل يغشى الصباح ، يوما وراء يوم ، ولا شيء
يأتيه من جانب العراق بما ينم عن انتفاضة الليث الجريح ، القابع في الكوفة ،
ثأرا لحرمة المستباح !

أوشك معاوية أن يبلغ ثأره . .

بعد قرابة ثلاث سنوات ، غائمة مضطربة ، لاح للناس واضح المعالم . بدا في هيئة منتصر . لعل الموصل الصامتة غيرت صورته . أبرأت جراحه . ردت عليه كبريائه التي ضيعها « هلمه » فوق أرض صفين . .

وحق لهم . .

في اعتبارهم يسهه الآن أن يشد قامته . أن ينصب عوده . أن يتلع جيده . أن يضع أنفه على قمة رأسه . . .

وحق له . .

فطائفة منهم غير قليلة ، بدا لعيونها وقد قارب غريعه . طائفة أخرى عادته به . وطائفة غيرها رفعتة عليه . . ولا خلاف ، في هذه النظرات المتراوحة ، بين قومه وقوم خصمه ، أعدائه وأوليائه ، لأن الوثبة الأخيرة العالية ، التي وثبها من بضعة أيام ، بهرت أعين الأمة جميعا ، على تباعد المسافات ، وسرقتها ، وحولتها إليه . .

بين الرجلين المتصارعين راح يتأرجح رأى الجمهور . مرة إلى هذا ومرة إلى ذاك . مرة هنا ومرة هناك . . تدانى التقدير بعد تفاوت . . استوى الميزان بعد انحراف . تسكبا وإن يكن هو ، دون الإمام ، قد اجتذب الحواطر إعجابا به أو عجباً منه ، تنو إلى مستطلعة . تنسقط أخباره . تلتقف همساته . تترقب حركاته وسكناته ، كأنما تتوقع أن يفاجئها ، بين لحظة ولحظة ، بجديد . .

بل الأمل فيه ، إلى جوار هذا ، قد ربا في الشام . والتوجس منه قد زاد في العراق . والأحداث المجهولة للتواريه خلف الأفق واقفة على أهبة ، تنتظر الخطوة التالية التي عساه أن يخطوها ، لتلحق بذيله ، وتسير وراءه إلى حيثما يعتزم أن يسير . .

ولا غرابة . . فالعمل المثمر الفعّال ملء جمبته ، والقول الحاسم الفصل على طرف لسانه ، والبادرة بكلّهما أو بأحدهما ، بين أصابعه كمثل خيط يتلعب به ، لو شاء شده أو شاء أرخاه . . .

تغير الموقف . .

تبدل ظاهره ، فبدأت صفحته الرتيبة تضطرب . وتبدل باطنه ، فبدأت القدر تفور . .

ولم تكن الغارات الضارية وحدها هي التي غيرته . فإن هي إلا كالد يعثور البحر ساعة أو بعضها ثم ينحسر فإذا هو يكاد لا يترك شيئا وراءه إلا الجفاء . . ولكن للوصول ، في الأغلب ، هي التي قلبت للمايير ، أو كانت نذيرا بالانقلاب . . فهذه « المركة » الحرساء التي لم ينطق بساحتها سيف ، ولا فتح جرح فاه ، لوت بيدها الماهرة الدربة أفكار الناس ، وقهرت الزمن على أن ينصرف بركبه عن مساره الطبيعي ليرتاد حلقة أخرى من مراحل الكفاح . .

فباتهاء موقعة صفين ، انطوت صحيفة « المواجهة الحربية » بين الفريقين ، لتفتح بعدها في سجل الصراع العلوي الماوي صحيفة أخرى من الركود المنحقر ، أو « السلم المسلح » الذي كانت تفصح أحيانا عن عنقه بضعة انتفاضات قتالية تمثلت في غارات هدفها ، فيما يلوح ، إسدال ستر كشيء يدارى هزيمة الجيش الأموي في تلك الوقعة ، والإعلان في صخب وتوار عن القدرة القتالية للشام . . فالأسلحة ، خلال هذه الفترة الراكدة من الصراع لم تصمت الصمت كله في كلا الجانبين بعد أن جمدت حركتها الناشطة خدعة المصاحف . لم تقر في القرب لتصدأ وتنام ولم تدفنها الأغمام . وهدنة التحكيم المفروضة على الفريقين لم تقف الحرب ، ولم تجيء بالسلام . . ومع ذلك فالحرب القائمة إذ ذاك — إن سميت حربا — لم تكن تزيد عن تراشق من بعيد ، أو معارك جانبية لم يتع فيها التقاء الخصم بالخصوم لقاء الالتحام الذي من شأنه أن يعحص القوي ، ويحسم الموقف ، وينهي النزاع . .

أما « معركة » الموصل فهي ثالثة المراحل وختام الرواية، لأنها تمثل الخروج بالصراع المشبوب من ساحة الحرب المادية أو التقليدية إلى ساحة الحرب المعنوية أو النفسية بتعبيرنا الحديث . ولا يعنى القول أن هذا النوع من النضال لم يألفه من قبل ولم يمارسه الفريقان ، لأنه فى حقيقة الأمر يلزم عادة صراع السلاح ، ويسبقه ، وينفرد دونه كثيرا فى الميدان . ولكنه يعنى أنه فى هذه الفترة الثالثة لم يكن تبعاً للحرب العسكرية وعونا لها ، بل كان ذا اليد الطولى الذى تسنم ذروة الصراع وترك لغيره من ألوان المناجزة أن يرسم فى القاع . . .

ولقد يوشك أمرؤ أن يرى فى السير إلى الموصل بادرة جرأة يثاب عليها معاوية مثوبة تقدير حين يحسب هذا السير فى عداد المغامرات . . . فالمغامرة تنبى عن اعتداد المغامر بنفسه وصلابة شكيمته . . . وتصدى صاحبها للإقدام على القيام بها يعبر عن اجترائه على ما يكاد يعتبر من قبيل الخوارق . . . واقتحامه طريقها الشائك يعلن عن جسارة تستهين بالخطر اللاتل أو المتوقع ولا تبالى من النتائج إلا أن يثبت بها ذوده عن كرامته سيان عنده نجاح فبلغ غاية شوطها أو قتل ببعض مراحلها مادام رافع الرأس ، ثابت القدم ، شاكى السلاح . . . يوشك الرأى هكذا أن يتحل عاهل بنى أمية خير صفات المغامر العنيد الذى يشور لشرفه ، ويناضل لتأكيد كبريائه لولا أن طييمة مجازفة الموصل ، وموقتها ، وعمرها ، وما يحيط بها من ظروف تنأى جميعا بالرجل عن هذه الصفات ، وتخرج بإقدامه عليها ، وممارسته إياها ، من حدود النية المعقودة على العمل الجسور ، إلى حيز العزم المبيت على التمويه الخداع . . .

شواهد الحال تفصح بغير مواربة عن هذه الحقيقة التى لا سبيل إلى إنكارها لتأمل يتمق واقعها المعلوم . . . فالعاهل المدلل إبانها باقتداره ، المستعلى بعدها بفخاره ، كان راسخ اليقين — يوم تحرك بمحملته صوب الموصل — أنه آمن أى خطر كل الأمن حين السير ، وحين المسكث ، وحين الرجوع على السواء ، ما شاب يقينه عندئذ ظل من شك ، ولا طارت به أسرع مخاوفه وأعصى ظنونه إلى توقع التعام . . .

كان لا ريب واثقا أن خروجه إلى البلدة الموعلة في الشمال ، أبعد عن علم أعدائه ، بل تصورهم ، لأنه خروج بغتة مغلف بالتسكتم ، مستر بالإخفاء ، تراد به مفاجأتهم وأخذهم على غرة كغرض سواء من الغارات التي كان يفرقها هنا وهناك لترهب المراق ..

كان أيضا على بينة أن غريعه في شاغل عنه ، وعن ضربانه السريعة الفرارة ، بمصيان أصحابه في الكوفة له ، وتقاعدهم عنه .. فلا وجه إذن للخشية أن يبادر على إلى الخروج لللاقاة الحملة وإن مشى أنباء بهذه المبادرة لأنها عندئذ الأنباء الخليفة بالآتبلغ سمع المغير إلا وقد فرغ فعلا من رحلته ، وعاد موفورا إلى الشام .. كان موقنا ، كذلك ، ألا معدى للإمام — لو افترض أن رجاله أطاعوه ، واعتزم الرد بحملة مضادة — عن تعبئة جيش لجب ، لا يستغرق حمله وتسليحه وتنظيمه يوما أو بضعة أيام ، بل مدة طويلة ، تفوق أضعاف الوقت الذي تقضيه الحملة الأموية من ساعة مخرجها إلى لحظة عودتها إلى قواعدها بأمان ..

فإذا اقترن هذا كله بطول المسافة الممتدة من الكوفة إلى الموصل طولا يبلغ مئات الفراسخ ، وبالمدّة التي لا تقل عن بضعة أسابيع ، ويمكن لجيش الدفاع — الذي قد يظن زحفه من الجنوب — أن يصل فيها إلى مكان الاشتباك المنتظر بالشمال البعيد ، وبمشقة اجتياز عقبات كشود تفرضها على ذلك الجيش طبيعة أرض تتراوح تضاريسها بين لين الوديان ، وقفر الصحراء ، ووعورة الجبال والهضاب ، ومواقع المجاري النهرية المعوقة للسير . . إذا اجتمعت هذه العوامل معا أمام الحواطر ، بدا لا جدال للتأمل الذي يتعمق الأمور أن احتمال التقاء الغريعين ، في تلك الفترة بعيدان وغى يصطرع فيه جيشان ، إنما كان ضربا من الخيال والمحال ، وأن معاوية حين خرج من دمشق برجاله في السلاح والعدة ، إنما كان واضعا في باله أن حملته رحلة تمويه لا حملة حرب ، وأن جنوده الذين قادم لوجهته رفاق نزهة لا رفاق قتال ..

كلام لم يعن معاوية قط أن يستدرج غريعه إلى معركة بالموصل يعيدها إلى الحياة

مرحلة المواجهة الحربية التي ختمتها صفين وأسدت عليها الستار . . ولكنه كان يعنى ، عن حساب وتدبر ، أن ينشط الحرب النفسية ، ويبلغ بجدتها وعنفها ما لم تكن بلغته من قبل في ذرا التويه ، إيهاما لعامة الأمة ، ولكل من تبهرهم القشور والمظاهر ، ويحتذ بهم قرع الطبول ، أنه الند العتيد الذى يبرز خصمه في مجال القوة العسكرية ، والكفاء القادر الذى يستطيع ، دونه ، فى مجال البراعة السياسية ، أن يبادى ويبادر ، ويسعه التحكم فى الأحداث وتصريفها على النحو الذى يرضيه ولا يباريه إنسان فيه . .

ويفصح لنا تاريخ الحقبة المائلة عن نشطة هذا التمرية المعاوى وقدراته ، بأكثر من أسلوب من أساليب البيان والتعبير . .

فالتلويح بالتفوق العسكرى ، فى صورة هجمات مفاجئة ومتعاقبة ، مع تباعد مواقع الهجوم — كالتغارات الإرهابية — توحى بالاجتراء على سلطة الدولة ، وفى صورة غزو شامل يحتل المناطق ويقتحم الحدود ولو إلى حين — كالزحف على الموصل — يوحى بتحدى هذه السلطة ؛ وكلاهما تعبیر عن الإدلال بقوة الغازى أو المغير ، كفيل بأن يحمل الناس على الاعتقاد بمعجز الحاكم « الشرعى » عن حماية الرعية كمعجزه عن حماية الحدود ، ويضعه فى تقديرهم غير حقيق بالطاعة التى بايعوه عليها ، وبالمنصب الذى وضعوه فيه . .

وإظهار انفضاض نفر من عمال الحاكم على الأقاليم عنه ، أو طائفة من صفوة خاصته ، اعتزالا له أو انحيازا إلى خصمه ، تعبیر يشعر الجماهير بتقلص ظل نفوذه ، ووشك تهاوليه ، وإشراف سفينة خلافته على العرق إذ بدأت تهجرها الفيران . .

والعدوان على مظاهر السلطة التى يتفرد بها رئيس الدولة من دون رعيته وعماله وولاته ، وعلى الحقوق والمقرارات المكفولة لوظيفته الرسمية ، ابتزازا لبعضها ، ومقاسمة له فى بعضها الآخر ، فيه اجتراء على هيئته كصاحب رأى والأمر فى الدولة ، لا ينض فقط من شأنه ، ولا ينال من إحساس الناس بالولاء له ، بل هو يشير ، بأهون تقدير ، إلى انشطار الحكم بين أميرين :

أحدهما يسنده حقه التقليدى ، والثانى يسنده جبروته العدوانى ، ثم يوشك هذا أن يعيل بالظنون إلى ترجيح دحرة السلطة الشرعية المتبوع الفاضل أمام الصولة الطاغية للتابع المفضول ..

هذه العوامل هى التى شكل منها معاوية حملة التزويه ، وتقدم بها إلى ساحة الصراع ليقرر بالشعب الإسلامى ، ويدفعه أو يدفعه سواده الأعظم إلى الإيمان باقتداره على الأمر دون غيره . . وإذا كان الناس خدعوا آنذاك بهذه التمثيلية ، وجازت عليهم حيلها التزويه الزائفة فأخذوها مأخذ الجد وأدخلوها فى حساب الحقائق ، فمن العجب أن تظل إلى الآن مسيطرة على أذهان من باعد الزمن بينها وبينهم بالقرون العديدة وكان أجدر بهم أن يتحرروا من قوتها الاستهوائية ، بعد أن تبددت ربح « جوها » المخاتل ، وأفسح لهم فى تناول مظاهرها وخفاياها بالتعميس والروية ..

الصورة التاريخية الشائعة عن طبيعة الفترة القصيرة التي اختتمت خلافة الإمام بها خطوط عديدة من الأضواء والظلال ، تبهم المعالم ، وتشوش الحدود ، فتعجم التعبير عن الحقيقة لأنها تخلط رصانة الصدق برعونة الخيال . . . بعض هذه الخطوط ثقيل كثيف ، وبعضها الآخر خفيف شفيف . وبين هذه وتلك يوشك النظر أن تبهره آنا سطوة النأاق فتعشيه ويوشك آونة أن يرده تراكم العتمة حسيرا لا يرى ما حياله . والرسوم والألوان تهتز على الأثر وتختلط حتى لتضل الأعين في تبين العلام المميّزة لسهات الوقائع والمفصصة عن ملامح الأشخاص .

هكذا خفي من حقيقة الأصل ، الذي تنقله لنا الصورة الشائعة ، الكثير والكثير . . . ولا مبالغة قط في تصويرنا لهذا التقدير . . .

فلقد أسرفت ، فيما نخل ، طائفة كبيرة من قدامى المؤرخين ، في اعتمادها على ما تضمنته حملة الترميم للعاوية من وقائع مكذوبة ومدسوسة كحقائق تاريخية لا تعورها الشكوك ، كما جازت على معظم جماهير تلك الأيام كدلالة وحيدة مؤكدة على اقتدار صاحب الشام اقتدار تفوق على غريعه ، وكمدخل طبيعي محمد مجتازه غير منافس إلى نصر حاسم مضمون يفضي به ، بلا محالة ودون عوائق ، إلى أريكة السلطان .

ثم أسرفت ، من بعد ، طائفة غيرها من محدثي كتاب السير والتراجم في انقيادها — عن متابعة أو عن اقتناع — لهذا الرأي التاريخي القديم الاتقياد الذي لا يؤيده إلا رونق السطوح والظهور ، وخلاصة الطلأات والقشور .

ولا ضير قط على أولئك وهؤلاء — فيما ارتأوا — بما غمت عليهم الحقائق ، وخفيت عنهم الجذور بسبب كثافة الظلال أو بهرة النور . . .

ولا ضير ثانية إذا ما أعوزتهم وسائل الكشف والتحري ، وشق عليهم القوس في مجاهيل الأنفس ، وتعرف دواعي السلوك ..

ولا ضير أيضا إذا لم تشرد بهم نظرتهم هذه فتجور على أقدار صفوة مختارة من أنقياء الضمائر ، ورواد الحق ، معكرة نقاوتهم ، ملوثة سمعتهم ، خائضة في سيرهم بما يقدح فيهم وإن خالف القدح كل واضح ومشهور من أخلاقهم وسلاتهم ، وعارض كل غالب ومشهور عنهم من وقائع التاريخ .

كل هذا مقبول مغفور إلا أن يجور على اتساق التفكير . فأما والمنطق بجافيه ، والروية لا تحجب الرؤية ، وطبائع الصفوة المفترى عليهم معلومة لا يكاد ينكرها إنسان ، وسوابق سلوكهم منشورة تحت تأمل العيون والأذهان ، فإن جهدا يبذل في استقرار الشيم والسجايا ، ومعايرة الحاضر بعيزان الماضي ، وخص المزعم في ضوء المعلوم ، لأجدر بأن يوضع في الحسبان قبل التصدي للقطع في أمرهم برأى إن يكن ظاهره يمتذر عنهم بالأمناس من رضوخهم لمطلق الواقع القاهر ففحواه توحى للعقول خيانتهم واجبههم المفروض . . .

كشطحة القدامى من المؤرخين كانت شطحة المحدثين في تناولهم لهذه الفترة المتأخرة من إمرة الإمام ، سواء في تقويعهم للأحداث أو تقويعهم للأشخاص . . ومن التأول الذي قد لا يداني الانصاف ، أن تعزى نظرتهم إلى سوء النية والأولى بها — انقاء لشبهة التجنى عليهم — أن يقال إنها لم تكن محيطة ، وأن تنسب إلى الخطأ العفوى إن لم يكونوا ، بدورهم ، من ضحايا التضليل . . . ولاغربة . فليس من المستطاع في هذا المقام إغفال قدرة معاوية على إحكام التويه بتزييف الوقائع ، وتلفيق الأخبار ليلبس الأكاذيب طيالة الصدق ، ويرسم الحقائق بهيئة أباطيل .

كم هكذا فعل الرجل ، طوال عمره ، وهو غير متحرج أن يظلم ويجور . . ثم زاد وأوغل . . ثم غالى . على الأيام ، في كل هذا الذي جيل عليه من التواء ما كر ، وفاء لنفسه ، وتعبيرا عنها ، وكيدا سيئا للإمام خلال السنة الختامية ، فأناخ بزيفه وزوره على عقول الناس .

ولقد تعرض بعض عرض لكشف مما يدر منه في هذه الفترة من الفعال والأقوال ، فإذا هو يبلغ بكيدة الغاية ، وبالإيهام أبعد مداه . . بين عامة مناصريه لا نكاد نعرف واحدا لم تجز عليه أخاذيعة . . وبين جمهرة معاصريه لا نكاد تقع إلا على قلة قابلت بالريية أساليبه . . وبين أساطير مناوئيه لا نكاد نجد أحداً سلم من رشاش احتياله المسموم . . ومن وراء أولئك كلهم تقف الأجيال ، وقف حيرة بين ومضات الحق وشطحات المؤرخين . .

والأمثلة ماثلة .

حين نتصفح « كتاب » الماهل لا نلبث أن تطالعنا في هذا « الباب » صفحات يستهل بها نشاطه المختل بكبرى أكاذيبه ، وهي تحميل على تبعة قتل عثمان . . ثم تتلو بعدها قصة ختله بعض الناس في أمر قيس بن سعد بن عيادة حين كان عاملاً على مصر الإمام . . ثم يتدرج صعوداً من ختل الجزء إلى ختل الكل ، فيغرر بالأمة جماء في بضع وقائع وبضعة أفراد . ثم يستمض تمرسه بهذه القدرة التوجيهية التي تجيد طمس الحقائق فيخدع التاريخ . .

حلقات متصلة وثيقة ، ونطاق مشدود محكم من الأساليب المريبة التي تبدأ بالكذبة المراوغة وتنتهي إلى التلغيق المحبوك . .

ومع ذلك فليس هذا تجاوزاً للأسناد ، ولا تجنياً على الرجل ، بل هو استقرار لها منطقي ، وإتهام له صريح . .

وإذا سيق الاتهام فلا بد من تحرر ، وإذا ألصق الجرم فلا بد من دليل . وسيرة معاوية ، فيما نظن ، حافلة أمامنا بصور شتى من الشبهات التي تؤكد البراهين . .

ولا نحاول هنا أن نحصى تهمة ، أو نعدد مزائقه ، فنتناول هذا الجانب الخلفي من حياته العامة تناولاً إحاطة وتفصيل . إنما نرى أن نلم به إلام تنويه وتمثيل تحامياً للإطالة بغير ضرورة ، واكتفاء عن الإسهاب بالإشارة ، مادام القليل ينفي عن الكثير . .

على هذا الوجه من تتبع أساليبه يحق أن نقول إن « بصمة » من بصماته يعثر عليها منطبعة فوق صحيفة مزيفة من وقائع التاريخ هي خليقة بأن تشير بعض الشك في بقية الصفائف إلا أن يقطع بصحتها التمهيص . وأن التقاط صورة لهذه البصمة تضاهي بما لعنا قد نفع عليه من آثار أصابعه فوق غيرها مما يحتوى سجله ، هو طريقة مأمونة للاستيثاق . وإن انطباق هذه ، من بعد ، على تلك ، كلها أو بعضها ، هو الدليل القاطع الأمين الذى يؤتم ويدين ..

عند هذا وتنقش الظلمة ، ويسطع النور يهتك الغشاء ويكشف المستور ..
يبید الظن ويبرز اليقين ..

وها نحن أولاء ، عودا إلى الوراء ، نفتح من سفر معاوية صحيفة واقعه مع قيس بن سعد بن عبادة ، عملاق الأنصار ، وصاحب مصر من قبل على ، فإذا هي البيان الثبت الذى يأخذ العاهل الأموى بجريرة التلقيق دون سبيل إلى المجادلة أو التأويل ، لأن الواقعة ، بشهادة الإجماع ، وليدة تفكيره ، وبدلالة الموضوع برهان تجريمه ..

... إذ ذاك كان قيس بن عبادة قد استقامت له الأمور في أرض النيل ، طاعة له كحاكم للإقليم ، وولاء لعل كرئيس للدولة ، فأصبحت مصر ، بوضعها هذا قوة عسكرية وسياسية ومادية في ميزان الصراع على السلطان ، تشكل خطرا داهما جديدا على الشام يضاف إلى الخطر الداهم الأصيل الذى يشكله العراق ..

ولا شك في أن متاخة الخطرين معا للمنطقة الأموية ، كانت خليقة بأن تقض على معاوية مضجعه ، وتهدد مطامعه ، وتعجله عن سياسة التريث التى لزمها من بدء الثورة على عثمان ، ترقبا لما عسى أن تسفر عنه فتنة البصرة من نتائج كان يأمل أن تكفيه أمر الإمام ..

واستلمهم الرجل طبيعته للخلاص مما هو فيه ، فبادر على الفور إلى التلقيق .
وما له لا يفعل وإنه لأدنى أسلحته إليه ، وأسلسها في يده ، وأقطعها نصلا في وقت كانت تسوده للبادية الدينية والقيم الخلقية على نحو ظاهر وإلى مدى.

غير قصير . . . إن نفوذه ها هنا بأرضه لآفل ، وإن أمه ، من بعد ، في دولة أموية لقطوع . وإن الدائرة لا عمالة عليه لو أنه أمل في الوقت لغيره بمض إملاء ففرغ له ، أو تحركت مصر إليه وتحرك العراق معها فأصبح منهما بين شقي رحي تطحن قوته ، وتسحق أحلامه ، وترى بها وبه جميعهم نقاية وأشلاء إلى الذكريات . . .

هب إلى العمل ، فاول أن يشتري العملاق ..

ثم أذاع في الناس عنه أنه مسلم له ، لا يذبو به ، ولا يطالعه بعداء ..

ثم دعا جهرة أهل الشام أن يأمنوه ويولوه الاطمئنان ، لأنه له شيعة ، يمينه سرا ، ويحسن له النصيحة ..

ثم زيف كتابا دسه على عيون الإمام ، بالشام والعراق ، مهره بمثل خاتم عامل النيل ، يملن فيه ، صراحة ، ولاء معاوية ، ويعدده النصره على علي ، وتزويده بما يشاء من رجال ومال لقتال قتلة عثمان ..

واقعة معلومة أجمع عليها الرواة ، ولم تكن قط موضع ريبة عند كافة كتاب السير ، قدامهم ومحدثهم ، من كان معاوى الهوى أو علوى التشيع على السواء .. وكتاب مدون مقروء ، سجلته الصعائف في كل مرجع من المراجع وسند من الأسناد ، لا شبهة فيه .. ووثيقة معتمدة ، عليها « بهائم » معاوية جليلة ، تشهد عليه بمجافاته أمانة العرض ، وبترخصه في المخطورات الخلقية ، وتؤكد اجتراره على الحق والناس والتاريخ ، وتلصق به جرم التلفيق ..

ولقد نجح العاهل فيما توخاه من التفرير ببعض الأمة ، بعض الوقت ، حين أوقعها على هذا الكتاب للدسوس . وبلغ بكيده حينئذ ما لم يكن بالغا بسلاحه ، فتخلص من قيس ، وأفقد أمير المؤمنين أحد جناحيه . . . ولكنه نجح أيضا ، إن صح هذا التعبير ، في إبقاء ظلال كثيفة من الشكوك على كل حادث يعلم له دور فيه ، وبحسب الأكثرين أنه واقعة صدق تثبت حقيقة في غنى عن التحيص . . .

الفصل الثامن

ليس يستغرب في هذا العام الأخير من خلافة الإمام ، أن يهب معاوية إلى العمل ، بكل طاقته ، لتغيير تيار التاريخ ، منتمزا الفرصة السانحة التي أتاحها له الاضطراب السياسى المهيمن على أرض على ، والقلق النفسى للستائر بنفوس رجاله . فما من بيثة أصلمح عندئذ للعثر والغرس واقتطاف الثمار . . . وما من وقت أنسب له من هذه الفترة المشحونة ، من قبل الكوفة ، بالتردد والانتظار . وإذا كان قد حاول من قبل ، فأحر به أن يبادر الآن إلى الضغط بكل ثقله ، مجردا على غريته أقوى حملة نفسية في مقدوره أن ينظمها ويهجم بها ، عساها أن تجيئه بفصل الخطاب ! .

وقد فكر فيما يمر حوله ، وأمعن الفكر ، فإذا الظروف كأنما تناديه . . ثم أرسل النظر إلى بعيد وقريب ، فإذا الأحداث تتلاحق دراكا ، وتتدافع عجل إلى مسرح الحياة تدافع جمهور مذعور من باب ضيق هو للنفس الوحيد للنجاة . . ثم أعد ودبر ، فإذا إعدادة وتديره يتجهان ، هذه المرة ، صوب المشرق ، حيث ترامت الحدود بعيدا عن الكوفة ، وما يقاصيها من ولايات وأعمال ..

وأصاب الوجهة فيما يخال ونخال . . .

فثمة بهذا الشرق الفسيح أطراف شق ، يراها تأت عن قبضة السلطة المركزية في حاضرة الدولة بعض النأى حتى لتوشك ، إن تمردت ، أن تأمن سطوة البطش وقهر التأديب ولو إلى حين . . وثمة بقاع رق فيها سلطان غريته كركة التوب البالى القى لا يعصى على التمزيق . . وثمة مناطق ما زال بها أثر من ثورة ، تشتمل يوما وتسكن يوما ، ولكنها لا تنطق . لأنها تستمد دائما زيت وقودها من إحساس أهلها بقومياتهم الأصلية التي أرادها الحكم العربى ، منذ الفتح ، على النويان في « القومية » الإسلامية الجديدة . .

بعيدا عن الكوفة رمى معاوية ببصره فساحت به أطباعه في الأصقاع الشاسعة ، الممتدة شرقا من شاطئ دجلة ، موغلة في العراق الفارسي ، وفي فارس القديمة العملاقة نحو هضاب الأفغان . . فهذه الأنحاء الرحبة ، بما تضم من أراض جبلية وعرة ، وتؤوى من شعوب غنية حرون ، أولى من غيرها ، في اعتقاده ، بجهوده ، وأدنى إذن إلى خضد شوكة الإمام سواء انصلت عن حكمه أو دخلت في طاعة الشام . .

ليس حقا يستغرب ، في هذه الآونة المضطربة ، أن يعقد العاهل الأموي رجاءه على الشطر الشرقي من الدولة ، عسى أن يستكمل به سلطانه المنشود . . فالأمور قرت له بالغرب أيما قرار . الشام أخاضت له الود وأسلمته الزمام كما لم تمحض قبله ودها ، ولم تسلم مصيرها وأمرها حاكما من الحكام . ومصر وما يليها من إفريقية دانت له بالخضوع ، وضبطها ابن العاص . وعلى بن أبي طالب قد هدأ ، مغلوبا بثبوت أصحابه وتحاذلهم ، عن الزحف إليه . . وبهذا كله قد أمن الرجل على نفسه وإقليمه الخطر الغربي ، كما أمن مغية المواجهة العسكرية بينه وبين الإمام إذ باتت الآن أشبه برؤى خيال . .

وليس أيضا من قبيل طوارئ المصادفات أن يجند كل جهوده الهدامة ، وينبئ بها على الشرق كيذا ختالا يكفيه ما كان دائما يخشاه من ملاقة عدوه في ساحة قتال ، ويلتوى بالناس في نواحيه عن الطاعة للمشروعة التواء يحقق له في نهاية المطاف استصفاء الشرق كاملا لنفسه ، أو انتزاع جزء منه يدين بالولاء له من خلال استئالة بعض العمال .

آثر معاوية ، كما نحسب ، سياسة الختل عن إيمان بها عميق ، يستقيه من طبيعته . وعن تجربة عملية ناجحة ، مارسها ، ورجعتها على ما عداها في ميزان السياسات . . جرب الحرب نفذته صفين حتى لقد نجا منها وما يكاد . . وجرب الفتنة المسلحة في البصرة فجرعته الحثية ، وذهب بها عميله الحضرمي في الغابرين . . وجرب الغارات يسرحها ضارية إلى شتى البلاد ، فلم تنفعه ضراوتها ، لا هي حازت له سلخة أرض تزيد في رقعة ملكه ، ولا هي أتته بطاعة إلا بقدر

نفثة ضباب لا تلبث أن تذوب في أول شعاع ، بل كان قصارى قليلها إرهاب ،
وكثيرها هروب . . .

أما الحتل فأمون مضمون . . . وليد سليقته . رهن يديه . هين عليه أمره ،
طويل باعه فيه . . . وتلك الولايات العديدة المتراصة نحو المشرق ، النائية عن
بنان الحكم الشرعى ، المضطربة بالفتن والثورات ، إن هى ضاقت بإحدى حيله ،
فما هى ضائقة بغيرها مما استوعبته جعبة المحتال . . . فلامله أن يجدى فيها ادعاؤه
ما ليس له وما ليس فيه . أو يفاجئ التفرير بالجاهير . أو ينجح ابتداع العمال .
أو ينجح ، دون وسائله هذه أو معها ، أسلوب التنايق . . .

وكانت فارس أقرب الفرائس إليه . . .

هى دانية الدنو كله من مد ذراعه ومرمى أطماعه وإن كانت على مبعدة
مراحل طويلة من الفراسخ تشق على الركاب والركبان . . .

دانية يبعدها المسافى عن قلب الدولة البعد الذى يخفف عنها قبضتها فيدعها
طليقة الحركة فى مجابهة النظام العام ، تطيع حين تشاء ، وتتمرّد حين تشاء . . .
دانية بوعورة المسالك والطرق المفضية إلى مدنها وكورها للنبتة على
المرتفعات الصخرية وبين شواحق الجبال ، لو أرادها صاحب السلطان على امثال
أمره وكانت تؤثر الإباء . . .

دانية بتحفز رجالها ودهاقينها للخروج على الحكم القائم عند أول بادرة تفريرهم
بالخروج ، ليصلوا ما ينقطع من نوراتهم المتكررة التى ما فتئت تتفجر منذ الفتح
الإسلامى على مدى عمر جيل ، يحمد بعضها هنا ليشتمل بعضها هناك . . .

دانية ، فوق هذا وقبله ، بصاحب أمرها وعاملها زياد بن عبيد بن فلان ،
أو زياد بن أبيه كما تسميه روايات ذائعة شاعت فيها صبغة الخيال شيوعها
فى الأساطير . . .

هذه العواقل المرجحة كانت حقيقة لأريب آتشد بإغراء عاهل الشام بهذا

الشاطر الشرقى من الأرض العلوية ، الذى ارتسم أمام أطماعه التزاعة إلى التوسع الإقليمى ، وتنفسه للنهومة بالاستئثار والاحتياز ، فى هيئة قنيسة سهلة ، لا تلبث أن تخر تحت قدميه ، مفلولة الحول مهبضة الجناح ، لو أنه بادر إليها برحلة صيد ، أحكم خلالها نصب الشراك . . .

لكنها اليوم ليست رحلة صراع أداتها سلاح ، بل هى رحلة طى دعوة ، سلاحها حروف وكلمات . . .

وبادر . . .

خير هذه العوامل المرجحة ، فى يقينه ، وأحراها بجهد ، وأسهلها مأخذاً كان زياد بن أبيه ، قائد كتائب التأديب التى دفع بها عبد الله بن عباس من البصرة نحو المشرق لتخمد الفتن الناشئة ببعض أعمال فارس ، وترد أهلها إلى حظيرة النظام . . .

... .. كانت فارس طوال الحقبة الإسلامية القصيرة ، دائبة التمرد ، تكتب فى تاريخها ، بالعنف وبالدم ، صفحات من الاضطرابات ، تهدد أمن الدولة ، وتدفع البلاد ووحدتها إلى حافة خطر لا يدرأ شره غير امتشاق الحسام .
خلال سنوات خلافة الإمام .. كمثل — لم يكن يهدأ العصيان مرة فى جانب من هذه الأصقاع ، إلا ليتجسس كتيجس اللحم من البراكين ، فى جوانب أخرى مرات . . .

فى أول أعوام عهده ، قيل إنه سير خلود بن طريف إلى خراسان . . .

فى العام التالى بعث جعدة بن هبيرة إليها بعد عودته من صفين ، ثم خلود بن قرّة مرة أخرى ، فيما توىء إليه الروايات ، فمضى فى حرب أهلها وقد كفروا ، وحاصر نيسابور حتى أدلوا إليه بالسلام . . .

مع ذبول شعلة السنة التالية ، زلزلت فارس بثورة عنيفة على الحكم العلوى وعلى الدين ، ارتبط فيها الحرث بن راشد بن ناجية ، ومن غادر الكوفة وإياه من قومه انتقاضاً على سلطان طى ، بحلف دموى مع العلوى والسيحيين وقطاع

الطرق ومانعى الزكاة ، أشاع الخوف والقلق والفساد فى جنباتها ، بدءا بالأهواز
وانحدارا مع الجنوب إلى أقصاه عند البحرين . .

فى نفس العام عات السنة اللهب فعمت النار الإقليم ، حتى غلب أهله على
الأمر فيه ، وأخرجوا عاملهم سهل بن حنيف ، وخلا لهم وجه الأرض عتلاؤها
بالتوضى والاضطراب . .

فى السنة التاسعة والثلاثين للهجرة ، غدت الأمور على شفاهاوية إن لم يهرع
بحزم الحرب وحسكة السياسة ، إلى إنفاذ هيبة السلطة الشرعية ، وإعادة رفع
الراية الإسلامية فوق ربوع تلك البلاد ، والوقوف دونها ودون السكر
والانفصال . .

هنا دعا الإمام إليه ابن عباس من البصرة ، ألصق أرضه بالإقليم التاثر ، يياده
الرأى . . ثم جمع صحبه ليشيروا عليه بامرىء ماهر قادر قوى يستطيع أن يوليه
هذا الشطر من الدولة ، ليحسم الأمور .

قال جارية بن قدامة :

« ألا أدلك ، يا أمير المؤمنين ، على رجل صليب الرأى ، عالم بالسياسة ،
كاف لما ولى ؟ . . »

فسأله على :

« من هو ؟ . . »

« زياد . »

وأقر ابن عباس الترشيع :

« لعلى أكفيك به فارس . . »

فبعث زياد . .

ولم يكن هذا اختيار فلتة أعجلهم إليه الوضع الحازية ، بل كان اختيار ينظر

وحكمة له من ماضى المرشح المختار ، وصدق بلائه وصفاء ولائه ما يقضى به ،
ويضمه فى مقدمة الأولياء الأكفاء . .

فلقد علم اعتزال زياد معركة الجمل ، حتى لقد أدهش الإمام اعتزاله ، إن لم
يكن أثار غضبه ، فعتب عقبها على عبد الرحمن بن أبى بكره ، وقد جاءه فيمن
جاءوا البيعة بعد البصر . .

قال له يستهسر ويلجأ وليس فيمن قدموا عليه للبيعة زياد :

« وعمك المتربص القاعد فى ؟ . . »

فاعتذر عبد الرحمن :

« والله يا أمير المؤمنين إنه لك لواد ، وإنه على مسرتك لحريص ولكن
بلغنى أنه يشتكى . فأعلم لك علمه ، ثم آتاك . . »

وتبين أن الرجل مريض .

قال الإمام :

« امش أمامى ، فأهذى إليه . . »

فلما بلغاه ، رأى الإمام فى وجهه السقم ، فدعا له . . وأراد به البصرة ،
فاعتذر . فاستشار فيمن يوليه . .

قال زياد :

« رجل من أهل بيتك ، يا أمير المؤمنين ، يسكن إليه الناس ، أجدر أن
يطمئنوا إليه ، وينقادوا له ، وسأ كفيك . . »

فعمل برأيه ، وولى أمرها ابن عباس . .

لباقة وصدق نصيح وإنكار ذات ، اجتمعت له مع الولاء لترتفع به فوق
للظنات . .

. . . وسلف أيضا منه ، قبل هذه الواقعة بأعوام ، ما يسمو به بين الساسة ،

إلى مكانة مرموقة لا يكثر فيها النظراء . . بعثه عمر بن الخطاب ، إبان عهده ،
لإصلاح فساد وقع باليمن ماله غير داهية فطن صليب الإرادة ، قتمض بالأمر تخير
ما يكون النهوض ، وعلى خير ما ينبغي أن يفعل متمرس أريب ، حق لقد رضى
عمر عنه كل الرضاء ، وأشاد به الناس ، وأنطق الله عمرو بن العاص ، داهية
الدهاة ، بكلمة حق لا يند مثاها من أنانى مثله يكاد يحتجز لنفسه ، من دون
الأكفاء ، كل صفات التفوق والافتدار . . .

قال :

« لله أبو هذا الغلام ! . . لو كان قرشياً لساق العرب بعصاه . . »

وسمعه أبو سفيان ، فقال بلهجة الفاخر :

« أبت المناقب إلا أن تظهر فى شمائل زياد . . »

ثم مال إلى أذن ابن العاص ، كأنما يساره :

« أما والله إنه لقرشى . ولو عرفته لعرفت أنه خير من أهلك . . »

وكان على على مقربة منه ، فى مجلس عمر ، قد دفعه همسه إلى سؤاله :

« من أى بنى عبد مناف ؟ . . »

« ابنى »

« كيف »

نخافت الرجل من صوته :

« أتيت أمه سفاحاً فى الجاهلية . . »

وعندئذ قال له عمرو :

« فملا تستلحقه ؟ . . »

فأوماً بعين مذعورة إلى ابن الخطاب ، ثم همس :

« أخاف هذا العير الجالس أن يخرق على إهابي . . »

ونصحه على :

« مه يا أبا سفيان . . . فإن عمر إلى المساء سريع . . . »

وانطوى مَذْذَاكْ نسب زياد عن الجهر إلا من كلمة عابرة تند صدفة على لسان
ثم لا يكاد مدلولها في الأدهان يعلو من وهذه الادعاء إلى قمة الحقيقة التي
لا يطولها ارتياب . . .

... هذا القائد الصليب القوى . . . الذي كان موضع خُرْ أبي سفيان ، وهيأته
ملكاه للمجد ، وشقت حدائته وهو بعد في مقتبل عمره عن رجل عظيم ، وأجاد
لعبة الحرب كما أجاد لعبة السياسة في فارس الثائرة وفي توارها الأشداء حتى دان
أهلها له ، ثم حمدوه ، ثم قربوا سيرته فيهم ، أعدله وحكمته ورحمته ، بسيرة سيد
أكابرهم أنوشروان — كان لا ريب خليقا به ، في رأى معاوية ، أن يكلف
غاية الكلف بالعلياء ، ويعد آماله الحبيسة بصدوره إلى بعيد بعيد وراء آفاق عمله
المحدود . . . فلو أحسن له الماهر الدعوة ، وأحسن أيضا الأمانة والاستهواء .
ليكان أقرب إلى طبيعة الأشياء ، وأشبه بحكم النطق السليم أن يلتقم زياد
« الطعنة » فيصغى له ، وينمطف إليه ، وينخرط في صفوفه بكل ماتحته من
عمل وما قد يسمعه ، بمشهود قدرته ، أن يحوز من بلاد وأعوان ، مادام مآل
هذا الانخراط انتفاع المدعو من خلال نفع داعيه . . .

وأسرع بعينه . . .

في تقديره كان لا يشك لحظة واحدة في نتيجة دعوته . . . فصاحب فارس
لا بد معجل إليه الجواب بمودة البريد . . . والجواب — بحساب السليقة المعاوية
النهازة والمنهومة إلى المزيد — لا بد قادم بالقبول ، لأن القبول هو السلوك
الوحيد المتوقع منه الذي لا يعلو سواء الطموح ، ولا يكون غيره من أخ لأخيه .
ولا عجب ، فهما لأبي سفيان ، وأولى بأن يتشابهما في النزعات واليول ، وأن
يتعاطفا في المسرة ، ويتعاطفا لتحقيق الرغبات . . . وليس القريب كالغريب ،
ولا الدماء بماء . . .

غير أنه أساء التقدير . .

فقد استعصى زياد على الإغراء . . كان أعظم فطنة من أن يخدع ، وأصعب مراسا من أن ينقاد . . بدا كأنما حقر خدعة مغويه ، ونيا بمرضه الحسيس كل النبر فأغلظ له في الجواب . وبدا العاهل كأنما استيأس فأرسل إليه بالوعيد بعد الوعد ، وبالترهيب بعد الترغيب ، وإن لم ينس أن يلوح له بالإمهال وفاء لحق النسب للشبوه . .

كتب معاوية إليه :

« . . . غرتك قلاع تأوى إليها ليلا كما تأوى الطير إلى وكرها . . وإيم الله لولا انتظاري بك ما الله أعلم به لكان لك منى ما قاله العبد الصالح : فلنأتينهم يحنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجهم منها أذلة وهم صاغرون . . . تنسى أباك وقد شالت نعمته إذ يخطب الناس والوالى لهم عمر » فكان جواب زياد أن صعد المنبر ، وأخذ يفضحه على الملأ ، بخطبة قال فيها : « . . . العجب من ابن آكلة الأكباد ، ورأس النفاق ! . . يهددنى ويبنى وبينه ابن عم رسول الله ، وزوج سيدة نساء العالمين ، وأبو السبطين ، وصاحب الولاية والمرتلة ، في مائة ألف من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان . . أما والله لو تخطى هؤلاء أجمعين إلي ، لوجدنى أحمر محشا ضرابا بالسيف . . » وكتب إلى الإمام يفتيه الخبر في صحيفة بعث معها بكتاب « أخيه » . .

أما زياد فقد ألقت له فارس القياد لا تخاشنه ولا تختلف عليه . وثبت هو بما فيها ومن فيها على الولاء لعل ، ثم الوفاء لتذكراه بضع سنوات . . حتى بعد أن آلت الخلافة لمعاوية غير منازع منذ عام الجماعة ، بقى العامل الأمين على العهد ، معاديا لمعاوية ، خارجا على سلطانه . ولولا أن رأى الأمة ، إلا ندرة ، أولته الطاعة ، وعلم ببيعة الحسن وبني بيته وأهل العراق له ، وسعى أمير المؤمنين إليه يتألفه بالكتب والوفادات ، لاستمسك بعدائه ، ولربما وقع منه ما يغير مسيرة التاريخ . .

وأما الإمام فقد اطمأن لرجله ، وأكبره كما حذر ، في خطاب كان بعض ما فيه :

« . . . إني قد وليتك ما وليتك وأنا أراك لذلك أهلاً . . . وقد علمت أن معاوية كتب إليك يستذل لك ويستفل غربك ، فأحذره . فأعما هو الشيطان يأتي لآراء من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله . . . »

وقد كان من أبي سفيان ، زمن عمر بن الخطاب ، فلتة من حديث النفس ، ونزعة من نزغات الشيطان ، لا يثبت بها نسب ، ولا يستحق بها إرث . للتعلق بها كالواغل المدفع ، والنوط المذبذب . . . »

وأما معاوية فقد طعم من محاولته هذه مثل الحنظل . وأيقن أن الاستهواء للالتواء بمثل زياد إلى ناحيته لا يفيد . وأن أوائك الذين استصفاهم على نفسه ، وقربهم ، وأدناهم ، هم صفوة خلصاء كالصفاة صلابة ، وكالجيل ثباتا ، وكالأنقى شموخا ، لا ينشون . وليس لزخرف إغوائه إليهم سبيل . . .

في التجربة « القيسية » عصر ، نجح معاوية ، واقتلع قيس بن سعد بن عبادة عملاق الأنصار من عمله على النيل . . ولكنه في التجربة « الزيدية » بفارس ، تحطمت أدواته وباء بالإخفاق .

أخطاء التوفيق . أساء اختيار الوسيلة وهو بحسب أنه أجاد حين وضع « أخاه » في غير البوتقة المناسبة يوم شاء احتواءه بالإغراء . . فلقد كان أحري به أن يعلم علم يقين أن نجاح أى تجربة رهن باللائمة بين طبيعة العنصر وطريقة العلاج ومناخ التجريب وصلاح الأداة . . أما هنا ، فالعنصر معدن لا يتأثر بالنار خليق به أن يستعصى على الانصهار . . .
كان زياد العنصر الصايب المسير . .
وكان الاستهواء الغوى الأداة . .

وكان معاوية هو المحرب الذي بدا كأن قد غفل عن الحقائق الأولية المفترض — علما وبداهة — توافرها قبل أن يبدأ أولى خطواته وإنه لأولى بأن يذكرها لو أنه استشار سليقته ، وطابق خصائصه النفسية على خصائص زياد . .

فهما أخوان ، فيما ادعى وادعى قبله أبو سفيان ، فهما إذن شبيهان . النظرة كالنظرة . والطباع كالطباع . والتزعات واليول كالليول والتزعات مع فارق هنا وفارق هناك على نحو ما يكون الاختلاف بين الإخوة ، بل التوائم ، فضلا عن الأشباه . .

لكنه لم يراجع طبيعته الخاصة قبل الإقدام ، ولم يضعها أمامه نبراسا يهديه ، فضل الطريق .

ولو أنه فعل لأدرك أن فيه — لا محالة — من أخيه سجايا وصفات ، وفي أخيه من صفاته غير قليل . .

فهو صلب الشكيمة عنيد لا يسهل أن ينقاد فليس بدعا أن يكون زياد ذا عناد .
وهو ليس بالغرير الذى يخلبه المظهر دون أن يغوص فى الباطن إلى القاع ،
بل هو اليقظ الواعى الذى يقع بذهنه وعينه على الهنات الصغيرة كما يقع أعاما على
المعالم المميزة ، فلا يفلتها من حسابه ، وتهديه نظراته الناقدة اللامعة للولوج من
خلالها إلى معرفة أقدار الأشخاص ، وقيم الأشياء . فأشبه به إذن أن يحرص على
مكائنه أن تمنن وتذل ، وعلى قبحة ما فى يديه أن ترتخص وتنتقص ، وأشبه من
بعد بزياد — بنفس الميزان — أن يكون على شاكلته وإن يكن الحرص هناك ،
فى حالة العاهل الأموى ، حرص أئمة وولاء للذات ، والحرص هنا ، فى حالة
العامل العلوى حرص إباء ووفاء . .

وهو أيضا صاحب طموح ، شغوف بالمجد ، وموالم بالاستزادة من أسباب الحياة .
يتطلع دائما ، فيما وراء الأفق المرئى ، إلى رجابة أفق الآمال . . فلا غرابة إذن أن
يتأبى زياد عن الانحياز إليه وإن أفسح له فى رقعة النفوذ وشأو الساطة بجواره
إلى غير حدود . فلأن يقال قانع خير من أن يقال جشع ، ولأن يقال عف
خير من أن يقال خائن . . لا غرابة أن يرفض النىء إلى ظله بدلا من فيئه لظل
الإمام لأنها الصقعة الحاسرة بالثمن البخس . . فليس الذى هو أدنى كالذى هو
هو خير . ليس الباطل كالحق ، ولا معاوية كعلى ، ولا الاستغلال بظل منى
رسول الله إلا الجاه الذى لا يطوله جاء . .

لو أن معاوية أدرك هذا — وكان أولى به إدراكه — لما أقدم على التجربة .
ولجنب نفسه مهانة الفشل وصدمة الحزى من إغواء زياد . . ربما كان يغير
الأداة . . ربما كان يبدل طريقة بطريقة . . ربما كان يعيد مع العامل العنيد
التجربة القيسية التى أجدت عليه من قبل اقتلاع العملاق من حفاف النيل فيدس
له عند أهل العراق بالتلفيق . .

خواطر لعلها لم تغرب عن ذهن معاوية وقدأته أنباء فارس بعوقف صاحبهم منه ،
وخطبته فيه على ملأ الناس . وربما تضمنته كلمة الإمام ، والاعط الذى أشاءه

كلتاها وتناولوه بالإقذاع والسخرية في الجمع والمحافل ، على السنة الجمهور . .
ومع ذلك فليس هو بالذى يحنى رأسه أمام الإخفاق . لن يقبع في الظل وينام .
ولن يدع الأمور تجري على غير هواه . وإذا كان قد فاته الآن أن يلتوى بابن
أبيه إلى صفوفه ، ووجب عليه — لكيلا يفتضح — ألا يقاربه بمحنة جديدة
في هذا الوقت الذى تعلقت بهما فيه الأنظار ، فليس يسهه أن ينفذ يده من المشرق ،
ويدع الإمام ثابت القدم فيه على أرض صلبة وفى أمن موفور .

كلا ان يبدأ إلا أن يرج هذه النواحي عليه بضربة مدمرة ، تثير فيها
العواصف أو تفجر البراكين . . فلا بعيد أمام سعى . ولا محال مع حيلة . .
ولئن شطت عنه فارس بيقظة زياد ، وصلابة خلقه ، ورسوم عناده ، واستقامة
وفائه ، فإن البصرة الآن أدنى قطافاً إلى عيئه ، وأقرب مسافة إلى الكوفة ، وأنأى
سواها من الأمصار عن مظنة الاختلاف على طى أو العبث بسلطانه . فلو عصف
بها فإن عصفه هو المقص الذى يتر ثانى جناحي غريه بعد بتر الجناح المصرى .
وهو للمفاجأة التى تبغته وتدعه كمشلول . وهو البؤرة التى تعكس على ما حولها من
بلاد شعاع الانتفاض فلا تسلم معها الكوفة الدانية من النار . .

ويشرع فى دسيسته الجديدة . .

على خلاف ما ينتظر ، اختار معاوية فريسة له ألصق الناس بالإمام ، وأقرب
أهله إليه ، وأخلص الخلاء الدين لارتبطهم به روابط الولاء السياسى وحده ، بل
صلات الولاء الروحى الوثيقة الذى جملة منه أحب تلامذته ، وأوعام أمته ،
وأحرصهم على استيعاب نظراته فى الدين والحياة ونقل ترائه الفكرى الخالد ،
نقياً ، عبر الأجيال . .

اختار العاهل الخائل لتجربته التدميرية المقبلة « عنصراً » ليس كالعناصر
التي تناولها ، قبل يومه هذا ، بالمحاولة والتجريب . اختار امراً هو من طى
ابن أبى طالب بمنزلة الحواريين من السيد المسيح . يهوج نهجه ، ويسير سيرته ،
ويستقى من فيضه كمثل استقاء الجدول من النهر الكبير . . وإذا كان معاوية

— ذهابا مع شطحة أمانيه — قد شط في اختياره حتى لأوغل إلى آخر المدى ، فإنه الشطط الذي يحمده ولا يخشاه ، لأنه لو أضر ، بالغ لا محالة بالأمة الإسلامية جميعا ، بكل أرض وفي كل عصر — بتأثير النتيجة « الأسطورية » المذهلة التي سيسفر عنها — غاية الشطط والارتباك في تقديرها للأُمور والأشخاص ، ودافع بها إلى غيابة من الظلام والوساوس تضل فيها عن التمييز بين الباطل والحق ، الخطأ والصواب ، الزيف والصدق ، الشك واليقين . .

وحسبه هذا ، فهو ما يرجوه . .

أما الفريسة فكانت عبد الله بن عباس .

وأما الدسيسة فكانت التلفيق .

وتتعدد أماننا الروايات عن « الحادثة » موضع البحث ، التي نراها حيلة من حيل ابن أبي سفيان ، أو واحدة من تجاربيبه ، وبراها غيرنا حقيقة تاريخية صادقة عاشت على أرض الواقع المستيقن بغير شبهة من شك ، أو مجال لجدال . . فلقد قل من أغفلوها من رواة التاريخ ، أو أنكروها ، أو أخذوها مأخذ ريبة . وكثر أولئك الذين أوردوها كواقعه ثابتة ، ومن رتبوا عليها النتائج أو تناولوها بالتعليق ، حتى لتوشك القلة أن تكون ندرة لا يلتفت إليها وتوشك الكثرة أن تبلغ حد الإجماع

ومع ذلك فالصواب لا يكون دائما في جانب الكثرة ، كما أن الخطأ لا يكون دائما مع النزر القليل . بل من الإسراف في حسن الظن ، إن لم يكن في الغفلة ، أن يوزن الحق أو الباطل بميزان « عددي » يرجح أحدهما على الآخر بثقل كثرة الرواة والأتباع . . إنما يجدر ، في مقام كهذا ، بالراوية ما يجدر بالناقد ، فيضع في حسابه ظروف الحادث ووقته ، والحاسر به والمفيد منه ، مع للعالم النفسية والخلقية لمن عاش فيه من الشخصيات أو عاشتهم القصة للرواة . ثم لا يمكن أن تسكتمل الصورة ، بعد هذا كله ، جليلة واضحة ، إلا بعد تأمل واع في الجو

العام للواقعة مثار الخلاف ، ومعايرة دقيقة لكافة احتمالات الخطأ أو السلب ،
واحتمالات الصواب أو الإيجاب . .

على هذا النحو يستطيع فرز الصدق عن الكذب في كل رواية تواترت عبر
الأعصر على الألسنة وفي الأسفار ، وامتدتها عمرها الذي أخلق القرون بهالة
من القداسة جعلتها من المسلمات . . . وبمنفس الميزان نعاير ما نسب إلى عبد الله
ابن عباس من اعتزاله ابن عمه أمير المؤمنين في السنة التاسعة والثلاثين الهجرية ،
سنة التوبة المماوى الذى لمس بمصاهير السحرية بعض الوقائع كما لمس بعض الأشخاص
فإذا هي وهم جميعا ، على صفحات التاريخ المكتوبة غير ما كانوا في واقع الحياة . .
ولا نريد تعجل النتيجة فنقرر زيف حادثة الاعتزال أو نراها من ابتداع الخيال .
ولسكننا لا نستطيع أيضا أن نتطلع إليها بعزل عن سوابق معاوية في نفس هذا
المجال لأننا عندئذ إنما نهدر « الجو » النفسى بكل ما فيه من دوافع ونزعات لها
أكبر الأثر في توجيه السلوك الإنسانى الذى يخلق الوقائع ويرسم مسيرة التاريخ .
وقد يؤدي بنا هذا الإهدار إلى خطل التقدير ، فنظم الصدق المطلوب ، أو نظم
النص المكتوب . .

ونبدأ من البداية . .

تقول الروايات . .

أصاب ابن عباس من بيت مال البصرة مالا لا حق له فيه ، فلما انتهى الخبر
إلى على غضب أعظم الغضب ، وأراد أن يرد ما أخذ فأبى ، ثم خرج بهذا المال
من البصرة ، معتزلا عمله ، قالوا لابن عمه ، نأقما عليه ، فأقام بالحجاز ، يتعم
بما أصاب . .

والقصة هكذا تقدم لنا ابن عباس في غير صورة ابن عباس . . . فهي بما تضمنته
من نصوص تنزل به في حمأة السقوط إلى أبعد قاع . وهو بها الخائن الذى كأنما
حرص على أن تجتمع فيه كافة الحياتيات . خائن دينه الذى ينافى السلوك المزعوم ،

ويضعه بحكم التنزيل ، فوق قمة التحريم . خائن وطنه في أحلك الظروف التي تتطلب تضافر جهود كل أبنائه ، عمالا ومواطنين ، مسلمين وغير مسلمين ، لوقايته من التردى ثانية في وهدة الانحلال التي تحفرها له النكسة المادية ، المغلبة للشهوات على البادى ، والقيم الإنسانية ، بعد أن انتشله منها الإسلام . . . خائن ولائه للنظام وعهده للإمام . خائن حق مواطني البصرة عليه بالتخلي عن عمله كما يتخلى الراعى عن القطيع ويدعه للذئاب . خائن ماضيه ، وراث أبنائه ، وشرف البيت النبوى الذى ينتسب إليه ، ويعمل بمنزلته منه الرجل المأمول الذى تتطلع إليه أنظار الأمة الإسلامية بمد على وولديه سبطى الرسول . .

ليست هذه قط بصورة ابن عباس ، ولا يمكن أن تكون وإن استطارت بها الأخيار ، وتعدد الرواة ، وجرت فيها أقلام المحدثين والقدامى من كتاب السير والتراجم بالتعليق أو بالتعليل . . فما هي جديدة ، فيما نخال ، بالتصديق أو بـمسحة من التصديق إلا أن يكون هذا تجنيا على روية التفكير . إذا قيست الواقعة بسببها المعلوم المتواتر ، لكان أحرى بها أن تنهار من الجذور كالصرح الباذخ الذى يبقى على رمال . وإذا هي وزنت بما فطر عليه ابن عباس من طبيعة ، لما كان لها في كفة الميزان إلا كمثل ثقل الهباء . وإذا هي خضت في ضوء ما اشتهر عنه من خلال : ديننا وخلقا وعقلا ، وكلها خليق بأن يكفه عن الدنيا ، لحق ظلمتها إيمانه ، واستقامة خلقه ، ودقة نظره في الأمور الدقة التي تورث الحذر والتبصر ، وتهب إحسان التقدير . .

شق ألوان الافتراض التي قد تخطر ببال كحاولات لنفهم واقعة الاعتزال ، كفيلة أن تعضى بنا ، وبأى إنسان ، في طريق مسدود . فالواقعة أشبه بشطحة خيال . وسببها أدنى إلى عبث خيال . فإن قيل من بعد ، عسى الاعتزال قد وقع بين العامل وبين أمير المؤمنين نتيجة تباين نظرتين ، أو تعارض سياستين ، فأين في بطون تلك الأقاويل المروية ما لعله يشير ، من بعيد أو من قريب ، إلى باعث الجفوة الفكرية التي أثارت الخلاف ؟ .

لو ثبت هذا فظهر باعث كيفما يكون ، لما كان عجيبا أن تدب الفارقة بين علي وابن عباس ويقع على أثرها الاعتزال ، ثم لا لوم ولا تثريب على المبين المعتزل .
أخطأ بفعله أو أصاب . . فالرأى عادة — أى رأى — هو اجتهاد رائيه .
والاجتهاد ثمرة عوامل عديدة : نفسية وموضوعية ، تحرك الذهن وترمم له نهج التفكير .
سوقد يتغلب بعض هذه العوامل على بعض ويؤثر فى الرأى ، ويطبعه بطابعه ، أو يشوب سلامته منحرفا به عن السواء . ومع ذلك فحق للرأى ، بغير نزاع ، أن يعمل بما رأى ما دام على ثقة منه واقتناع به ، إلا أن يتبين له وجه الحق فى سواه . .

لكننا لا نجد هنا اختلافا فى السياسات ولا رأيا فرقا بين صاحبين ، لأن موضوع الاعتزال المزعوم بديهية لا تقبل اجتهاد الرأى وتباين النظرات . .
نخلاصة القصة ، بإجماع الروايات عامل غاصب لمال منصوب ، المال مال عام ، والعامل موظف عام ، والولاية على كليهما للسلطة الشرعية الممثلة فى الإمام ، بحكم الدين وبحكم القانون . فإذا لم يكن للسلطة أن تسائل الغاصب ، وتسترد منه المنصوب ، فأى دور لها عليها التزامه فى مثل هذا المقام ، لردع المعتدى ، حماية لحقوق الجماعة ، وحفظا لهيبة النظام ؟ . .

ما من امرئ يسعه أن يرى ، بالنظرة العابرة العادية أو بالنظرة المدققة التحليلية ، فى واقعة الاعتزال العروضة أمامنا على نحو ما نقلها الرواة ، غير حادث سرقة أو جريمة اختلاس . . وما من امرئ أيضا يسعه ، مهما أوتى الحجة وفصل الخطاب ، أن يمارى فى طبيعتها ، فيغير من وصفها هذا بوصف سواه ، يخرج عن فهمها على حقوى النظرة الصريحة لعمامة الناس ، وإن كان الفاعل ابن عباس ، أو كان الرأى هو ابن عباس . . ولئن حلا ، قديما وحديثا ، للمؤرخين والمعتبين أن يوردوا فيها الألقاويل والتهاوليل ، ويكثرُوا التعليق والتأويل ، يحاولين تصويرها فى هيئة انفضاض عن الإمام من أقرب الناس إليه ، وخروج على طاعته ، ومقاومة سلبية للسياسة التى ينتهجها فى تدبير أمور الشعب والدولة ،

فهذه هي المحاولة التي تضع الاعتزال — من ناحية النظر الجدلي — في نفس مكانه من المهانة والابتذال ، لأنها لا ترجع رأي المعتزل المهاجر أو تبرر سلوكه ، ولا تنال من نظرة المعتزل المهجور وسلامة تصرفه . بل هي ، قبل هذا كله ، المحاولة التي تشق على نفسها بالتبرير أو بالتمذير حيث لا موجب لالتماس للبررات والمعاذير ، لأنها تسير إلى غير غاية ، وتدور في فراغ ، جرياً وراء وهم خادع والكذوبة مفترقة ...

الدين عنوا ، من كتاب السير والتراجم ، بتداول « اعتزال » عبد الله بن عباس عليا بالرواية والتعليل ثم نظموه في سلك الواقع ، لاح كأنما جمعوا له من دقائق الحواشي وتفصيلات الأخبار ما يستطرد به على السطور في تسلسل منطقي سليم ، وترايط حدثي محكم ، ونسق عضوي محبوب ، حتى لتبدو الصورة بألوان كثيفة صارخة ، وتبدو الحبكة في الحدث المزعوم ، وهي حبكة صناعة لاحبكة طبيعة . .

ولا ندعى أنهم يحلوه غير ما ذكر عنه ، أو قيل فيه . ولكننا نحسب أن الدقة في رسم القصة ، على هذا النحو المنقولة به ، من المبالغة والإغراق ، تسكاد تحمل على الشك فيها أصولا وفروعا ، لأن الحقائق الحية في غنى كل الغنى عن مثل هذه الحبكة « الفنية » التي لا تتوافر عادة على مسرح الحياة وإن توافرت في المسرحيات . .

ومع ذلك فإن ما اجتمع لهذا الحدث المزعوم من المغالاة لإظهار صدقه وتأكيده وقوعه — بكل شاردة أو واردة عرضت له من قريب أو من بعيد ، وبكل ما وقعت الأعين عليه فوق الأسطر من كلمات والتقطته الأسماع في الحمسات من شائعات ، وبكل صورة ذهنية أو لفظية له — يكاد يعيل بنا بعيدا عن مسيرة التاريخ . .

فلقد أغرقوا أجمعين في إبراز الاعتزال من خلال وقائع وجدليات لا تدعو لها طبيعة « القصة » التي أنشأته وما هي ، بظاهرها وبباطنها ، سوى جريئة اختلاس لا يمكن بحال أن تحصل الجاني — وفي مواجهة شواهد الإدانة وقرائن الإتهام — إلا على الاعتراف والإقرار ، وقد تحمله على الإنكار أو محاولة الإنكار . ولكنها ، قطعا ، لا تدفع به في مهامه من الجدل والحوار

هو أول من يعلم أنها لابد مشددة عليه النكير مفضية به لا محالة ، بعد طول اللجاج والمكابرة ، وفي نهاية اللطاف ، إلى حسر أبلغ من الاعتراف . . .
والصورة المنقولة إلينا عجبية . .

فالروايات تسكاد تجمع بغير اختلاف ، على عامل سالب ومال مسلوب . ثم تتفق على جدل مكتوب يشير سالب المال في رسائل لا يكون قصاراها أن تنفي جرمه أو تبرئ ساحته ، بل كأنما تؤكد للناس ، بخطه وألفاظه ، اعترافه بالإثم غير متلوم وإقراره الصريح بالوقوع فيه . . . ثم تتضافر معا على تصوير الآثم سادرا في غلواء من الجدل المكابر والمكابرة الجدلية إلى الحد الذي يقلب فيه الأوضاع فيقف من قاضيه موقف القاضي ويزج بالإمام في قفص الاتهام . . .
تصور للأمر غير مقبول . ودفاع عن النفس غريب ، ابن عباس أكيس من أن يسوقه ولو كان حقا التوى بالمال . .

لكن مستيقن الصدق في القصة « الرسومة » لا يريهم فيها ما هو غير مقبول معقول اكتفاء بالروى المنقول ولو أمعنوا النظر لطالعتهم فيها ثغرات تسكاد تجعل بناءها ينقض من أصل دعائمه ، وتهوى بها في هاوية الخرافات . .
أقوى شواهد صدقها لديهم ، البنية اللفظية للخطابات التي زعم أنها تدور حول السرقة والاعتزال وبعث بها الإمام إلى ابن عباس . فأسلوبها اللغوي ، فيما يرون أسلوب على . وعباراتها توحى إلى ابن عمه الإيعاء المعبر الذي يغنى عن الإفصاح ، وليس كهذه وذلك دلالة أقدر على إبراز حادث الاعتزال كحقيقة تاريخية ثابتة لا تقبل الجدل . .

قيل . . .

كان مما كتبه الإمام إلى ابن عباس ، وقد عرف أمر نزوه على مال البصرة بغير حق :

« . . . بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت ربك ، وعصيت

إمامك ، وأخزيت أمانتك . . . بلغنى أنك جردت الأرض فأخذت ما تحت قدميك وأكلت ما تحت يديك . فارفع إلى حسابك »
ومما كتب :

« إني كنت أشركتك في أمانى ، وجملتك شمارى وبطانى . ولم يكن في أهلى رجل أوثق منك فى نفسى . . . فلما رأيت الزمان على ابن عمك قد كلب ، والعدو قد حرب ، وأمانة الناس قد خزيت . . قلبت لابن عمك ظهر المجن ، وفارقه مع المفارقين ، وخذاته مع الخاذلين ، وخته مع الخائنين . فلا ابن عمك واسيت . ولا الأمانة أدبت »
ومنه أيضاً :

« أيها الممدود كان عندنا من أولى الألياب . . . كيف تسبخ شرابا وطعاما وأنت تعلم أنك تأكل حراما ، وتشرب حراما ، وتبتاع الإمام ، وتسكح النساء من أموال اليتامى والمساكين والمؤمنين والمجاهدين ، الذين أفاء الله عليهم هذه الأموال ، وأحرز بهم هذه البلاد ؟ . . فاتق الله ، واردد لهؤلاء القوم أموالهم ، فإنك إن لم تفعل ثم أمكننى الله منك ، لأعذرن إلى الله فيك ، ولأضربنك بسيفى الذى ما ضربت به أحدا إلا دخل النار . . والله لو أن الحسن والحسين فعلا مثل الذى فعلت ، ما كان لهما عندى هوادة »

هذه الصور اللفظية هى التى تؤكد ثبوت حدث الاعتزال ، بدلالة الأسلوب وإشارة الخطاب ، فى رأى كل من حكم بالثبوت . .

وليس ثمة من وجه لاعتراض معترض على هذا الرأى الذى استند إليه الرواة ، وتعلق به المعلقون من بعد وهم يلصقون جريمة الاختلاس بابن عباس ، ويسلسكونها حقيقة واقعة فى نسق التاريخ ، ما دام الأسلوب ينم عن الكاتب ، وعباراته ترمى إلى المخاطب ، وسباق الكلام يؤكد الاتهام للزعم . . لا وجه ، حقا ، للاعتراض على حكم ، الاتفاق عليه يشبه الإجماع ، إلا أن يبين لنا ما قد

يبرز أسبابه ، وينقض أركانه ، فيطمئن فيها وفيه بالبطلان ، أو بالقصور على أقل تقدير . . .

والقصور والبطلان نراها معا حاضرين في جانبي القضية المعروضة : جانب الشكل وجانب المضمون . . .

أما الشكل ، فإن أسلوب الإمام نهج من صياغة الكلام بليغ مبين ، يسحر العقول ويستهوئ الأسماع ، تناول به صاحبه كل خاطرة ، وطرق كل موضوع مما يلم بالدين والحياة حتى غدا مدرسة فكرية ولغوية لذوى الآراء وأئمة البيان تلمذت فيها قديما الأجيال ، وما فتئت إلى اليوم قبلة يؤمها كثيرون . . فإذا هي أثمرت ثمرتها ، وخلقت وراءها أناسا يحتذون حذرها ، فليس من العجيب الغريب أن نجد فريقا ممن نشثوا في ساحتها ، وارتووا من بناييمها يسعمهم — انطبعا أو محاكاة — أن يمشلوا طرائقها المعروفة في التفكير والتعبير . . .

وإذا كان تقليد أسلوب على ليس بالمحال على البلغاء الموهوبين والمتحسين ، وبخاصة في العصور المتقدمة التي بلغت اللغة فيها شأوا الازدهار ، فإن أمامنا أيضا ظاهرة ، ينبغي ألا تغفلها من الحساب ، لأنها تؤيد إمكان التقليد ولو ببعض التأييد . . فقد جاء في استهلال إحدى رسائل الإمام الزعومة لابن عمه عبارة سلف ورودها — بالكلمة والحرف — في كتاب له إلى مصقلة بن هبيرة عن واقعة مماثلة التوى فيها ابن هبيرة عما لم يكن له فيه حق من أموال المسلمين واستحق به اللوم من على في خطاب قال فيه :

« . . . بلغنى عنك أمر ، إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك ، وعصيت إمامك . . . »

مقال كمال . واستهلال هو نفس الاستهلال .

فإن قيل إن السكائب — أى كاتب — لا يسلم من تكرار بعض العبارات بين وقت وآخر ، وكلام وكلام ، فمن الممكن أيضا أن يقال إن مطابقة العبارتين إحداها السابقة الأخرى اللاحقة لم تكن عفوا بل نتيجة محاكاة أريد بها ضمان

اقتناع القارىء والسامع بأن كلا الكتابين من مصدر واحد هو الإمام . وليس
عجوهول أن حادث ابن هبيرة كان قبل حادث ابن عباس فلا عجب إذن إن أخذ
الكتاب المدون إلى هذا الأخير بشبهة التقليد ..

وكما أن محاكاة أسلوب على تقع في نطاق الاحتمال والإمكان ، فكذلك
لا يبعد أن تقع أيضا عباراته المؤمثة إلى شخص مقترف الاعتزال في نفس النطاق .
فما ينكر أحد ، أو يجهل ، أن لغة العرب قد درجت على مخاطبة الغريب
— كالتقريب — بصور أسلوبية عديدة تشيع فيها ألفاظ التعاطف والتقريب ،
اجتذابا لمشاعر المخاطب ، أو تقديرا وتديلا له ، أو ولوجا إلى نفسه من أوسع
باب وهو باب العتاب الرقيق . فكم قيل « يا ابن أم » . . وقيل : « يا أخى »
وقيل « يا عم » وقيل وقيل إلى غير هذه وتلك من ألفاظ لا تمبر عن حقيقة
الصلة الأسرية ، ولا تزال منها إلى الآن في لغتنا اليومية أشباه يفسر بقاؤها
التزامنا قواعد المجاملة وأدب الخطاب ..

ثم ندع الخوض في الشكل إلى الموضوع ، فلماذا عسانا نرى فيه ؟ . . بأعلى
صوت تنادى الشواهد بأن الواقعة ، جملة وتفصيلا ، حكاية هازلة أدنى إلى
أن تكون أحق بالتندر والسخر في حلقات السمار وسهرات المتندرين منها إلى
رواية جادة خليقة باهتمام المؤرخين والمثقفين ..

من خلال وثائقها الدعاة ، تبرز صورة لابن عباس ما هي قط لابن عباس ،
لأنها تجمع من نقائض صفاته وأضدادها ما لا يسرح إلى مثله سوى خيال محموم
تتخبطه الأوهام . . فيها الغفلة والغرة . وفيها الحق واضطراب التفكير . وفيها
القدر والحياة . وفيها كل ما يخالف طبيعة المامل للفتى عليه ، ويخرج به عن
أدب الدين وناموس الأخلاق ..

ومن خلال الحقائق المقررة ، تدبو الحكاية المزجاة عن سياق التاريخ وخطه
المستقيم ، لأن القدمات فيها تجافى النتائج الترتبة عليها ، والمسببات تعارض
الأسباب ..

فلقد أبى المدعون — فيما نسبوه لابن عباس — أن يرفع إلى أمير المؤمنين حساب ما تحت يديه من مال البصرة وإن كان ليعلم حق العلم أن رفع الحساب حجة له تدرك عنه الشبهات ، وحجبه حجة عليه تلمس به التهمة . ومع ذلك فقد ارتأوا له مالا يرتأيه عاقل بحسن التقدير . . ثم زادوا فقالوا به إلى الاستعلاء ، محاولا التوصل من تبعه الالتواء بما أوّمن عليه ، ومدعيا لنفسه حقا خالصا في ذلك المال أكثر مما أخذ وإن كان لموقنا كل اليقين أنه وغيره فيه سواء دون تمييز ، إذ هو رجل عن المسلمين له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، وحقه في المال كحق أى الرجال .

... . أبوا في الأولى ، حين طالعه أمير المؤمنين بما بلغه عنه . فلم يدفع التهمة ، ولم ينقضها بدليل . بل اكتفى بنفسها بوضع كلمات لا تغنى السائل ولا تعفى للمستول .
ديج كتابا كان كل ما جاء فيه :

« إن الذى بلغك باطل ، وأنا لما تحت يدي أضبط وأحفظ ، فلا تصدق على الأظناء . . »

فإذا هو المستخف المستهين . .

... . وأبوا في الثانية ، مكابرة وعنتا ، حين ألح عليه الإمام بطلب الحساب ، فأجاب :

« أتانى كتابك تعظم على ما أصبت من بيت مال البصرة . وامرئى إن حق في بيت المال أكثر مما خذت . . »
فإذا هو الصاف المستكبر .

ثم زادوه غيا وغرة ورعونة ، ففارق عمله وتوجه إلى مكة بالمال المسلوب ، جهرة وعلى ملأ ، حتى ضج أهل البصرة غيرة على ما لهم ، وهموا أن يبطشوا به . فما ارعوى وثاب ، ولا رد ما اغتصب ، بل امتنع منهم ببني هلال أخواله ، وشطر الناس في المصر شطرين متناجرين : فريق عليه برأى الحق ، وفريق معه بحكم العصبية ، يتداعون جميعا إلى السلاح حتى لتوشك الحرب الأهلية أن تحرق البصرة لولا أن تدارك عقلاء القوم السكارثة قبل أن تندلع النار . .

ومع ذلك فانطفأ الفتنة ، وظفره بالمال الحرام ، لا يقمده في مكة عن الإيمان في الجاج الاغترار . . وإعما تهيء له نظراته المنحرفة — أم نظرة الرواة ؟ — أن يؤجج لهيب الخصومة بينه وبين علي فينصب نفسه قاضيا يحاكمه ، ويناقشه الحساب . . .

كتب إليه علي يحاول أن يهديه :

« . . . من العجب أن زين لك نفسك أن لك في بيت مال المسلمين من الحق أكثر مما لرجل واحد من المسلمين ، فقد ألبست إن كان عينك الباطل ، وادعاؤك ما لا يكون ، ينجيئك من المأثم ، ويحل لك المحرم . . . وقد بانغى أنك اتخذت مكة وطنا ، وضربت بها عطنا ، تشتري بها مولات مكة وللدينة والطائف ، تختارهن على عينك ، وتعطى فيهن مال غيرك . . فارجع هداك الله ، إلى رشدك . . واخرج إلى المسلمين من أموالهم . فعما قليل تفارق من ألفت ، وتترك ما جمعت . وتغيب في صدع من الأرض غير موصد ولا ممد ، قد فارقت الأحباب ، وسكنت التراب ، وواجهت الحساب ، غنيا عما خافت ، فقيرا إلى ما قدمت . . »

فلم تحركه — بروايتهم — العظة ، هو التقي النقي ، بل أمعن في الظلام ، بحماقة معتوه ، وغفلة غرير ، إلى محاولة مفضوحة تأخذ الإمام بجريرة جرم ابن عباس نفسه أول من شارك فيه . . .

كان جوابه المجيب :

« أما بعد ، فإنك قد أكثرت على . ووالله لأن ألقى الله قد احتويت على كنوز الأرض كلها ، وذهبها وعقيلاتها ولجيتها ، أحب إلى من أن ألقاه بدم امرئ مسلم . . . »

خطأ بخطأ ، أو جريرة بجريرة ، فلا لاثم إذن ولا ملوم لأنهما كليهما في الإثم سواء . . . وكأنما نسي ابن عباس — أو بأصدق تمبير ، من لفق حكاية الاعتزال ودسها عليه وعلى التاريخ ، أنه بهذا الدفاع الحبيط ، يقر على نفسه بجريرة السرقة من حيث أراد إثبات غثائتها إذا هي قبيست باقتراف على إراقة دماء

للمسلمين . . . وكأنه نسي أيضا أن دفاعه يجمع عليه الجرمين معا ، لأنه شارك
إمامه القتل والقتال من أول لحظة امتشق فيها الحسام . . .

لكنه السياق الذى جمعت روايات الرواة فيه بلا روية كالطرائد المذعورة ،
تضرب على غير هدى ، فتقلب وتضطرب ، وتتمثر وتسكبو ، وتتجاوز
في تخبطها الضال مجال الخيال إلى مجال الخيال . . .

وها هو يبعث إلى الإمام ، حين رآه يعاود تذكيره حق الناس وحق الله ،
برسالة وعيد :

« . . . لأن لم تدعى من أساطيرك ، لأحلمن هذا المال إلى معاوية
يقاتلك به . . . »

ومن العجب أن يتهدد ويتوعد وهو الحقيق بالوعيد والتهديد . . . ومن العجب
أيضا أن يسكت على عليه ، ويقبض عنه يد السلطان التى تستطيع أن تناله بالعقاب
أينما كان ولو لاذ بأبعد مكان . . . فعلى كثرة ما ورد فى واقعة الاعتزال من
أقوال ، وما لفتت الروايات وراء التفاصيل ، تقف السنة الادعاء عند مكة
خرساء . فلا نحن نسمع عن رسول من لدن على بلغها لمحاسبة ابن عمه . ولا نحن
نعثر على كلمة واحدة إلى عامله عليها ليلاحقه بالحساب . . . وما كان الأمر عليه
بالمسير ، ولا بالذى يغفل عنه لو قد وقع — فعلا — من ابن عباس ما يستحق
المؤاخذه والعقاب بل الإعذار والعتاب . إنما كان أولى به ، وأهون عليه . فإذا
قيل : إن لياذ معتصب المال بالبلدة الحرام ، وفيها قومه وأهله الأدنون ، كان
عاصم له من المساءلة والردع ، فإن أولئك القوم هم كذلك أهل أمير المؤمنين ،
فهم الصق به وشيعة ، وأحرص على امتثال أمره ، وأقرب إذن إلى أن يكونوا
معه على ابن عمه الخارج عليه . ثم لا عاصم أيضا فى منكر ، ولا جوار لأثم . .

غير أن الاقتضاب ، فيما يلوح ، كان أليق كنهاية لهذه الحكاية — التى تفوح
من سطورها رائحة الافتعال ، وتشيع فى صفحاتها بصمات الادعاء والتهويل —
من النهاية الطبيعية التى يرسمها منطق الحقائق ، وخلائق على ، وسجايا

ابن عباس . . . فليس أيسر على الزاعمين من اقتضاب السياق ، ولا أسهل من إسدال الستار قبل الختام ، لأن بحسبهم أن يبلبلوا الخواطر ، ويوزعوا الاتهامات ، ويشيعوا الريبة في سمعة هذا وقدرة ذاك . .

ومع هذا كله ، فاختلفا في حدث اعتزال ابن عباس يكاد يكون الراجح وصدقه هو المرجوح - حين تلقى بنظرة متأملة على وقائع الحلقة المعاصرة ، من خلال النصوص التي نقلتها ، وماورد في ثناياها من آراء . .

فكثير من الذين ذكروا الحادث ، كواقعة تاريخية كثر روايتها إلى ما يشبه الإجماع ، أوردوا معه روايات آخرين وإن كانوا قلة ، تنفي وقوعه ، وتقرر بقاء ابن عباس على عمله بالبصرة لم يبارحه إلى يوم مصرع الإمام . . وغيرهم طائفة لم يذكروا شيئا عن الاعتزال وأغفلوه ، وفي الإغفال بطبيعة الحال ، دلالة على عدم وقوعه خليقة بأن تشكك في رواية الذين أثبتوه . . ومنهم أيضا من نسبته إلى عبيد الله بن عباس ، لا إلى عبد الله . ولعلهم إذ فعلوا ، قد دفعهم إلى هذا فرار عبيد الله من اليمن أمام يسر بن أبي أرطاة ، وما عساه قد اقترن بالفرار من احتمال خروجه — كمادة الفارين من الخطر — بكل ما استطاع حمله من مال إمارته خشية عليه أن يقع طعنة سائغة في يد العدو المعير . .

هذا الاضطراب الظاهر في الروايات ليس فحسب خليقا بأن يحمل على تقيل القصة المعروضة بالخذر والحيطه ، بل هو يحمل أيضا على الشك في صدقها ، ثم يدفع من بعد إلى نفي النفي القاطع إذا ما تبدى من سلوك أبطالها ، في مراحلها العديدة ، ما يناقض خلاصم الأثورة ، ويخالف فطرتهم المفطورة ، ويبين مألوف تصرفاتهم ومشهودها : ما عرف منها قبل الحادث المزعوم ، وما عرف بعده على السواء . .

وقد كان من الجلى ، في الحدث الروى ، أن به من التناقض بين السلوك الواقع وبين السلوك المنتظر من صاحبه ، ما يؤكد أن الفعل ليس الفعل ، أو الفاعل ليس الفاعل ، لأن صدور هذا التصرف من هذا التصرف هو الحال الذى

لا سبيل إلى حدوثه في واقع الحياة . فالقضايا المنطقية لا تجيء نتائجها عفواً وخط عشواء . ولكنها تسير بقانون دقيق فتترتب على مقدمات بذاتها — لاسواها — لا تتحقق إلا بها ، فإن ثبتت الأولى ثبتت الثانية ، وإن تغيرت تغيرت حتى يمكن أن يقال إن لها صفة الاستقرار . . والأفعال سلوك لا ينشأ بذاته . بل ينبئ على مقومات شخصية الفاعل متفاعلة بظروفه ، فهي نتائج منطقية تتكرر دائماً ولا تتغير ، ما ثبتت المقومات وهي الأشخاص . وابن عباس ، على هذا الأساس كمال ، ليس من يسرق ، ولا من يخفر ذمته وينكث عهده ، ولا من يخون أمانة الله والناس ، لأن السرقة والنكث والخيانة نتائج منطقية محال ترتبها على المقدمة المائلة ، وهي شخص الفاعل المفترى عليه ، بمقومات شخصيته من فطرة ودين وأخلاق وتكوين نفسى ، كقيلة كلها بأن تعصمه من التردى في حماة مثل هذه الموبقات . . فإذا قيل ، في رواية أو روايات ، بسدور هذه الكبائر الفاحشة منه ، واجتماعها فيه فذاك هو النتيجة التي تناقض المقدمة . أو هو اجتماع ضدين معاكلاء والنار ، ولا يجتمع ضدان في آن ، لأنهما لا يأتلفان . .

وبعيد عن التصور كل البعد أن تقع الجفوة التي شهدنا بين ابن عباس وأمير المؤمنين حتى تصل بالعامل إلى حد اللدد والتوعد ثم لا يتحرك معاوية ليستغل هذه الفرصة التي أتته طائمة ، وتنبأت على غير انتظار . . فلقد عهدنا العاهل الأموى يجهد الجهد كله ، ويركب الشاق والعسير لاستمواء أصحاب على ، وهم بعد في ولائه ، اجتذاباً لهم ، والتواء بهم عن غريته الحقيقي بالولاء . . ومع ذلك فلم نره هنا يحاول استمالة ابن عباس وإنه عندئذ لأطوع للميل إليه ، وأسلس قياداً ، بعد أن باين الإمام . .

إلى هذا كله لم تخل السير من مواقف مشهودة لابن عباس تعلن وفاءه لابن عمه ، واعتصامه بطاعته ، وحرصه بعد موته على تعجيده ونشر فضائله التي طالما حاول أعداؤه أن يواروها التراب . . وقد علم أنه كتب من البصرة ، بعد

مصرع الإمام ، إلى معاوية يقرعه ويقسو عليه . وعلم أيضا أنه كان لا يتعرج من مشاقته والعنف به ، على مسمع جلسائه ورجال دولته بعد اقتعاده إمرة المؤمنين ، خائضا في مثاليه ، معددا مناقب علي ، حتى لقد كان الرجل لا يكاد يخلص من سوط لسانه إلا أن يداريه ويسترضيه . فإذا كانت هكذا الحال فأين الجفوة وأين الاعتزال ؟ . .

كلا لم يخرج ابن عباس طي طاعة علي ، ولا اعتزله ، ولا التوى بعمال . بل قد ظل مواليا له ، حافظا عهد في خلافته . وفيا له ، ناضعا عن ذكره بعد موته . ثم تابع سيرته هذه مع الحسن فأسرع إلى بيعته ، ووقف بالكوفة يسانده ، وقاد مقدمته حين عزمت الكوفة على غزو الشام ، ولم يلق بطاعته إلى معاوية إلا بعد أن ألقى بثقلها إمامه الجديد ابتغاء السلام . .

إن لم تكن بصمات أصابع ابن أبي سفيان هي المنطبعة على حكاية الاعتزال ،
فبصمات من هذه تكون ؟ . .

ترجح جانب العاهل الأموي مقبول ممكن ، بدلالة سابقته في التلفيق .
وبشهادة أنه وحده الذي يفيد من القطيعة المنتظرة ، نتيجة للدسيسة ، بين
ابن عباس وأمير المؤمنين . وعلى أساس انتفاعه ، معنويا ، من أثر القصة
المختلقة في الداس كشائعة تثير الحواطر ، وتبيل الأفكار ، وتوحى إليهم أن
انفضاض ولي حميم ، لصيق الصلة بالإمام كابن عمه ، إيذان ببداية انهيار سلطان
علي ، وذهاب دولته ، وإعلان عن الدولة الجديدة البازغة ، يلفتهم إلى التعلق
بأذيال الشام .

ومع أن هذا الترجيح معقول ، فإن أمانة المرض لا تتيح لنا القطع بصحة
الافتراض ولكنها كذلك لا تتيح لنا نفيه النفي المطلق الذي يحرم . . إنما
الأميل إلى الحق أن نكر الاعتزال كحقيقة تاريخية وقعت ، وأن تثبت مظاهره
ومعالمه كحكاية حيكت ، بقلم ما ، في يوم ما . . والفرق لا ريب واضح بين ما يحدث وبين
ما يكتب . ثم لنا في إنكار حدوث الحادث سند معتمد في خلايق ابن عباس ،
وفي التسلسل المنطقي للتاريخ . . كما أن لنا في الإقرار بوجود الحكاية كحكاية ،
سندا معتمدا من الرسائل والخطابات التي نقلها الرواة . .

ولا تماقض في هذا التأرجح من النفي إلى الإثبات ، ومن اليأس إلى اليقين .
ولا تفسير إلا بفرز الصحيح من الزائف ، والصدق من التمويه . .

فالرواية ثابتة مروية ، مصوغة في السير بالحروف والكلمات والعبارات ،
ولكن ما ترويه من وقائع ، وما تقدمه من أسانيد ، هو الرفض الدحوض
الذي لم يكن ولم يولد ، ومن ثم فإنه لم يدب بتقديم على أرض التاريخ . .

فإذا كان معاوية قد برىء من تلفيقها — ولا نكاد نراه — فلعل صنعة
للأمويين قد ابتدعها خياله . . ثم مشى بها لسانه في الندوات والمحافل ما شاء ،
لتفرض نفسها على الأذهان بقوة الإلحاح ، ثم لتتسلل إلى صفحات الأحداث
الصادقة التي لها ثبوت اليقين . .

أو امل امرأً من شيعة بنى أمية ، في عصر لاحق ، هدام إليها تفكيره ،
فأذاعها لتكون وسيلة شائقة سهلة ، يستطيع بها أن ينال من قدر شيخ بنى العباس
خفضا من هيبة بنيه الذين حطموا الملك الأموي ، وأقاموا دولتهم على أنقاضه .
ولا نظننا بهذا التقدير نيل كثيرا عن جادة الصواب وتاريخ الدول الإسلامية
المتعاقبة لم يسلم قط من عبث خصومها المباشرين بسيرتها ، وبسمة أساطينها ، من
خلال تشويه الحقائق ، وتزييف الوقائع ، واختلاق الأخبار . .

كيفما كان من وضع القصة ، فهي صورة لما تطالعنا به روايات الفترة من
محاولات الخداع والتهميش التي اصطنعها معاوية ، وزاد تمرسا باصطناعها في العام
الأخير من خلافة الإمام . . فقد كثرت منه في هذه السنة الأخذ — كما أسلفنا —
بالأساليب التي تضعف من شأنه على ، وتهون أمره ، أو تظهر له من الضعف
والهوان ما ترتع فيه الأخيلة والظنون . . وبرع في طريقته تلك البراعة التي
تبدى الأكاذيب في هيئة حقائق ، وتبدى الحقائق في هيئة أكاذيب . ثم جرى
في هذا كله على سياسة التدرج التي تفتقل بالرأى العام خطوة بعد خطوة ، ومرحلة
وراء مرحلة لتلوح للناس غايته التي يهفو إلى بلوغها وكأنها النتيجة الحتمية لتطور
الأمور . .

فمن عجب أن تسهوى أساليبه هذه الكثيرين ، وتلقى منهم الإكبار الذي
يضعه على قمة البراعة السياسية والاقتدار كرجل دولة مرموق ، حتى لنجدهم
يشيدون بهذه البراعة كفضيلة تحسب له ، وتسلكه في زمرة الدهاة والساسة
العظام ، لا كنقيصة تحسب عليه ، وتنزل بعقابه على كصحابي ، وكصهر لرسول
الله . والرأى هنا ليس للمحاور ، بل هو تقرير . لأن المبادئ التي تضعها الشرائع

على اختلاف النوع والزمان والمكان ، ترمى إلى بناء الإنسانية الفاضلة على أساس الإنسان الفاضل . . فإذا نظرنا إلى الدهاء على أنه القدرة على التكيف لمواجهة طوارئ الحياة ، وتطويعها لمصلحة جماعة من الجماعات أو شخص من الأشخاص ، فإنها القدرة التي لا ينبغي إذن أن تسير إلى هدفها في غير طريق المبادئ المشروعة ، وإلا نزلت بقيمة الإنسان في عمومها ، وبقيمة صاحبها ، الذي سخط نفسه ، إلى وهدة سحيقة من السقوط لا ينبغي أن يهبط إليها إنسان ، لأنها عندئذ تخرج به عن حدود الخلق الرضى والسلوك القويم والمبادئ السليمة التي أفرزتها الإنسانية خلال فترات التأمل والعراع الفكري ، ورسمتها الأديان ، وما فتئت — طوال مراحل الحياة البشرية — تنادى باعتمادها متون الشرائع الموضوعة على اختلاف نظرات الدعاة والوضاع ، وتباين المواقف والبيئات ، وتجهد الجهد كله لحمايتها بسطوة الضمير أو ببطش القانون . .

فالقيم المثلثي مثل على امتداد الزمان والمكان . وهي دائماً غاية وأسلوب . والمجتمعات بشق صورها ، وبفارق هنا في الحضارة أو بفارق هناك ، تعمل في كل حين على ترسيخها في القلوب والأذهان ، وتنشيطها بالدعوة التي تهذب العقول وتثرى الأفكار ، وبالق دعوة التي تترجم للتون إلى أفعال . والمجردات الفاضلة ، من أمانة وصدق ومروءة وعفة وشم وإيثار وما إليها من معالم السلوك السوى هي وحدها ، وبغير جدال ، طريق البشرية إلى التسامى عن حضيض الحيوانية التي تموزها القدرة على تفهم القيم الروحية والمعنويات ، فلا تكاد تدرك غير الولاء للذات ومفارقة الشهوات ، كما لا تكاد تعرف غير لغة الضبايع والذئاب ووحوش الغاب . وإذا كان معاوية قد هفأ إلى تسنم أريكة الحكم في الدولة الإسلامية ، وجند «دهاءه» لاحتلاب السلطان ، فشأنه وما يهفو إليه ، لأن الطموح لا يعاب . وشأنه وما يهيب بجهد واقتراره من هذا السلطان أو أصاب . وشأنه وما يختار به غرضها المبتغى من أساليب . . ولكن الدهاء ليس الالتواء . وليس بالمناقص تبني الأعباد . وليس بإهدار القيم الرفيعة تضرب الأسوة لمن يريد الانكسار . .

فالحاكم أو الأمير في حقيقة الأمر ، قمة التنظيم الشعبي في كلا مجالي نشاط أمته : السياسة والاجتماع . وهو بوضعه ، هكذا ، قبلة كل الأنظار . وهو بفكره وقوله وعمله النبل الحى بين جماعته أو رعاياه الذى يحتذى للاقتداء . فهو إذن ، بكل ألوان سلوكه يقود مسيرة السلوك العام ، لأن حركة الحياة في كافة المجتمعات تقوم دائماً على ظاهرة التلقين وظاهرة التقليد ، وكلاهما يحذران من الأذى إلى الأدنى من الكبير للصغير ، ويتلقاها الخاصة والعامة — تلقائياً ودون اقتناع أو محاكاة — عن صاحب الأمر المرموق ، الذى تفترض له صفات التميز والاقتدار . وليس أحد في أمة من الأمم أرفع قدراً ، وأسمى مكانة من رئيسها ، ولا أولى لها باحتذاءها سلوكه : قوله بالاستماع ، وأمره بالانصياع ، وفعله بالاتباع . .

معاوية إذن ، حين يقول أو يأمر أو يعمل ، حقيق — كقائد لمجتمعه — إن تلتفت إليه الأذهان ، وتصفى الآذان ، وتهرع رعيته ، فرادى وجماعات ، إلى السير على نهجه في المقول والمفعول ، بل في المفترض والظنون ، ولاء له ، أو تشبهاً به ، أو إيماناً منها بأنه يفكر فيجيد التفكير ، ويدبر فيجيد التدبير ، لأنه الأفدر على معالجة الأمور . . فلا عجب ، بعد ، أن يكون بحكم وضعه على قمة التنظيم الاجتماعى في إمارته هو الذى يحدد للناس مباحج السلوك ويحملهم — أو يحرهم — بركوب هذا الطريق أو ذاك ، ويعيد تشكيل فكرهم وخلقتهم وفقاً لقوالب فكره وخلقه وما يستحدث من رأى ونظم وتقاليد . .

ولقد جيل الرجل قوالبه هذه ، فيما بدا ، من طين الذات . . . من الأثر . من النفع الخاص . من الالتواء الذى سماه رواة التاريخ دهاء وما هو بدهاء . من الخداع الذى سموه ذكاء وما هو بذكاء . من الأنانية التى سموها طموحاً وماهى بتسام إلى العلياء . . . فإذا تضعضعت في نفوس الأمة ، من بعد ، مثليات المعنويات ، وعز وجود الإنسان الفاضل أو ضاع في الغمار ، وتمرغت القيم الروحية والخلقية في وحل الماديات ، فالمعقب إذن جيل من الناس صاغه على تلك الشاكلة المنحرفة ، وانحدرت منه — على نفس غرارهِ — سلسلة الأذيال .

كلا ليس بمحمدة ، بل هو نقيصة ، ذلك الدهاء الذى ادعاه الرواة لاهل بنى أمية ، ولونوا به صورته ، وعطروا ذكره ، ونقلوا لنا من خلاله حياته العامة كعلم بين الساسة العظام . . ولئن كان الرجل قد شاء أن يبنى لنفسه ملكا فلقد كان أولى به . . وفاء الإنسانية ، وحفظا لثرفها ، وحرصا على تطورها إلى الارتقاء — أن يبنيه على الفضائل ، أو يدع الأمر لمن هو أفدر على إقامة البناء . . ولئن كانت الخصومة قد لجت بينه وبين على ، فإن النية إلى الحق كان أحق بأن يفض النزاع . . لكنه أبى إلا أن يحتل ويعوه ويخنال لتكون النتيجة على ما يهوى وكما شاء ، أحسن لجيله ولما بعده من أجيال أو أساء !

ويوشك للمرء أن يتردى فى حمأة رذيلة من الرذائل فلا يكاد يجيه من التردى إلا أن يشق على نفسه بشدة الأخذ والقمع كما يشق على الراكب ترويض دواب نافر حرون . . !

فالرذائل — عادة — شهية ، خفيفة على النفس ، طريقة معبد قصير . والفضائل — عادة — مريرة ، ثقيلة عليها ، طريقة وعمر طويل . . والمستمسك بالمبادئ العلية أو بدينه ، كالقايض على الجمر ، كما قد قيل . وإذا كان معاوية ، وهو الفطن الكيس الأديب اللبيب ، « أعدل » من أن يخدع ، فلقد كان أولى به أيضا — لسابقة إسلامه — أن يكون « أفضل » من أن يخدع ويجنح إلى الانحراف . ولو أنه حاسب نفسه قبل أن يقدم على ما أقدم عليه ، لتوق هذه المزالق ، ولنظر كنظرة غريزة إلى الحياة ، ولوعى مثل حكمته التى أدلى بها ذات مرة لابن عباس وكانت دائما له شعارا يرفعه فوق الرءوس . .

تلك الحكمة الخالدة تقول :

« ما قربك من الله يباعدك من النار . وما باعدك من الله يقربك من النار ، ولا خلاف فى صدق هذا الشعار . .

لكن الهوى يبيت القلوب ، ويطمس البصائر ، ويعمى الأبصار . . ومع هذا فلا غرابة فيما اقترف العاهل الأموى من « أخطاء » لو أنه وزن ميزان المفتونين بهذه الحياة . . فالناس ، إلا ندره ، يقبلون بشغف هو النهم

على ما لا تبيحه أصول الأخلاق ، أو تجيزه قواعد الشرائع ، لأن كل ممنوع مرغوب . ولأن المنع حرمان وتجريح ، والمزاولة امتلاء واشباع . ولأن ثمرة الرذيلة للذة حسية أو معنوية عاجلة يستمتع بها المرء في حياته السائلة ، سواء بإرضاء شهوة الجسد أو بتحقيق مغنم مطلوب . أما الثمرة الحقة للفضيلة فثمرة مرجاة ، وجزاء مؤجل إلى عالم بعيد محجوب ! . . .

فامل معاوية قد شاء أن يتمجّل اللذة ويسبق القطاف ! . . لعله آثر اختيار الطريق القصير ! . . لعله أنسى ، في إبان امتثاله بالسلطان وموجدته على الإمام ، ذلك العالم البعيد المحجوب .

وكيفما كانت نوازع الرجل ودواعيه ، فقد استمر المنهل الذي رآه يرويه وانحرف بكل عزمه عن المثليات الفضلى إلى خطته يتابع السير عليها بثبات وتصميم ، يتبع الخطوة الخطوة ، ويقطع الشوط بعد الشوط ، غير متعرج أن يدوس من القيم الإنسانية ما يدوس . فبحسبه أن يتم رحلته ! بحسبه أن يبلغ غايته وإن خالف المشروع ، وقارف الممنوع ، واستباح ما لا يباح ! بحسبه ولاء نفسه أن يرتفع بها فوق الأعناق ولو على حطام الأخلاق !

ثم آن له ، بعد هذا أن يكمل سلسلة تمويهه ، فيقطع من الخطوة إلى هدفه مرحلة جديدة . .

هذه المرة اتجه وجهة من نوع آخر في عرض نفسه على الناس . وجهة لا يقصد بها إلى رجل بذاته من خاصة على وأرليائه تلويه عنه . . ولا إلى بلد من البلدان أو إقليم من الأقاليم يثيره ويؤلبه عسى أن ينفذ عن غريمه فيلتحق بمحدوده ، ويزيد في ملكه . بل لقد طار إلى ما وراء الأمانى وحلق في سماء حلمه الموعود الذي يحتوى العباد والبلاد ، فاستبق بكيده يسرع إلى تجمع شعوب الإسلام وملتقاهم بلعبة ما كيزة من الاعيىه خليقة بأن تأخذ العقول والعواطف بمثل السم ، ويسرح أنرها على الدواة سروح النار في الخطب الجاف ، لتحتويها جميعها وتطويها طيا من القلب والأطراف . .

وجه معاوية ، هذه المرة ، لعبته إلى موسم الحج الذي يمثل للوثع السوى الإسلامى

العام ، ويأتيه الحجيج ، على الأقدام والضوامر ، مندوبين شعيين عن مواطنهم من كل جنس ولون ، في كل أرض أظلمها علم الإسلام وكادت تضم في رقعتها المنبسطة — من خليج الهند ناحية الشرق ، إلى بحر الظلمات ناحية الغرب — نصف عالم تلك الأيام ..

فكأنى بتلك الأفواج الحاشدة ، التي اجتمعت في رحاب الله ، وعند بيته الحرام ، قد أخذتها دهشة غامرة وهي ترى يزيد بن شجرة الرهاوى يعلن نفسه أميرا على الموسم من قبل معاوية ، ثم يحاول أن يقيم للناس حجهم ، ويؤمهم في مناسكه ، وما ظنوا لحظة ، ولا عهد غيرهم قبلهم في المواسم السابقة ، أن يكون أمير الحج من قبل امرئ غير علي بن أبي طالب ، أمير المؤمنين ، وصاحب الولاية الشرعية على الدولة ، وعلى البلدة الحرام .

فما الذي غير مألوف الأوضاع ؟ . . .

إنهم لغير ملومين لو شط بهم التساؤل وذهبوا كل مذهب مع الظنون . .

أقد غلب معاوية على الأمر ، فصار له تعيين الأمراء ؟ . .

أم اقتسم وغيره مظاهر الإمرة في هذا الموطن ، عن اتفاق ، لهذا عام ولذلك عام ؟ .

أم تقاص نفوذ علي عن الحجاز كما تقلص من قبل عن مصر بعد الشام ؟ . .

أم اقتحم ابن أبي سفيان على الإمام عرينه ، إذ ابتشعر منه الضعف ومن العراق التخاذل ، فتعداه في حماه ، وهو موقن بمجزئه عن التصدي للتعدي ، وعن رده لرده إلى حيث ينبغي أن يكون ؟ . .

ما نرى معاوية ، بفعلته هذه كان يرمى — فعلا — أن يؤمر ابن شجرة على الموسم ، ولا كان يعتقد قط أن سيتاح لرسوله القيام بما ندب له ودونه بمسكة عامل لعل وأنصار ، إن يكونوا بعيدين عن قاعدة حكمه بالكوفة ، فهم بلا مرأ أشد قوة بموطنهم ، وأعمز نفرا ممن عسى أن يكون له هو من أنصار . .

لكنه أقدم على ما أقدم ليعلم الحجيح ، وليعلم بعدهم من وراءهم من مواطنهم ،
بمختلف البلدان في الأقطار الإسلامية المترامية ، أنه صلب العود ، قادر على
مناوأة خصمه ، وعلى اقتحام حماء في أي وقت يشاء . . أما أن يحال بين مندوبه
ابن شجرة وما أوفد له ، أو أن يثور النزاع بينه وبين قثم بن عباس عامل
الإمام على مكة ثم يتفق الناس على رجل آخر سواهما لإقامة الحج جسما للنزاع
أن يؤدي لقتال في الشهر الحرام ، بالبلدة الحرام ، فإن هذا وذاك ليسا بما يهم
معاوية ، ما دام قد بلغ غرضه من التمويه على من شهدوا الموسم ، وضمن ذبوعه
من بعد — على ألسنتهم — فيمن يلونهم من الشعوب . .

وقد فطن على إلى هذه المكرة المنكرة من معاوية ، وأدرك سوء أثرها
في الناس فذب رجاله لرد ابن شجرة عن مكة . غير أنهم كدأ بهم وعدوه . ثم
مطلوا بالوعد . ثم ما زالوا يعطون في التسويف والمطل حتى سد دونهم بمنطقه
وتحريضه كل سبيل إلى المراوغة فخرجت فئة منهم لما أرادهم له ، على رأسهم ممقل
بن قيس ، يطبرون جنوبا إلى الحجاز . .

لكن خفة الحركة ، وسرعة السرى ، وحث السير لم تغنهم غير قليل . فقد
ذهب جهدهم كله مع الريح . بلغوا هدفهم بعد انقضاء الموسم ، وعودة الأمير
الدعي إلى الشام . ولم يكن كل ماجنوه سوى بضعة نفر من أصحاب الرهاوى
وقعوا أسرى ، فساقوهم أمامهم إلى الكوفة . .

وليس بقطوع به ، وإن يكن أدنى إلى الرجحان ، أن هذه الحركة التمويهية
تركت أثرا في نفوس الناس ، نال من حزم الحكم الشرعى القائم ، وشكك
في اقتداره على مقاومة القوة المنافسة له ، المتربسة به لتقضى عليه . . ولعلها أيضا
أن تكون خدشت هبة الإمام . بل لعلها هيأت الأذهان ، على أوسع مدى في
طول الرقعة الإسلامية وعرضها، لتوقع غلبة معاوية عليه واحتلابه سلطانه لو امتد
الوقت ، وسارت الأمور على نفس النسق الذى توهم الكثيرون — بفعل التمويه —
أنه الطريق الطبيعى للأمر . . ففى ما هو معلوم من حق على على الأمة قاطبة بحكم البيعة،

ومن علو قدره عند المسلمين بمنزلة من رسول الله ، ومن قرب به إلى قلوب
الكثيرين بما أثر خلقه الكريم ، وأخبار بطولاته المترددة ، منذ شبابه ، على السنة
الشعب كالأساطير — مع هذا كله فقد كانت العواطف والصلات المعنوية والروحية
سلمة لا تكاد تاتي حظها من الرواج في سوق العلاقات الإنسانية في المجتمع كما
ينبغي أن يلقي من التقدير والتأييد كل نبيل وشريف . بل قد كانت أهون عندئذ
أثرا في النفوس من مظاهر القوة الباطشة . وأخف وزنا من بهرج الجاه وبريق
المال . وأخفت صوتا من دوى التهليل وضجيج التضايل . .

ولقد احتكر ابن أبي سفيان — فيما لاح للجماهير — سوق السلوة المادية ،
 واجتمع له من وسائل الترويج كل ما يضمن لبضاعته الإقبال . . فإذا هو عرض
الآن إحدى سلمه ، فإنها خليفة لا محالة بأن روج ا .

ولم يتردد عن الإقدام . . فالسوق ظمآنة للشراء . والسلمة لديه حاضرة .
وسليقة التاجر في دخيلته ، تؤكد له أن الصفقة لا بد مدرة عليه أخش الأرباح .
وبادر على الفور يتقدم إلى الناس بأحدث سلمه ، وأقدرها على الاستهواء . .

ما أن خلت السنة التاسعة والثلاثون من الهجرة ، ودخلت السنة الأربعون
حق حسر العاهل الأموي كم الساحر عن لعبة جديدة ، وقرع أكبر طبوله . . إنه
الآن يستطيع أن يجتذب كل الأفئدة . ويلفت كل الأنظار . ويعلأ كل الآذان
برنين صاحب يتعالى جرسه ، ويتوالى صدهاء في الآفاق حتى لا يسمع سواه . .

وكان ما أراد . .

فلم يكده ينضى بعض العام حتى أخذت السنة الناس تنهامس ، ها وهناك ،
بأنبياء هي أشبه بالرجال منها بالحقائق ، تفقر لها الأفواه من دهشة ، وتذهل العقول . .
ولكنها ، مع هذا ، هي الحال المطلوب المحبوب ، والخرافة التي تهفو الأنفس أن
تراها مجسدة نخطر على واقع الحياة . .

وعلا الهمس الخافت إلى لفظ مسموع . . وتواتر الأنبياء رويدا رويدا ، في

إعلان بعد إسرار . . وتقبلت الجماهير المتطلعة كل كلمة تلقفها بالبشر ، وكل معنى
توصىء إليه بالترحيب . . فثمة ما يشير إلى كتب تطير من الشام إلى العراق وكتب
تجري من العراق إلى الشام . ثم ثمة ما يؤكد أن الغريعين يتراسلان . ثم ثمة
ما يشف عن وفاق قريب ، وعهد جديد من الود والصفاء ، يلتقي فيه الأعداء
المتناجزون بالسلاح لقاء إخوة متحابين . . يعيد الطمأنينة ويحقق الدماء . .

وعندما انقضى بعد هذا مثل ما يقطع البريد من دمشق إلى الكوفة ، ومن
الكوفة إلى دمشق ، كان قد ذاع خبر الصلح بين طي ومعاوية ، بوضع الحرب ،
ونبذ الخصام ، وإعادة السلام في ديار الإسلام باقتسام السلطان بينهما ، أعلى
العراق ولماوية مصر والشام . .

علم الناس ، بعد قليل ، أن الدعوة إلى السلام ولدت بالشام ، ثم حبت إلى الكوفة ، ثم قامت على قدمين لتأخذ وجهتها إلى مختلف الأرجاء ، ثابتة الخطا ، حثيثة الحركة ، مشدودة القوام ، تطرق المحافل ، وتدخل الدور ، وترتاد الدروب والطرقات هنا وهناك ، حتى أصبحت ولا شاغل غيرها يشغل تفكير الجمهور . . .

وحين يذكر السلام تستيقظ للشاعر ، وتنشط الأحاسيس .. فالعيون تتألق بعد إعتام . والشفاه تبتسم بعد عبوس . والأفئدة تطفر نشوانة وقد راحت تنجذب عنها غواشي الحيرة والقلق ، وأثقال الهموم والأحزان التي تفرضها ويلات الحرب ، وتنشرها على الفكر والقلب والجسد كسحاب التراب والضباب التي نثرها الأعاصير . حتى الكلمات والعبارات تصدح كالترانيم . . فالحرب موت والسلام حياة . الحرب خوف والسلام أمن . الحرب ظلمة والسلام نور . والأمن والنور والحياة هي غاية الإنسانية في كل زمان ومكان ، ومنتهى رجاء كل إنسان . .

وحين تصدر الدعوة إلى السلام من قوى قادر ، أو يلبها وهو لا يعسر عليه أن يذال بالقتال كل ما يريد ، ثم يرد نفسه عن السير لهدفه خائضا في الدم ، فإنها إذن منة منه يسخو بها على عدوه سخاء الكريم المتعفف . وإنه إذن لاسخاء الذي لا يدانيه جود ، ولا يوفيه ثناء ، لأنه السخاء بالحياة . .

وكان معاوية ، كما لاح للناس ، البادي بالدعوة . .

فقد جاء فيما نقلته إلينا الروايات من أخبار .

» . . . لما لم يعط أحد الفريقين صاحبه الطاعة ، كتب معاوية إلى علي :

أما إذا شئت فملك العراق ، ولي الشام ، وتسكف السيف عن هذه الأمة ، ولا تهريق دماء المسلمين . .

ف فعل . وتراضيا على ذلك . فأقام معاوية بالشام بجنوده يجيها وما حولها ،
وعلى بالعراق يجيها ويقسمها بين جنوده .. »

هذا الذى ذاع فى تلك الآونة ، ونقلته إلينا الروايات المدونة بعدها بوقت
طويل أو قصير ، كان خليقا بلا أدنى ريب أن يحمل طائفة غير قليلة من الذين
عاصروا مولد الخبر على أن يروا فى ابن أبى سفيان القوى المتنفذ عن القتال ،
السخى المتكرم بالسلام ، إذ بتدوره مغالبة خصمه والانتصار ، آخر الأمر ،
عليه . ولكنه أثر ، كرما منه ونكرا لادائه ، الانتصار على نفسه ليحقق الدماء ..

ولا لوم ، بطبيعة الحال وفى حدود الشواهد الطافية فوق سطح الظروف ،
على أصحاب هذه النظرة أن يتعلموا بنظرتهم هذه لأنها الرأى المنتظر للقبول بعد
ما خامر معاوية عقولهم بكل تلك الأساليب البارة التى لمظهرته صاحب الحول
المتحكم فى توجيه الأمور . ولا لوم كذلك إن رأوا فى الدعوة منفذا لخلاص على بما
هو فيه بعد أن أطبقت عليه الأحداث ، وسدت دونه كل منافذ الغلبة على الشام ..
فإذا دعا معاوية للسلام ، فهى دعوة سماحة . وإذا لى على الدعوة ، فهى تلبية
ضرورية . وشتان بين إسماع القادر المسيطر وقبول المكره المضطر فى موازين
التقدير . . .

على أن خبر هذه الدعوة السمعة ، وما تلاها من صلح أعقبته هدنة ، لا يكاد
يسلم من مظنة الظانين وريية المستريين . . فهو أشبه بما ذكر قبله عن خبر
اعتزال عبد الله بن عباس . وهو يحمل فى دخيلته عوامل تقويضه وإن لاح من
خارجة راسى الأسس على منطق الحوادث ، قائم البناء بسند الرولة . بل الأولى
أن يوصف بأنه أوهى من ذلك ، وأقل تماسكا وقدرة على الثبات أمام هبة
من هواء الحقيقة ، إذا مارؤى قياس صدقه بمدد أولئك الرواة أو بصيغة
الروايات . .

فقيا ورد عنه فى الأسناد المقولة ، ذكر هذا الخبر آنا بإطنا ب قد يبنى عن
قيمه كواقعة تاريخية هامة . لا ينبغي ذكرها دون إفاضة وتفصيل . وذكر آونة

ثانية باقتضاب لعله أن يوحى إلى قارئه بالشك الذى قد يعنى إنكار الناقل واكتفاءه فى إirاده بالإشارة الهشة التى تفيد الإهمال أو ما يشبه الإهمال.. وإلى هذا الاقتضاب وذلك الإطناب ، لم ترد عنه كلمة واحدة فى سير أخرى أغفلته كل الإغفال ، كأن لم يقع ، أو كأنه من لغير القول وسقط الكلام الذى لا يستحق عناء الاهتمام . .

وما نحب أن نتناول هذه الهدنة المدعى قيامها بين الفريقين بالمناقشة ، لأن المناقشة أخرى بأن تطرل فيها لا طائل منه ، وأولى بأن تعود إلى نقطة البدء التى تحرك منها ابن أبى طالب يوم اختير لإمرة المسلمين . . فالهدنة ، كما هو ظاهر ، تقوم على صلح عرضه معاوية وقبله الإمام . والصالح يقوم على اقتسام الدولة بشرطها شطرين مستقلين : لهذا الرجل العراق ، ولذالك الرجل الشام . والقسمة — كمجرد فكرة — لا توافق الاتجاه الجديد الذى خطه الإسلام ، ودعا به إلى التآليف بين الناس ، على تعدد الأجناس والمواطن ، وتوحيدهم : فرادى ومجتمعات ، بلم الشعث ، وجمع الشتات ، عن طريق محو الفوارق ، ورأب الصدوع ، ورثق القطوع المعنوية والمادية ، وليس إلى التجزئة والتقسيم ، أو التفريق والتزريق . ومن اليسير أن نرى السياسة الإسلامية الخارجية التى وضع محمد قواعدها — فى إطار مفهوم الدين الجديد — قد نهضت ، منذ عهده ، على أساس — أمة واحدة لا تتحقق لها وحدتها المنشودة إلا بتوحيد العقيدة ، وتوحيد الإنسان ، وتوحيد النظام العام ، فلا وجه إذن ، من بعد ، لارتضاء التقسيم ، أو السماح بالانقسام . .

كذلك ليس بقبول من الإمام ، ولا هو بمقول ، أن ينقض مبدأ توحيد الأمة — الذى شرعه دين الله ، وبدأ صاحب الرسالة السماوية تحقيقه — إذا جاز له أن يحيد عنه ، أو يخالفه ، كتقليد سياسى موضوع سار عليه أسلافه الخلفاء . فاستمساكه بسنة رسول الله ، اقتداء به فى كل أمور دينه ودنياه ، يؤكد أنه خليف بآن يرفض فكرة التقسيم . وانطباعه على امتثال المبادئ ، وإصراره على الثبات بموقفه منها ، دون تحول أو التواء مهما كانت الظروف والأحوال ، يؤيد تشييته دائماً بما يراه . وسلوكه ، من قبل ، شاهد على الالتزام والثبات شهادة لا تدع صديلاً

لنأول أن يبرر قبوله الصالح المزعوم على أساس التقسيم بجمعية رضوخه لضغط الأحداث أو تغير الأوضاع . .

فالمسألة إذن مسألة إيمان وليست بمسألة اجتهاد . وربيب الرسول أولى الناس باتباعه ، وأخلاقهم باحتذاء أسلوبه في نصرته ما يعتقد أنه حق ، ولو كره العالم كله ، ووقف له بالمرصاد . . وكأنني به كان يعمل بوحى ذلك الشعار الذى أعلن عنه محمد يوم جاءه عمه محاولاً أن يثنيه عن الاستمرار في تبليغ رسالة الإسلام ، خشية عليه من بطش قريش . .

محمد قال إذ ذاك لعمه :

« يا عم . لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ، ما تركته حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه . . » .

وعلى قال لأصحابه حين لمس منهم الثبوت عن قتال معاوية وجنوده الذين انفضوا عن الجماعة ، واقتطعوا الشام :

« . . . ويحكم . . . اخرجوا ممي ثم فروا عني ما بدا لكم . . . فوالله ما أكره لقاء ربي على نيتي وبصيرتي . » .

وقال لهم مرة أخرى :

« . . . أئن لم تخرجوا ممي بأجمعكم إلى عدوكم فتقاتلوهم حتى يحكم الله بيننا وبينهم . . . لأسيرن إليهم ولو لم يكن ممي إلا عشرة . . » .

وقال وقال ، حق كثر في خطبه وأحاديثه ما قال من هذا القبيل ، السكثرة التي تغني عن التدليل ، ولا تدع مجالاً للجدل والتأول في صلاية عزمه ، وصدق إصراره على القتال لتثبيت الوحدة حتى رمقه الأخير . . .

ولا يغيب عن البال أيضاً كيف وقف بيته دون الانقسام عند أول بادرة بدرت من طلحة بن عبيد الله وحليفه الزبير بن العوام . . . فلقى أبي عليهما مشاطرة الحكم مع بقاء وحدة الدولة ، يوم جاءه يقولان :

« ... بايعناك على أننا شريكك ... »

فلم يأخذ مظهر العرض الذى يحمل العون ولا يخالف الوفاق والآلفة ، لأن الشركة سبيل ممد إلى الخلاف ، وفيها ما يهدد الوحدة القائمة بما لها من شكل الانقسام إن لم يكن بما لها من معناه . .

وأبى أيضا أن يوليها أمر المصيرين : الكوفة والبصرة ، اتقاء ما عسى أن تدفعهما إليه شهوة الحكم من انفراد كل واحد منهما بمصره ، واقتطاعه من جسد الدولة دولة مستقلة . . فما أن اقترح عليه ابن عباس رأى حق رفضه ، وقال :

« .. ويحك !... إن المراقين بهما الرجال والأموال . ومتى ملكا رقاب الناس استمالا السفيه بالطمع ، وضربا الضعيف بالبلاد ، وقويا على القوى ، بالسلطان . . »

ثم ما لبث أن ثار إلى سيفه ، حين بلغته الأخبار بتعبثهما الجنود والحشود لاقتزاع البصرة ، ودعا الناس للجهاد ، وهو يشير إلى الخطر الداهم المنتظر من حركة الرجلين :

« إن فعلوا هذا ، فقد انقطع نظام المسلمين . . »

وكما لم تكن حرب الجحش بينه وبينهما وسيلة لتوطيد سلطانه الخاص ، بل للإبقاء على الوحدة السياسية والإقليمية ، وحماية بنائهما من التصديع ، وعقدها من الانقراط ، فكذلك كانت صفين . وكذلك كان كل فعل فعله ، وكل مسلك مسلكه ، وكل دعوة دعا بها ، منذ اختيار لإمرة المؤمنين ... وإذا كان قد أبى ، فى مستهل عهده ، أن يثبت معاوية عاملا من قبله على الشام ، فإنه الآن أخلق بالألا يرضاه رئيسا مستقلا لدولة جديدة ، تنسلخ من الدولة الأم ، قصارى وجودها أن يخلق نوعا من التنافس مع الأصل الذى تفرعت عنه قد يؤدي لسبب أو آخر ، إلى التنازع على السيادة . ومآله فى كلتا حالتي الوثام والخصام ، أن يكسر

شوكة المسلمين ، ويضعهم في مواجهة العالم الخارجى شتى بعد إذ هم جميع .
ويطمع فيهم الأعداء المتربصين بالإسلام . .

والغريب بعد هذا ، أن الخبر المنقول عن الصلح بين الإمام وابن أبى سفيان
— أياً ما كان منطلقه — يحمل في ثناياه من عوامل تقويضه ما يغنى الغناء كله
عن جهد يبذل من خارجه لتقويضه . . . فهو يبرز في وقت لا شواهد فيه تومى
إلى احتمال وقوع أى وفاق إن لم تكن كل الشواهد تشير إلى بلوغ الخلاف المدى
الذى لا مناص معه من الاحتكام للسلاح . . وهو يحافى طبيعة معاوية كل المجافاة
لأنه كاف بالعلواء ، متطلع دائماً إلى ما وراء الأفق ، قد كافح على السلطان وهو
بعد عامل منزوع من عمله ، فلا يعقل أن يقف دون إتمام الشوط بعد أن ملك
الشام ، وانتزع مصر ، واضطرب العراق على غريمه الاضطراب الذى يأمن هو معه
كل عادية على أحلامه وإنه ليكاد يرى تحقيقها على مد ذراع . وهو يئس في الروايات
جنباً لجنب وعلى خط واحد ، مع أحداث ثبت وقوعها ، وأجمع على صدقها كافة
الرواة ، بينما هى تناقضه وتنفيه . . . وكفى أن نقول ، بيانا لهذا التناقض ، أن
ما جرى بين الغريين من وقائع وأمور بعد إبرام الصلح ، يخالف كل المخالفة
ما زعم أنهما تعاهدا عليه ونقلت نصوصه لنا الروايات حتى ليوشك المرء في هذا
الضوء أن يقرر ، وهو سالم من الخطأ ، أنه لم يكن نمة اتفاق على الإطلاق . .

جاء الصالح ، فيما تقول بعض الأخبار ، بعد أربع سنوات طويلة من الخلاف والصراع ، فإذا هو يأتي في غير أوانه إذا ما حاولنا الربط بينه وبين ما سبقه من أحداث . وإذا هو يكاد ألا يأتي إذا ما أحسن استقراء ما عاصره منها وما تلاه ١ .
ولكنه ورد في عدة روايات ، مع اختلاف كثير أو قليل في التفاصيل . .
وقيل بوقوعه في السنة الأربعين .

وكان مكانه من السياق التاريخي في أول العام بافتراض ، أو في منتصفه على أبعد احتمال . .

وتجمع المصادر التي أوردته ، بإسهاب أو في بضع عبارات مختلفة الدلالات ، على أن الرجلين تعاهدا على وضع الحرب حقاً للدماء المسلمين . وعلى انفراد على بالهراق ومعاوية بالشام . وعلى ما يتبع هذا وذلك من وجوب احترام الحدود الفاصلة بينهما فلا يقتحمها أيهما على الآخر بغزو أو غارة أو تسلل عسكري له ، ظاهراً أو باطناً ، شكل الاعتداء أو معناه .

بهذا يعم السلام . .

فإلى أي مدى نراه استطاع — إن كان حقاً قد وقع — أن يثمر السلام ٢ . .
وإلى أي جانب يقف : في صفوف الحقائق الثابتة ، أم في صفوف الأخبار المدعاة ؟ . .

من خلال الحوادث السابقة عليه وامتدادها للعاصر له ، ثم التي تلتها وجاءت لاحقة بإبرامه ، نراه قد نبا عنها ، وبدأ في عواصفها الهائجة كمود جاف أولى بأن ينقصف — لا أن يثبت — من لحظة مولده ، أمام أول خطرة من خطرات النسيم الرقيق فضلاً عن ثورة الأعاصير ١ .

وفي ضوء شروطه المعلومة ، الناشدة للسلام ، نراه — من أول لحظة إلى آخر شوط — لم يمنع النزاع بالسلاح ، ولا الصراع بالكلام ، كأنما قد أريد له أن يزيد في تسعر النار . أو قد أبرم لينقض وكان السكى لا يكون . أو لم يتم أصلا في غير أخيلة الادعاء . . .

والشواهد تغني عن الجدل .

فلم يكن العام الأربعون عام سلام وإن استهل باتفاق الصلح المزعوم . . بل الثابت أن يوما واحدا من أيامه لم يطلع له نهار يشعر الناس بالطمأنينة والأمن ، ولا عسفس ليل يحملهم على الظن بقرب انطفاء لهب الصراع المشبوب بين من قبل بتعاهدهما على كف الحرب والفيء للسلام .

من بدئه إلى منتهاه كان العام عام زل أو تشرع للقتال ، على أوسع مدى ، وإلى أبعد الحدود . . فلقد سالت السماء خلاله من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب حتى لم يكن يسلم من رشاشها مكان عبر الصحراء من حدود الشام إلى جبال اليمن إلى مايداني ملتقى القلزم بالخليج . وعلى امتداد هذه المسافة الشاسعة في محاذات البحر ، مع انحراف ملامسة أو انحراف إيغال نحو الداخل ، انتشر الإرهاب والقتل والتهب والتحريق والدمار بالمدينة ومكة والطائف ونجران وأرحب ومأرب وصنعاء وجيشان وغيرها من محاليف اليمن وبلاد الحجاز . ولم ينقشع هذا البلاء عن مواقعه إلا بانقضاء العام ، أو بالتحديد ، بعد مقتل الإمام .

وقصة هذا البلاء الدائم رويہ لنا ، على وجهه الذي علمناه ، غارة بسر ابن أبي أرطأة العامري التي انطلقت منطلقها ذاك بأمر معاوية في أوائل العام الأربعين ، وكان يراد لها — برغبة بعض خاصة الماهل — أن تتضاعف قوتها الحربية أضمافا عديدة لتكون حربا شاملة يقودها معاوية ضد العراق . فقد روى عنها على لسان عبد الرحمن بن مسعدة الفزاري أنه قال :

« لما دخلت سنة أربعين ، تحدث الناس بالشام أن عليا يستنفر الناس بالعراق فلا ينفرون معه . . فقامت في نفر من أهل الشام إلى الوليد بن عقبة فقلنا له :

إن الناس لا يشكون في اختلاف الناس على على بالعراق ، فادخل إلى صاحبك
فقره فليسر بنا إليهم قبل أن يجتمعوا بعد تفرقهم أو يصلح لصاحبهم ما فسد عليه
من أمره » .

وتنص الرواية فإذا معاوية لا يقبل الرأي ، خوف المخاطرة ببقاء على .
واكتفاء بالغارات الإرهابية التي تنال من عدوه ولا تنال منه . وإذا الوليد وأصحابه
من الدعاة إلى الحرب العامة ، لا ترضيهم سياسته ، حتى ليعلم الوليد عن غضبهم ،
ساخرا من أميره :

« أشرنا على معاوية برأينا أن يسير إلى الكوفة فبعث الحسين إلى المدينة .
فمثلنا ومثله كما قال الأول : أربها السها وترى القمر . . . » .

وتحدد لنا بعض المراجع الأجنبية موعد غارة بسر على الحجاز واليمن بوقت
متأخر من نفس السنة يبعد بها عن بدايتها ، ويداني منتصفها أو يجاوزه بقليل . .
فقد ذكرت هذه المراجع « أن العام الأربعين من الهجرة ، فتح على على بابا
جديدا من السر والهموم ، إذ ما كاد موسم الحج يوشك على الاقتراب ، حتى
بعث معاوية قائدا من قواده قاسى القاب ، ذا شجاعة ، هو بسر بن أبي أرطاة ،
في ثلاثة آلاف مقاتل إلى الأراضى المقدسة ، لإخضاع أهلها ، وحملهم على
الإدلاء له بالبيعة والولاء » .

والثابت بالرواية الأولى ، ومن خلال ما توضح إليه ، أن الغارة ما كانت
لتقع إلا بعد شهر أو اثنين من بدء العام . أو في الربع الثاني منه على الترجيح . .
فالنص يقرر أنه . « لما دخلت سنة أربعين ، وتحدث الناس بالشام أن عليا
يستنفر الناس بالعراق فلا ينفرون معه » . ثم يدلنا على أن الحديث يعلو ويذيع
حتى يبلغ أسماع خاصة الماهل وذوى الخطوة لديه ، كاشفا عن رغبة مواطنهم
في معالجة على قبل أن يستقيم أمره ويسترد سيطرته على رجاله . . ثم يلتقل
بأولئك الخاصة إلى صاحبهم ، يطلعونهم على الأنباء ، ويعلمونهم اتجاه الرأي
العام في ولايته ، ويحثونهم على انتهاز الفرصة السانحة قبل أن تفوت ، بالمبادرة إلى

قتال غريعه . . ثم يربنا انقسام الرأي بينهم وبينه ، هم إلى الحرب الشاملة وهو إلى الحرب المحدودة . ثم ينتهى بنا ، بعد جدل وحوار ، ومراجعة وإصرار ، إلى إنفاذ معاوية الغارة . . فإذا وضعنا في حسابنا أن التفكير في شن حرب عامة وجهتها الكوفة ، أو غارة إرهابية وجهتها الحجاز واليمن ، لا يمكن أن يكون وليد يوم وليلة ، أو بضع ليال وبضعة أيام ، لخطورة الحرب الشاملة من ناحية ، وضرورة معايرة احتمالات النجاح والفشل ، من ناحية أخرى ، في غارة تقطع الجزيرة العربية كلها من أقصى الشمال إلى أبعد مناطق الجنوب . . وإذا قرنا بهذا كله ، المشاورات والمقابلات ، وجهد التأهب والإعداد ، لتبين لنا أن أشهراً من العام لا بد قد تقضت قبل أن يخطو بسر إلى مقصده أول خطاه .

والثابت من الرواية الثانية ، أن الغارة الإرهابية على الحجاز واليمن ، قد وقعت في النصف الثانى من نفس العام . بشهادة ما ذكرته عن بعضها عندما أوشك موسم الحج على الاقتراب ، وبدلالة ما درج الناس عليه ، في ذلك الزمان — الذى يشق فيه السفر أيعاً مشقة على الحاج ، رجالاً وركبانا — من التأهب للسير إلى بيت الله الحرام قبل موعد الحج بشهور . .

والروايتان ، في إطار ما أسلفناه ، تتفقان على حدوث الغارة الوحشية في موعد يتلو بداية العام الأربعين بأشهر تقل في إحداها ويزيد في الأخرى . ولكنهما تؤكدان وقوعها بعد هذه البداية بوقت ليس بالقصير . .

غير أن الرواية الثانية تلوح أولى من الأولى بالترجيح ، لأنها أقرب إلى الاتساق مع السياق الزمنى للحوادث المعاصرة ، وأدنى إلى التزام خطه السليم .

فلا خلاف ، فيما نعلم ، بين جمهرة المؤرخين ، قدامهم ومحدثهم ، على انطلاق حملة مضادة من الكوفة سيرها أمير المؤمنين بقيادة جارية بن قدامة السعدي لتأديب المغيرين . ولا خلاف أيضاً على قيام جارية بتعقب بسر ورجاله في مراحل رحلتهم التدميرية ، مرحلة مرحلة ، وموقفاً موقفاً على امتداد الجزيرة العربية لم يردده عن التعقب إلا يتيقنه أنهم فاتوه ، ففكر راجعاً على آثارهم لعله أن يصلح

ما أفسدوه . . . ومن المعلوم ، بعد هذا ، أن قائد الحملة العلوية حرص على تثبيت البيعة على فيما مر به من بلاد . فلما بلغ في أوبته مكة قافلا من مطاردة غريمه ، وأراد أهل البلدة الحرام على العودة إلى طاعة الإمام بعد إذ أخرجهم منها بطش بسر كارهين ، فوجيء بهم يسألونه في تردد وحيرة :

« لمن نبايع . . ؟ »

وتوجس خيفة من قولهم جارية . .

لمن ؟ . .

لكن همسم طالعه بما يخشاه :

« قد هلك أمير المؤمنين . . ! »

فالتقى به النبا المشثوم في وهدة من الوجوم . وطوح به مع الحزن والذهول واليأس حتى لغاب عنهم وهو شاهد ، وغابوا عنه وهم حضور . . وعندما استطاع أن يشوب إلى بعض رشده ، كان كل ما أسعفه به بيانه أن قال :

« لمن نبايع له أصحاب على . . »

فبايعوه على الأثر للعسن بن على أمير المؤمنين بعد أبيه ، وكانت قد ترامت إليهم بديعته في الكوفة أخبار . .

والتواتر للشهور أن الإمام اتى مصرعه على يد قاتله الآثم في رمضان . والنادر المهمل أنه قتل في ربيع الآخر من نفس العام . والبون بين الموعدين كبير ، ولكنه لا يغير ، بطبيعة الحال ، من اطراد الحوادث ، ولا ينفى وقوع غارة بسر قبل هذا أو قبل ذاك .

وحين نأخذ بالحساب القصير في تحديد موعد مصرع ربيع الآخر ، نجد الغارة ، لا محالة ، قد وقعت قبله — على أقل تقدير — ببضعة أشهر ، تكاد تقرن مخرجها من الشام بولد هلال السنة ليتحقق إمكان التقاء ميقات عودتها بعينات مصرع الإمام ، كما هو ثابت في الأسناد . .

فأين إذن موقع اتفاق السلام من العام ؟ . .

الغارة سابقة .

والاتفاق لاحق .

الغارة ترجع بدءا إلى مستهل السنة . وتذرع ذهابا وجيئة ، مسافة تقدر بمئات عديدة من الأميال ، وزمنا يصل إلى بضعة أشهر لاتقل عن ثلاثة . ثم تبلغ مآنها ، بعد الأوبة ، مع مقتل الإمام .

والاتفاق يبرم ، بزعم زاعميه ، فلا نجد له فسحة في سياق الزمن إلا إن افترض إبرامه قبل الغارة ، أو افترض بعد انتهائها ، فإذا هو ، بأول الافتراضين لا بد أن يقع في السنة التاسعة والثلاثين ، وبثانیهما لا بد أن يقع بعد مصرع أمير المؤمنين . .

وكلا الافتراضين مرفوض لا يستقيم بإجماع الرواة ويذاهة العقول . .

وحين نأخذ بالحساب الطويل عن تحديد موعد المصراع في رمضان ، كقول عامة رواة السير ، نرى الغارة لا بد قد وقعت في النصف الثاني من العام ، مؤيدة بحديث الرواية الأجنبية أو قربها من الحقيقة قربا لا تدانيها الأخرى فيه . . فليس بمعقول أن تكون حملة جارية التأديبية ، التي خرجت لرد بسر ، قضت ثمانية أشهر أو نحوها في تعقبه وتكون غارة بسر ، على أساس نفس التقدير ، قد استغرقت مثل المدة أو ما يزيد عليها . بأيام لو اعتبرناها خرجت في بدء العام . . ليس هذا بمعقول لأنه يخالف المعروف عن طبيعة الغارات من التزامها شعار : « اضرب واهرب » القائم على المباغتة ، العامل كل آخذه في نطاق خفة الحركة ، وانتهاز الفرصة ، وسرعة الانقضاض والفرار تلافيا للمواجهة والاشتباك . .

بهذا الاستقراء يكاد يقع في مجال المحال أن الغارة والحملة اللاهثة في أعقابها قد حدثتا في مستهل العام ، بحكم ما تفرضه طبيعة الغارات من سرعة خاطفة تحتزل الوقت الذي تستغرقه أيها ، وتضغطة ضغطا شديدا إلى أصغر حجم وفي أضيق حيز لأنها في الحقيقة سياق مع الزمان والأحداث . ويكاد يقع في مجال المعقول ،

إن لم يكن في مجال الحقائق ، أن تكونا حدثتا حول منتصف سنة أربعين ، بعده أو قبله بقليل ، بحكم معاصرة موعد عودتهما ليوم مصرع أمير المؤمنين .

فحق إذن — في هذا الضوء — يمكن أن يقع اتفاق السلام الذي قضى بكف الحرب ، ومنع الغارات ، واقتسام الدولة شطرين آمنين في ظله بين الرجلين ، لهذا العراق ولذلك الشام ؟ . .

في نفس الضوء ، يوشك تاريخ إبرام الصلح — إن كان حقا قد أبرم — أن يتحدد في النصف الأول من السنة ، وقبل بعث غارة بسر ، لأنه ما كان مستطاعا أن يبرم إلا وعلى ابن أبي طالب بين الأحياء . . وفي شعاعه ، أيضا ، يوشك الصلح ألا يكون قد وقع لأنه لم يمنع وقوع ما أبرم لمنع وقوعه ، وهو النزو بجيش أو غارة على أرض أحد طرفي الاتفاق . .

أم قد أبرم لينقض على الأثر ، وما جف مداده أو انقض أشهاده ؟ . .

إذن لأشارت إلى نقضه الروايات التي جرت بذكره ، ولسجلته في صحائفها استكمالاً للحديث عنه ، لأن واقعة نقضه أخلق بأن يشار إليها ، وأحق بالظهور والتعليق . .

أم قد يقال ، في معرض إثبات قيامه والتدليل على إبرامه ، إنه تم وغارة ابن أبي أرقطة قد غادرت الشام ، فلم يتح منعها عن السير ؟ . .

أم النية انعقدت على إصداره ، ثم اتفق بعدها على تنفيذه ، والغارة ما زالت في الطريق ، ليسكون كافا لما وراءها من غارات لعل معاوية أراد قبله تسييرها إلى العراق ، فتكون هذه الغارة — في عزم ابن أبي سفيان — آخرة الغارات وخاتمة العدوان ، ويكون الاتفاق فاتحة عهد من السلام بين الفريقين حقيق بأن يؤتى ثماره ، وينجب آثاره لولا مصرع الإمام ؟ . .

لئن قيل هذا أو قيل ذلك ، فكلاهما اعتراض مرفوض ، وتدليل مدحوض ، لأنهما ما كانا لينما معاوية عن رد بسر عن الاستمرار في فظائمه برسول يوفد

إليه بيمض الطريق . ولا أن يمنعنا عليا من المطالبة بهذا الرد بحق ما شرطه الاتفاق . ولهما في طول الفترة ، التي قضتها الغارة فسحة لالتقاء الرسول بالمعير . ولنا في إنسكار قيام الصلح سند من إغفال الرواة للنقض ، ومن السياق الزمني للأُمور . . .

على أي فرض من الفروض ، لا يثبت قيام الصلح ولا يستقيم . إن قيل قد تم قبل الغارة ، فكيف قامت ومنعها وأمثالها مشروط فيه ؟ . . أو قيل بمدى فكيف أبرم ، والإمام عند ذلك قد قتل وأصبح ذكرى للذاكرين ؟ .

بل الأولى — بداهة — ألا يكون . . . وهل يمكن أن يكون وموعده المدعى واقع بين قوسين : غارة تنقض شرطه ، ومصرع يمنع إبرامه ، وكلا الحدين كفيلا بأن يلفظه من نطاق الحقائق الثابتة إلى ضياع الزعم المشبوه ؟ . .

الفصل الرابع

كالحوادث السابقة على الصلح الزعوم ، والمعاصرة لادعائه ، كانت أيضا الحوادث اللاحقة به تنفيه وتمنع وقوعه إلا أن يكون أمنية خالجت بعض الأنفس الدوافة إلى السلام وجسدتها الأخيلة . أو فرية مختلقة نسجتها الأهواء والطامع وأريد بها الإيهام . .

ولا حريجة على المتمنى وإن شط به تمنيه إلى ما وراء للممكنات سدورا في الخيال حق المحال . بل الحريجة على الخلق الذى يشرذ العقول في تيه التضليل . إذ الفرق بينهما هو الفرق بين الرغبة المخلصة النقية والنزوة المغرضة الخبيثة ، أو بين الماء والسراب ، والصدق والرياء . .

ولكن معاوية ، فيما أفصح سلوكه ، يأبى إلا أن يسير على السنين المموج في قيادة الناس وفي معالجة الأمور ، لأنه جرب الاختلاق والالتواء ، وعرف أن السياسة — كتفليق وتمويه — هي الطريق الممهد اليسور للوصول إلى القلوب والعقول في زمان راج فيه النفاق ، ولم يتورع الناس ، خلاله ، عن بلوغ مآربهم من أى سبيل . . وما يضيره ؟ . . إنه ليعمل بوحى عصره ، ويفعل أفاعيله من وراء ستر كثيف . . فإن هو جازت أساليبه التحية على معاصريه ، وهي أولى بأن تجوز ، فقد باع بها ما يتمناه ، وغدا في عيونهم وهو الداهية المحنك الأريب . وإن كشفت طائفة منهم الزيف الذى صدقوه — واسرف لا يكشفونه إلا بعد حين — فأين الدليل الذى يلزمه الفرية ، ويأخذه بالتمويه ؟ . . ثم لات عندئذ حين نكوص عما قد وقعوا فيه . .

وتتطلع إلى مسار الحوادث الجارية طوال عهد الإمام ، فبدلنا ترابطها على استمرار النزاع ، دون انقطاع ، بين على ومعاوية . ثم لانعدم ، مع هذا ، أن نسمع عن صلح بينهما ، تسير به أخبار وتقتلى صحائف ، يحاول زاعموه

والرجوع له أن يقحموه على السياق الزمني ، ولا منفذ له منه أو فرجة فيه ،
إلى تيار التاريخ ..

وهذا تناقض لا ريب مريب . . .

فلم يفتقر العداء بين العراق والشام يوما واحدا منذ ادعى معاوية لنفسه
ولاية دم عثمان ، وجاهر بالعصيان ، وإن بدا الصراع كأنما استحال إلى نوع
« سلمى » — لو صح هذا التعبير — أثناء هدنة التحكيم . ولم يلبث ، بعد فشل
الحكومة ، أن عاد سيرته الأولى : حربا مشيوبة ساخنة حيناً ، وباردة حيناً ،
يتعمير مفهومنا الحديث . . . وعندما لاح لدعي الصلح — وليس لدعائه ! — أن
يخامروا به أفكار الناس ، كانت الأيام مشحونة بالخلاف ، وكان انتشار
موجات المد الحربى والسياسى بين الفريقين ، خليقا بأن يفرق اتفاق السلام
لو شئ له أن يسبح ضد التيار . . .

وكانت أعنف مظاهر هذه العداوة بارزة فوق سطح الظروف في العام التاسع
والثلاثين ، والعام الأربعين ، كما لم تبرز من قبل منذ صفين . متصلة في إحكام
وتلاحق كحلقات سلسلة ، أو كإبل قافلة ، ذيل كل جمل فيها مربوط بمخظم الذى
يليه . فقد أطبق معاوية بغاراته على العراق وما وراءه من دولة غريمه ، يفرقها
هنا وهناك . بعضها يحتاج الأطراف ، وبعضها يشارف الكوفة ، وبعضها يعبر
الفرات موغلا فيما بين النهرين إلى دجلة ، وبعضها يعصى من الشام منحدرًا من
أقصى المناطق المناخة شمالا للجزيرة العربية عند ساحل بحر الروم ، إلى أبعد
حدودها الجنوبية عند التقاء القلزم بالخليج . . . وعنفت هذه الغارات عنفا بلغ غاية
القسوة والإرهاب قرب نهاية أول العامين لتند عنقها إلى العام اللاحق دمارا ونسكالا
أدنى إلى ما علمنا ، من بعد ، عن وحشية التتار . . . ثم تكاثرت وتلاحمت مزدحمة
في سيرها على خط الزمن ، ومتداخلا عمر بعضها في عمر بعض ، لا تكاد واحدة
تهم بنفص اليدين من مهمتها الدموية حتى تكون أخرى غيرها قد خاضت الدم
وأشاعت الخراب . . .

ومع أن اضطراب الأمور في العراق على طي في تلك الآونة ، كان الدافع الذي أغرى معاوية بشن الغارات ، فلقد كانت الغارات نفسها المحرك الأول لحماية رجال الإمام ، وحافزهم على الجد في رد العدوان ، وإن طالما تشاقلوا ، وتوانوا ، ففانهم ردع المغيرين في أغلب الأحيان . لكن وخز الأشواك يدى ويؤلم ، وتوالى الطرق يوقظ النيام . . . فما لبث أولئك المتوانون أن تابوا إلى الرشد بعد غفلة ، وانتبهوا على واقعهم الدليل بعد تحذل ، فهبوا يحاولون إصلاح ما أفسده عليهم الثبوت . . . فعندما كان سعيد بن قيس الحمداني قد كر راجعا إلى الكوفة ، بعد محاولته تعقب سفيان بن عوف بن المغفل الغامدى في غارته التى شنها على الأنبار ، كان بسر قد بدأ غارته الوحشية على الحجاز واليمن ، حتى لأوشك يخرج هذه يلتحم بمودة تلك ، فيجتمع على أهل العراق ، في وقت واحد من قسوة الغارتين ، ومن مهانة سكوتهم على الضيم ، ما أثار فيهم غضبة لكرامتهم دفعتهم إلى الإصغاء لدعوة الحرب الشاملة التى ظل الإمام طويلا يدعوهم إليها كدواء لا دواء غيره لردع معاوية ، وتثبيت هيبة الحكم ، وإقرار وحدة البلاد . . . وعندما كان جارية بن قدامة السعدى ما زال بعد في طريق أوبته من مطاردة بسر ، كان معقل بن قيس التميمى قد فرغ من المهمة التى نديه لها أمير المؤمنين لحشد الناس من السواد جنودا بجيشه تأهباً لغزو الشام . . . ولو أمدى حينذاك لعل فى أجله أياما معدودات ، لنشبت الحرب لا محالة بين الفريقين ، ولتجرع معاوية من عنف القتال ومر الهزيمة ما كان حريا بأن يتجرعه من قبل فى صفين لولا خدعة المصاحف ، ومهزلة التحكيم . . .

غارة ابن المغفل الغامدى على الأنبار فى سنة تسع وثلاثين ، وغارة ابن أبى أرطاة العامرى على الحجاز واليمن فى سنة أربعين ، كادتتا تلتحمان كحلق سلسلة ، أو كجملى قافلة ذيل أولاهما مربوط بخطم الثانية . . . وحملة سعيد بن قيس لتأديب أولى الغارتين ، وحملة جارية بن قدامة لتأديب الأخرى ، قد التحمتا كذلك التحام هاتيك ، ثم اتصلتا معا فى نسق زمنى واحد يصرع الإمام . . .

هذه حقيقة تاريخية لا مريية فيها ، ثابتة في السير والأسناد . وسلف من الإشارة إليها وإيرادها ما يغنى عن التردد . .

فما أن آب سعيد إلى الكوفة ، بعد أن فاته ابن المغفل ، حتى رأى الإمام يحث الناس على قمع الغارات الأموية ، التي تناثرت على وجه الأرض ، واجتثاث أصلها من الجذر ، بضرب معاوية بن أبي سفيان في عقر داره قضاء لا قضاء غيره على العصيان والعدوان . . ثم رآه يباود الحث والتحريض ، آتافاً في يأس وغضب وضيق ، وآتافاً في أمل ولين وتصبر ، حتى اجتمع رأيه ورأيهم — وغارة بسر لا تزال في الطريق — على بحث معقل بن قيس التميمي للسواد ليحشر الناس جيشاً كثيفاً لمهاجمة الشام . . وما أن أنفذ معقل مهمته ، وعاد بالسكائب المحشودة إلى الكوفة في العدد والسلاح ، حتى سمع بها خبر مصرع أمير المؤمنين ، تعاماً كما سمع به جارية في مكة ، وهو عائد من حملته التأديبية على بسر ، إلى العراق .

تحدثنا السير :

... واستشار على أصحابه في رجل صليب ناصح ، يحشر الناس من السواد . فأشاروا عليه بمقل . فدعاه ووجهه . . « نسا . فلم يقدم حتى أصيب أمير المؤمنين . »

وتحدثنا أيضاً :

... وسار جارية حتى أتى نجران . « وهرب بسر وأصحابه منه . واتبهم حتى بلغ مكة ، فقال : بايعونا . فقالوا : ولمن نبايع ؟ . . قد هلك أمير المؤمنين . »

من هذا الاستطراد يبدو بجلاء أن حلقة العداء الدموي بين الشام والعراق كانت تطبق من كل جانب ، لا على أول العامين الأخيرين وحده من حياة الإمام ، بل على كليهما معا ، إطباقاً لم يدع فيهما ثغرة هدوء ينقذ السلم من خلالها إلى مرافقة الأحداث العنيفة التي صبغت لياليهما وأيامهما بصيغتها الحراء .

ويتبين أيضا أن الحالة النفسية التي كان في إسارها أهل العراق آنذاك يعصى عليهم وهم يكابدونها أن يتقبلوا اتفاق سلام ، أو ينزعوا إلى الحديث عنه أو التفكير فيه وصدورهم عندئذ مفعمة على عدوهم ضغينة ، ونفوسهم مشحونة بدعوة الحرب الشاملة ، وأكفهم مشدودة على الأسنة المشرعات تحفزا للنار والانتقام . .

ويظهر كذلك أن الإمام ، كالعهد به ، ما كان ليرتضى الاتفاق المزعوم في تلك الآونة التي جاءت أخيرا وبعد صبر وعناء بما كان يسمى إليه ويعمل له ، فقد نفى أصحابه عنهم التراخي ، وفاءوا إلى الانصياع لأمره موحدى الكلمة عاقدى العزم على القتال ، هو الذي كان يتوق دائما لتوحيدهم واجتماع رأيهم ولا يرى بديلا عن الحرب لحسم الأمور ولو سار وحده إلى لقاء أعدائه بلا نصير . .
فكأنى ولا سلام ! . .

كأنى ولا احتمال لسلام على أى وجه من الوجوه في ذينك العامين وإن سوت به صحائف ، ولغطت السنة ، وأكثرت فيه الروايات والرواة ! . .

فما من مكان قط لإبرام صلح ، أو احتمال إيرامه . لأن سنة تسع وثلاثين الهجرية كانت غنية ألغش الغنى بالغارات الأموية ، متخمة أشد التخمة بكل مثيرات الحفاظ وموجبات الأحقاد ، لم تتج فيها فرصة لالتقاط نسمة ندية من نسبات الثقة والطمانينة بين الفريقين ينقها الأفق الملتهب بالقطائع والأهوال . ولأن سنة أربعين لم تكن غير امتداد عدواني لسابقتها ، نشر النكال والمذاب فوق دولة على أبعد المسافات ، وراح ينفخ في نار الخصومة المتقدة ويزيدها اشتعالا إلى يوم مصرع الإمام . .

جو قاتم عبوس من البغضاء والعداوة يحرك حية النار ، ويغري بالانتقام للكرامة والدم ، ويحمد أنفاس الثقة في نوايا هذا الفريق أو ذاك ثم يقال بوله السلام المزعوم فيه ! . فمن أين يكون ؟ . وكيف ينشأ ويقوم ؟ . متى يحين له أن يدرج ليحيى على أرض الشوك والدمار والنار والعداء مستحكما ،
(٩ — الإمام على ج ٩)

والجروح اتسع ، والدماء تنهر ، ومعاوية ورجاله من أهل الشام مستمزون بمخايل النصر التي تطالعهم ، يوما وراء يوم ، في كل خطوة بخطوتها ، وعلى كل موقع يطاؤنه وقد أخذت الأمور تسير وفق أهوائهم على الطريق الذي رسموه ؟
لئن كانت خلائق الإمام ، والجو النفسى للعراق ، والوقائع الجارية في تلك الآونة ، والظروف المحيطة بعولد الاتفاق المدعى ، سواء المعاصرة له والسابقة عليه ، قد تضافرت كلها ، كما رأينا ، على إنكار وجود الصلح ، فإن الحوادث اللاحقة بموعده المزعوم تؤيد إنكاره كل التأييد ، وتقطع السبيل على احتمال قيامه ولو كافتراض عارض ، أو كفكرة طارئة إن تكن خطرت ببعض الأخلاق ، واحتوتها أحشاء الزمان حينما لتخلق جنينا يضج بالحركة والانتفاض ، فقد خمدت لا محالة بعد ساعات ولم يكتب لها الظهور إلى النور . . .

فبحسب هذا السلام أن عاش بين السطور ليكمل أسطورة التفوق المعاولي ، ويسكر الناس بخمرة وهمها القرون الطوال . . . ولكنه لم يدب على أرض الواقع ، ولا عاش بين الحوادث السيارة تاريخا حيا يتأثر بها ويؤثر فيها ليؤدي دوره كوسيلة لتغيير الأوضاع القائمة عند حلوله ، وإعادة رسم صورتها كما ينبغي لدوره أن يكون . وليس أيسر ، بيانا لانعدام أثره الفعال ، وتأكيذا لانتفاء وجوده ، من أن ما جرى بعده وأعقبه إنما كان امتدادا طبيعيا — بغير شية من التغيير — لحركة الصراع السياسى والحربى التقليدية بين معاوية والإمام .
فلقد مات على ، فإذا موته لا يحسم النزاع ولا يغير الأوضاع .
ولقد اطمأن معاوية بهذا الموت ، فإذا اطمأنه لا يقعد به عن موالاة المجالدة والصراع . . .

إنما نسمع أن الإمام لا يكاد يستقر في حده حتى تهب الكوفة إلى السلاح لتصل ما انقطع بسبب مصرع أمير المؤمنين ، وتسير جنودها التي حشدتها معقل ابن قيس من السواد بأمر على ، لتمضي في الأهبة إلى الشمال لاجتياح الشام . . . ونسمع أن معاوية قد أخذ حذره ، فحشد حشوده ، وانطلق بها صوب الجنوب للقاء القوة الغازية ، وحماية أرضه أن يقتحمها جيش العراق . . .

ثم لا نسمع ، مع هذا ، أن أحد الفريقين قد لوح للآخر بمهد الأمان أو حرمة الهدنة التي فرضهما عليهما ميثاق السلام المزعوم . . .

وينطلق جيش الغزو العراقي ، أربعين ألفا ، بايعوا عليا قبيل مصرعه على الموت أو النصر ، على طلائعهم قيس بن سعد بن عباد ، وعلى مقدمتهم عبد الله ابن عباس ، وعلى قيادتهم العامة وإمرة المؤمنين الحسن بن علي خلفا لأبيه . . . وينطلق معاوية بن أبي سفيان من مستقره نازلا بجيش الدفاع الشامي إلى بلدة مسكن ، معسكرا بها ، ومتأهبيا للقاء . . .

ذاك ثابت مستيقن بمير خلاف .

فغيم إذن كان الانطلاق ؟

وعن أى دلالة يسفر تشرع الفريقين للقتال . . .

بل قد انطلق الجيشان لأن طبيعة السياق الحداثى ، وظروف الواقع ، والجو النفسى كلها تحتم الانتحار . ولأن التأهب والسير كليهما مرحلة من مراحل الصراع الذى استمر سنوات بين العراق والشام ولا سبيل إلى حصر تياره إلا بحرب شاملة تفض النزاع وتقر الأوضاع . . . وهل كان الجيشان ليتعبثا ، ثم يعضيا على طريق الصدام المسلح لو كان الفريقان قد تمادنا حقا واتفقا على صلح ادعى زاعموه أنهما أبرماه وتواتقا فيه على كف الحرب ، وتأمين الحدود ، وحقق السماء ، وإفاءة السلام ؟ . . .

كلا ولا شبهة . . .

فلا دلالة أبلغ فى نفي إبرام الاتفاق من هذه الدلالة . ولا خرافة أبعد عن التصديق من هذا الصلح وإن أكثرته الروايات وأطنب الرواة . . .

بين حشد الجيش العلوى وتكتيبه تأهباً لغزو الشام وبين مخرجه من الكوفة
زحفاً إلى أرض صفين ، عام فسيح من الأمل والعمل ، ومن الحزن والأحزان ،
ومن الفكر والذكريات . .

الأيام الأوائل من هذه الفترة القصيرة كانت كلها كيوم واحد . . بمنزلة
مندحجة . . بعير معالم تميز أحدها عن الآخر كأنما اختزلت جميعها ، بنورها وظلمتها ،
في نهار وليل . . ليس فيها أمسى وليس فيها حاضر . لا غابر ولا مائل . بل هي
غدٍ علاً الخواطر ويشد الأنفس المتحفزة شوقاً إليه ليعيها معه في إشراقة صباحه
التي لم يلبسها الزمان . . !

والجموع المانحة ذهاباً وجيئة ، في رحاب الحاضرة المراقبة وعلى مشارفها
الدانية والبعيدة ، كانت كلها كرجل واحد . . كأنها حزمة من دم ولحم وعظام ،
ودأب وعرق وحركة ، وصبر وتطلع وتفكير . . ليس فيها كبير ولا صغير .
لا سيد ولا مسود ، ولا كهل ولا يافع . بل عزمة واحدة في رأى واحد لعمل
واحد يبنى الغد المأمول المجهول . .

والخلجات في الصدور خلجة . والأفكار في العقول فكرة . والمشاعر
أنداد ، والظنون أمثال . .

والحياة بعد هذا نشيد . والأعصاب أوتار . والحقائق إيقاع ؟ . .

حق الإمام نقض يومئذ ملله وانخرط مع القوم في الغمار . شارك الناس
ما هم فيه . تنفس الجو الذي تنسموه ، فرأى بنظرهم ، وسمع بسمعهم ، وتحدث
بهم وعنهم كمثل الصوت والصدى والصورة والخيال . . . أما مخايل السقم التي
لازمته قبيل فورة الحمية الراهنة بضعة أيام ، فقد كانت كمارض من جفاء الزيد

ما لبث أن ذاب في اضطرابه الماء بعد أن أخذت معالم الألم والقلق تنقشع عن ملامحه لتخلى مكانا لبسمة رقيقة بدأت تنتشر على محياه . . .

ولم يكن قد استرد كل عافيته . ولكنه استرد ثقته في رجاله ، وراح إيمانه بهم يسرى حرارة وقوة في عروقه كدم جديد . . . ولم يكن تحرر من كل عكوكه ، ولكن بشارت التغيير التي طالعت بها عزائمهم كانت كطلعة الفجر الخليقة بأن تبدد بقية الظلام . . . وعندما التفت أمام عينيهِ النصال والسيوف كالمرايا تطرح عن صقالها أشعة الشمس تحت قدميه وتغسل الأرض بالألاء النور . . . وعندما خفقت البنود والأعلام فوق رؤوس الجنود ترقص نشوانة على وقع ريح الشتاء . . . وعندما مدت الخيل أجيادها إلى الأمام وهي تصهل وتفحص الرمل بحوافرها كأنها تهيب بالفرسان أن يرخوا لها الأعنة للانطلاق . . . إذ ذاك تمثلت دورة الزمن بهذه الدنيا في خاطر الإمام حكمة تقبس من الماضي لتضيء الغد ، وتمتصر التجربة لتسقى العمل ، وتأخذ من الموت لتهب للحياة . . .

إذ ذاك وقف بين الكتائب الحاشدة المتأهبة للقتال ، يحدثها بمظنة الليالي ، وعبرة الأيام ، وسنة الموت التي يستوى فيها جميع الأحياء : أتقياء وأشقياء . وقصة الفناء بالوجود والخلود بالفناء . . .

فيقول :

« عباد الله . . .

لو أن أحدا يجد إلى البقاء سلما ، أو لدفع الموت سبيلا لكان ذلك سليمان ابن داود الذي سخر له ملك الجن والإنس مع النبوة وعظيم الزلفة . . . قلما استوفى طعمته ، واستكمل مدته ، رمته قسى الفناء بنبال الموت . . . »

ويقول :

« أيها الناس . . .

إن لكم في القرون السالفة لعبرة . . .

أين المأثرة . . . أين الفراعنة . . . أين أصحاب مدائن الرس الذين قتلوا
النبين ، وأحيوا سنن الجبارين . . . أين الذين ساروا بالجيوش ، وهزموا
بالألوف ، وعسكروا العساكر ، ومدنوا للمدائن . . . »

ويقول :

« أيها الناس . . . »

إني قد بثت لكم المواعظ التي وعظ بها الأنبياء أممهم ، وأديت إليكم ما أدت
الأوصياء إلى من بعدهم . . .

ألا إنه قد أدبر من الدنيا ما كان مقبلا ، وأقبل ما كان مدبرا ، وأزعم
الترحال عباد الله الأخيار ، وباعوا قليلا من الدنيا لا يبقى بكثير من الآخرة
لا يفنى . . . »

وتحملة الذكرى إلى ماض علمه ، وعلمه الناس ، مشهود لبضعة من الصفوة
آثروا من الحق على حلو الباطل ، وغصص المنية على زخارف الحياة . . . فإذا بقلبه
يضطرب بين جنبيه كجناحي طائر بهم أن يطير . وإذا بصوته يحتاج على خفق
لهاته كتردد الصدى في كهف أجوف . وإذا بعلامح عحياء تلين . . . ويبصره نعيم
حق لتوشك أن تحتجب عنه المرثيات وراء سحابة رقيقة من الضباب . . .

ويقول وقلبه هو الذي يقول :

« أين إخواني الذين ركبوا الطريق ، ومضوا على الحق . . . أين عمار . . .
وأين ابن التيهان . . . وأين ذو الشهادتين . . . وأين نظراؤهم من إخوانهم
الذين تعاقدوا على المنية ، وأبردوا برءوسهم إلى الفجرة . . . »

ثم لا يلبث دمه الذي حبسته ساعة مآقيه أن ينفلت من بين جنبيه ينهر
ويفيض ، حزنا عليهم ، وشوقا إليهم ، وتقديرا لهم . ولآثرهم التي غدت حلية
للسآثر فيطلق عنان شجوه ، ويكي فيطيل البكاء . . .

وتتعلق به الأنظار وهو يحاول أن يتجلد فلا يليه الجلد ، ولا يسمفه جفناه . . .

وتتعلق به الأذهان وفكره مشدود إلى أولئك الأحبة الأعزاء من الأجلة
الراجلين . وتتعلق الأسماع بشفتيه وهما تندان في مهل عن حديثه المخافت الحزين
وهو يسرى على هداة الصمت التي لفت المكان :

« أوه على إخواني . . . الذين قرأوا القرآن فأحكموه ، وتدبروا الفرض
فأقاموه . . . أحيوا السنة . وأماتوا البدعة . . . دعوا إلى الجهاد فأجابوا .
ووثقوا بالقائد فاتبعوه . . . »

فلعله مامن امرئ بين الجمهور المائل إلا قد أميت النبرات الواهية على أوتار
عواده فغلبته عندئذ العبرة ، وأخذته الحسرة ، وطوحت به لوعة الأسى والحنين
إلى ذلك الماضي القريب للشهود ، تطوف بصوربه ، وتسترجع ذكره . . .

.....
صورة عمار .

عمار بن ياسر مولى بني مخزوم . . .
الذي بادر إلى الاستجابة لداعي السماء ، والإسلام بعد كلمة لا تجسر أن
تنطق بها الأفواه . . .
الذي عذب في الله أفظع العذاب وأقساه — والمسلمون بضعة مستضعفة ،
والكفر جبروت طاغ ، ودين الله خيط رفيع لا يكاد ينفذ من بين أطباق الظلمة
الروحية — فتفتق بطنه ، وتكسر أضلعه ، ويشقى به نكال أعداء الله
والرسول على الهلاك وهو صابر على الأذى ، مستمسك بالإيمان . . .

الذي هاجر إلى الحبشة فرارا بعقيدته ، وأبلى في بدر دفاعا عنها ، ووقف
يوم البجامة وهو جريح يقاتل أشد القتال غير مبال تفوق العدو وتكالبه ، ويهيب
بأصحابه المجاهدين ألا تأخذم الرهبة ، أو تردم وقدة القتال عن الاقتحام :

« يا معشر المسلمين . . . أمن اللجنة تفرون ؟ هلموا إلى . . . أنا عمار . . . »
.. الذي ثبت مع الحق ، وحارب عليه كأعنف ما تكون الحرب ، وأصلب
ما يكون الثبات يوم صفين . . . بفروميته بـ فروسية الفرسان الشبان . . . وبجاسته

فاق حماسة الفتية البواسل وهو عندئذ شيخ واهن نيفت به أعوام عمره على التسمين . .

. . الذى كان فى الجهاد يستهين بالحياة ، ويطلب الموت . وشعاره فى الوغى دائماً ، دائماً : « الجنة تحت الأسنة » . .

. . الذى قال فيه رسول الله سيد المؤمنين ، وقمة الإيمان : « ملئ إيماناً إلى أخمص قدميه » . . وجعله قريباً للحق لا يفرقن ، حتى ذكر فى حديث مرفوع أنه وصفه بقوله : « لن يفارق الحق حتى يموت » . . أو . . « يزول مع الحق حيث زال » . .

...

وصورة أبى الهيثم .

مالك بن مالك بن التيهان .

. . الرائد من رواد الإيمان القلائل الأول ، الذين غرسوا بذرة الإسلام فى المدينة ومحمد ما زال بين قومه بركة فى نطاق من الويل والعذاب والتكذيب .
. . النقيب من بين النقباء الاثنى عشر ليلة العقبة ، الذين بايعوا رسول الله أن يكونوا حوله كالسياج ، ينعونه مما ينعون منه نساءهم وأولادهم ، ويكونوا له أهله وجنده ، وتلاميذته وحوارييه . .

. . الفدائى من الزمرة الفدائية الأولى من أصحاب محمد الأوفياء لعهده وذكرائه ، الذين اعتنقوا بعد موته حق على ، ودعوا إليه ، وأعلنوا تأييده والدفاع عنه يوم تجمعوا فى فضاء بنى بياضة عسى أن يعيدوا تراث رسولهم إلى بيته بعد أن خرج إلى تيم ببيعة الصديق . .

...

وصورة ذى الشهادتين .

خزيمة بن ثابت الأنصارى . .

. . أحد أصحاب بدر التى أعزت المسلمين ونشرت نور الإسلام . .

.. صاحب راية بنى خطمة من الأوس يوم الفتح يوم قهرت مكة ، وأذل الشرك ، وردت قدسية البيت الحرام خالصة لله .

.. الرجل الذى جعل له رسول الله شهادة ، من دون الناس ، كشهادة رجلين من المسلمين ، وفاقا لثقتهم الراسخة فى صدق رسوله حين اختلف محمد مع سواء بن قيس على فرس اشتراها منه ثم جعد ابن قيس الشراء .. فقد شهد خزاعة على البائع وأيد البائع ، فلما أن سأله رسول الله :

« ما حملك على الشهادة ولم تكن حاضرا معنا ؟ .. »

بادر بلا تردد يقول بوحى سجيته النقية :

« صدقتك بما جئت به ، وعلمت أنك لا تقول إلا حقا . . »

وعندئذ كانت القولة النبوية التى رفعته ، فى مجال الشهادة ، على سواء :

« من شهد له خزاعة ، أو عليه ، فهو حسيبه » ..

.. زمرة من الصفوة المختارة من صحابة الرسول ، وأولياء الإمام ، ورواد الإسلام ، قد تلاحقت عليهم الحنوف ، وتخطفتهم المنايا وهم على الحق ثابتون ، لم تزل لهم قدم ، ولم تنهن عزيمته ، لأنهم كانوا على موعد مع الله يستعجلونه أن يحين ! ولأنهم كانوا على وصية صاحبهم ، أبى الحسين ، التى ألقى بها إلى ذوى السمع والبصر من رجاله ، يوم قال :

« .. . بادروا المعاد . وسابقوا الآجال .. . فأنتم بنو سبيل ، على سبيل

من دار ليست بداركم ، وقد أودنتم منها بالارتحال .. . »

وفرغ على من خطابه بعد قليل ، ثم التفت إلى الحشد ، ينادى فيهم بأعلى

صوته :

« الجهاد الجهاد عباد الله ! . . الجهاد الجهاد ! . . ألا وإني معسكر فى يومى

هذا . فمن أراد الروح إلى الله فليخرج .. . »

وهل كان منهم أحد يتخلف عن هذه الدعوة الكريمة ؟ ..

كلا واقه . . .

وترددت في الفضاء أصداء مدوية بصوت الجموع ، وهي تهدر بالدعاء :

« الجهاد الجهاد . . . »

فلقد انمقدت المزائم . وخلصت النيات . واستبان السبيل . . فهذه الجنود
المحشورة من السواد ، جاءت تحمل رؤوسها على أكفها مبرا رخيصا لرضوان
الله . . وهل هي إلا رحلة قصيرة على الطريق الذي يرويه الدم ، وتظله الأسياف ،
ليبلغوا ، كما علمهم عمار ، غايتهم للارتجاة ، يوم قال :

« الجنة تحت ظلال الأسنة » . . .

في الشمال .. في المغاني الحضر بأرض الشام .. في مجاني دمشق الفردوسية
التي خلفها الروم ، كان معاوية والذين معه من الفئة الباغية — التي قتلت عمار ،
واحتزت رأسه ، وأهرقت دماء خيرة إخوانه البدرين من صفوة صحابة الرسول —
قد أعدوا عدتهم ، وكتبوا كفائهم ، وهموا بالسير إلى رحلة بغى ثانية ، زاحفين
بالحشود الزاخرة صعودا إلى الأرض الموعودة للاقاة على بن أبي طالب ، مرة
أخرى على ثرى صفين ..

صفين كبرى جديدة رأى القوم أن يشدوا إليها الرواحل ليثأروا لأسمهم
الراحل الدليل . ليستردوا الشرف المسلوب . ليضربوا الضربة التي يحسبونها
كفيلة بقلب الميزان .. على نفس الموقع الذي شهد خزيهم ، وأوشك أن يرى
دحرهم وعاهلهم عندئذ قدم على الأرض وقدم في ركاب قوسه بهم بالفرار منذ
ثلاثة أعوام ، أرادوا النزول ..

أمثلا بعثل تقودهم حمية الانتقام إلى نفس البقعة التي لعبت بهم عليها الهزيمة ؟
أم تيمنا بالنجاة التي أهدتها إليهم الصدفة ، فوق ترابها من قبل على يد ابن العاص ؟
أم اعتزازا بعلهم كل موطن فيها ، وكل حصاة على تراها ، علم تجربة يقبهم
المفاجآت التي قد تخططهم لو أن عدوهم استدرجهم إلى القتال على موقع غيرها
لم يطأوه ؟ .

أيما كانت نظرتهم ، وكانت نواياهم ، فقد تهيأوا للانطلاق إلى صفين ..
وكانوا على ثقة . أو كانوا على طمأنينة وأمل توقعا للقريب المنظور ..

بغير وفي نشطوا إلى العمل .. النفوس والأرض الأموية كلها تضج بالرجاء
والانفعال والحركة .. السكان يهتز بالوقع والصليل . الجنود تلتطم . السلاح يرهف
ليتر . المطايا تسوم لترتجل . الضغائن تغمر لشور . الحماسة تشد لتشتعل .. ومن

وراء أولئك أحلام اليقظة عريضة كالأفق ، لامعة كالأشعة ، راقصة كالجنب
المنوَّب على سطح كأس ملأها خمر لذة تهيج شهية نثران . . .

ولم تكن المسافة بعيدة . . دون هدفهم بنان تشير . وقدم تتحرك . . ومثل
أصبح من الطريق لا تطول على خوف أو حافز ، ولا تشق على فارس أو راجل .
فليس الذي يشغلهم هو السير . ولا نأى الغاية . ولا القوة التي يعملون أنها لا بد
مقبلة من الجنوب على ضفة الفرات للانعام . . تلك كلها أمور مقدورة مرقوبة .
معلومة محسوبة . لم يغب أيها عن البال . . ولكن الذي يشغلهم الآن هو نفاذ
العصر . فراغ جبينهم من القدرة على التمثل . البرم بالا نظار . . ولو خلى بينهم
وبين ما يريدون لانفجرت رغبتهم المضطربة في صدورهم على الفور قتالا ناجزا
يحسم الأمر ، ويهيج النصر ، ويجمع الأمة على امتداد الديار واختلاف العناصر
مع الشام . .

لا طاقة لهم بالثريت : هذا الذي يجمد الدم . وكيف يطيقونه والقطاف دان
والثمرة شبيهة نسيل اللعاب . فالطروف مهابة . والدنيا معهم . وساعة الفصل
التي أعدوا لها شهورا طويلة من الجهد والكفاح والحيلة ، قد اقبلت أخيرا عليهم
بكل ما هفوا إليه وانتظروه . .

ليس أيسر الآن من وقعة على هذه الأرض يجابهون فيها عدوا أحق ظهره
الشاقل ، وأوهى عزمه التواكل تحت أمير ولاء صحبه له بلاء ، وطاعتهم عصيان .
إن الأمل الآن أمامهم مفتوح ، والظفر مستباح ، وتلك القوات المقبلة عليهم من
العراق بعد قليل أدنى أن تكون ، فيما يقدررون ، كابل النمر قد تراحت على
سكبين الجزار . .

ولا مبالغة من ناحيتهم في هذا التقدير . . فابن أبي طالب هو الذي وصف
رجاله بهذا الوصف بعد أن خاب فيهم رجاؤه وما كان إلا ليخيب . . ليسوا —
برأى تجربته ومماناته — بجذود وغى ، ولكنهم حشود غوغائية كالقطعان . .
الآدمية للدركة الأبية في جلودهم تخلت عن مكانها للبهيمية القريرة الذلول .

والعقول المستنيرة الواعية ذابت في الغرائز المظلمة العمياء . فها هم رجال كالرجال يجمعهم الخطر ، وتحمسهم الأنفة . ويحذرم توقي الاستذلال إلى الاستبسال دفاعا عن الكرامة ، وحماية للمصير ، وذودا عن الدمار .. تطويهم الحن ، وينشرهم الخوف ، وتلثمهم النزوات الدنيا ، كأنهم ماشية . كأنهم سوائم وأنعام .. كأنهم — بنص حروفه — « أشباه إبل غاب عنها رعاتها ، كلما جمعت من جانب تفرقت من آخر » كما يفعل قطيع مذعور ضال ! .

وما هم أيضا بأصحاب قتال .. لاهمة تدفعهم إلى انتضاء سيف . لا غاية ، مهما غلت ، تحثهم على بذل قطرة واحدة من دم . لا أرب لهم في تنضير شجرة الحياة الإنسانية الكريمة التي لا تورق ولا تثمر إلا بعرق الأبوة ودماء الأحرار .. إنهم دائما ، بن خوف الموت في موت ، ومن الحرص على السلام في استسلام ومن الكثرة الحقيمة الدالية كأنهم هباء بلا أثر ، أهون من قلة ، وأقل من نفر ، لا يراهم صاحبهم سوى دراهم خسيصة تغني عن ثقلها ووفرتها بضعة دنانير ، حتى لقد قال لهم : « لوددت أن معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم ، فأخذني عشرة منكم ، وأعطاني رجلا منهم » .. لأن ما يعول عليه هو القيمة لا الكمية . السكيف لا العدد . النوع لا المقدار ..

لئن خطر عندئذ لأهل الشام أن سيرهم إلى صفين أشبه برحلة للترفيه منه إلى زحف لقتال ، وأن النصر لا بحالة معقود لهم ، وطوع أيديهم ، فذاك ليس بغلالة خيال ، لأنه النهاية الطبيعية المحتومة لهذا الصراع كما تدلهم عليها أحاديث طي ، وأعمال رجاله ، ويؤدي إليها تسلسل الحوادث وشواهد الحال .. ومن الخطأ أن يظن أنهم أسرفوا في التفاؤل ذاهبين مع الاطمئنان إلى أبعد مدى ترسمه الأوهام ما دام فيصل الحكم في الأمور هو القياس القائم على نتائج التجربة ، المتعمق دلالة التصرفات ، المتتبع مسار الظروف الممتدة والوقائع الماثلة بالنظرة المحيطة الواعية ، والاستقراء المنطقي المنسق ، والرأي الخالص السليم .

ومع ما قد جد ، في الجانب الآخر ، عند أداني الفراتين ، من تغير في الانفعال ،

وتبدل في السلوك ، فقد كان معاوية وأصحابه أولى بأن يروا في هذه الصورة الجديدة للمراق مجرد ألوان سطحية تناولت القشرة ولم تتناول الجوهر . لكنّها سحابة عارضة مآلها الإقلاع . . . لكنّها زبد وجفاء . . . لكنّها انتباهة طارئة من غفوة لا يلبث أن يعتورها الثاؤب ثم يغزوها استرخاء النوم . بل هي كصحوة المحتضر لحظة التزع والموت عادة صحوة توشك بعنفوانها أن تتعدها ، ولحظة التزع غالبا ما تلوح كأنها قمة الحياة .

وحق لم هذا التفكير . . فكم طالما هبت الكوفة على ضربات الشام التي كانت تنصب على رأسها كالطارق ونفضت عن نفسها آثار التخاذل والاستكانة . كم طالما غضبت لشرفها للمهين . كم طالما زارت وملاّت الآفاق بالزئير والهدير ثم لم يكن قصارى ما تسفر عنه ضجتها العالية ، في أكثر الأحيان ، إلا ما يشبه المواء . . .

ولقد عاش معاوية وقومه الخلاف الذي كان دائما ينشب بين علي وأصحابه ، وبينهم بعضهم وبعض طول تلك السنوات . . طاشوه معيشة تحقق لا تصور ، وعيان لا خيال . . في إطار الأخبار التي كانت تتوالى عليهم من الكوفة على السنة الرواة ، عاشوه . في كتب العيون والجواسيس . في حركة الأحداث .

فلم يكن يخفى عليهم هناك شيء يقال . . ولا فعل يفعل . ولا نية تعقد على أمر لأن جمهرة شيعة الإمام آنذاك كانوا أكلت الناس بالمناقشة والمجادلة ، وبالمراجعة والحوار ، لا يخفى لهم سر ، ولا يحكمهم حذر . . فما تكاد تعرض لهم مسألة ، جلت أو هانت ، تبيح العلانية ، أو تحتم الإسرار ، إلا قلبوها — جمهرة — على أوجه الرأي ، وعايروها بميزان المنطق ، وإن تشعبت أمامهم بها سبل التقدير والتبرير بمقدار اختلاف مراعى النظرات وتعدد صور المآذير بين أصحاب الآراء في الدقائق والتفصيلات ، تبعا لتعدد مذاهب التفكير ، وميول الأمزجة ، واقتدار العقول . وإن خرجت بهم أيضا المسائل للعروضة بهذا النقاش اللبليل المريض من حدود الحرس والثوقي ، التي تفرضها ضرورات

الإخفاء والسكران ، إلى رحابة المهاترة واللجاج والسكرابة التي تنفض دائماً إلى الإفشاء والإعلان .

وقد عاش معاوية أيضاً وقومه الوقائع الجارية ، تافهة وخطيرة ، التي ملأت الأعوام الثلاثة الأخيرة ، معيشة مكابدة ومعاناة . فشاركوا في صنع الأحداث . أو وضعوا لها خططا أو خطة ترسم الاتجاه والمسار . أو اختلقوا منها ما شاء لهم الاختلاق وشاءته سياستهم النافرة أبداً من التزام قانون الاخلاق . القاعة دائماً على ابتداع الأسباب وادعاء المقدمات إيهاما بحتمية النتائج والمغيبات . للمستندة ، من قبل ومن بعد ، إلى تحليل الدرائع ، وتبرير الوسائل للوصول إلى غاياتهم ، المعلنة والمستترة ، من أقصر طريق أو أنكر طريق ١ .

بل قد قطعوا فعلا الشقة المرتقبة ، وبلغوا الآن — أو بلغ صاحبهم — نهاية الطريق .

ففي يوم قاتظ الحر من أيام الصيف ، قبل بضعة أشهر من سيرهم هذا إلى الميدان ، رأى العاهل الأموي أن الأوان قد آن ليسل أحدث أسلحة دهائه ويقتحم به مجال السلطة الشرعية على غريعه اقتحام ند على ند ، وقرين على قرين إن لم يكن اقتحام منافس خطير قادر على منافس مفضول مغلول . فلما أن أجال رأيه بمخاطره ، واستنفض عزمه ، حق وضع الحلقة الأخيرة في سلسلة التثوية . خرج على الدنيا بقناع جديد . طالع الناس بأعجب الأعيه التي حفظتها لنا صفحات التاريخ . نصب نفسه ، تحديا وافتثاتا ، أميراً المؤمنين ١ .

تم هذا التنصيب في صفر من سنة أربعين .

وحدث في بيت المقدس ، مدينة القبلة القديمة ، ومهبط الأنبياء ، وأرض الإسراء ، كأنما لينعله صفة القداسة التي أعزت المكان .

وكان هو النتيجة الطبيعية الخليفة بأن تتقبلها ، بغير غراية ولا استهجان ، عقول جمهور كبير من المسلمين سبق إلى علمهم ما أشاعه العاهل قبيل أشهر قليلات ، من وقوع صلح مزعوم بينه وبين غريعه ، اتفاقاً فيه على إعادة السلام

إلى الأمة ، واقتسام الدولة بينهما شطرين ، لكل شطر منهما كيانه السياسى الخاص ، وسيادته المكملة ، ووحدته الإقليمية ، وحدوده الآمنة ، وأميره الذى يسوس الأمور ..

وامتلاً ابن أبى سفيان، لاربيب ، غفرا وزهوا وهو يشهد الناس يومئذ بالشام يصفقون على يده بالبيعة ، ويعاهدونه الولاء والطاعة ، ويسلكونه — بلقبه الجديد — فى خيط واحد مع خلفاء رسول الله وقادة الدولة الأوائل : أبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ..

وما له لا يزهر وقد حاز أخيراً أربه، وارتقى قمة أطماء؟ . فتقديره أصاب . وتديره أئمر . وادعائه الحق فى خلافة المسلمين — بحكم خرافة تفوقه ودهائه — قد توفرت له الآن صفة « الشرعية » التى كان افتقاره إليها يباعد ، إلى حد كبير ، بينه وبين عواطف الجماهير ..

غدا الآن أميراً « ثانياً » للمؤمنين ..

وجمع بحركته المسرحية ، هذه هبة الشكل والهيبة إلى قوة الفعل والمضمون ..

وأصبح وخصمه على استواء ..

واكتسب شرعية الولاء ..

وليس ثمة من تلوم أحسه ، فيما يلوح ، من هذه اللعبة المازلة ، الساطية على الحق ، العادية على الواقع ، المجافية لطبيعة الأوضاع كل مجافاة ، المخالفة لقواعد الاستخلاف أبين اختلاف ..

ليس ثمة من تلوم أحسه معاوية ، وهو يظهر مشاركته عليا فى الحكم ، إلا أن يكون مسيلة باليمامة قد استشعر التلوم وهو يدعى النبوة فى حياة الرسول ، ثم يعلن على الناس مشاركته فى الرسالة السماوية ، ثم تبلغ به صفاقة وضرارة

اقتراضه على الله والحق أن يكتب كتابا إلى محمد يعلن فيه اقتسامه وإياه عالم تلك الأيام بينهما على استواء كإقتسام معاوية الآن الدولة الإسلامية مع الإمام !

أنذاك كتب النبي الكذاب :

« من مسيلة رسول الله إلى محمد رسول الله .

سلام عليك .

فإني قد أشركت في الأمر معك . وإن لنا نصف الأرض ، ولقريش نصف الأرض ، ولكن قریشا قوم لا يعلمون . »

فكان الجواب الذي تلقاه ، وما من جواب أخلق بأن يتلقاه في مثل هذا المقام إلاه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى مسيلة الكذاب .

سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين . »

فكأنما الله شاء أن يظهر في حياة على دعى كما ظهر في حياة الرسول أدعياء !

وكيفما كان الأمر ، فبحسب معاوية أن أحكم خدعه ، ولعب لعبته ، وحقق مشتهاه . أما أن الأمة الإسلامية كلها ، بكافة شعوبها ، وإجماع أمصارها إلا الشام . . . وأما أن البيعة تعاقد بين على وبين المسلمين بعهد الله ، لا يحلها إلا صاحبها أو الذين بايعوه . . . وأما أن تحلل طائفة منها شاركت فيها هو المروق . . . وأما أن حق ابن أبي سفيان في نقضها متقوض ، إذ هو لم يدخلها ، وبقاؤه خارجها يعزله عن جماعة أهل الإسلام ، ويدمغه من البدء بالتمرد على النظام العام . . . أما هذا كله وأمثاله من أسانيد تفسيق موقفه ، وبطلان بيعته ، فليس له عنده أى اعتبار ! .
على أن ضرورات الإنصاف تنضى هنا بأن يقال إن الرجل وأصحابه ، حين (١٠ - الإمام على ج ٩)

انطلاقهم ذاك من مواطنهم إلى صفين الثانية تأهباً للقاء ، كانوا أكثر من عدوهم
إلماً بمحقائق الأمور في إقليمهم ، وفي غيره من الأقاليم سواء بسواء ، وأقرب
منهم إلى تبين ما في الصورة العامة للظروف والأوضاع من الظلال والأضواء ،
ومن الخفايا والمرييات . كما كان هو أيضاً — وبلا نزاع — أوثق بالذين معه ،
وبما في صدورهم وأخلاقهم وأيديهم ، من غريبه أمير المؤمنين بمن اتبعوه ، وبما
أعدوه ، وبما أسروه أو اعتزموه .

تلك حقيقة لا تغيب عن بال .

ومع ذلك ولا ينبغي أن يفتى هذا -- بحال من الأحوال ، إلا من قبيل
الافتراض المجرد — أن حزب الشام كانوا أدنى من حزب العراق إلى إحراز
النصر ، أو أجدر به منهم في الممركة المتظرة لو قد كتب للحرب أن تندلع ،
خلال الأيام القليلة المقبلة ، على أرض الوقعة ، وأتبع للسهم أن تترامى ،
ولـيـوف المشروعات أن تصول وتـجـول . بل هو يعني أنهم قد أحاطوا فاستكملوا
الإحاطة ، وقدروا فأحسنوا التقدير ، ودبروا فأجادوا التدبير قبل السير إلى
الصراع المرتقب ، وعلى النحو الذي يجب أن يكون . أما نتيجة المعركة الحربية
القادمة كالحال في غيرها من الممارك — فإنها : إلى جوار عوامل الإحاطة والتقدير
والتدبير ، رهينة بخنكة القائد ، ودربة الجند ، وسرعة الحركة ، ومبادهة العدو
بما ليس في حسابه ، واليقظة للرهفة لاقتناص السوانح الطارئة على غير توقع ،
مقتربة بالقدرة الفائقة على المبادرة الحاطفة إلى إعادة التشكيل ، وتغيير المواقع ،
وتعديل التوقيت ، وبالوعى الكامل لمقتضيات الالتفاف والمباغنة والانسحاب ،
وفاقا — من ناحية — لما لعله قد يجد ، بدواعي المناورة والدفاع والهجوم ، على
سير القتال من مد وجزر ، وضغط وتجمع ، وشراسة وهوادة . وعلى صفوف
المقاتلة ، من ناحية أخرى ، وحشودهم الممتدة في مختلف أرجاء الميدان من تداخل
وكثافة ، واضطراب وفرار ، وتركز وانتشار . فتلك كلها ، وغيرها من
أمثالها ، ميزات ترجع إلى عبقرية القيادة ، وتنبع من رهافة الحاسة القتالية ،
وتتطلب شدة التمرس ، بالأساليب الحربية .. ولا يكاد معاوية وأساطين قواده من

الناهين ، وإن ذاع شأنهم كأصحاب وغى ، يبلغون منها بعض مبلغ الإمام .
وترانا نحسب ، مع وجود هذه الاحتمالات المؤثرة في صياغة النصر والهزيمة ،
أن الماهل الأموى وأعوانه كانوا أحرى بأن يستشعروا الطمأنينة إبان السير
إلى اللقاء الموعود ، استنادا إلى تفوقهم النسبي في مجال المحركات المادية المتاحة ،
وفي إطار الظروف السياسية المواتية ، وتحت أفق الجو النفسى الهادئ الذى
يميشون فيه . .

فهم من الوضع القائم ، يقفون بقدم ثابتة على أرض صلبة لا تنهار . .
نظامهم بالشام متسق . وكيانهم مستقر . ورأيهم واحد . وعزمهم مشدود .
ورعاياهم فى كل بقعة من إقليمهم بديان مرصوص . الماهل والجيش والشعب معا
فى رباط . وخطوط نقل المدة والمبرة إلى جنودهم قصيرة . . والجهة الداخلية ،
بتعبيرنا المعاصر ، مدد لا ينفد معينه لتزويد كتائبهم على خط القتال بالقوة والتأييد ،
وجدار واحد لا ثغرة فيه يحمى ظهورها أن تتسرب إليها عوامل القلق
والتخاذل والانتقاض .

أما الآخرون فيذور الفتنة كامنة فيهم ، كأنها الجمرات تحت الرماد ، وإن بدوا
الآن على تماطف واتفاق . . جمعهم شرادم من النحل . ورأيهم أشتات من الأفكار .
منهم القالون لمى ، والبلغضون له ، وقد دفعهم إلى صفوف أنصاره الرياء . . ومنهم
الموالون له طاعة عن ثقة فيه وإيعان بقدرته وحكمته ، والملتزمون جانبيه عن
متابعة له انسياقا مع تيار رأى الغالب فى العراق دون اقتناع خشية من جبهة
الأشياء . ومنهم المولعون به إكبارا لمقامه ، والغالون فى حبه إلى التقديس . .
ومن وراء أولئك وهؤلاء ، خلف مقاتلته المتهيشة للزحف معه إلى اللقاء ، زمر
شقي من الخارجة مندسة هنا وهناك بين الشعب إن يكن فرق بينها تضارب الآراء
فقد جمعها على حربه العداء . وطوائف عدة من العثمانية ، كأنها الخروق فى ثوب
الأمة ، تعج بها البصرة واليمن والحجاز . وعناصر كثيرة لا يحصرها الإحصاء من
الشموبية الغالية فى بغض العرب ، الموتورة من الإسلام ، الحاملة بعزها القديم قد

تناثرت عند أطراف دولته ، وأحاطت بحدودها القاصية كالإطار .. وكلهم جموع زاهرة ماكرة ، غير مأمونة الهوى والسلوك ، يتربصون به وبحكمه سانحة للإفلات من الولاء والطاعة ، وللمسارعة إلى الثورة والانتكاس .

وكذلك ينطلق معاوية ورجاله إلى ساحة المعركة التي تجنبها الأيام ، فإذا هو راضى النفس ، مرفوع الهمة ، ثابت الخطأ ، وطيد اليقين .. لا يشغله شاغل عن توقع النصر . لا شيء يمنع انطلاقه . لا عقبة تعترض طريقه . لا قلق يفتاب جنوده . لا خطر يهدد مؤخرته . لا شيمة في الأفق تحجب عنه إشراقه غده المأمول .

أخيراً أينعت أحلامه . الشمس في يمينه والقمر في يساره . قدره معه جنده معه شعبه معه . الدنيا معه .. وعندما يواجهه غرباء بعد أيام على الثرى المتمطش للدماء والأشلاء ، فلن يواجهه عندئذ عاملاً من عماله تمرد على سلطة الدولة وخرج على واجب الولاء .. ولا طالب ثأر — يدعو بحق وشيعة القربى ، وولاية الدم الحرام المسفوك — الاقتصاص من قتلة عثمان .. ولا متطلعا للإبقاء على وضعه القديم الموروث منذ عهد ابن الخطاب ، واليا على الشام كغيره . من ولاية الأمصار وحكام الأقاليم .. . واسكنه سيواجه هذه المرة الند الصلب ، والشبيه المجلى ، والقرين الذى لا يطاوله فى القوة الحربية والنفوذ السياسى وولاء الرعية قرين .

سيواجه الخصم العنيد الذى اختاره قومه ، بإجماع الرأى فى نصف الدولة ، خلفاً لذلك الذى خلعه التحكيم ، وانقسمت الأمة عليه ، وتفرقت شيعته عن هدفه ، واضطربت بأرضه الفتن والخلافات .. .

سيواجه الآن « معاوية بن أبى سفيان أمير المؤمنين » .. .

إلى مرتقى أحلام نومه ويحفظه حمله الزمان . . إلى أبعد من مرعى ظنه . .
إلى أرفع من قمة وهمه . . إلى أروع من بدع خياله . . .

خلق في الجو بغير جناح . .

تسبح السحاب . وأمسك النجم . وأطل من سقف سمائه على الدنيا تحته ،
فإذا هي كلها ، بخيرها وشرها ، بصدقها وزيفها ، بجبروتها وضعفها في محيط
نظراته . .

كتهديره تسير الأمور . . بإشارته يأتى الناس . وعلى مقتضى مشيئته الصلبة
تخلق الأهواء ، وتتحرك العزائم ، وتتواتر الوقائع السيارة في العالم الإسلامى :
غرسا وثمارا ، وبدءا ونتيجة كما تتحدر مياه السيول من أعالي الجبال نحو السفوح ،
هادرة ثائرة ، لتنتشر فوق صفحة السهل المنبسط ، وتصطرع وتتدافع ، حتى تشق
لنفسها في أرضه اللينة قنوات وأخاديد ، لا تلبث أن تلتئم ، بعد حين ، في مجرى
واحد هو نهر إرادته الفردية الذى تسبح أطباعه على تياره الدافق إلى
هدفه البعيد . .

أو ليس أمير المؤمنين الجديد ؟ .

بلى !

وهذه صورة نفسية له ، أولى بها أن تطابق شعوره ، وترسم آماله ، وتنقل
وضعه المنتظر من مرحلة الادعاء إلى مرحلة الحقيقة النابضة بالحياة .

ولا عليه أن تكون .

ولا عليه أيضا أن يهضمها « ويتمثلها » لتجرى في عروقه مع الدم ، وتعيش
في خلده مع الأفكار ، معيشة يقين لا معيشة ظنون . .

فالدولة قبضته بعد قليل . . جناحها الغربي مطوى يمينه . وجناحها الشرقي
عند أطراف بناته ولا يتقصه لامتلاكه إلا أن يقبض أصابعه . .
إنه اليوم ، وهو بهم بأن يخطو أولى خطواته نحو مشارف صفين ، واثق أن
الموقف قد تغير عما كانت عليه حاله من وضع سنين . .
أصبح صاحب اليد العليا في معترك الأحداث
لعبت حيله وأخاديعه ذلك الدور الذي أرادها على أدائه ببراعة وإتقان . .
بلغ بدعواه شأو الإيهام ، عبثا بالمواطن ، والتواء بالأفهام ، وتضليلا
للرأى العام . .

كان هذا سبيله الذي اختطه ، طوال سنوات النعار الذي انتابه نهها بالسلطان ،
فإذا هو أخيرا — بفعل أساليب الخاتلة والتدليس — في أعين الكثيرين ،
الكفء لولاية الأمر ، الخلق دون سواء بالاستخلاف ، إذا ما وزن صلاحه
لسياسة شعوب الإسلام باقتداره على ضبط الأمن ، وإقرار النظام ، وتثبيت الحكم
في « دويلة » الشام . . وإذا ما قيست جدارته بمنصب الخلافة بمظاهر تفوقه على
غريمه المتمثلة في إحكام قبضته على أزمة الأمور . وفي سيطرة على توجيه
الأحداث وفي كيلة الضربات المتوالية لأعدائه في عرينهم غارات رهيبه مدمرة
مق شاء ، وكيف شاء ، وأين شاء وفي احتوائه رعاياه وأنصاره بالطاعة والولاء ،
واجتذابه مناوئيه ومخالفيه بالمصانعة والاستهواء . .

وكيفما كان نسكر الوسيلة وعوج الطريق ، فقد سار شوطه غير متلوم ،
ودانى هدفه وهدف آبائه وذويه الأمويين المتطاعين ، شهوة وطعما ، على مدى
أجيال ، إلى ابتزاز شرف السيادة الاجتماعية والسياسية بين قومهم من منافسيهم
التقليديين : الهاشمين . . وإذا كان محمد بن عبد الله قد اخنصه الله بالرسالة ،
قد أعجزهم منافسة . . وقطع عليهم — لفترة غير قصيرة — طريق الأمل في
تحقيق حلم العمر . . وآلى آله وخاصة بيته الأدين الذين عزروه ونصروه ، في
أحلك أيام كفاحه ، شرفا دينيا ودنيويا لا يطول شأوه من البشر أحد : أسوى

أوغير أموى ، فإن معاوية الآن يوشك أن يكون وحده وريث هذا التراث النبوى ، وصاحب الدنيا والدين فى الدولة المريضة الجديدة ، التى تضم قريشا : هاشميين وأمويين . . . وتضم العرب : عدنانيين وقحطانيين وقضاعيين . . . وتضم رعايا الإسلام ومعتنقيه : شعوبا شتى ، وأجناسا عدة ، انتشر أبناؤها على صفحة عالم ذلك الزمان شمالا وجنوبا من مواطن الصقالبة إلى أرض النوبة وغربا وشرقا من ديار البربر فى إفريقية إلى بلاد الغول فى الصين .

إن هى إذن إلا جولة على ثرى الواقعة القابلة يملك بعدها معاوية الإمرة ، ويملك الأمر ، بالشمال واليمين . فالنصر مهيأ . والطريق مفتوح . والأعنة بين أصابعه . والحوادث له مطايا دلول .

فما للناس لا يكادون يفقهون أنه ليس بالكثرة وحدها تكون القوة . . . ليس بالمال وحده يكون الغنى . . . ليس بالسيف وحده يكون الانتصار . . . لو أنهم تبينوا حقائق الحياة ، لأدركوا أن هذه كلها قبض الريح . زخرف وزيف . قشور وطلاء . عروض ومظاهر لا تغنى شيئا عن الأبواب والجواهر ، كأنها الغيمة تستر ساعده ضوء الشمس ولكنها لا تمحوه . . . فإنما القوة القادرة ، قبل أن تكون وفرة فى النفر والنصر ، طاقة روحية تفجرها الغيرة على الحق . وإنما الغنى الباذخ ، قبل أن يكون قنية من الذهب والفضة ، إحساس القلب بالامتلاء بما عند الخالق لا بما عند الخلق . وإنما الانتصار الحاسم ، قبل أن يكون إراقة للدم وبطشا بالخصم ، قهر للنفس أن تحيد — طمعا وشهوة — عن طريق النور .

وإن كان معاوية ، وهو فى أوج اعتداده بما خلص إليه ، ظن أنه شارف ، بجبروت الكثرة والثراء والسلاح ، حد الغلبة التى تضمن له اجتيازه ذلك «الحق» الذى ادعاه ، وأخذ نفسه بالسمى إليه سنين عددا ، فإنه إذن ، بنظرة المثل الرفيعة ، لم يحسن الحساب . . . فطاقة القوة لا تقاس بالحجوم والأعداد . وذخر الغنى لا يقوم بالدرهم والمئقال . وقيمة الغلبة لا تقدر بامتلاك رقاب العباد وانتزاع الحدود والبلاد . . . ذلك لأن طبيعة الحق تنزه عن الهوى ، وتجرد من

الطمع ، وعزوف عن الباطل ، وتعفف عن العدوان . وما نرى العاهل في هذا المجال إلا قد مال ، وعدل عن كل أولئك ليحقق دعواه . . . ذلك لأن كنه النصر أنه نبع الإيمان ، ورهين الصبر ، ومنطلق الإنصاف ، وقرين الثقة بما في يد الله . وما نرى معاوية أيضا قد أراد التزام هذا السبيل ، أو استشعر هذه المعاني استشعار يقين . . .

ولقد ناضلت البشرية طويلا ، عبر عمرها على الأرض ، لتفريق النور من الظلمة ، والخير من الشر ، والعلم من الجهل ، والعدل من الجور ، والهدى من الضلال عسى أن نجعل من العالم مكانا خليقا بأن يعيش فيه الإنسان معيشة إنسان . . . فعمدت بالحكمة في نظرات المفكرين والفلاسفة ، وبالدين في دعوات الأنبياء والرسل ، إلى ترويض الغرائز ، وتهذيب الطباع ، وكبح الشهوات ، وتنشيط الملائكات ، دحرا لئمة الجسد أن تطغى ، وحفزا لرقعة الروح أن تشف . ودفعنا لقوة العقل أن تسود ، ليتحرر البشر من بقايا البهيمية الكامنة فيهم ، والسيطرة أبدا عليهم من خلال نزغ الأنفس وشطط الأهواء . . .

وعسير بالأريب على جهد البشر بلوغ مثل هذه المراتبة العلية من الكمال ، وإن كان بلوغ بعضهم إليها ليس بمحال . ولكن السعى إليها مطلوب ، لأنه الواجب الذي يفرضه عليهم كافة فرض عين ، لا معدى لأحدهم عن التزامه ، الإيمان بالله ، والولاء للإنسانية ، والوفاء بمتطلبات الحياة الكريمة . . . ولأن التربية والممارسة والحرص على إجادة الأداء كفيلة ، آخر الأمر ومرارا المعصور والأجيال ، ببناء الإنسان الأمثل ، وتحقيق الارتقاء المأمول . . .

ولا ينبغي أن يجول بخاطر ، في مثل هذا المقام ، أن ابتغاء هذا المطلب المنشود أو السير إليه ، يعني ، على أي وجه من الوجوه ، إغفال العوامل المادية أو إهدار أثرها في تشكيل مصائر الناس . أو أنه يرمى إلى التجرد الخالص من الغرائز والميول البشرية تجردا يفصل بين الإنسان وبين مقومات عيشه على هذا الكوكب ، وينضو عنه « آدميته » ، وينتقل به إلى طبيعة « سماوية » جديدة .

فذلك هو الخيال الذى يناظر المحال . . . إنما يعنى أن يخرج الإنسان من ظلام
البيهيمية ، ويتحرر من طغيان شهواته ، ويكبح غرائزه الدنيا ، وينمى إرادته ،
ويجعل المادة وسيلة لا غاية ، ويصبح سيدا لنفسه لا عبدا لها يتحكم فيها ولا تتحكم
فيه ، ليغدو كيانا متزنا من الماطفة والعقل ، وقواما عادلا من البدن والروح . .
وحين نتصفح ذخر الحكمة الذى تركه لنا الإمام هداية وشرعة وأسلوب حياة
تقع فيه على صورة واضحة المعالم والقسمات لهذا النموذج الأمثل للإنسان الذى ظل
دائما حلم البشرية ، ومناط أمل المصلحين ودعوات الدعاة . .

فى وصفه لهذا الإنسان يقول الإمام :

« . . . ترى له قوة فى دين ، وحزما فى لين ، وإيمانا فى يقين ، وحرصا فى
علم ، وعلما فى حلم ، وقصدا فى غنى ، وخشوعا فى عبادة ، وتحملا فى فاقة ، وصبرا
فى شدة ، وطلبيا فى حلال ، ونشاطا فى هدى ، وتحرجا من طمع . . . يعمل
الأعمال الصالحة وهو على وجل . . . »

ويقول :

« . . . يسمى وهمه الشكر ، ويصبح وهمه الذكر . . . إن استصعبت عليه
نفسه فيما تذكركه ، لم يعطها مؤلها فيما تحب . . . قرّة عينه فيما لا يزول ، وزهادته
فيما لا يبقى . . . الخير منه مأمول . والشر منه مأمون . . . »

ويقول :

« . . . يعفو عمن ظلمه ، ويعطى من حرمه ، ويصل من قطعه . . . لا يحيف
على من يينغص ، ولا يأثم فيمن يحب . . . يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه . .
لا يدخل فى الباطل ، ولا يخرج من الحق . . . نفسه منه فى عناء ، والناس منه
فى راحة . . . »

ويقول :

« . . . بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة . ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة . .

ليس تباعده بكبر وعظمة ، ولا دنوه بـمـكر وخديعة . . . »

بهذا الناموس الخلق أخذ الإمام نفسه حق السكأنما صيها في قلبه . أو كأنما كانت مثله ومبادئه مسرى خطوانه . . . منطلق سلوكه . . . أسلوب حياته الذي له يمثّل ، وعليه يسير ، وإليه يدعو كافة الناس أن يسلكوه أو يعيشوه . إذ هو الأسلوب الأوحّد الذي يجعلهم يدخلون دنياهم من باب الآخرة ، ويغنمون آخرتهم من طريق دنياهم . به تخشع الجوارح ، وتصفو القلوب ، وتعرّض إنسانيتهم فلا يصدر الفرد منهم في قول أو فعل إلا عن ضمير خالص ، ونية نقية ، وإرادة متجردة عن الهوى والزيف ، وهو يذكر الله في عانه وسره ، وفي جهره ونجواه وكأنا يراه . . .

وليس بعد مثل هذا المـسلك القويم مـسلك ، ولا مثل هذه القنواة النفسية نقاء . . . فإن تذكر الله فإنك تعالينه ، وأن تعالينه فإنك تعرفه . وأن تعرفه فإنك تقدره . . . وأن تقدره فإنك تشكره . وأن تشكره فإنك تحبه . وأن تحبه فقد بلغت منه سبحانه أقرب مكانة إليه : مكانة الرسل والأنبياء . . .

ولقد قيل مرة لرسول الله :

« قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فلم تقوم الليل ، وتتعب نفسك ؟ . . . »

فقال :

« أفلا أكون عبدا شكورا . . . »

وأثر عنه حكاية عن الله تعالى :

« إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي . وإذا ذكرني في ملاء ذكرته في ملاء خير من ملئه . وإذا تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا . وإذا تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا . وإذا مشى إلى هرولت إليه . . . »

وتلك مرتبة من الإيعان بذى الجلالة الإلهية تخلص صاحبها من نزوات نفسه ،

وتعجز الناس خيره صرفا وهو لا يخشى من امرى لوما أو يبتغى مشوبة ، لأنه عندئذ يرقب فيهم ره ، ويرجو وجهه ، فلا يخرج غضبه على بعضهم من الحق ، ولا يدخله رضاه عن آخرين في الباطل . . وفي هذا اللون من السعى إلى الله ، حبا له ، وعرفانا بذاته ، يقول الإمام :

« لم أعبدته خوفا ولا طمعا . ولكنني وجدته أهلا للمباداة فعبدته . »

ويقول أحد العارفين :

« لست أَرْضَى لنفسي أن أكون كأجير السوء ، إن دفعت إليه الأجرة رضى وفرح ، وإن منعها سخط وحزن . . وإعما أحبه لذاته . »

لكن معاوية ، فيما بدا ، كان ذلك الأجير الذى أراد أن يشمن من الخلق على عمله ويغلى له في الثمن المذول وإن هو أيقن تمام اليقين أنه يدلس بسلعته المغشوشة على المشترين . . فهو واثق أنه يموه على الناس فيتقن التمويه . . وهو عالم أن بضاعته خليقة ، لو عرضها عارية في سوق الحق ، أن تبور . . وهو موقن أنه يدعى الإصلاح ويسمى إلى تقيضه . يظهر الألفة ويبتغى الخلاف . ينادى بالانتصاف ويروم الاعتساف . .

بغير ما ييطان كان يعيش في القوم ، بقوله وعمله ، منذ تبدت له طلعة الإمرة تطل عليه وتخايل عينيه من بين غيوم الأحداث التي انتهت بمصرع عثمان . . فما لاح له فرجة ينفذ من خلالها إلى الفتنة ، بلوغا إلى تحقيق أطماعه ، حتى نشط غير متلوم إلى إشعال النار . .

انظره كيف بادر عندئذ إلى طلعة بن عبيد الله يشير على طي ، ويحاول أن يلويه عن الوفاء بالبيعة التي سلفت منه الإمام . .

كتب إليه يحرضه على السعى لاحتلاب الحكم من على استجابة لرغبة أمة لها هوى فيه . . ثم يعده النصرة من لدنه لبلوغ أمر هو به تحقيق لمزايا يكاد ينضل بها غريمه ابن عم الرسول الذى وسده الناس طائمين سدة السلطان . . يقول فيما كتب :

« إنك أقل قریش وترا ، مع صباحة وجهك ، وصباحة كفك ،
وفصاحة لسانك . فأنت إزاء (من تقدمك !) في السابقة ، وخامس المبشرين
بالجنة ، ولك يوم أحد وشرفه وفضله .. فسارع رحمك الله إلى (ما تقلدك
الرعية من أمرها !) بما لا يسمعك التخلف عنه (ولا يرضى الله منك إلا بالقيام
به !) .. وقد أحكت لك الأمر قبلى . والزير غير متقدم عليك بفضل .
وأينما قدم صاحبه فالمقدم الإمام .. »

وانظره أيضا كيف يوغر صدر الزير على ابن خاله فيضعه منه بمقام خصم
مناجز ، وند كفاء ، ثم يكاد يعطيه عليه بصفات تحرك في صدره الاعتزاز
والكبرياء ، وتثير في نفسه الأثرة ، وتحتاجه للدد العداء ..
كتب له :

« إنك الزير بن العوام .. ابن أبى خديجة . وابن عمه رسول الله
وحواريه وسافه ، وصهر أبى بكر . وفارس المسلمين .. سبقت لك من رسول
الله البشارة بالجنة . وجملك عمر أحد المستخلفين على الأمة .. »

فاعلم ، أبا عبد الله أن الرعية أصبحت كالنعم المتفرقة لغيبة الراعى . وسارع ،
رحمك الله ، إلى حقن الدماء ، ولم الشعث ، وجمع الكلمة .. وشر لتأليف
الأمة . وابتغ إلى ربك سبيلا ، فقد أحكت الأمر على من قبلى لك وإصاحبك
على أن الأمر له قدم ، ثم لصاحبه من بعده ..

جملك الله من أئمة الهدى ، وبغاة الخير والتقوى .. والسلام . »

ولا حاجة هنا للخوض بالتفسير أو بالتجريح في هذا الكلام الذى زوجه
عاهل الشام ، لأنه فى الواقع مشغن بالجراح ، ناضح بالحقد والتبويه والمغالطة
كالإناء الشفيف لا يستر ما فيه .. وكفا بنا ، بيانا لافتشاته على الحق ، شهادة
صاحب معاوية من ذويه لم يابه ولاؤه لآله الأمويين عن المجاهرة بالحقيقة الواضحة
الى أغمض العاهل عنها عينيه ثم شاء بادعائه أن يعمى عنها الأبصار ..

ذاك سعيد بن العاص .

يكن معاوية قد كتب إليه — فيمن كاتب من الزعماء مثيرا فيهم الأحقاد
والمواجد على الإمام — يحرضه ويستجيش حمية الجاهلية العمياء ، ويشعل فيه
نوشة المصيان ، انتقاما لزوال دولة أهله بقتل عثمان . . .

قال له فيما قال من كلام طويل مسموم :

«... إنكم يا بني أمية عما قليل تسألون أدنى العيش من أبعد المسافة ،
فينسركم من كان منكم عارفا ، ويصد عنكم من كان لكم واسلا ، متفرقين في
الشعاب تتمنون لمظة المعاش . . .

إن أمير المؤمنين عتب عليه فيكم ، وقتل في سبيلكم فقيم القمود عن نصرته
والطلب بدمه ، وأنتم بنو أبيه ، ذوو رحمه وأقربوه ، وطلاب ثأره . . .

فإذا قرأت كتابي هذا ، فدب دبيب البرء في الجسد النحيف . . . وسر
سير النجوم تحت الغمام . . . واحشد حشد الذر ، فقد أيدتكم بأسد ونعيم . . .

فإذا بسعيد بن العاص لا يندفع في التيار . . .

إنما يرتفع بنفسه عن هذه الدعوة إلى الباطل ، فيخالف للنتظر من أموى
مثله . ثم يرد على العاهل للتجني بجواب يدفع الكيد والسكائد ، ويدفع البغض
والبغض ، ويدين التحريض والمحرض ، يقول فيه ، داحضا الادعاء :

«... أمرتنا بطلب دم عثمان ، فأى جهة تسلك فيها أبا عبد الرحمن . . .
ردمت الفجاج ، وأحكم الأمر ، وولى زمامه غيرك

ألا فدع عنك مناوأة من لو كان افترش فراشه صدر الأمر لم يعدل به غيره .
وهل نحن إلا حى من قريش ، إن لم تتلنا الولاية لم يضق عنا الحق !
إنها خلافة منافية . . .

وهبنى أخالك بمد خوض الدماء تنال الظفر ، هل في ذلك عوض من ركوب
المأس ، ونقص الدين

ثم ختم خطابه :

« ... أما أنا فلا على بنى أمية ولا لهم . أجعل الحزم دارى ، والبيت
مبجى ، وأبوسد الإسلام . . فاعدل أبا عبد الرحمن زمام راحلتك إلى محبة
الحق . . فليثس العاقبة الندامة . .

والسلام . . »

غير أن هذه الكلمات الصادقة ، المتحدث بالحق . النابعة من الحقيقة ،
الداعية إلى العدل ، لم تلق عندئذ ولا من بعد صدى فى نفس معاوية ، لأنها لم
توافق هواه . . فماله حينذاك وللحق والعدل وهو يسعى لإشباع نهم أطماعه ؟ . .
وماله وإياها الآن وقد جاءه الزمن أخيرا بحلم آبائه ، وأقبلت عليه الدنيا ، وبات
وهو المالك لأزمة الأمور ؟ . .

كتقديره تسير الأحداث . بإشارته ياتر الناس . على مفتضى مشيخته تتواتر
الوقائع السيارة فى العالم الإسلامى : غرسا ونعارا ، وبدءا ونتيجة . . بيده وحده
مصير خصمه ، ييسطها فترتحنى ليهل لو شاء ، ويقبضها فتعصر ليقضى لو شاء ! . .

الفصل الخامس

صحيفة معيه المتصل الجاهد ، وكفاحه المستمر الدؤوب ، حين تجمل أعماله
وأساليبه ، ويوجز عمرها الطويل إبان مراحل تاريخه ، تكاد تجمعها بضع
عبارات لا تزال ترن في سمع الزمن كالطبل ، وتتردد لها في جوانب الدنيا من
وراء الغابر البعيد إلى اليوم أصداء تهمس للناس :

« حاول وحاول .. ثم غامر وقامر .. ثم خايل وخايل .. ثم مكر وغدر ..
ثم قدر ودبر .. ثم عزم .. ثم حسم .. ثم بلغ بالمداورة والرياء ما لا تبلغه
نجابة ولا ذكاء .. »

ذاك سجل مفتوح ..

ففي كل خلة من خلاله ، وفعلة من فماله ، لمحات تفاق وآثار دهان ، تخدع
الأعين ، وتغلب الأسماع ، فتستهوى الخصوم كما تستهوى الأشياخ من كل ناء
بميد أو دان قريب ، ومن كل غافل غر أو لبیب أريب ..

سمة في خلقه لم ينكرها عليه منكر ، سواء الشائء البائن والصديق
اللصيق ..

ولا مغالاة ..

فقد وصفه بها عبد الملك بن مروان أحد خلفاء بيته الأمويين الذين سودهم
ملكه ورسمهم على الرقاب . وصفه ذات يوم خطب فيه الرعية من فوق منبر
دشق وهو يشير بحديثه إلى الذين سبقوه على عرش أسلافه عواهل بني أمية :
عثمان بن عفان ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وولده يزيد ، فكان أن قال :

« أيها الناس .. »

إني والله لست بالخليفة المستضعف ، ولا بالخليفة الناهض ، ولا بالخليفة
للقرون .. »

يقول الشاعر :
« (الجاهل - الإمام) »

فأنطقه الله بالصواب سرا من حيث لم يشأ أو من حيث شاء . وصدقته قوله رأى التاريخ وحقيقة الحال . .

وكيفما كان برحى كلمة ابن مروان : مدحا سيق في قالب ذم دلالة على دهاء معاوية ، أو قدحا قصد به إلى فضح ريائه ، فقد كان سلوك العاهل ، مثل زجاجة ينضح دائما بهذا الذي قيل فيه . .

خلال السنين المنقضية ، منذ خلف أخاه يزيد بن أبي سفيان عاملا على الشام بدا كأنما اختط لنفسه سبيل المراءاة والتقوية وقد جعل همه وقصارى سميه أن تظل هذه الأرض أبدا أموية ، لا تخرج من ملك سلطانه وسلطان آله الأمويين ، أضحت إمرة المؤمنين إلى هذا الرجل من صحابة رسول الله ، أو إلى ذاك . .

موه على عمر بن الخطاب حين حاسبه على استكثاره من الحرس والبطانة ، والتزامه مظاهر الملك وأبهته على خلاف ما جرت به عادة الحكام المسلمين من التقشف والزهادة في ذلك الحين ، مبررا سلوكه بأنه إنما عمد إلى ما عمد إليه رغبة في رفع شوكة الإسلام أمام أعين أعدائه وجيرانه الروم ، وبلوغا إلى إرهابهم وكسر طمعهم فيه إذ هم قوم درجوا على المظهر ، يهرهم البذخ ، وتخيفهم علائم القوة التي توحى بها نخامة السلطان ..

وما كان إذا ذاك إلا الحريص على توفير كل أسباب المنعة لحكمه بما أحاط به نفسه من الأعوان والحرس والجنود . .

وخلال السنين الحازية، منذ اضطربت الأحوال في الدولة على عثمان بن عفان، واتسعت الهوة بينه وبين شعبه، بدا كأنما اختط أيضا لنفسه سبيل المراءاة والتقوية وقد استخفته الأطماع إلى أن يخلف عميد البيت الأموي على إمرة المؤمنين . فهياً نفسه ، وشحن مملكاته ، وحشد كيده ، وحفر مكره ، وأثار دهاءه ، وجند ادعاءه ، ولم يترك وسيلة عادلة أو ملتوية إلا استعانها ، ليحيل الدولة الإسلامية كلها قطيعة له ولدويه . .

موه على عثمان أنه وحده دارى الخطر عنه ، وحامى حماه ، بخيله ورجله حق

أقد سير من الشام جيشاً ربيض عند مشارف المدينة إعلانا عن صدق مقصده ،
وحتى لقد حسب الناس أنه لا بد مقتحم البلدة على من بها من الثوار ، وأخذ فيها ،
لصالح قريبه المحصور ، بناصية الأمور ..

وما كان إذ ذاك إلا المتربص بالأزمة أن تشتد ، وبالثورة أن تقسم ، وبالحليفة
أن يقتل ، لينعم هو من بعده بترائه ، ويغمس قلمه في الدم المسفوك ليكتب
سك ميراثه . . .

وخطأ بلاريب في حق صاحب الشام أن ينسب إليه حسن النية فيما أتاه حين
جهد جهده لا يتراز الخلافة ، وفعل أفاعيله لبلوغ السلطان ، فذاك هو الخطأ المحض
الذي لا تفره الحقيقة ثم لا تغفروه أيضا ملوكات ابن أبي سفيان . .

فلقد كانت نفسه هدفه . وختله أحب أساليبه . وسبيله إلى الطرق الجانبية
ملتويا معها حينما التوت وأينما عتس الظلام أعلم معالنه النفسية وأبرز سجايه التي
يغيرها تنتقص شخصيته ، ويمسى وكأنه ليس معاوية الذي تصوره لنا فعالة ، ويضعه
سلوكه في إطاره العلوم . . . فلا عن الطموح وحده سار إلى الإمرة سيره . .
ولا عن الإحساس باقتداره — قبل غيره أو دون غيره من الأقران — على
سياسة الناس والأمواد ، انتهج نهجه للكفاح . . ولا عن طلب لدم ابن عفان
للاقتال جالد بالقول والسلاح . . ولا عن إيمان بحق نفسه في الخلافة نازع الإمام . .
بل قد قاوم ونازع ، وجالد وحارب وإنه لعالم كل العلم أنه لا ينطلق على خطة
سوية لغرض عادل ، وأنه إنما كان يفتات ولا يفتات عليه ..

وليس هذا مجرد تكهن أو استنباط ينفذ إليه مستقرىء أخباره . ولكنه
الحقيقة التي لا يتعرج أن يملنها أو يخفيها عن الأذهان والمسامع هو ولا أصدق
خاصاته ولأهله ، ولزوما لطريقه . . .

فذلك ثابت مشهور . . .
فيل له مرة في معرض معارضة أو استفسار بعد أن ظفر بغاية غايته ، وأنضت
إليه إمرة المسلمين وقد غاب وجه الإمام :

« حاربت من تعلم ، وارتكبت ما تعلم .. »

فلم ينف عن نفسه علمه بانخراطه في الخطأ ، وارتكابه المعصية بمعاداته عليها في سبيل بلوغ سدة الحكم ، بل قد أكد التهمة ، فقال .

« وثقت بقوله تعالى : إن الله يغفر الذنوب جميعا .. »

وسئل ابن العاص وهو محتضر على فراشه الدنيوى الأخير ، ودموعه عندئذ تسيل من ندم ، أو من خشية ساعة الحساب على ما قدمت يداها :

« لم تبكى ؟ .. أجزعا من الموت ؟ .. »

فكأنما قد حضره على الأثر ما أسلف . فأيقن لحظة الرحيل أن ما فات فات ولا رجعة فيه ، وأنه قد أقعّم نفسه — بمحض اختياره ومن أجل مقمّ مشبوه زائل — في مزالق من الريب والشكوك ولات هذه اللحظة حين مناص من ترديه في قرار محيق ..

وقال :

« لا والله ! ... إني كنت على ثلاثة أطباق ليس منها طبق إلا عرفت نفسى فيه .. »

كنت أول أمرى كافرا ، فكنت أشد الناس على رسول الله ، فلو مت حينئذ وجبت لى النار ..

فلما بايعت رسول الله ، كنت أشد الناس حياء منه فما ملأت منه عينى قط ، فلو مت يومئذ قال الناس : هنيئا للمروءة ! أسلم وكان على خير أحواله ، فسرّحوه بالجنة ..

ثم تلبثت بعد ذلك بالسلطان وبأشياء ، فلا أدري على أم لى »

ومع ذلك فقد اختار الرجلان ، دون تلوم ، سبيل الضلالة المروءة ، أو سبيل الشبهة التى تفضى لاهالة إلى ضلالة ، قصرت المسافة أو طالت ، وجل المطلوب أو هان ..

ومضى معاوية شوطه إلى هدفه البراق المرموق ، على متن أساليبه ، في
روية وصبر وإصرار . .

ثم حالفه زمنه ، فإذا هو ، أخيرا ، يحس بالأرض سهلة تحت خطاه . .
بلا عوائق . ولا وعورة . . ولا صخرة هنا أو كثيب هناك يمترض أيهما طريقه
ويعرقل انطلاقه ، فيطيل الشقة أو يزيد المشقة . . بل لقد كان منها كمن على ذات
شراع تنساب به أنسيابا فوق ماء ساكن ، تحت جو صفو ، وفي رعاية ريح
معتدلة رخاء . .

وكيف لا ؟ ..

فها هو الآن بر الأمان . .

ها هي الغاية قيد البنان . .

ها هم الناس يأتعون بمشيئته ، والأمور تسير كهواه . . والمصير يتخلق على
مقتضى تخيله ، وفي إطار الصورة التي رسمتها نواياه . .

غير أن الذي كان في الحسبان لم يكن ، وما لم يكن في الحسبان هو
الذي كان !

لم يضطرب به الماء .

لم ينتقب تحته الفارب .

لم يتمزق الشراع . .

لكنه حرم ، لا ريب ، لذة اقتطاف ثمرة حقه وكبده يمينه وإنها متعة ليس
يعد لها عند حاقد متاع . .

فالحوادث لم تسر كتقديره وإن كانت الثمرة المحرمة سقطت ناضجة في حجره
بغير عناء . .

والنتيجة لم تكن كما هوى وإن بلغت به ذروة مناه . .

القدر الذى حالفه طويلا ، وكان يشهد اعتداده بنفسه ، وبما هو ضامن به
انزع النصر من قبضة غريمه ، سخر منه ا . . . فوث عليه غرضه . . . غل كفه
إلى عنقه وهى تمتد للجولة الأخيرة ثم ركه بلا حول ولا مشيئة فى تحديد
المصير الذى ظل واثقا أكبر الثقة ، بضعة أشهر ، أنه وحده القادر على أن يصوغه
الإمام . . .

فمن وراء بضعة أيام ، تكلجة الهدب من عمر الزمن ، تسللت أصابع المجهول
إلى ما قر بخلد هذا للمعتد الواثق وثبت فى روعه ثبوت الحقيقة المستيقنة تعبت
به ، وتعيث فيه . . . تمحو وتطمس . . . تعدل وتبدل . . . تنقص وتضيف . . .

بين جمعة وجمعة تغيرت الصورة . خبت أضواء ، وكشفت ظلال ،
وحالت ألوان . . .

وإذا كان للشمانة طعمها الحلو فى قلب حاقد ، فإن معاوية المنهوم الاشتفاء
من على لم يسغ منها إلا مثل حسوة من كأس مترعة ، أو مثل لعقة على طرف
لسان . . .

فكأنما أجهض الشمانه ا . . .

وإذا كانت للنصر فرحة تسكر ، فنصره الذى أصاب لم يدر رأسه ، ولم يهن
بالنشوة عطفه ، لأن البلية التى أحقت بمدوه اللدود لم تكن من صنع يديه . . .

فكأنما النصر لقيط ا . . .

فعندما شملت حشود العراق من الكوفة ، مغربة إلى ساحة الوغى المعلومة
عند صفين ، وقد عقدت العزم على خوض الحرب ، لم تكن تعلم ، ولا تحلم ،
أن لن يحدث لقاء وقتال . . .

وعندما شرقت جيوش الشام من دمشق ، مشاملة إلى أرض الواقعة
وقد تحرقت هوقا للنصر الموعود ، لم تكن تعلم ، ولا تحلم ، أن لن يكون نصر
ولا هزيمة . . .

الآلاف التي صعدت من الجنوب ، والآلاف التي انحدرت من الشمال ،
الاحتكام إلى السيف في وقعة أخيرة فاصلة ، تفرق الغلبة من الدهرة ، وتأخذ الموت
من الحياة ، كتب لها ألا ترشق قطرة دم .

الألوية التي عقدتها معاوية لأعوانه عمرو بن العاص ، وحبيب بن مسلمة ،
وأبي الأعور السلمي ، ومن على نهجه من حشوه ، وأصحاب حربه ، وذوى
الخطوة لديه ، إنما عقدت لتحل ، ونهضت لتطوى في بضعة أيام ، بعد مسيرة
قصيرة ، ودون التعام .

الألوية التي عقدتها أمير المؤمنين لصفوة خاصته وخلصائه الحسين بن علي ،
وقيس بن سعد ، وأبي أيوب الأنصاري ، وعبد الله بن عباس ، ومن إليهم من
حزب الله وأصحاب رسوله ، رفرقت حيناً على الرؤوس باعتزاز ، ولكنها ما لبثت
سوى قليل ثم نكست الهام كأنها شموع أصابها عارض من ريح طاصف ، أطفأ
شمعتها ، ووكأها للاظلام . .

ولم يكن الإمام هو الذي أغمد السيوف ، وطوى الأعلام . .

ولم يكن طاهل الشام هو الذي أرسل الريح لتطفي* الشموع . .

غيرهما كليهما كانت تلسم الكف التي لبسها القدر قفازاً ، ودفع بها من
وراء ستر الأيام لتغير ما قر في الخواطر ، وثبت في الأخلاص ، وبات كاليقين
أن يطلع — لولاها — على الوجود ما سلف أن أكدت الوقائع الجارية حتمية
حدوثه ، وأنبأت عنه المقدمات كنتيجة لازمة ليس عنها محيص . .

تلسم الكف التي حولت المجزى ، وقلبت الأوضاع ، وبوأت الحق مكانة
للبطل ، والمبطل مكانة الحق ، لتقدم لابن أبي سفيان — من حيث لم تشأ ولم
يحمل لها في خيال — نصراً هيناً رخيصاً ، لم تكن قط في حساب إنسان إلا شردة
ضالة من بضعة أفراد . .

وكانت — من عبداً — أدنى إلى أن تكون علوية الرأي والتشيع منها
إلى أن تكون أموية الهوى والنزوع . .

كانت أيضا غير صلبة الأصابع ، غير شديدة القبضة ، لم تكد تتحرس بخشونة
الوقائع . ولا أطبقت على سلاح .

كانت رحية طرية كأنها نسمة العبا ، رقيقة شفافة كشعاع من نور ،
ناعمة ملساء لها ملمس الحرير . . خلقت لتمز المهد ، وتداعب الورد ، وتدغدغ
الوليد ، وتأسو من شكاية الجروح ونسكاية الآلام ، وتختضب بالحناء ، لا أن
تزلزل الطمأنينة ، وتلمب بالحناجر ، وتجهز السموم ، وتخطف الأرواح ،
وتختضب بالدماء . . .

فهي كف حسناء . .

كف عروس أجلت ففتتها ، وألفت بهاءها ، وهيات نفسها لليلة الزفاف . .
كف قطام ، فتاة تيم الرباب الحلوة ، ذات الشأو في ميعة السن ، ونضرة
الرونق ، وطغيان الحسن التي دونت لها أسطر طوال في سجل الجمال . .

ولئن عرف ، قديما وحديثا ، أن المرأة ، بغيرزة الأمومة ورقة الأنوثة ، هي
التي — عادة — تنجب الحياة ، وتثمر الحب ، وتشر الحنان ، فلقد عرف كذلك
أنها بوحشية الحقد وضراوة البغضاء ، هي التي — في أحيان ليست قليلة —
ترهف القسوة ، وتقتل الأمل ، وتنضر الموت . .

ولئن عرف أيضا أن المحنة التي تردت فيها الأمة الإسلامية آنذاك ، حاضرا
وغدا ، كانت من نتاج نبتة غرستها هذه الفتاة في تربة الجهل والكراهية والعصبية
المفتونة العمياء ، وروتها بالدم ، فلقد عرف أيضا أن الشجرة الملعونة التي ترعرعت
إنما تفيأ ظلها معاوية ، وجنى ثمرها ، وإن أرادت له قطام ، وعملت جاهدة ،
أن يكون هو بعض الجنى ، وإحدى فرائس ثلاث يحشها منجل الحصاد . .

فقطام تيم الرباب هي التي تعهدت الغرسة ، ورعت نموها ، وآلت جذورها
السقيا ، حتى إذا صلب عودها ، وأينع فرعها ، ونور زهرها ، وطاب ثمرها ،
كان ابن أبي سفيان هو الذي قطف من حيث شاءت له أن يكون من بين
القطوف . . .

وقطام تيم الرباب هي التي وضعت الرواية ، وأحكمت حبكتها ، وهيأت مشاهدتها ، وحركت شخوصها على مسرح المأساة الساخرة أو المهزلة المفجعة . . حتى إذا أوشكت أن تم فصولا ، وكاد ينزل ستار الحتام ، جاءت النهاية على غير ما اشتهت وأعدت ، وبخلاف ما كان يوحى به ، وينبغي أن يؤدي إليه ، السياق . . .

رمية من غير رام . . .

مشيئة القدر لا مشيئة قطام . . .

لكنها قصة طويلة . . .

مأساة اختلطت فيها المهزلة بالفاجعة . السخرية بالجد . المفاجأة بالإعداد . الشجاعة بالحسرة . الضحك باليأس . . قاعها دعوة . . ووسطها نقمة . ورأسها طمعة . .

بمكة كان مستهل مشاهدتها عند رفع الستار . .

بالكوفة كانت ذروة الأداء . . .

بدمشق دوت قهقهة الشيطان تعلن الحتام . .

عديدة المواطف والالتفاتات . وثيدة الخطا على درب الأحداث . قطعت الشوط في نحو عام . .

طويلة طويلة في عمر الأحزان . .

حدث هذا ذات يوم -اخن من ذبول الربيع .. حشوه جمر ، وقشره رماد .
باطنه خطر ، وظاهره أمان . .

وكان من نحو عام .

والمكان مكة .

والزمان الموسم .

النهار ، يومئذ ، راكد الحركة ، رائق الأفق ، هامد النفس ، مشتعل النور . .
الشمس حريق .

الشماع السنة لخب ، وسياط نار ، تعلق الأشياء ، وتجلد الأحياء . .

الجو ضباب رقيقة ، رمادية اللون ، متسقة الصفحة ، من الوهج والغبار . .

الهواء ، من شدة الحر ولفح قيظه ، دخان وبخار . .

والحجيج إلى بيت الله قالت كثرتهم إلى المضاجع ، فرارا من وقدة الظهيرة . .

طوائف منهم تستروا بالرحال ، يسمرون أو يريحون . . بقيتهم الباقية تفرقوا

في أروقة المسجد وأبائه ، زمرا وفرادى ، كأنا يحاولون تلقف نسمة رطبة ،

تنفها السقوف المروشة وظلال الجدران . .

الأسن في الخلق تضطرب لاهثة . . الأفواه جافة . الشفاء ذابلة . الجفون

مثقلة . الأهداب مشدودة إلى الحدود والوجنات . .

الأحاديث شهيقة وزفير .

الرؤى أمام الأعين المغفيات أشباح . .

لا مَعْلَم في البناء القدس الفسيح لانتفاضة الحياة يوهك أن يطالع أى مقبل

عليه ، من بعيد ومن قريب ، غير تذاؤب الظلال واهتزاز الأضواء . تتفرق

وتتراكم ، وتتباعد وتتلاحم . . ترق هذه هنا لتكشف هناك . وتجلو تلك عن

جانب لتنتقل إلى آخر . ويتقلص منها ما يتقلص ليمتد قرينه وينتشر كلها هومت الشمس التي أسأمتها وحشة الوحدة ، وأعيائها طول الترحال ، وهي آتشي الهويض ، في تردد وحذر ، على الأفق المحترق ، بخطاها الوسنانة . .

أينما وفد وافد ، في تلك الآونة ، على حرم المسجد ، أجنه منه في . . وأينما طاف بصر ، بشقي نواحيه ، ملأه من خمود من فيه فراغ . وأينما أصغت أذن سمعت الجلود . .

عند حد الرؤية ، من وراء سبحات الضوء وخطرات الظل ، كانت تتراعى ، بين فينة وفينة ، شخوص عديدة مبثرة ، خرساء الوقع كأنها أطيايف . إن تبرز لحظة في وهج النور ، فلتذوب على الأثر في شبيهة الظلال . .

بالساحة القريبة من بيت الله ، على قيد مسافة غير قصيرة من بابه الكبير ، وفي ساعة الزوال ، اضطربت الخطا بثلاثة رجال . أمامهم البيت ، ومن خلفهم الصحراء . جمعهم غاية ولكنهم تفرقوا على الطريق . . وبدوا عندئذ كثلاثة خروق تناثرت في ثوب النور . .

لكأنما كانوا يدبون الخفاء . . . لكانما كانوا يعيشون على ريبة . . . شخوصهم تتسلل نحو المسجد ، متناثية ، في تعهل ثقيل ، كمن يسرون على شك ، أو يحسبون الخطوات . . خيالانهم الزاحفة في آثارهم كأنما تشدهم إلى الوراء . . أقدامهم تحتمل تتعسس مواقعها فوق الرمل . . عيونهم تسبقهم ، بنظرات قلقة متلصصة ، وهي تدور حولهم في مختلف الأرجاء . .

ولاحوا ، لمن قد يقطن لهم ، بضعة أعصاب . . فالحواس يقظانة . واللامع مشدودة . والأعين حادة . والآذان مرهفة . والأنوف مشعوذة . وكل حركة تند منهم إنما لتلقف مظنة ، وتلمح خابجة ، وتلقط همسة ، وتشم رائحة المجهول . . وكان مقصدهم ملاذا من المسجد ، حريزا آمنا ، يكتهم من تطفل الأنظار . . وكان ملاذهم مسرحا يعرضون عليه أسرار نفوسهم ، وخبء صدورهم ، وغوامض فكرهم ، عارية مكشوفة لا تبدو سوا أنها لمن عداهم من الناس . . وكان مشتاهم الذي نذروا له الدم والجهد والتدبير الدائب تغيير الأوضاع .

وعندما دلفوا من بين مصراعى الباب ، متفرقين ، واحدا بعد الآخر ،
ولفظهم وهج الضياء إلى عتمة الظلام ، أووا إلى بقعة نائية من المسكن ، عمياء
خرساء ، لا تشى بهم ، فلا تطاع عليهم فيها عين ، ولا تسمع منهم أذن ، ولا ينقل
عنهم لسان . .

وجلسوا يتسارون . .

كانوا هضيمى الوجوه ، نحيلي الأجساد ، ممروقي الأوصال ، تكاد جلودهم
تشف عما تحتها من فرط الهزال . . تتأ فيهم المعظم ، وحال اللون ، وخف اللحم ،
فغارت الأعين من سهر القيام ، واسودت الجباه من كثرة السجود ، وضمرت
البطون من سغب الصوم . .

وظلوا ساعة ، بحلوتهم تلك ، فى حديث موصول ، يلم بالنفس والصحب
والأمة ، وبالولى والمدو ، وبالأمس واليوم والغد ، متباين المواقف ، متلون
الجرس ، مختلف النبرات . يرق مع الحزن ليرتجف بالغضب . ويدوب فى الندم
ليشتعل بالحقد . ويسرح مع الأمل ليغزو المستحيل ، وكأنما لا تنطق به الألسنة
بل تنطق الأعصاب . .

كانت جلسة نارية حمراء ، اضطرعت فيها العبارات والأفكار وإن بدت هادئة
قد اختفت جذوة ثورتها تحت رماد المخافة والمناجاة . . خلالها ترجمت الوقائع
إلى عبر ، وجسد الرأى فى عمل ، وسيجت بهم ذكرياتهم فوق موجات أصواتهم
منسابة مع تيار الزمن فى موكب حافل اجتمعت به مشاهد الحاضر ، بصور
الغابر ، بأحلام مستقبل مأمول مجهول .

رحلة طويلة من الحلجات والشاعر ، ومن الرؤى والخيالات .

فالحال الآن على غير ما يرتضى هؤلاء الرفاق أن يكون . . النفوس شتى .
القلوب هواء . الدين غريب . العمل ضلال . الحياة تنافر وعداوات ،
والأمة أشلاء . .

والوضع بالأمس محنة للإسلام وأهل الإسلام ، أجيح نأرها التحكيم ،
وعجزت الدعوة الهادية : « لا حكم إلا لله » أن تثوب بالعتاة والجبايرة ممن
يسكون بزمام الأمور إلى جادة الصواب . بل لكانها حفرتهم على الغلو في
الطغيان — عنتا واستكبارا — حتى وقعت النهروان . .

والغد المنتظر ضياع . . صفحة فارغة مطوية أخلق بها أن تكون امتداداً
لما قبلها من الأخطار والمساوى ، إن لم تتح لها اليد القوية التي تنزعها من براثن
الهمود لتشرها ، ثم تسطر فوق ديباجتها ميثاق التغيير . .
هكذا تبين للثلاثة الطريق . .

وأخيرا التفت أحدهم إلى رفيقيه ، بعد إمعان فكر ، يخاطبهما بصوت هامس
خفيض كأنما يضمن بكلماته أن تسمعها شفها . .
قال :

« لو أننا شرينا أنفسنا لله عز وجل ، فأتينا أئمة الضلال ، وطلبنا غرتهم ،
وأرحنا منهم البلاد والعباد ، وثأرنا بإخواننا الشهداء بالنهروان ! . . »
فتأمل قوله الآخران .

وساد هنية صحت مطبق ، ذاب فيه الحس ، واختنقت الأنفاس . وران
خلاله على الوجوه الداوية هدوء جامد تصلبت به لللامع ، وقست القسبات حتى
غدت كأنها سيوف مشحوزة ، أو سهام مسنونة تهم بالانقضاض أو الانطلاق . .
ثم تقابلت العيون على ترقب وتأهب . .

ثم تحفزت النظرات . .

ثم تفجرت الفكرة . .

وما لهم لا يفعلون هذا الذي طالهم به الرفيق ؟ .

إنه لرأى ما كان ينبغي قط أن يغيب عنهم ، وعن أصحابهم الخارجة ، كل هذه
الشهور . . فهو الفكرة الصائبة . وهو العمل اليسير . وهو الخطة الحرة بأن

ترفع عن الأمة العمة ، وتفشع الكابوس ، وتفضى في يوم ، بل ساعة ، بل لحظة واحدة موقوتة محسوبة ، على أوائك القادة الذين تسلموا ذروة السلطة ، وملكوا المصائر ، وفرقوا الأمة ، وعيشوا بالدين ، وابتزوا حق الله . . .

ذاك هو المنفذ الوحيد إلى الخلاص . . . إلى تصحيح الأوضاع . إلى ترويق العقيدة ، وتطهير النفوس ، وتنقية العقول ، وتقويم الأفكار ، وتحرير الناس . وعلى الأثر بدا الرفاق الثلاثة كأنما قد اخبرلوا في واحد . الفكرة واحدة . والنية واحدة . والهمة واحدة . والسبيل الذي عليهم اجتيازه هو هذا الذي لا محيص عن انطلاقهم فيه خفافا سراجا وقد رنموا عليهم القسديم بمد سقوط ، ونشروا شمارهم الأصيل بمد طي ، احيوا دعوتهم الأولى التي أنبتتها أرض صفيين ، ويبعثوها من مرقدتها عند النهر ، حيث قانت عليها جماعتهم من قبل ، وتبعثرت حروفها ومعانيها مع أشلائهم بين أنواء النهر ، ونحت تراب الضفة الدامية ، في قبور مضیعة مجهولة ، حفرها لهم ، منذ عامين ، سيف الإمام . . .

بتلك الحلوة المستنرة ، في البلدة الحرام ذلك اليوم من الموسم ، تحركت نزعة التآمر ، وبدأ أول تدبير في تاريخ الإسلام لإقامة الحكومة الفوضوية ، أو حكومة الجمهور ، التي لا ينفرد فيها بالإمرة إنسان ، ولا طبقة ، ولا حزب ، ولا نفر قليل أو كثير من الناس ، مهما علت بهم الثروات ، أو ارتقت الأحزاب ، أو سمت الأجناس . . . فلإنما الأمة كلها — في مذهبهم — الأمير ، والأمة أيضا الرعية ، والحكم لله . . .

لقد علم أن هذه الجماعة المتآمرة الآن قد سلف من عصبتهم الكبرى نفس رأيها هذا قبل وقت غير قصير ، لم تكتمه عن الأذهان والآذان . ولم تتوان عن الترويج له بين الخاصة والعامة من أبناء الشعب الإسلامي على السنة فريق من دعايتها وأئمتها المفتونين الذين أتعنوا المجادلة واللجاج ، وولموا بالتأويل والتخريج ، وقد استخفهم أن كانوا عبدة زاهدين يطيلون الصلاة ، ويكثرون الصيام ، ويقومون وينامون على تلاوة القرآن . . .

ولقد علم أيضا أن مذهبهم ، الذي نجمت لهم فكرته حين اضطربت الأمور بصفين وارتفعت المصاحف على أسنة الرماح بنداء التحكيم ، قد ترامت به الأخبار في أنحاء الدولة ، ووجد بها السميع والحبيب حتى استشرى بين الناس كاستشراء النار ، وقويت به شوكة أصحابه قوة غدوا بها فرقة ذات خطر في مجال السياسة ، لا يحمده طغيانها على الدولة والدين ، وعلى الفكر والحريات . .

وعلى كثرة ما كذبتهم الأدلة ، وحذرتهم الأحاديث ، وأسرف الإمام لهم في البيان والتبيين ، فقد ظلوا ورأيهم ، لا يراعون عما سدروا فيه . . فلم تردم حجة ، ولم يكفهم سلاح . . وإنما ازدادوا تشبثا به ، وإصرارا عليه ، مندفعين على مزالقه إلى القاع الذي ليس تحته قاع . مجروفين بعصبيتهم الدينية إلى ما يفارق الدين ، ويخالف القرآن ، ويجانب السنة ، ويناقض العقل ، وتأباه ، قبل هذا كله ، إنسانية الإنسان . .

... ذات يوم صاح رجل من عصبتهم المفتونة في وجهه على :

« لا حكم إلا لله . . »

فلم يثر به . بل ترفق له في المقال عسى أن يشفيه برفق البرهان بما هو فيه ، ثم يهدى به من وراءه — من الداعين بدعوته — إلى جادة الصواب . .
أجاب في هدوء :

« كلمة حق يراد بها باطل . . »

ثم استطرد :

« نعم ، إنه لا حكم إلا لله . ولكن هؤلاء يقولون : لا إمرة إلا لله . . »

والفرق بين المفهومين جلي غاية الجلاء . فالإمرة إدارة وسياسة ، والحكم

قدر وقضاء
وأكل يبين لهم ، بعبارة مباشرة ، لا يشق إدراك مضمونها على إنسان . .

« ... إنه لابد للناس من أمير ، بر أو فاجر . . . يجمع به النية . ويقا تل العدو . وتأمين السبل . ويؤخذ للضعيف من القوى . . . »

... وجاء في الأثر أن الإمام قال :

« لما أنزل الله سبحانه قوله : (ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) .. علمت أن الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله بين أظهرنا . فقلت : (يا رسول الله ، ما هذه الفتنة التي أخبرك الله بها ؟) . . فقال : (يا طي ، إن أمق سيفتنون بمدى) . . »

ثم قال الرسول :

« إن الله قد كتب عليك جهاد المفتونين ، كما كتب على جهاد المشركين . . . »

وقال :

« ... تقا تل حينئذ على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله . . »

... وشاع في الناس ، تلك الأوتة ، من أمثال هذه الأقاويل والأحاديث ما إن وعته عصابة الخارجة أصحاب اجبااء السوداء ، لعدل بها عن عنتها واندفاعها في الاستكبار . . فكلم من مرة جهد الإمام أن يسنفيهم إلى الحق ، بالحكمة والموعظة الحسنة . بالكلمة للوجزة . بالخطبة المستفيضة . بالمنطق للبين ، بالحجة الدامغة . بالقول الفصل . بالترغيب وبالترهيب . . وكلم من مرة نقل إليهم ، على السنة بحبابه الأدنين ، العارفين للقرآن ، الحافظين سنة الرسول ، ما يقطع الشك باليقين . . وكلم من مرة لاین وصادق ، وصبر وصابر عسى أن يؤوبوا إلى جادة الله ، وإن بدوا كأنما اختاروا لأنفسهم أن تضرب في القى إلى الأغوار . .

عن الفتنة لم يلوم منقول ولا معقول . لم تغن عنهم تقواهم . لم تكفهم النذر ، فقد اشتبهت عليهم الأمور ، وعميت منهم البصائر ، وانطمست الضمائر ، والتأملت العقول . . فالدنيا كلها على خطأ وهم وحدهم على صواب . الأمة في الضلال

وعصبتهم في الإيمان . الإسلام كما ينظرون . والقرآن كما يتأولون . . ولن
يقر لهم قرار ، أو تسكن نائرة ، إلا أن يحملوا الناس قاطبة ، في الدولة الفتية
العريضة ، على انتهاج نهجهم ، واعتناق مذهبهم ، بصهرهم أجمعين — رأيا
وعقيدة — في صهر مبدأهم السياسي الجديد ، وإن ركبوا إلى ذلك أخشن السبل
وأوعر المسالك ، من عنف وقسوة واغتيال . .

وها هم الآن ، أولئك الرفاق الثلاثة ، المتسترون بالظل ، يبدأون الرحلة
الويلية . . فلا مناص من العمل في الظلام . من الديب كالنمل . من التسلل
كالشعابين . . لا معدى لهم ، في المقام الأول ، من انتزاع سلطان الله من
الإنسان . . من القضاء على الحكم . . من الخوض إلى الهدف في بحر
من دم . .

وقال أحدهم لصاحبيه :

« أنا أكفيكم على بن أبي طالب . »

وقال الثاني :

« وأنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان . »

وقال الثالث :

« وأنا أكفيكم عمرو بن العاص . »

وعندما اهتزت شخوصهم المعتمة من مكنتها الخفي بذلك الركن من بيت الله ،
وأخذت تتناثر مرة أخرى في الساحة القرية كثلثة خروق في ثوب النور ،
كانت نطفة المؤامرة قد غدت مضغة تهم أن تتخلق ، لتغدو جنينا لن تلبث
الفتنة الحبل أن تلقظه إلى الدنيا وليدا خبيثا حينما يجيئها المخاض . .

تواثقوا بحسكة .

واتعدوا رمضان .

وحددوا يوم الفصل بالساعة والملاحظة .

وتماهدوا على الوفاء بما نهضوا فيه . لا ينكل أحدهم عنه ، ولا يلتفت وراءه ،
إلا أن يقضى وطره ، فيقتل رجله الذي صمد إليه ، أو يقتل دونه . .

وكان الموعد ليلة القدر . .

وكانت الساعة صبيحة الجمعة ، لحظة إقامة الصلاة . .

فقتل ولاية الجور — في مذهب تلكم العصابة — قرينة إلى الله . وأحرى
القربات وأيمنها ما يتقرب به في المواسم المباركة الشريفة . . .
ثم تفرقوا إلى المواقع .

تسعة أشهر طويلة كان لا يد للرفاق الثلاثة أن يقطعوها إلى غايتهم على انتباه
وحذر ، في ترقب مض ، وسكون آسن ، وانتظار ثقیل . بصدور مخلقة الأبواب
والمنافذ . . . بعلامح راكدة . بعيون مرتخية . بشفاه مزمومة . . . فإن تبدر
منهم حركة فقد تفشى . وإن تند خلجة فقد تشى . وإن تلمع نظرة فقد تفضح .
وإن تفلت همسة فقد تنم . .

وسرهم ، مع هذا ، لا يكاد يقر له قرار ، أو تهدأ تأثرة ، في سجنه الذي
أودعوه إياه بين الضلوع . . بل إنه لينتفض ويضطرب ، ويعوج ويهيج كوحش
انتزع من رحابة الغاب أو فسحة القلاة ليحبس في قفص يحرمه حقه الطبيعي
في الحرية ، ويحول بينه وبين الانطلاق في الحياة وفق هواه . .

فيقدر ما كان حرصهم على حصر السر بمرز حريز ، في قرار مكين ، ينكمش

يعنيه الكتان ؟ . . أن لن يتباهى فيدل بما اعتزم عليه ؟ . . أن لن يتهاون فيزل
بعبارة أو بإشارة ؟ . . أن لن يضعف فيتهاوى ويخور ؟ . . أن لن يتلوم ويتأثم
من خوض الدم ، فيكشف — بدفعة ندم ، أو بخلسة خوف — عما يضر ،
فإذا هو يأسف فيعترف أو يشي فيخون ؟ . .

لكنهم ، فيما بدا ، استطاعوا اجتياز الامتحان العسير . ارتقوا فوق الندم
والتأثم ، وفوق الخوف والضعف ، وفوق العياء والمباهاة . . ظلوا وما هم عليه
من تماسك ، طوال رحلة الزمن والمسافة ، وقد أخذ كل امرئ منهم نفسه وعقله
وقلبه بغض البصر عن خيالات الشك التي تراوده في زميله ، وزكم الأنف عن
تشم روائح الحيانة . . فما لهم محيص عن نبذ الارتياب . ولا عن الثبات .
ولا عن إتمام شوطهم هذا الذي بدأوه من ساعة أن بارحوا البلدة الحرام ،
لأن اندفاعهم إلى الأمام أيسر لهم من التقهقر إلى الوراء ، إذ كانوا ، في حقيقة
الأمر ، ينزلون فلا يستطيعون الارتداد . .

طوال أشهر الترحال والتنقل ، بين منازل الحضر ومضارب الرعاة عبر المياه
أو على رمال الصحراء ، لم يكن يند عن أحد منهم ما قد عصى يتم عنه . . كانوا
يسرون كالأشباح ، يتسللون كالثعابين . يحمون في الظلام كالحفافيش . ينخرطون
في غمار الجمهور الغافل عنهم مجهولين غير معلمين عن سواهم بكلمة واحدة عن
رأى ، أو خلسة مضطربة في قسمة ، أو سمة مميزة في لباس . . كانوا حريصين
على مخالطة العامة ، ومجانبة من لهم هوى في مذهبهم أو اهتمام من نوع ما بسياسة
الأمر ، ما استطاعوا سبيلا إلى المجانبة ، بعدا بأنفسهم عن مواطن الظنون
والشبهات . . وعند ما بلغ عبد الرحمن بن ملجم مشارف الكوفة ، وهم البرك
ابن عبد الله أن يدخل دمشق ، وأوفى عمرو بن بكر على القسطاط ، كانت المؤامرة
تمشى على ظلالهم بالخطا المتعدة ، والقدم الثابتة ، والعين الحذرة ، على طريق القدر
والغيلة إلى نقطة النهاية . .

فكأنى بهم هبطوا المدائن الثلاث مع الليل الأسهم ، أو السحر الضرب ،

متسترين بالسكون والظلمة والاستخفاء كيوم خروجهم وأصحابهم سرا من الحاضرة العراقية متعددين للالتقاء بالنهروان . . . وكأنما كانوا يستلهمون من حمية النار اصراعهم للمقدرة على الانطلاق . . . وكأنما قد استعانوا على مشقة رحلتهم بما أكنت صدورهم المغلولة ، يستضيئون في الأمسيات الليلاء بشأر الأحقاد . ويلوكون الكراهية دفعا للجوع . ويصحبون في الوحدة الموحشة خيالات المأمول . .

غير أن ابن ملجم كان — دون رفيقيه البرك وعمرو — أولى الثلاثة بالحذر والتقية ، فدخل البلدة خائفا يترقب وفي ظنه أن العيون تأخذه من كل جانب . وحق له . فعنده بأهل الكوفة غير بعيد في حساب الخواطر لا في حساب الأيام . . وقصته بها جدية بأن تظل ماثلة سنين عديدة في الذاكرات لا تخلق ولا تغيب . وحديث أمير المؤمنين معه من المأثورات . . وإذا كانت زحمة الحوادث المولية قد طوت أمره عن الناس هذه الشهور الأخيرة ، فإن نظرة عابرة قد تقع عفوا عليه ، خليفة بأن تنضو عنه مسوح الخفية ، وتدعه عارى النية ، مهتوك السر ، على قمة الريبة . .

واهتز الرجل من أعماقه .

ليكاد يعاين افتضاح أمره في كل ما يجري حوله . . في كل حركة تعرض ، وكل نظرة ترنو ، وكل همسة تبدر . . يكاد يحس — بكيانه كله — توجس القوم منه التوجس الذي يلتف عليه التقاف أفعى تضغط لتمصره ، ثم يلتقي به وبهمته الحبيثة وراء جدران صماء لا منفذ بها ولا ثغرة تتسرب منها مكيدته . . يكاد صبره ينهد ، وجلده يتمزق ، وعزمه يهن ، وقلبه يتهاوى عند موطن قدميه . .

إنه ليجزع فيجزع في الجزع حتى أذنيه . ثم يهلع فيذوب في الهلع عقلا وعصبا وجارحة . ثم يملكه فزع غامر يشل تفكيره فإذا هو فزع المستكبر الصليب الذي لا يهدده خوف الهلاك بل خوف الإخفاق . .

ولا لوم عليه عندئذ لو أحس الضياع . أو ذهل عن نفسه . أو اشتبهت عليه الأمور . أو مات من الحسرة في كل لحظة مرة ، مع كل نفس يردده صدره ، وكل خطرة تعبر بباله . .

فذاك أولى بأن يكون . .

وكيف لا ، وقصته مع الإمام تنفض عن جنباتها البالي كفن اللسيان ، وقد انشق عنها قبر السنين ، لتجسّد حية أمام باصرة خياله ، طوال يومه وليله ، سكونه وسيره ، نماسه وسهره ؟ . . وحديثه وإياه لا يفتر عن الطنين في أذنيه يمثل الزمزمة التي يعلل دويها أذنى محروم ؟ . . ومشهد لقائهما الذي انتهك فيه سره — وهو حينذاك مجهول له ، خفي عنه لم يحل له بعد في خاطر — لا يبرح عينيه كأنما قد ارتسم بين جفنيه ؟

وطارده الذكرى . .

إذ ذاك كان قد وفد ، فيمن وفدوا على أمير المؤمنين ، ليأخذ عطاءه . . فما امتدت يده حتى أمعن الإمام فيها النظر يلعظ خاطف ثاقب الشماع ، صوب سنه بعد هنية إلى وجهه ، وقال في هدوء :

« ما يحبس أشقاها ؟ . . »

وكرر السؤال . .

ولم يفهم ابن ملجم . ولا فهم الناس الذين سمعوا ، إلا قلة من خلصاء الإمام أعادت الكلمات الهادئة إلى أذهانهم ذلك الحديث المأثور عن رسول الله ، الذي يعلنون أنه حدث به ابن عمه وصديقه منذ سنوات طوال .
فما أسرع ما تكرر الذاكرات بالكثيرين إلى ذلك الماضي ، تسترد منه ذلك الحديث .

وتلتئم الخطوط . وتتجمع الحروف . ويكتمل المنظر بما يحتوي من مرئيات ومن أصوات . .
محمد يسأل :

« أتعلم من أشق الأولين ؟ .. »

وطى يجيب :

« نعم . عافر الناقة . »

فيسأله ثانية :

« أتعلم من أشق الآخرين ؟ .. »

فيجيب :

« لا . »

عند ذاك يقول الرسول :

« من يضربك ها هنا » مشيراً إلى هامته ، « فيخضب هذه » مشيراً إلى

لحيته . . .

فهذا الحميرى ، طالب العطاء ، هو إذن ذلك الأشقى الذى أعلم الرسول علياً

نبأه ، وقرنه فى الشقاوة بأشقى الأولين ، عافر ناقة عمود .

هذا هو الفاتك المقتال الذى أوماً إليه الإمام بكلماته يوم طاف به طائف من

علم محمد الغيب عن غيره من البشر ، فقال لبعض خاصته المجتبيين ، الذين كانوا

يشفقون عليه ، حين الحرب ، من خوض الحشود واقتحام السلاح ، غير آبه

شيئاً بما قد يصيبه أثناء القتال :

« إني لا أقتل محارباً ، وإنما أقتل فتسكا وغيلة . . يقتلنى رجل خامل

الذكر . . . »

والتفت العيون الذعورة بأبن ملجم ، واسعة الحلاق ، حائرة النظرات .

وتناثر فى الجو حوله رشاش الحمسات فى تساؤل واستفسار . . .

لكن الإمام مال عنهم إلى الوافد للشبوه فمنعه عطاءه الذى جاء له . ثم

تمثل بيت شعر لعله أن يغنى عن التفسير :

« أريد حياته ويريد قتلى »

عذرك من خيلك من مراد . »

هنا انبثق من البيت المروى من شمع أضاء في الخواطر ما قد غمض على الناس ، في بدء ذلك اللقاء ، من كلام الإمام . . . الآن رفع العطاء . . . برج الحفاء وانجاب الستر عن السر المسربل بالغيب فلا حاجة بهم إلى تعقب أمره أو تبين ملاحه من خلال غموض الإيحاء . . . فطالب العطاء الذي أثار قلق القوم ، وحرك فيهم الشعور بالخطر ، حميرى من اليمن فيما يعلم تقر منهم غير قليلين ، نسبة إلى مراد أو هو حليف لمراد ، وعداده في كندة أهل الأشعث بن قيس وذويه . . .

وزلزل الخوف ، على الأثر ، قلوب الجمع للتلطف بأمر المؤمنين وقد بدا لهم في ابن ملجم المصير الدائم الذي يوم أن يتسلل خلسة إلى صاحبهم بالغيلة بعد حين يضمه الغيب ، في ساعة من يوم مجهول ، بأرض سلام لا بساحة قتال . . .

وأذهل أيضا الصفوة الخلاء منهم ، أن يعد الإمام للشقى في الطمأنينة ، فيوفي له العطاء غير مانع ولا ضنين ، ويحلى بينه وبين الحرية ، بغير تحرز منه ولا عين عليه ، وإنه للعالم علم اليقين أنه عائد لا محالة إليه ، فقاتله في غد إن لم يكن اليوم ، أو بعد شهر أو عام إن لم يكن هذا الشهر أو هذا العام . . .

وقالت للإمام منهم طائفة رأيت ضرورة تدارك الهنة المقبلة ، ومعالجة الأمر بالحسم ، توقيها لما يكون :

« فهلا تقتله يا أمير المؤمنين . . . »

فابتسم بسمة هادئة لونها أطياف من السخرية أو الإنكار ، وهو يعجب كيف فات وعيهم الناضج أن هذا الذي يطلبونه منه ، ويدعونه إليه هو قمة المحال .
وقال :

« فكيف أقتل قاتلي . . . »

فسمع منهم الصمت ، ورأى الوجوم . . .

لكنه شاء ألا يدعهم والحيرة ، وآثر أن يكفهم ، بمنطق العدل ، عن محاورته ليوصلد الباب دون خوضهم بغير جدوى في غمرة المغيب المجهول ، فأردف يقول :

« إنه لم يقتلني . . فكيف أقتل من لم يقتل . . »

وهل من قصاص بغير جرم ، وعقاب ولا جريرة . . ؟

وها هو الآن هذا الشقي : عبد الرحمن بن ملجم الحميري ، طلع الأرض الخبيثة ، حليف مراد ، لصيق كندة ، ثالت رفاق الاتفاق الدموي بمكة ، يقبل على الكوفة بعد غيابه عنها العديد من الأشهر ، وقد تخلفت في نفسه النية الخبيثة التي كانت خافية حينذاك عن لمح خياله ، خبيثة في طوايا ذهنه كالنطفة الهامدة التي لم تضطرب بعد بانتفاضة حياته . .

ها هو يقبل ليوفي نذره . ليقضى وطره . ليقتل الإمام . ليكتب بمنجبره السموم آخر سطر في القصة التي لم تحتتم يوم العطاء . . .

لصيق كندة الحميري ابن ملجم ، كان يعلم أنه أحرى بأن يقع في شرك الريبة ، إن لم يكن بين فسكى الهلاك ، لو أنه لم يلتزم خطة الاستخفاء والمخالسة ، التي انتهجها منذ مبارحته البلدة الحرام ، كأحكم ما يكون الالتزام . . فلا أمان له في إشباع نهمه إلى التعرف على ما يدور حوله بالكوفة . ولا في تعمق ما يخالج الناس . ولا في العوص فيما قد نوى إليه ظواهر الأحوال التي يرى — بين شعوره وتصور حدسه — أن صروفها المتواليات راحت تتجمع في جوانب الأفق ، أحيانا كالضباب ، وأحيانا كالسحاب ، منذرة بأحداث قريبة الوقوع . . إنه لا يضمن ألا يتعثر في نظرة مرتاب . . ألا يفتن إليه غريم ألا يتبين أمره أو ملامحه بمض أولئك الذين عرفوا سيرته ، وسموا برحيله مع أهل النهر ، وأدركوا سبب انتفاضه على الإمام ثم قد يشيخون الآن ما لا تحمد له مغبة في أوبته هذه المريبة إلى بلدتهم بعد الاختفاء الطويل . .

لا معدى له إذن عن كف النفس عن محاولة استكناه الأسرار ، واستنباء الأخبار ، والتطلع إلى ما وراء كل مرئي مائل ، ومنطوق مسموع وإن كان إحساسه المرهف بالخطر المحدث به أولى بأن يشحذ ولعه بالتقصي والبحث ليأخذ بالحذر ، أو يتمود بالطمأنينة .

أهون انشر عليه ، لا محالة ، هو أن يخلد ، ما وسعه الجهد ، إلى القبوع داخل إهابه . . الاعتزال في قرعة أفكاره . . التناثي عن هذا التيار الذي بدأ يضطرب بالحاضرة العراقية وأهلها في تلك الآونة القلقة من تاريخ الإسلام ، ثم عسى لا يدري أحد ، ولا هو يدري ، أيها تحدره المتواتر فيسكن أو يفيض ، أم يزيد تدقعا واندفاعا فيفور أو يفيض كطوفان . .

ذاك قصاراه . .

والكوفة آنذاك لم تكن هادئة . لم تكن رائقة الصفحة ذلك الرق الصافي

الذى ينم عما تحته في القاع . . ولم تسكن أيضا هادرة . ولا مطهوسة معالم
سطحها المتموج ، البادى أمام النواظر أو الخواطر ، كل الانطاس . . بل قد
كانت تمج بالعدو والروح . وتتذاب بين الضجيج والسكون . وتمتلىء بالأخبار
كما تمتلىء بالأحداش . لا تكاد تعرف الاستقرار . قلقه السكبان — هيئة
وفكرآ — تتحمل كتملح مروج لا يعرف ، أو يعرف إنسان ، أتنهكه
علة تمركه حماها ، أم وجهه هذا الذى ينوشه عارض لا يابث أن يزول
بعد قليل . .

وضاقت عليه ، لاريب ، البلدة وهو فى ملاك ذلك الشعور الذى يطلع
الخطر عليه من كل ناحية ، مع كل لحظة من نهار ومساء . . فبين كثافة خلاقتها
الذين يؤلفون مجرع السكان ، تكاد تفرقه النظرات . وتخنقه الهمسات .
وتصرعه اللفتات العشوائية التى تنبث بغثة — كانبعاث السيف حين يسل فجأة
من غمده — من كل مقبل ومدبر من عابرى السبيل . .

ليكاد يحس أن الدنيا له بالمرصاد ، المجموع تتبع حركاته أو تقرص بخطاه .
المرصد مبثوثة فى طريقه . الشراك منصوبة تحت قدميه . . فى كل وجه يقابله عفوا
بطريق ، مرقبان : عينان . . فى كل طريق مزلق إلى هاوية . . فى كل هاوية
ينتظره هلاك . .

ما من مناص له من الانهياز عن هذا الزحام الخانق إلى منتأى بعيد ، تنعشه
به نسمة هواء وتجنه فينة هدوء . ينزل منه بقر آمن . ويأنس فيه إلى رفيق . .
لقد كان من قبل ، إبان الرحلة الطويلة من الحجاز ، يتجنب الناس ، ويلوذ
بالوحدة ، ويصاحب الوحشة التى يحترف من وقرها عليه التقاؤه بأفكاره ،
وانفساح الصحراء أمامه الانفساح الذى ييسر الانفراد . . ولكنه الآن فى
المدينة المزدهجة غيره بالأمس فى رحاب الأرض الجرداء . ومع الجمهور الزاخر
كابصر الهادر غير مع خواطره الوادة له ، للأوضة الحاجات شعوره . . فالتجمع
الإنسانى فى أى بقعة من الأرض يشير فى النفس غريزة حب الاجتماع . ووجود

الناس يغرى بالصعبة . وامتلاء السمع بالكلام يدفع اللسان إلى الكلام . . .
وكان لابد له أن يختار ، فاختار . . .

غامر بالتخفف هونا من قيد الوحدة الذى كبل به نفسه ، بعد أن ثقل عليه
عالم الغموض المريب الذى يعيش فيه ، وجو الوحشة الخائفة الذى يطبق على
صدره ، وطول الكتان الذى يعيه . . .

ولم يكن نة أمامه — إن نفص البلدة كلها طولاً وعرضاً ، دروباً ومشارف
وأحياء ، أو خبر أهلها أجمعين ، مقيمين ووافدين — غير مأمنين اثنين ، هما
أدنى إلى ألا يختاراه أو يشيا به ، وإنما فى قلبه المغلول للناس . . .

فليس آمن له ، فى المدينة الكبيرة ، المليئة بالحركة ، المائجة بالجموع ، من
منازل كندة ومن لحق بهم من بنى جلدتهم البنية من موال ولصقاء وأحلاف .
وليس أكنم لأمره ، وأبقى عليه — بعد هذا الحى — من أطراف البلدة حيث
لا يعدم أن يجد شراذم مبعثرة من ذوى رأيه وأصحابه الخوارج ، يعيشون فيها
أشتاتا على استخفاء . ودون ذلك وتلك قد تطلع الأرض له الارتياح والخطر
والتريب مناجل تحش مهمته لتذروها الريح . . .

لا ريب قد كان عبد الرحمن يختلف حيناً إلى مأمنيه هذين ، كلما أعوزه
الاطمئنان ، وافتقد الصعبة ، واستوحش فضاقت دنياه باعتزاله الذى كان يحياه . .
لا ريب قد مال مرة هنا أو مرة هناك ، متمسكاً بالظلمة ، متمسكاً بالجدران ،
عسى أن يلتقى فى القوم من عساه علأ عليه بعض الفراغ . . كان مفتقراً إلى
تجديد الثقة بنفسه ، فى حاجة إلى تثبيت يقينه ، وليس له إليهما من سبيل سوى
ألفة تشع عليه من دفئها ما يبدد برد ليل انتظاره الطويل . . .

فلعله حينذاك كان يحاول أن يصطنع رقعة جديدة فى متعصب أو غير إن لم
يقع على صاحب أو صديق قديم . . لعله كان يلتمس العون والطمأنينة عند
رئيس يمين ويحير . . لعله كان يحس النيات ، ويشم الاتجاهات ، وإن هو ظل
دأماً — كدأبه — ذلك الحذر المتوجس الذى يكتم أمره عن الجدد والقدامى

من الخلان على السواء ، طاويا عنهم ما تعاقد بمكة عليه مع صاحبيه ، مخافة أن يتزلق به لسانه فينتشر السر ويفسد التدبير . .

لكن الثابت الذي لا شك فيه أنه التقى بفريق من الخارجة ومن يرون مثل رأيهم الحبيط المضطرب في الحكم والحكام . والتقى أيضاً بالأشعث بن قيس ، سيد كندة ، الذي له هوى معروف في ضرورة تغيير الوضع القائم ، وله نشاط ، لم ينسه الناس ، كاد ينحرف به عن مؤازرة على كل الانحراف إلى ما يشبه العداء والخصومة وإن هو غطى سلوكه أمام العامة بقشرة ولاء . . .

على أي وجه من الوجوه كان التقاء ابن ملجم بأولئك أو هؤلاء ، وكيفما كانت وسيلته للالتقاء ، فقد كان أسلوبه هو الأسلوب الطبيعي المنتظر ممن هو مثله من أصحاب الخطط السرية الذين يستوثقون لأنفسهم ولخطائم الزاحفة إلى الهدف الخفي كل استيثاق ، باستقراء الملامح ، وتعمق السرائر ، واختبار الميول ، وتشتم رائحة الخبيء المجهول . . فلم يكن له حيص عن التلصص والتجسس ، وعن التلمس والتحسس ، عسى أن يده فعله على سبيل أقصر إلى نهاية شوطه . أو ناصر أقدر على معاوته . أو متبصر أعلم منه بالمسالك وأعرف بحقائق الأمور والأحوال . أو رفيق طريق يستطيع به — في أقل القليل — أن يرى من مكامن الخطر ومواطنه ما قد منعه تواريه واعتزاله الحياة العامة أن يراه . أو ولي وفي يحمي ظهره عند وقوع الخوف المذور . .

وما يدرى أحد أسعى عبد الرحمن بن ملجم وقتئذ إلى الأشعث بن قيس أم سعى الأشعث إلى عبد الرحمن . ولسكنهما التقيا بلا مرء . وكان اللقاء بينهما هو اللقاء الذي لا بد أن يكون لأنه كوقوع الشكل على شكله ، واجتماع المردف برديفه ، إن لم يكن لقاء الاتفاق والمصاحبة المشتركة بعد ما ظهر ، منذ رفع المصاحف بصفين ، من انحراف الأشعث عن على بن أبي طالب ذلك الانحراف المشبوه الذي يماثل العصيان ، بل المناجزة ، بل الاتجار . . .

فسيد كندة ، فيما دلنا عليه سلوكه ، متهم في ولائه للإمام الاتهام الذي

لا يكاد يدع منفذا للاعتذار عنه بأي تبرير ، أو للمفاوطة في دمه بالانحياز عنه والمالأة عليه بين تقدير وتقدير . . . فما يمكن الادعاء بأنه لم يختلف أثناء المعركة ، في بعض فيئات هدوء المقتال ، إلى بنى أصله الخينية في صفوف الشام ، يقابلهم ويحادثهم ، على عادة المقاتلة في حروب تلك الأيام . وما نبرى مقابلاته هذه من مشاورات كان يجريها مع قومه من حزب معاوية ، ومن وراء ظهر حزب العراق ، لكف الحرب وإعادة السلام . وما يخفى على أحد أن مشاوراته حينذاك كانت أدنى إلى أرب معاوية ، وأجدى عليه منها إلى سياسة على وغرضه وإن بدت كأنها ترمي إلى صالح المسلمين العام . وما يكتم التاريخ أن سلسلة أفاعيله من بعد كانت لها اليد الطولى في الأخذ من جانب على والإضافة إلى جانب معاوية حتى انتهت آخر الأمر إلى قلب ميزان القوى بين الفريقين ، ثم تبديد حق الإمام . .

والسرديطول . . . ولكن الأشعث بن كندة ، كما ثبت كاليقين ، لاح كالسائر على خط مرسوم ، السامى إلى هدف معلوم ، الدائب دأب العامد الحريص على فض النزاع المشبوب على غير ما رأى إمامه ، وبخلاف ما ارتجى العراق ، وكنتفيض ما أجمعت عليه عزائم أولى الألباب العارفين بالله ، الداعين إلى سبيله ، الماملين على رفع شأن الفضائل والقيم الخلقية والدينية والاجتماعية للقرار بأوضاع الدولة والناس القرار الذى يعلى الحق ، ويعحق الباطل ، ويوحد الأمة ، ويقضى على النقاق والشقاق ، وتستقيم به الأمور فى أرجاء أرض الإسلام — دينا ودنيا ، وخلقا وسياسة — تكير ما ينبغي أن تستقيم . .

آية ذلك ما اندفع إليه ، منذاك ، من مبادرات عمرت بالجهد الدائب ، والسعى المتواتر ، والقول المثير ، مشى بها فى طريق ولاء من المشاورات والمناورات ليس قصاراها إلا أن تمس على الإمام خططه ، وتضطرب بأموره إن نحن أحسنا بها الظن ولم نقل إنها تبييت مدبر ، وحلقات متصلة من الدسائس والمؤامرات . .

واحدة أنه علا بنفسه — زهوا وغرورا ، أو انحراف وخيانة ١ — إلى ما فوق موضعه ، فادعى لها الولاية على الإمام ، وطى صحبه الخلاء ، وعلى جموع أهل العراق ، ثم على المسلمين كافة ، خف من خلف أظهرهم أو كاد إلى ما يشبه الاتفاق مع عتبة بن أبي سفيان طى وضع الحرب ، أو على تسخير نفوذه لوضعها ، دون مشورة من ولى الأمر الشرعى ، وغير مبال ما لفعله هذا من أثر بالغ فى تمويق الخطأ إلى الهدف ، وفى تمزيق وحدة الصف ، وفى الهبوط بمعنوية الجيش العراقى المنخرط حينذاك فى القتال بصفين إلى وهدة الوهن والتخاذل والانقسام..

يومئذ يصفى إلى ملق عتبة بن أبي سفيان الذى يشير فيه كلفه بالتفاخر ، ويغذى بألفاظه المنمقة المعسولة غروره ، إصغاء مقبل نهم نشوان ١ ..

يقول عتبة :

« إنك رأس أهل العراق ، وسيد كندة ، ولست كأصحابك ١ .. إنك حاربت عن أهل العراق تكرما ، ثم حاربت أهل الشام حمية ... وإنا لاندعوك إلى ترك طى ونصر معاوية ، ولكننا ندعوك إلى البقية التى فيها صلاحك وصلاحنا ... »

فلا يأبى الدعوة المخذلة عن الحرب ، المرجحة لكفة الشام ، بل يتقبلها كمثل تقبل ظمآن ماء آسنا لا خيار له فى رفضه أو يعوت ١ ..

يجيب :

« ... أما البقية فليستم بأحوج إليها منا ، وسرى رأينا فيها إن شاء الله ... »

ويعلم معاوية من أخيه بما كان من الرئيس الجانى الكبير فيستبشر ، ويطمئن باله ، لأنه — وقد أبأسه وشق عليه أن يحتلب النصر من طى محمد الحسام — يوشك أن يرى قلبه طى غريمه وحزب العراق يأتية يسيرا هينا من خلال استجابة الكندى الغرور لهذا التخاذل الموهى بآلوان السلام ١ ..

وأخرى نعلها ويعلمها الناس ، عندما تسمر القتال في معركة صفين ، قبيل
نهايتها ليلة الحرير . .

فلقد أشرف القتال ، ليلتها ، على لحظة فصل تجلّت بها للعراق بشائر نصر
حاسم لاشبهة فيه ، كما بدت للشام نذر هزيمة ساحقة لامناص من تَجرجع مرارتها ،
ولا سبيل معها إلا سبيل الاستسلام . ولكن الأشعث يلوح كالأدى لا يرتضى
هذه النتيجة ، ولا يحب أن تكون . فيسارع — طائما وملهوفاً — إلى تشييط
همة قومه القاتلين في صف على ، وتحذيلهم عن مواصلة القتال شبرا أو فترا
إلى النصر المضمون ، كأنما قد هاله أن يعز الإمام ، وتسقط الراية من يد
ابن أبي سفيان . .

ينبرى حينذاك إلى قومه كندة ، وهم بعد على ثرى الميدان ، لا يحثهم على
الصبر والثبات وإعنا يحرضهم على القعود والشلوط . . ولا يخوفهم الهزيمة ، بل
يخوفهم الظفر الذي لاحت لهم معاله ، وخفقت فوق هامهم أعلامه . .
يخطبهم فيقول :

« .. قد رأيتم ، يا معشر المسلمين ، ما قد كان في يومكم هذا الماضي ،
وما قد فنى فيه من العرب . فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ
فما رأيتم مثل هذا اليوم قط . . ألا فليبلغ الشاهد الغائب إنا إن نحن توافقنا
هذا إنه اغناء العرب ، وضيمة الحرمات . . »



وثالثة جاوز بها حدود الولاء إلى الترد ، والمؤازرة إلى العصيان . .
حين أكلت الحرب أهل الشام ، وأوهك الأشتر ببعض جنده أن يعصف
بمعاوية في فسطاطه ، واحتال عمرو بن العاص بالمصاحف تمودا بها من الهزيمة ،
وهم فريق من العراق أن يقوموا في شرك الحدعة . . في تلك الآونة الخطرة التي
تقرر المصير ، وتمرق الحق عن الباطل ، والجد عن الهزل ، والنصر عن الهزيمة .

نصب الأشعث بن قيس الكندي نفسه — دون علي ، وصفوة صحبه ، وروس جماعته ، وقادة جيشه — وليا ناصرا للعبة المأكرة ، ومدافعا عن العدو المخذول . .

عدى بن حاتم يقول للإمام :

« إننا أمثل من القوم بقية . وقد جزع القوم ، وليس بعد الجزع إلا ماتحب فناجز القوم . . »

وعمر بن الحمق يقول :

« والله ما نصرناك عصبية على الباطل . ولا أجبننا إلا الله عز وجل . ولا طلينا إلا الحق . وقد بلغ الحق مقطعه ، وليس لنا مملك رأى . . »
والأشتر النخعي يقول :

« إن معاوية لا خلف له من رجاله ، ولك بحمد الله الخلف ، ولو كان له مثل رجالك لم يكن له مثل صبرك ولا بصرك . فاقرع الحديد بالحديد ، واستعن بالله . . »

أما رئيس كذبة الأشعث فيغضب الغضب كله لهذا الإجماع من رفاقه ، سادة الجرع وقادة الألوية ، على مواصلة القتال . . ثم يشور . . ثم يعتف لعل في الخطاب :

« . . ليس آخر أمرنا كأوله . . فأجب القوم إلى كتاب الله فإنك أحق به منهم . . فقد أحب الناس البقاء وكرهوا القتال . . »

ويعضى يؤاب الجيش العراقي ضد ما قد ارتأى أصحابه ، ويحرص على إطفاء نار الحرب ، والركون إلى المهادنة حتى تتنادى الكثرة بقبول التحكيم ، مخالفة الإمام . .

* * *

وغيرها أنسكى وأمر ، تضيق على أميره ثمرة الكفاح ، وتهدم أسس النصر ، وتفسخ البقية الباقية من الأمل في الاستقرار لأنها تقضى القضاء المبرم على الحكمة المنشودة من وراء الاحتكام لكتاب الله . .

فهو لا يدع التحكيم ، الذي جهد ليقوم ، يسير في طريقه الطبيعي إلى ما يحقق

سلاما عادلا يشير إليه الواقع ، ويقضى به صالح الأمة ، ويرضاه حكم الله لأنه هكذا التحكيم الذى يكشف عن بغى الباغين ، ويدمغ سلوكهم بالمروق ، ويحملهم حملا على ما يكرهون من حكم القرآن . . .

ولا مغالة ، إذ أبى إلا حكما يرضاه وإن علمه مشبوه الولاء للإمام ، أدنى إلى الغفلة عن القضية ، وأولى بتسليمها لمشيئة الغريم . . .
يقول على :

« إن معاوية لم يكن يضع لهذا الأمر أحدا هو أوثق برأيه ونظره من عمرو بن العاص . . . وإنه لا يصلح للقرشى إلا مثله ، فليكم بعبد الله بن عباس فارموه به . . . »

لكن الأشعث يعترض الرأى وقد أخذته العصبية :

« لا والله . . . لا يحكم فيها مضريان حتى تقوم الساعة . . . ولكن أجعله رجلا من اليمن . . . »

ويختار أبا موسى الأشعرى . . .

فيقول الأحنف :

« . . . قد عجمت هذا الرجل ، فوجدته كليل الشفرة ، قريب القعر . . . لا يصلح لمؤلاء القوم . . . وهو رجل يأن ، وقومه مع معاوية . . . »
ويعقب على :

« إنه ليس لى رضا . وقد فارقتى ، وخذل الناس عني ، ثم هرب حتى أمته . . . »

فيأبى الأشعث :

« والله ما نبالي . . . »

فيرشح الإمام آخر :

« فإني أجعل الأشتر . . . »

فيأبى ثانية أو ثالثة ، ويصر على أبى موسى ، ويظهره في الإباء والإصرار جماعة القراء الذين غدوا من بعد خارجة ، كأنما كان وإياهم على اتفاق . . .

ويقع ما يقع في التحكيم فإذا هو وفاق ما أراد أن يقع مكر صاحب الشام ، وغفلة أبى موسى ، وخيانة الأشعث . وعنت القراء . . .

ذلك الزاحف من مكة برسالة الموت ، استطاع — في وكر الفتنة — أن يحقق ما اشتهت أحلامه السوداء أن يكون . . .

بمسارب الكوفة المظلمة ، ومغاوير الدسيسة . جدد الصعبة مع نفر ذوى صلابة ومراس ، من الأولى على نفس مذهبه ، يكون لعل بن أبي طالب عداوة حمقاء صريرة ، ويرنو أمهم المجنون إلى هدم حياته ، وتقويض عهده لنشر دعوتهم الوبيثة . . .

وبين فلول الماتورين والمخدوعين ، وقع على بضعة غالية في عصبية التفكير ، أنس منها إلى اثنين مفتونين ، عاقدها على النصرة واسترخاها الحياة ، من أجل إراقة الدم المستباح . . .

وبديار تيم الرباب ، لقي من يؤجج شره ، ويلهب ثأره ، وينفخ في ناره ، ويحفز نفسه المفعمة بالاضغينة ، اللتأثة بالهوى ، حذر اشرها لانهدأ لهزيمة ، ولا تبرد غلة ، ولا يتراخى تصميم . . .

وفي حي كندة ، فوق كل أوامك ، قابل الرئيس الندى يحمى ، أو يشير ، أو يشير . . .

لكن القدر الموكل بالفلوب ، أو شك في لقاء من تلسم اللقاءات أن يعد أصبعا إلى قلب للتأمر تلعب بوتر فيه فتقلب — لحين من الزمن — تفكيره ، وتعديل تدبيره حتى لكادت أن تدفع بخطاه بعيدا بعيدا عن المرمى الذى بيت النية على بلوغه بعدا شاسعا ثم أن يتحول بتيار التاريخ . . .

ولم يكن هذا فى حسابان أعبد الرحمن يوم بدأ رحلته الطويلة . ولا جال له فى بال وهو يرتاد للمسارب والمغاوير والأوكار انتجاعا للمون أو الرقعة أو النصيحة .

ولا سرح ظنه لحظة قط إلى قوة في الوجود — من شيء أو أمر ، من ناس أو حدث ، من إعداد فعل مدبر أو من صنع صدفة عارضة — تستطيع أن تعترض سبيله المرسوم ، أو تحرف خطاه عن السير عليه . .

غير أن القلوب قلب . والهوى جموح . والعواطف رعناء . .

وقريب إلى سجية البشر ، لا ريب ، بل بضمة منها ، أن يعرف المرء الحب ، ويندوق طعمه ، فينعم به أو يشقى فيه . وقريب أيضا — حين تلمسه عصاه السحرية — أن ينسى نفسه ، وينسى عقله ، وينسى ماضيه أو يكاد يذهل آونة عنه تطول أو تقصر كعمر نشوته ، ليتبدل على الأثر قلبا بقلب ، وشعورا بشعور . . ولا غرو . . . حين تلتفت القلوب تغمص العيون . وحين يأمر الهوى تلبى الجوارح . وحين تجرّش الأحاسيس تأسن العقول . .

فتلك سنة الطبيعة في الناس ، وضربتها المفروضة عليهم لحفظ البشرية . .

وكان من قدر ابن ملجم أن عرف الحب ذات ايلة ساجية بالكوفة ، من ايامى الفرار والطراد وانتسلل المسترة بالغموض ، المأجبة بالهمس ، اللبثة بالأسرار . . فإذا هو إذ ذاك يبدأ رحلة جديدة . . يعيل عن طريق التفكير الحذر إلى طريق العاطفة المفتونة . . يمر بالتجربة الإنسانية العذبة ، للتواترة في حياة الإنسان كأنفاسه ، المتكررة عبر الأيام في كل مكان . .

باللمسة الساحرة ، غدا المتأمر المغامر غير ما كان : إنسانا سوى إنسان ، وكيانا سوى كيان . . . لكانه خالص من كثافة البدن ومن عتمة للمادة . . . لكانه ابن لحظته الحلوة التي أعرقته في النشوة . . . لكانه ولد من جديد . .

في عين من سوادها الداكن ليل الليل ، ومن بياضها الصافي صباح الصباح ، عاين الفلق قدره . وجد دنياه . عاش فترة من حياته شهية ندية هي الحياة ، أو هي حياة غيرها أخرى ، مفصولة تماما عن هذه الحياة . لا تسكاد تسمى المألوف في وجوده الأول ووجود الناس من شكول وأوضاع ، ومن نظرات وأنكار ، ومن ظنون وأحداث ، ومن سنين ولحظات ، ومن أغوار وأبعاد لأنها لا تخضع

لأى الأعين ، ولا لمنطق العقول ، ولا لحكم الأحيار . . لا تفطن لما يدور
في ذلك العالم الذى كان يحبه ويحتويه : عالم القلق والحذر ، والخوف والخطر ،
والدس ، والظلام . . لا نحسب من سنى عمره ، لأنها وحدها العمر والدهر
والخلود . .

إلى دنيا أرضها زهر ، وريحها عطر ، وأفقها أمل ، وجوها صفاء ، نقلته
نظرة وسنانة مخالسة من بين أهذاب عيني قطام ، غيداء تيم الرباب . كانت الفتاة
أسرة الحسن ، طاغية الفتنة . فى لحظها خمر ، وفى لفظها سحر . رقيقة كقطرة
الندى ، ريانة كأنفاس الفجر ، نضرة كالربيع . فما أن رنت إليه ، أول رنوة ،
حتى أحس كأنما ذاب فى النظرة العابرة الحفرة التى صادفته عن غير موعد ،
وتسللت إليه على استحياء . .

وأملت منه ، على الأثر ، طرف ذلك الغرض الذى دبر له ، ووهب نفسه ،
وجاء من أجله يقتحم الشبهة والليل إلى مستقر هذا اللقاء . غاب عن فكره النذر ،
وعهد الثأر ، ورحلة الغيلة الطويلة من البلدة الحرام . غفل عن كل أولئك
الزمرة من رفاق المذهب المفتونين الذين أقبل من وكره على جمعهم الحاضر ليسمع
منهم ، ويستطلع رأيهم ، ويمجم دخائلهم — دون أن تسقط لفظه من بين شفثيه
قد تننى به — عسى أن يستصفى فيهم فردا ذا عزيمة وبأس وكتمان ، يعاوده على
المشورة والعون ، ويسير معه لصراع الإمام . . ضاع منه ، فى غمرة نشوته
الماطفية ، ما قد سلف من حياته وفات ، ثم أوشك أن يضيع ما هو آت غير لحظة
من رجاء عذب ألا يطلع عليه نهار أو يحبه مساء إلا وهو يخلق فى سماء أحلامه
الوردية مع قطام . .

إنه الآن غير ما عهد أن يكون . كأنما قد اعتسل بالنور . . يذنه كلة خدر ،
وفؤاده كله وجيب ، وأنفاسه كلها لهاث . . كأنه صنع من صفاء . . كيانه
ينطوى فى نبضة تحفق . . روحه يشع فى نظرة تهيم . . عالمه اختزل فى فتاة . .
وعندما طفا على سطح المشوة ، وعاد هنيئة إلى بعض وعيه ، كان قد نسا عن نفسه
ثياب الضخينة وكسبه العاطفة مسوح السلام . .

ولم يقل لهم ما كان قد أعد ليقول ولا جهد ليستدرج خواطرهم إلى ما يريد .
ولا حاول أن يلتقي أذنيه إليهم ليعجم الأعواد . . . ولكنه أخلد بينهم إلى صمت
واجم كأنه ذهول وهم من حوله يحدثونه لو كان لأصم مسمع يعي أو يلتقط
الألفاظ . . .

وتفضته الأمسية ، من بعد ، إلى وكره الخفى ، ينفرد فيه بمرائس رؤاه . . .
وكان راضى النفس تظله السكينة . يسبح في عاطفته على قارب نشوان . ويمشى
بحيالاته على السحاب . . . وكان غير ما كان . خفيفا كالنسيمة ، نقيًا كالفجر ، رفيقا
كأنه ظل ، شفافا كأنه شعاع . . .

فكم من ليلة قضاها هناك ، بخلوته تلك مع الحب ، بعيدا عن الضغينة والناس
وعوالم الظلام . . . كم من يوم أسفر صباحه عليه وهو في حله الجميل الموصول . . .
كم من لحظة أغلق فيها قلبه على نفسه ، كناسك بصومعة ، وأطبق أيضا جفنيه
على صورة قطام . . .

الليالى القليلة التى لعلها مضت عليه وهو فى هذا السراح الرفيق مع عاطفته
الوليدة ، فتحت أمامه الطريق للتطهر ، ورققت شعوره ، ومسحت على فؤاده
الصلد بالحنان . . . خلال سويحاتها الناعمة ، عاش فى دنيا رحيبة من رقة تنكر
القسوة ، وحب لا يعرف الكراهية ، وسماحة توسع فى المغفرة لكل الخطايا ،
ما جل منها أو هان . . . ومن ثنايا أحاسيسها المحلقة ، كان ينبثق مثل نبع من
ضياء لألاء ، سماوى السنا ، علوى السمات ، رحيم الشعاع . . . وفى مسار فلسكها
الصافى المتألق ، كانت تسبح ، فى بروجها النورانية ، كواكب الأمل والدعة
والطمأنينة . . .

لكن هذا النقاء المنتشر حواليه ، لم يكن يسلم ، بين فينة وفينة ، من عصفة
حيرة تهز الهدوء ، أو غيمة قاق تشوب الرجاء . . . أحيانا كان ماضيه المغلول يلتقي
بظلاله الكثيفة على نور طريقه . أحيانا كان أمسه الآثم يحاول أن يمرق
حركته . أحيانا كان ما سلف من أوزاره ونواياه يكاد يشده للوراء — بعيدا

عن غده المرتقب الحلو — إلى ذلك الشر الظالم الذى ود ، بكل خلجات قلبه
الذى لمسه الحب ، أن يودعه قبر النسيان . .

كالجرح القديم الذى يبدو من ظاهر الجلد كأن قد التأم ، كان فسكر ابن ملجم
ما زال ينغر بقيعه . . . فى بعض آونات ادكاره ، كان يستعيد نذره وثأره . .
مرارا عديدة كان كالذى يطربه فحيح الهمسات التى تبادلها بمكة مع رفيقيه . .
مرارا أخرى كان يتذوق على شفثيه مثل النشوة وهما ترددان ، عن غير وعى ،
قسم الانتقام لزملائه صرعى النهر . . مرارا غيرها كان يرى ، بعين تصويره ،
دم قريسته يخضب كفيه . . ومن خلال مشاهد خياله ، كان يتابع ، بالرغبة
والشوق والتلف ، خطوات صاحبيه على طريق المؤامرة الدموى ، ليرى البرك
ابن عبد الله وقد دخل دمشق ، وعمرو بن بكر وقد دخل الفسطاط ، ثم ليكن
على كذب من كليهما ، مشتمل الحقد ، متمر النظرة ، يرقب كيف ينفذان حكم
التأمر فى مساوية وابن العاص . .

من القسوة إلى الرحمة ، ومن الحقد إلى السباحة ، ومن السكر إلى الحبة .
تأرجح الفتى ليااليه تلك وهو فى ربة محنة نفسية ، لا تكاد تهديه أين القرار . .
ترجرج كأنه قطرة زئبقية ، تندرج يمنة ، أو تندرج يسرة ، ولكنها لا تثبت
هنا كما لا تثبت هناك . . اضطرب كريشة حائرة فى مجال إعصار . .

غير أنه ، ذات أمسية ساطعة النجم ، صافية الأفق ، ريانة النسيم من أمسيات
ذلك الشتاء ، أحسن كمن أعدته هدأة الطبيعة المترفة ، وملأت روحه القلقة أمنا
وسكينة . فإذا بمحمده يخبو ، وحيرته تسكن ، ونظراته الوحشية تلين . . وإذا
بنفسه تخلص من درنها وخبثها ، كرة أخرى كساعة اللقاء ، كأنما اغتسلت
فى أشعة الأنجم . . وإذا بقلبه القاسى الأغلف يتزع غطاءه الكثيف ، وينفتح
ليستقبل الحياة . .

وعلى الأثر شهد ذلك المساء الساجى وهو يعضى إلى منبع عاطفته ، فى ديار
تيم الرباب ، خفيفا كطيف . وكانت الليلة قراء . والبدر فى سمائها النقية الشهباء

قد استدار كأنه كوة من النور تنفذ منها القلوب للتطهيرة المنيبة إلى غفران الله . .
وخيوط أشعته الندية الفضية قد نسجها الهدوء الوديع بردة شفافة تدثر الكون
النائم . . . وعندما بلغ مهوى قلبه ، كان يتوثب بفرحته ويطفر كطائر . . وكان
أمله في غد رحي غنى مع قطام ، قد استهواه كما يستهوى السنا المتوهج فراشة . .
ووجدتها كما توقع ، هناك . . ريقة الصبا ، رفاة الجلال ، ساحرة المعظ ،
ريانة الصدر ، نشوانة الأعطاف . . رقيقة كما ليس لرقعة شفيف . ناعمة كما ليس
لعمومة ملمس . حلوة كما ليس لحلاوة مذاق ! . .

ولم يفتن — ولا كاد — لمن أحاطوا بها من صحاب وآل . ولم يع لفظه
عما عساهم قد استقبلوه به من أحاديث . ولم يعرف أقصر به الزمن أو طال . فما
إلى غيرها التفت خياله ، أو أصفى سمعه ، أو رنت عيناه . .

لكنه أدرك ، في لحظة برقت في أفق حياته كأنها ومضة شهاب ، أنها احتضنت
غرضه الذي جاء فيه . شاع في وجهها القبول ، وتلونت شفقاتها بابتسامة رضا
وها تهمسان له في دلال هو الحفر أو في خفر هو الدلال :

« ما الذي تسمى لي من الصداق ؟ . . »

فأحس برعشة الانتشاء تسرى في جسده ، كأنما قولها كهرباء ! . واحتاج
قلبه كمصفور . .

لكنه استطاع أن يجيب :

« احتسكى ما بدا لك »

قالت بنبرة مغردة :

« ثلاثة آلاف درهم . . . »

« لك ذلك . »

وزادت :

« وقينة . . . »

« وقينة »

« وعبد ... »

« وعبد »

ثم ابتهمت تردف ورنين صوتها إغراء :

« وتقتل على بن أبي طالب ! .. »

فذر !

رجته هذه للمفاجأة المذهلة رجة عنيفة . عصفت به . أخذته منها مثل غشية
حقي لكأنا الأرض تמיד تحت قدميه ! .. كأنا قلبه اقتلع من بين جنبيه وطرحته
به يد جبارة عاتية بعيدا إلى مجاهل الفضاء ! .. كأنا كان قوامه كبرج عال أخذ
يترنح في ارتجافة زلزال ! .. فلولا أنه استمسك ، وشد عوده ، واسترد بمزمه
الصليب جأشه المسلوب لانهار ! ..

ولم تكن هذه الدعوة التي دعت إليها حسناؤه منكورة منه ، أو غريبة عليه ،
إذ قد كانت مرمى سعيه منذ قريب . ولكن الغريب الذي حرك عجيبه ودهشته ،
أن تصدر من الفتاة في لحظة كهذه مني نفسه أن تكون مطلع النور ، وفي مقام
كهذا أولى بأن تشيع أنفاس السلام بأرجائه ، وتتنضر الحياة ، ويصدق الهوى ،
وترقص الأحلام ! ..

لكن عادة تيم الرباب بدت حينئذ كأن قد شامت للشقاء العذبة أن تقطر
السم ، وللرقة الحنون أن تخرج القسوة المدمرة ، وللاعب أن يلد البغضاء ،
وللموت أن يكون مهر الزفاف ! ..

ورمقها مليا في توجس وحذر وما يكاد يدرى أرامت أن ترده عن خطبتها
قبادرتة بهذا المطلب المعجز المحال ليطوى رغبته في قلبه وتنفض يديها منه . أم هي
رأت أن تعبت به لتريد واهمه . أم أرادت اختبار صدق حبه . أم قد آثرت أن
تعلمه أنها كشفت عن سره فعرضت به في الحديث ؟ ..

لقد كان يعرف ، بلا ريب ، أن بعض ذويها خروا صرعى على ثرى
النهر وان ، من عامين ، بسيف على ، أو بسيف أسنانه ، جزاء وفاقا لما اقترفوه
في حق الأمة وحق الإسلام ، من انقسام عصيان ، وتبديل وتأويل ..

الأب والأخ قتلها الإمام بحسامه في المعركة الوحشية عند ضفة النهر .
وربما ألم أيضا وبضعة غيره آخر من خارجة تيم الرباب ، قد أوردتهم نفس
مورد الهلاك . . فكم قد أصاب من زمرة البغي والغلو يومئذ ، وكم قد أنخن
وفرى فيهم حتى أذاقهم وبال أمرهم إلى الثمالة ، ووكلمهم إلى الفناء . . .

ومع هذا فما كان ابن ملجم لينكر — وقطام مثله ومثل سواء من
الناس — أن الحروب أخرى بالآلات تغير القلوب ، لأنها في حقيقة طبيعتها ، منافسة
مشروعة بين أخصام ، ارتضوا بها ، طائعين ، الاحتكام لمنطق السلاح . . كان
يعرف ، وتعرف هي معه دون مرأى ، أن رضى القتال الدوارة تطحن كل من
يدانها ، لا تميز بين عدو وحبيب ، أو بعيد وقريب ، وأن مصارع قوم من هذا
الفريق لا تسكاد توغر على قاتلهم صدور أهلهم في الفريق الآخر . . ففي صفوف
أمير المؤمنين اليوم أولياء خالصاء ، كم جندل لهم في حربه بالبصرة أعزاء . ومن
قريش له إلى هذه اللحظة أتباع أوفياء ، كم أيتم منهم يقتله الآباء ، وأثكل يقتله
الأبناء وفي ساعات صياله إبان المعارك المتواليات التي خاضها منذ عهد رسول الله . .

لكنه خايل مخايل الجد والصرامة والحقد قد مسحت ، بكف ملوثة غبراء ،
على محيا الفتاة . . . لمح لبؤة ضارية تطل من عينيها الملتمة . . . رأى بناتها
المخضوب ، وهي تومي وتشير ، كأنها مخالب ، وأسنانها المنظومة ، وهي تحاوره ،
كأنها أنياب . . .

وكأنما أحب أن يسير غورها ليستيقن ، فترفق لها في الخطاب . . قال يهمس
بصوت خفيض :

« لك جميع ما سألت . أما قتل . . . »

فقطعت عبارته على الفور :

« وقتل على ... »

« وأنى لى بذلك ... »

فسد معها تفح كالأفمى :

« تلتمس غرته ، فأنت إن قتلت شفت نفسى ، وهناك العيش معى ... »

وبدا كالمضيق وهو يردد :

« إن قتله ! »

فماجلته تكمل :

« ... وإن قتلت فما عند الله خير لك من الدنيا . »

عندئذ ارتد ، فى طرفة عين ، إلى ماضيه الموسوم .. تقص تطهره . نضا عن نفسه ثوب النقاوة المستعار . اشتهى طعم الدم ، ولون القدر ، ورائحة الكراهية ، فآب للظلام ...

قال :

« أما والله ما أقدمنى إلى هذا المصر ، وقد كنت هارباً منه لآمن أهله ،

إلا ما سألتنى من قتل على ... »

فالجرح القديم الذى بدا هنيئة ، من ظاهر جلده كأن قد التأم ، عاد

ينغر بقيحه ...

اتفقا على الخطبة .

واتفقا على الخطب ا . . .

وخرج من لديها ، تلك الليلة من رمضان ، وقت السحر ، ليعد المدة لإكمال الهمر ا . . .

وكان راضى النفس ، رضى اليال . يخايله غد شهى بهذه العاجلة ، تنتظره فيه جنة الزواج ، كما يخايله غد أشهى بتلك الآجلة ، تنتظره فيه جنة الرضوان . .
وجفى الجنتين دان ا . . .

وكان قلبه ، مع ذلك ، قاسيا بكلمود ، وهو يبرح دارها ومرتع هواه على موعد معها للقاء عاجل ، يطالها خلالها بخيانة خطواته التى عاهدها أن يسيرها ، خائضا فى الدم ، إلى فرحة الزفاف ا . . .

أما عوده فاشتد كالرمح واستقام . وأما عزمه فأرهف كالسيف وشحذ ، إذ انطلق غير متلوم إلى غرضه ، وقد زاد قوة وحدة بإغوائها المثير كما يزيد بماء التقيسية ولهب النار صلابة الفولاذ ا . . .

لا حيرة بعد ولا وحشة ولا هيبة على جادة الغذاء ، فليس وحده الآن . .
لا وقت للقلق ، أو التهمل ، أو التفكير ، فليس عليه أن يتلفت تلفت مضيع ، ليحشى مشية متردد ، ليعمل عمل هباب بعد أن عثر فى نفسه على الهمة ، وتبين الطريق ، وأنسى بالرفيق . .

فى ذات أمسينته هذه ، وعدته الفتاة عوننا تقدمه له فى شخص رجل من قبيلها مطاوع جليد جسور ، يشد أزره ، ويحمى ظهره ، ويحقق به ما أراد تأمره وأراد حقدها الموتور أن يكون . .

كان قولها له حين قبلت عرضه وقبل ما سمته كصداق :

« أنا طالبة لك بمض من يساعدك على هذا ويقويك »

وبعثت من فورها إلى صنيعة لها من بنى تيم الرباب ، اسمه وردان ، فأرته
الراى ، وأمرته الأمر ، ودفعته إلى اللجة الهاشجة فمام . . .

ومن بضع ليال — قبل طائف الهوى الذى طاف به ، وأوشك فى لحظة
صفاء أن يطهره ويلهمه التوبة — كان قد وقع على امرئ خارجى من « أشجع »
توسم فيه جلدا وحمية ونزوعا مثله إلى المغامرة والعنف ، وتشبعا بالضعينة المذهبية
العمياء ، فقربه واستصفاه . . .

قال له حينذاك ، بعد أن سبر غوره ، يغريه ويعنيه :

« يا شبيب . . . هل لك فى شرف الدنيا والآخرة ؟ . . . »

فهنا إلى الدعوة المشوقة شبيب ، وأقبل بكل نفسه على عبد الرحمن :

« نعم . وما ذاك ؟ . . . »

« تساعدنى على قتل على . . . »

فانتفض الرجل يهب من مكانه كمن وخزه ، على غرة منه ، من سيف ،
أو لسمته حديدة مخماة . . .

وصاح فى إنكار :

« هبأتك الهبول . . . لقد جئت شيئا إذا . . . »

ثم استرد بعض أنفاسه اللاهثة ، ليسأل وهو مأخوذ قد اتسمت حدقتاه :

« وكيف تقدر — ويحك ! — على ذلك ؟ . . . »

قال للتأمر يهدوء :

« نسكن له فى المسجد الأعظم . . . فإذا خرج لصلاة الفجر ، فتكنا به ،

وأدركنا ثأرنا ، وشغينا أنفسنا منه . . . »

وما زال به ينفث في روعه ، ويهون عليه حتى اختلبه فاستسلم وأجاب . .
بعد هذا لم يبق إلا القليل . .

ثبت العزم ، وتوطد اليقين ، وبدأت الفتنة تطفر ، واسعة الخطا ،
على الطريق . .

اجتمعت الحيوط كلها في يد قطام . .

نضجت ثمرة الغيلة الشبهة على غصنها الخبيث تنتظر الاجتناء . .

وفي أمسية ليلاء ، غشاها الغيم ، داف ابن ملجم وخدين غدره الأشجى
إلى موعد لقاء جديد . .

كان المكان المسجد الكبير . .

وكان الملتقى قبة فيه بناحية منه ، ضربتها على نفسها فتاة تيم الرباب تحتجب بها
عن الرواد ، وقد قيع بقربها — ككاب الحراسة — صديعتها وردان . .

وأذنت ، فقابلها الرجلان . .

قال لها عبد الرحمن ينيئها الخبر الذي تهفو لسماعه ، وعينه على صاحبه شبيب :

« قد أجمع رأينا على قتل الرجل . »

فامتلاً صدرها بشهيق الراحة . وغمرت وجهها المتقنع بالحسن بسمة تترجم
عما بقلها من شماتة وبغضاء . .

ثم قدمت إليهما ثالث الثلاثة .

وعندما حزمت وإياها الأمر ، وأحكمت التدبير ، التفتت لابن ملجم ورفيقه

نختم الحديث ورنين فرحتها بنغم الكلمات . .

قالت وشفاتها تضغطان من الحروف :

« . . . فإذا أردتما ذلك ، فالقياني في هذا الموضع . . »

وانقض الاجتماع . .

وما لهم لا يلتقون هنا ثانية ليوثقوا خيوط تأمرهم ، ويتفقوا على إنفاذ مشيئتهم
الاتفاق النهائي المبرم ، بهذه البقعة المباركة ، بالمسجد الكبير . . .

فتلك القتلة التي يبعونها إن هي إلا — في يقينهم — قرينة إلى الله . . .

وأحرى القربات ، وأولاها بالقبول ، ما يتقرب به في أطهر الأماكن ،
وأشرف الأوقات . . .

وقد بدى التفكير في الغيلة المنتظرة ، بأقدس أرض في البلدة الحرام . . .

وليس أين في الكوفة من بيت الله موضعاً ومن ساعة الصلاة وقتاً
للاغتتيال . . .

وها هي أيضاً ليلة القدر المباركة تقترب لتدق الباب . . .

والإلى القلائل الباقيات على الموعد تكاد تنسرب من بين أيديهم ، وتتبدد
كبخار إلا أن يسبقوا الزمن بتوثب الهمة ، وسرعة البديهة ، والمبادرة إلى
الاستطلاع . . .

وعلى الأثر نشطوا يعلأون فراغ الثواني بالفكر والجهد والمعاينة ، منتشرين
متفرقين ، ومجتمعين متلازمين وإنهم لأشبه شيء بأذرع أخطبوط رهيب ، تمتد
لتحسس ، وترتد لتربص ، وبين انسياها في الامتداد ، وانكماشها في الارتداد ،
ينسج الوحش الضاري لفريسته المطمئنة شرك الهلاك . . .

وحفظت الكوفة لا ريب ، لفترة قصيرة أو طويلة ، آثار أقدام ثلاثهم على
الرمل الرخو ، أو سمعت دقها على الأحجار والصخور ، وهم يجوبون نواحيها
الهائية والبعيدة من هنا إلى هناك ، في حركة لا تكاد تهمد ليعرفوا للواقع ،
ويتبينوا المسالك ، ويكشفوا كشف يقين عن مكامن الخطر والفتن التي
لعلها أن تعترض سيلهم لحظة القرار بعد الانقضاء . . .

وتزاحمت ظلالهم ، مراراً عدة ، فوق جدران البلدة الصماء ، وهم يدورون
حول مسجدتها الأعظم ، إبان فترات السكون والظلام التي تحتوى السكون فيما بين

غبشة السحر وطلعة الفجر ، يدرسون مداخله ومخارجه ، ويجوسون خلال ما يؤدي إليه ويتفرع عنه من دروب وطرقات ، ومهمهم كل الهم أن يقيسوها بمقاييس التوقعات والاحتمالات ، فضلا عن مقاييس المسافة والوقت وذرع الخطوات . .

وشهدهم أيضاً ذلك البيت من بيوت الله ، يقضون به ليالى رمضان ، بطولها وعمقها ، في قيام وقعود ، وركوع وسجود ، وهم بجوار السدة التي ألف أمير المؤمنين أن يدخل منها إلى موضع القبلة ليؤم الناس . لا يتخفف ثلاثتهم قط في القنوت والتهجد ، ولا يهدأون أو يكلمون ، كأنما ليس يشغلهم من أمور دنياهم شاغل عن الذكر والصلاة . .

ثم أقبلت ساعة الفصل ، وهي تجمع حولها ثوانها ، منطلقة قدما لتطرق الباب . .

أشرقت ليلة القدر من عليائها على العالم تعلن للناس بدء عام جديد في حياة الإسلام . .

عادت دورة الفلك سيرتها الأولى لتحبي البشرية — روحا وعقلا وعاطفة — في ذكرى أخرى لمولد النور . .

فما بال قوم ، يحسبون في المسلمين ، شامت لهم أهواؤهم أن يسوءوا ، بالضلال والجريئة ، وجه هذا الوعد الأقدس الكريم وإنه ليعيد إلى قلوبهم وخواطرم لحظة نزول القرآن الذي هو هدى ورحمة للعالمين . . ما بالهم قد آثروا أن يبخسوه حقه من التقدير والتوقير وإنه للذي انتشل الورى وإياهم من وهدة الغواية إلى مرتقى الهداية ، وأخرجهم أجمعين من عماية الكفر إلى مشرق اليقين . . ما بالهم أبى عليهم العنت والجحود إلا أن يستقبلوه بالإثم والعداوة ، وبالسيف والخنجر ، وبالسّم والدم ، وإنه لأولى بأن يستقبله أبناء البشرية قاطبة ، في كل زمان ومكان ، بالدهن الصافي ، والصدر المفتوح ، والنفس الراضية ، والضمير النقي إذ هو مطلع المحبة والنور والسلام !

غير أن التحيز لا يعيز .

العيون العمياء لا ترى الضياء ..

القلوب الغلف لا تحس نعمة الله ..

والسراب الخداع لا ينبج الماء ..

فلم يكذ ذلك النهار الأيمن من رمضان يتضرع خداه بلون الشفق ، ثم تشيع
دكنة الغسق في صفحة أفقه ، ثم يذشق مساؤه عن سحر ليلة القدر ، حتى كانت
زمرة البغى الموتورة قد تهيأت لاستقبال سماحته بالغدر ، ورحمته بالغلظة ، ورفقه
بالعدوان ، فضمت جمعها على خبثها الفتك ، ومضت خلصة — إلا عن أعين
الكراهية الحقاء — لتمد لوحش الانتقام الرابض في مغارة دخيلتها ، عشاءه
الآخر . . .

في بضع دقائق كاختلاجة الهدب غدوا على قدم . . . حسناء تيم الرباب
خلبتهم روحا وعقلا وجارحة بسحر رقاها للسيطر الأخاذ . . . جنوبهم انتفخت
بتخمة الضغينة . خواطرهم اكتحلت بسواد الإغواء . مسامعهم امتلأت بترنيمة
الموت . . . وعندما رأت قطام أنها أدركت فيهم الوطر ، وأنهم باتوا في أصابعها
عجينة لينة شكلتها كيف شاءت ، وأن لحظة التأثر تقبل بالخطا الحثيثة ، لفت
صدورهم بعصائب من الحرير كثيفة مشدودة كأنها الدروع ، تقيهم انطمس . ودعت
لهم . ثم دفعت بهم ثلاثتهم إلى المسجد الأعظم ، ليكمنوا به مقابل السدة الق لن
يلبث أمير المؤمنين أن يخرج منها ، بعد قليل ، في طريقه إلى القبلة ليؤم الناس
بين يدي الله . . .

وقعدوا هنالك هنية على جمر من القلق والتحفز ، وإن كادوا ، من جهودهم
وتهاقتهم ، لا يسمع لهم حسيس . كانوا مقوسى الجسوم ، مستليمى الأعضاء ،
خافضى الرؤوس ، وقد أوشكت جباههم أن تلبس الأرض كمن في سجود . ولكن
انحناءهم كان انطواء الأفاعى ، وجلستهم إقامة الشباب ، وعيونهم أعين الصقور . .

وكما يفعل الزاهدون الأتقياء ، لاحوا كأنفسهم تسبح أرواحهم في عالم بعيد
عن هذه الحياة . . . وكما يخدع الحواة رائيتهم ، أخفوا سيوفهم ، كالشعابين ، بين
التياب . . . وكما ألفوا وألف الناس ، في كل فج ، أرهفوا السمع إلى وقع الخطا
المستأنية التي توشك أن تجتاز الباب . . .

وزحفت الثواني بالثلاثة بطيئة نحو موعد الصلاة وهم جمود ، في انتظار
راكد ثقيل ، كأنهم حجارة أو أموات لولا أن شفاههم للزمومة كانت ، بين فينة
وفينة ، ترتجف فلا يكاد أحد يدرى أعن رهبة اعترت أصحابها ، أم عن همس
تبادلوه من وراء أسماع الناس ، أم عن تسبيح وتلاوة لبعض آي القرآن كان
الارتجاف . . . وأخذت وفود المصلين تنوالى تباعا على المكان ، فرادى وأفواجا ،
ما شغلهم النوم ، ولا هم الدنيا ، ولا برودة الشتاء عن الحضور تلبية لداعى
السما . وكان المسجد الكبير — والفجر يهل بطلعته الناضرة على الكون —
قد امتلأ إلى حافته ، وانحشرت به الجموع الزاخرة حتى لبدا كأنما توشك أن
تنبعج جدرانها ، وينفجر بنيانه لكثرة من فيه . . .

وهل حين خلسة من الأعين المطرقة إلى الأرض خضوعا لرب البيت ،
والقلوب الدائبة في الخشوع . والخواطر السابحة على ذكر الله ، انقلت عبدالرحمن
من جلسته تلك بجوار رفيقه يتسلل كالأرقم ، وينساب خفيفا في هدوء وتؤدة
إلى موضع بالمسجد هو أدنى قليلا إلى السدة ، وأبعد قليلا عن الزحام ، وأخفى
قليلا ، في تلك الساعة المفعمة بالعودة والقيام على انتباه الجمهور . . .

وكان الأشعث بن قيس هناك . . .

وكان الموضع المختار — أو المحسوب ! — أخرى الموضع بأن يفسح الناس
فيه بعض الإفساح ، لأنه مجاز الإمام للدخول . . .

وكان الرئيس السكندى أولى الزمر المحتشدة بأن يمثل حيث مثل من السدة ،
دون أن يلهم وقوفه الأنظار أو يثير الارتياح ، إذ هو من علية القوم ، وقادة

الرأى ، وردوس الزعماء المعدودين — كنظرة العامة — فى خاصة صحابة أمير المؤمنين . .

ووقف الرجلان هنيهة يتناجيان ومامن امرىء عرف — على وجه التحقيق — آنذاك ، ولا من بعد ، فيما كانت هذه المناجاة . ما من أذن التقطت كلمة أو حرفا من سرها الهامس . وما من عين فطنت إلى بعض خفى الحديث من خلال ماقد عسى نبت عنه القسبات . . فقد التقيا وإنهما لفي مثل خلوة ، وتحدثا وكأنهما ولا سميع . وأبرما ما شاء إبرامه وليس من يدري أكان اجتماعهما ذاك وليد صدفة ، أم بإيعاءة خفية من الأشعث دعت ابن ملجم إلى الملحق به ، أم عن اتفاق بينهما سابق دبرا فيه موعد اللقاء الذى حان الآن . .

كيفما كانت مهادت هذا الالتقاء ، فقد أفلتت من بين شفتى الرئيس الينى ، أثناء الحمس ، عبارة قصيرة كشفت من دوره فى الفتنة المقبلة ما لم يكن ليكشف ، لولا أن سرت كلماتها القليلات ، حتف رغبته ، إلى سامع لم يكن قط فى الحسبان . . كانت العبارة هى مفتاح سرها المغلق ، الذى به رفع الغطاء عن ذلك المجهول الذى جهدا جهدهما كله ليخفياه . . . كانت الوسيلة التى وضعت الحقيقة سافرة مكتملة أمام الأذهان إذ لأمت الظلال بالأضواء ، وضمت الجزئيات إلى الجزئيات . . . كانت القلم الذى وضع بعداده — كما يقال — النقط فوق الحروف . . .

ولا سبيل ولا حيلة ، فى حياة هذه العبارة ، إلى تصيد المعاذير لسيد كندة ، أو إحسان ظننا به ، وإن كان ماضيه الحافل الطويل كفيلا وحده بأن يسد على متلمس الأعذار ، ومحسن الظن ، ويختلق التبرير ألف سبيل وسبيل . . . ثم سامع ، كما ألمنا ، سمع — بملء أذنيه — ما قيل . . . وثم راء رأى — بملء عينيه — ما حدث عقب النطق بتلك العبارة ، أو بفعلها ، وكعقبى لها ، فإذا المرئى لا يخالف المقول . . . وثمة غيرهما شهود كثيرون وقست الواقعة تحت أبصارهم ، ثم علموا من بعد بعبارة الأشعث ، فإذا هم عندئذ حيال قضية منطقية

محبوكة ، العبارة فيها مقدمة ، والواقعة نتيجة ، والرئيس الكندى ، بقرينة المقدمة ودلالة النتيجة ، شريك في الجرم بالتآمر وبالتدبير ، أو بالتعريض وبالتأثير . . .

الوقت حينذاك يؤذن بحلول موعد الفجر . وجمهور الناس يتأهبون للقيام . والحجاب المسدل على السدة يهتز لينجاب . . فقد بدرت من خلف السدة همسات حديث ، وحركة تشى بوقوع خطأ خفيفة رتيبة وصوت «هادى» يفيض يقينا بنادى : الصلاة الصلاة ! . .

وفي اللحظة التى بدأ فيها الإمام يجتاز الفرجة إلى المسجد ، ويهم أن ينخرط فى المصلين ، هنف الأشعث بن قيس ، بنبرة خاطفة عجيلى ، ينبه صاحب نجواه عبد الرحمن :

« النجاء النجاء بحاجتك . . قد فضحك الصبح . . النجاء النجاء . . »

غير أن العبارة الهامسة لم تنبذ فى الهواء . . خرقت أذن حجر بن عدى وهو عرآنئذ بجوار الرجلين . سقطت نبرتها الملهوفة على قلبه كصاعقة شقته وفجرت فيه الريبة . .

وذعر حجر . وألهمته على الهور بديته فوثب من مكانه إلى ناحية السدة ، وعلى ملاحه شراسة ، وفى عينه لهب ، وبعروقه قداء ، عسى لو ترس بصدوره أن يقهر القدر ، ويمنع الكارثة . ويدراً المصير المخوف . .

لكن وثبة القدر كانت أوسع من وثبته ذرعا ، وأسرع حركة إلى حياة الإمام . . .

من وثبة القدر إلى وثبة حجر ، مرقت لحظة ، كطرفة العين ، عمرها
في الخواطر مديد طويل . . . على حدودها تجعد الزمن ، وحاصرها بسياجه ،
فوقفت حيث كانت بلا حراك . . . مشلولة كبركة من ماء راكد . بعيدة الغور
والمنتهى كالأبد الآبد . . . ثقيلة الوقور كالشعور بالخطيئة . . .

لكنها دهر . . .

لكنها تيه من الضياع أوغلت فيه حيرة الحيارى ، فهاجت بها الوسوس ،
وماجت الظنون . . .

لكنها طائف كابوس ألم بمخيلة حالم ، تمر خلاله أحداث في عقب أحداث ،
وتتوالى أيام وراء أيام ، ويأتى أناس ويذهب أناس وماهى إلا قدر ومضة
شهاب . . .

فهل رجفت الراجفة . . . ؟

أم مادت الأرض . . . ؟

أم انقض البنيان . . . ؟

كانت « برهة » من الهول . . . انهار فيها الهدوء ، وانشق الصبر ، وتهاوت
الدعة ، وانفجرت السكينة . على أرضها انطلق يزحف الهرج . في جوها أخذت
تعصف الرهبة من سمائها مضى يشع العذاب . . . والناس إبانها ، من فرط ذهولهم ،
جسوم بلا عقول ، وأشباح بلا أرواح . . . كأنهم خيالات رجال . كأنهم ظلال ،
تعتد لتنتشر ، وتتقاص لتنعسر ، ثم لا تعلم هى إلى أين ، ولا كيف ، تغضى وتعود . . .

وبدت الأعين ، مرة ، كقطرات زئبق ، ترتجف وترجرج ، أو تلف
وندور ، كأن قد راحت تبحث عن مرثيات . . . وبدت ، مرة ، جامدة ثابتة
الحلاق ، كصورة شاحبة لوتها بالبهتة ريشة رأسام . . . وبدت ، مرة ، جوفاء
سهوانة ، كأنها امتلأت بفراغ . . .

ومن وراء أبشار هذه الجسود المائلة ، وفي دخائلها الخفية ، كانت تتلاقى لتجتمع أو تتلاحم لتضطرع عوالم من العواطف فيها الأشياء وفيها الأضداد . . فالجزع يلتئم بأربع ليجمات على الصدور . والأمل يحالف الطمأنينة لينسجها طيف بحمة على الشفاه . . والأمن ينازع الخوف . واليأس يهاجم الرجاء . والتفاؤل يغالب التشاؤم . والإحساس المنذر بهود الموت ينزو على الإحساس للبشر بحركة الحياة . . .

وسادت الضجة المسمكان — قلبا وأطرافا — ففرقت أسماع من فيه في موج صاحب من الأصوات ، لا تسكاد تميز فيها بين صباح وهبمة ، صراخ وأنين ، زئير وطين . . . ولا ح كائنا قد تبليلت الألسن ، واعوجت الأشداق ، وتعلمت الأفواه من قلق فتعثر النطق تعثرا ضعضع الحروف ، ومزق الألفاظ ، وليس للقاطع ، وزلزل الخارج ، وشوش الجرس ، وأكل الثبرات ، والتوى بالعبارات والجل اللتواء الذي يذهب بها كل مذهب إلا إلى مقاصد للعاني أو مناهج السياق . .

باللهفة لمثت الأنفاس . وباللهث تقطعت أوصال الأقوال . وبرجع الصدى اختلطت الضوضاء . وعلى مواطىء الأقدام تبعثر الكلام . . والآذان ، في غمار هذا الضجيج الذي يخنق للسكان ، كانت بين حائرة تائهة ، ووقراء صماء ، لا تستطيع أن تسمى لمن الصيحة الداعية ، أو الكلمة اللابية . أمن هنا نجىء أم من هناك ؟ . . لمن الخطا التي تهول مذعورة . آلات أم ذاهب ، قادم أم هارب ، وإلى إقبال أم إلى فرار ؟ . . لمن الصرخة المدوية التي ترجع الجدران ، وتشق الأصوات كما تشق الأصدااء . أمن بين أنياب وحش أم من فم فريسة . أم هي هتفة هامت أم نفثة مفجوع ؟ . .

كل هذا جرى في بضعة من لحظة . . في مثل ومضة برق لمعت من قلب غيمة لتنطفئ قبل أن تءلا العيون . . في لحظة بلا عمر ، كأنها اختلاجة الهدب . . ولكن طولها — من شقوتها — دهر ، وعرضها — من هولها — عذاب .

حمد الزمن على حدودها يحاصرها فوقفت ، حيث كانت ، بلا حراك ! . .

بدء بدايتها كان نداء أمير المؤمنين المنعم الرتيب إذ انساب من خلف السدة — قبل أن يظهر بحياه — هادئاً كالطمأنينة ، صافياً كاليقين ، يدعو الناس .
وقت الفجر ، لإقامة فرض الله :

« الصلاة الصلاة ! . . »

وبدايتها حين خطا الإمام بإحدى قدميه إلى المسجد ليغير صفوف الصلّين ،
وقد بدا وجهه لهم من فرجة الباب ، ولسانه وقلبه ما زالاً يعيدان :

« الصلاة الصلاة ! . . »

فما أن حلت البداية حتى حمت النهاية ! . .

في لمحة انقلب الحال . .

كالصاعقة انقض ما كان . .

كأنما النهاية عاجلت البداية ، ونازعتها الوعد والموضع ، فوقما معا ، في نفس
الآن . بنفس المكان ! . .

فلم يكذ الإمام بهم بأن يتبع نداءه — البادى — مع أولى خطواته على أرض
المسجد — بنداء آخر مثيل ، حتى ارتجت الأسماع ، وذهلت الأذهان ، وارتجفت
القلوب . .

سمعه أصحاب أدنى الصفوف منه يستهل النداء . فما عبرتهم الكلمة البادئة إلى
الصف التالي حتى سمعوه يردفها بما ليس في حساب . . بما أرفف الأحاسيس ،
بما أهاج الأحداش . بما صلب اللامع . بما حمد العيون . .

بخاة سمعوه ينتقل ، بالعبارة الرديفة ، من نداء لنداء . من دعوة لإقامة
الصلاة إلى إهابة لشهد الانتباه . من منطق واثق مطمئن إلى منطق مأخوذ
مبغوت . من جرس ترنم ورنين إلى جرس تأوه وأنين . .

كان ما لفظه عندئذ يضع كلمات ، قطع سياقها اختلاف التبرات . .

بدأ قوله ، بكل فيه :

« الصلاة — ا — »

ثم مطه بنفثة ألمه :

« ... صلا — اه — ... »

ثم ختمه بهتاف جرحه :

« ... لا .. يفوتكم .. الرجل .. »

واقترن كلامه المبعثر ، في ذات اللحظة ، بدقة ضربة ، وزعقة صائح ،
وصرخة ملهوف ، وعريضة ضجيج .. تدافعت جميعها تنسابق ، عبر الصفوف
والزحام ، إلى آذان الجمهور تسابقا حار فيه الإدراك . فنادى أحد من السامعين
أيها كان السابق ، وأيها اللاحق ، وأيها للملابس القرين ..

فمن جواره طارت كقذيفة ، صيحة موتور حاقد ، من خلال أنياب
عبد الرحمن :

« الحسبك لله يا طلي ، لا لك .. »

وكان فيها دوى صاعقة ، وخفيج أفعوان ..

وقيد خطوة منه ، صرخت الالهة قد انشق عنها صدر حجر بن عدى ،
تفجع القلوب :

« قتلته يا أعور .. »

وكان فيها نواح تسكلى يذبح وحبدها في حجرها ، وحسرة فاد حرم شرف
الفداء ..

وبين هذه الصيحة وتلك ، أو سمعها ، أو قبلها ، سمعت أصوات اختلط بها
مثل صلصلة معدن ، وطرقه باب ، وخبطة فأس في أرض صلبة ، وفرقة بنان ..
فقد سلت من أعمادها سيوف ، وطاشت ضربة حسام لتقع في عقدة البناء .
وأصابت خبطة ما قد قدر لها أن تصيب . وتسكرت عظام ..

روى الحادث ، بدءا ونهاية ، شاهد عاينه ، وراه رأى العين ، هو عبد الله
ابن محمد الأزدي . . فقال :

« إني لأصلى تلك الليلة في المسجد الأعظم مع رجال من أهل المصر ، كانوا
يصلون في ذلك الشهر من أول الليل إلى آخره ، إذ نظرت إلى رجال يصلون قريبا
من السدة ، قياما وقعودا ، ركوعا وسجودا ما يسأمون . . إذ خرج عليهم علي
ابن أبي طالب الفجر ، فأقبل ينادي : الصلاة الصلاة ! فرأيت بريق السيف .
وسمعت قائلا يقول : الحكم لله يا علي ، لا لك ! . . ثم رأيت بريق سيف آخر .
وسمعت صوت علي يقول : لا يفوتكم الرجل . . »

فأما بريق السيف الأول فضربة شبيب ، أخطأت ووقعت في طاق الباب .
وأما بريق السيف الثاني فضربة ابن ملجم ، أصابت ووقعت حيث شاء أن
تصيب

وعندئذ انتكثت الصفوف .

كما يتفجر بركان ثائر ، تدفقت جموع المسلمين كالجم نحو السدة ، حيث كان
الإمام ، وإنهم لينقبضون بالدهول ، وينتشرون بالدعر ، ويفوصون في الجزع ،
وينتفضون بخشية المغبة ، ضاربين إلى هدفهم بالساق والذراع كالذي أطاحت به
عاصفة رعناء من حطام سفينة التقمها القاع ، فراح يسبح علي غير هدى إلى شاطئ
مجهول ، في ظلام بحر لجى من القلق والضياح ، يفتشاه موج ، من فوقه موج ،
من فوقه سحب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، إذ أخرج يده لا يكاد يراها ، فلما
يهتدى إلى بر آمن ، ولا إلى بصيص نور . .

طائف كابوس . . .

المهول يسود . يحاصر المسكان ، ويطبق على النفوس . .

القلوب بلغت الحناجر . .

اللهوات ملتصقة بالخلق . .

الكلام شقيقات . .

الأعين اعتلت قم الرءوس . . .

وما من شيء ، إلى كل هذا ، يسمه أن يترجم عن الشاعر المضطربة مثل
دمعة تنحبس ، ودمعة تنبجس ، واحدة يسكها أن تفيض أمل يوهمها تلتطف
القضاء ، وثانية يرسلها فلا تفيض طغيان إحساسها ينزوله . . .

ودهمت الناس ، في هذا المعترك الحافل باصطراع المواطف ، واختبال
الأصوات ، واصطخاب الضجيج ، صرخة أخرى هلوع ، أطلقها حجير بن عدي ،
كسهم مسموم ، وكيانه كله يفتسه العذاب :

« قتل أمير المؤمنين . . . »

فجمدت أنفاس الناس .

لكنه لم يكن قد مات . . .

الذبالة ما برحت تخفق بومضات ضياء . . .

الزيت لم يحف في السراج .

قالدين خفوا ، على صرخة حجر ، إلى الإمام ، رأوا جسده ما زال زاخرا
بنبض الحياة . . جبروت قوته البدنية لاح كأنما استطاع أن يعبر به الضربة المصمية
بسلام . عتو قدرته على الاحتمال بدا كأنما ابتلع الآلام . جلده سخر بالحنّة . ولولا
الدم الذي شهدوه يقطر من رأسه على وجهه ، على لحيته ، على صدره ، على ثوبه ،
لما خامرهم شك في أنه معافي ، ولحالوه على نحو ما طالما ألفوه . . .

كان ثابت الجنان ، ركين البناء ، راسخ القدم ، مهيب الوقفة والهيئة ، وقد
استند بظهره إلى الجدار ، وواجه بنظرته الجمهور . . قوامه مشدود . عيناه
تلمان . بحياه منبسط القسبات ، شفتاه تلوتتا ببسمة هادئة لعله آثر أن يرسمها
عسى أن تخفف من جزع الناس . . .

وامتدت يمناه في هواة أدنى إلى مكينة الطمأنينة ، تتعسس الجرح القاتر
الذي شق رأسه إلى الجبين ، ثم تنعدر منسابة على صفحة وجهه ، لتقر بلحيته التي
أغرقها الدماء . . .

ولم يقل كلمة تنم عن قلق . ولا أوماً بإعادة تشي بضيق . . إنما لانت ملاحظه ،
وظهرت عليها علائم الارتياح وهدوء البال ، وهو يقرب يعنى كفيه من عينيه ،
يحدق فيها بإمعان نظر وتأمل ، وقد زوى ما بين حاجبيه كمن يحاول أن يطالع
— فيما صيغها من خطوط وبقع حمراء ، بضع كلمات سطرها القدر على راحتها
المخضوبة بعداد دمه المسفوك . .

وتهللت أساريره ، وقد برقت في هذه الذكرى — من خلف السنين —
كشعاع :

« ستضرب على هذه . . فتخضب منها هذه . . »

صدق رسول الله . ﷺ

وماله لا يطيب نفسا ، ولا تترقق الفرحه في محياه ، وقد شارف ما كان
يتمناه ؟ .

في الليلة الماضية ، كأنما هفت روحه إلى محمد ، قرآه في المنام . .
يقول الإمام ، شاكياله :

« يا رسول . . ماذا لقيت من أمتك من الأود والدد . . »

فيقول الرسول :

« ادع عليهم . . »

فيتجه إلى ربه :

« اللهم أبدلني بهم خيرا منهم ، وأبدلهم بي من هو شر مني . . »

ثم تحمل به ، بعد ساعات قليلات ، هذه الضربة الفاتكة ، التي أوشكت أن
تخرج الموت من الحياة . . فهو يرى فيها جسره للمبور إلى من هو خير من كل
أولئك الذين شاقوه . . هلا تكون بشيره بقاء رسول الله . .

غير أن تلاقى محياه كان كالوهج الذي يكشف ما حوله فييديه باهتا تنتشر
على جوانبه ، ومن ورائه ، الظلال . . فقل وجوه الذين أحاطوا به ترامت

مستعائب قائمة من الحزن والألم ، ومن الندم والحسرة ، ومن الشرود والوجوم . .
 بوجه ابن أبي الساج ، بدا مثل الشعور بالإثم ، إلى جوار بهتة مبهوت . .
 فهو الذي آذن الإمام ، من قليل ، بصلاة الفجر ، وخف يتبع خطواته إلى المسجد
 الكبير . . فلو أنه لم يكن آذنه . . . لو أنه لم يكن دعاه للصلاة . . . إذن لعله
 كان لا يخرج للناس خرجته هذه ، ولا حرج عليه لأنه ، كما يعلمون ، مريض
 منذ أيام . . لعله كان يتأخر عن موعد الفجر الهامى ، ويتقدم لإمامة الصالحين
 سواء . .

بوجه حجر بن عدي امتزج الغضب بالألم ، والوجوم بالحسرة . . إنه لما غضب
 على نفسه ، ناظم منها ، بجرعها مرارة اليوم كما جرعته ، وحرعت الأمة ، غصص
 الآلام . . فما لقدميه خذلناه ، في اللحظة الفاصلة ، بل خائناه . . ما لو ثبتته
 لم تقطع على القاتل الزنيم الطريق ! . . فلو أنه سبق سرعته ! . . لو أنه طار وإن
 لم يكن من ذوات الجناح . . . إذن لترس عن الإمام ، فتلقي الضربة بيمينه . .
 برأسه . . ب صدره . . بكل قلبه الممزق المفجوع ! . .

بوجه عبد الله بن محمد الأزدي ، سرح الشرود والضياح . . كيف نشطت
 عينه لترى وتسجل ، وشلت يده أن تمسح السكارثة . . كيف ركن إلى المشاهدة
 وذهل عن العمل ! . . فلو أنه هب من مسرح رؤيته بجوار السدة ! . . لو أنه
 تحرك عند اندفاع عبد الرحمن ! . . إذن فلربما كان يعرقل المجرم ، أو يطيش
 ضربته ، أو يخفف وقعها على هامة الإمام فيتأجل القضاء بمض حين ! . .

بوجه المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب غيظ محذور ، مغلول اليد ، مغلول
 الحد ، كم كان يود لو تركه يتفجر عسى أن يبرد ناره ، ويشفي غليله ! . . لكنه
 -- امتثالاً لأمر رسول الله -- لم يكن يملك إلا كظمه ، وإلا معاناة ضغطه
 القاسي ، بوقره الحائق الثقيل ، على صدره ، وعلى فكره ، وعلى كل حاسة
 وجارحة فيه . . فلو أنه لم يكبح نفسه ! . . لو أنه مزق ابن ملجم بنفس سيفه
 الذي انتزع منه ! . . لو أنه نهش لحمه ، ولاك جلده ، ومضغ عظامه ! . . لو أنه

مثل به ، وإن نهى — بأدب محمد — عن اللثة ولو بكاب عقور . . إذن لكان هذا أشقى له ، وأذهب لبعض غيظه ، وأدنى إلى تفريج شيء من همه من اكتفائه بالانقضاء على الوحش ، وشل حركته ، وإسلام أمره إلى عدالة القانون . . .
 بوجه الحسن بن علي ظل حزن مكتوم قد عاث بقلبه عيث إعصار جأش لم يدع منه غير فتات ، ثم عيث بملاحه ، فقير لونه ، وغور عيذه ، وحفر أخايد عميقه في جبينه وخديه قفرت بعمره إلى وهن الشيخوخة وإنه بمداني عنقوان الرجولة . .
 كان يحس فداحة الألم المضي الذي يكابده أبوه . ويشفق عليه من هذا الجلد الذي اصطلمه ، وقهر نفسه على احتماله ، ليخفف عن الناس وقع بلواه . ويدرك أن خطبه ، وخطب أمته فيه ، ليس بما تستطيع أن تصفه الشاعر ، أو يرسمه التعبير ، أو تنسج له رحابة العزاء . . قلبه يحدثه أن التفاؤل قد هاض ، والأمل قد تماوى ، وطلائع الموت قد أخذت تضج ضجيجها ، بكل أيدها وقوتها ، لتسحق الحياة ، وإن هي إلا مثل خفقة ثم يخبو السراج . . .

لكنه غالب دمه الذي كان حائرا حينذاك في مقلتيه ، ليتسم في وجهه أيه . . ثم دنا منه محتضنه بذراعين مشى فيهما ، مع الحنان ، الارتجاف وهو بهم أن يعينه ليبرح مسرح المأساة . فما كاد يفعل حتى أحس بالإمام يدفعه قليلا بإحدى يديه ، ويشير بالأخرى ناحية ، وقد بدا في عينه بريق إنسكار .

وتلفت الحسن ينظر هناك .

على منأى خطوات ، بجانب من المسجد غرق في الضجيج ، شهد جموعا من المصلين يحيطون بابن ملجم ، وقد هاجهم الغضب والأسى ، ينزون عليه بما في أيديهم ، ويركلونه إن وسعهم أن يحركوا الأقدام ، وينهشون لحمه بأنيابهم كالسباع . . وسمع أصواتهم الهادرة تعتوره . بما تستطيع السنتهم أن تقذفه من حمم الإقذاع . .

« يا عدو الله . . . »

« قتلت خير الناس . . . »

« أهلك أمة محمد ! .. »

والجرم بينهم صامت لا ينبس بكلمة به جامد لا يدفع عن نفسه ، كأنما
فقد الشعور . كأنما تحول لثقال . ولا غرابة إن هو غاب عنهم بوعيه لأنه عندئذ
يتبع خطوات رفيقيه إلى دمشق والفسطاط ، لينعم معهما بنصر كنصره إذ قتلوا
رموس الضلال ! .. ولا غرابة أيضا لو احتمل هذا البلاء الذي يصبه عليه الناس ،
لأنه كان أخرى بأن يتلذذ بالتعذيب كما يتلذذ شهيد ! ..

وخف بضعة من رجال الإمام إلى تلبية إشارته ، فألقوا الجاني من
مخبط الجمهور ..

وطى الأثر تحامل على طى بقية عافيته ، وانطلق يجتاز السدة عائدا إلى غرفته
يحف به نقر من الآل والصحاب . وعندما توسد قراشه ، تملقت أبصارهم بوجهه
وقفزت آذانهم إلى شفتيه ..

وسمعوا أنفاسه تتواتر في رتابة وانتظام ..

ورأوا ملامحه قد كساها الهدوء . وعينيه تجولان فيهم هنية بنظرات ملؤها
سكينة ورضا ، تشيع في قلوبهم طمأنينة ثم تجاوزهم إلى ما وراءهم ، وهي
تلون بالحنين ..

فلملمهم عندئذ أحسوا بشيء من الأمن . لهم تطلعوا إلى غد يجيئه بالبرء ،
ويجيئهم بما يقشع الغمة . لهم توسموا في الصباح الذي يهم أن يسفر ، بشير
رجاء ..

.. فأما الحسن فقد أنس غير ما أنسوا في تلك النظرة الساجية المترحلة عبر
النفر المحتشد حول الفراش . عبر الجرح والألم والأحزان . عبر دنياه ودنيا
الناس .. ليوشك أن يقينها تسبح إلى عالم غير منظور . تطير لهوى الأشواق .
تهفو إلى لقاء رسول الله .. وما كان الفتى ، بتصوره هذا ، راجعا بظن ،
ولا أسيرا لوهم . ولا سادرا في خيال .. بل كان يستروح ذكرى مائلة ، ويستعيد

الشيخ محمد باقر
المكي
المكتبة الروضة الحيدرية

كلمات ، ويستثنى ماسمع مغزاه . فقد روى له أبوه ، قبيل الصلاة ، قصة المنام ..
.. وأما النفر الملتفون بالجريح فقد أفلت منهم الرجاء الذى تلقفوه ، وتمزق
الآمن الذى خالجهم ، وأناخ عليهم الروح الذى حسبوه ، منذ قليل ، قد انزاح
حين رأوا أنير بن عمرو بن هانىء الطبيب ، يميل فيهمس بأذن الإمام بعد أن
خُص جرحه :

« اعهدي يا أمير المؤمنين . »

وحلق الكد في جو الحجرة ، مع اللهفة ، والإحساس بالضيق .. ولكن
الإمام بدد الوجوم الثقيل ، إذ دعا بالقاتل ، فادخلوه ..
فقد امتلأ المكان بالهمسات .

ثم سرى صوت طي ، رصين النبرة ، واضح الجرس يقول :
« النفس بالنفس . إن أنا مت فاقتلوه كما قتلني وإن سلمت رأيت فيه رأي . »
فكأنما علمت نشوة النصر القاتل ، فقال في شماتة وخيلاء ، وهو يعنى
سيفه بالمقال :

« لقد اشتريته بألف ، وصمته بألف ، فإن خاني أبعد الله . . . »

وكرر اللفظ . وتشابكت عبارات . وسالت عبارات ..

ولكن الإمام حسم النزاع ..

تفريج الآثم .

في سيرة أمير الخوارج الناس .

وأسلم قلبه إلى الصكينة وهدوء البال ، ينفرد بأشواقه . في انتظار لحظة
المقضاء .

فلقد عهد عهد . وأدى ما عليه . وجالد الدنيا لينقى الأنفس ، وينشر
النور .. وإن هو إلا يوم وبعض يوم ثم يكون لقاءه بأحب الخلق ، رسول الله .

وعندما مالوا بجثمانه يوسدونه التراب ، كانوا يملون عندئذ برجل يعز ، إلى أبد
الدهر ، مثله في الرجال .. بربيب محمد ، وصاحب نجواه .. بحامل مشعل هداه .
بقرين ابنته سيدة النساء الزهراء ..

وعندما سرى نبأ موته في الناس ، لم يرقط با كيا كذلك اليوم ، الذي دهم
البشرية كلها بداهمة قاصمة ، أصمت التبل والشرف والمثل الرفيعة التي تعز
الإنسان ، وأحرقت الأمة بنار لا يطفىء لها بكاء ..

وعندما بلغ الخبر مدينة الرسول ، وزلزلت به الأنفس ، أدارت أم المؤمنين
عائشة فيها حولها عينا غائة ، ثم نفثت بلهجة كأها أنين :

« وألفت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالإياب المسافر ! »

ومسحت دمعة تحدرت على خدها وهي تقول :

« رحم الله أبا حسن ! .. »

فقد مسح الموت الحصومة ، وحسم اختلاف الأحياء ..

« ثم بحمد الله »

هدية الشهيد السعيد
السيد عز الدين بحر العلوم
لمكتبة الروضة الحيدرية

٣٩٢٣٢



مطبعة الحريرية - بيروت

تلفون: ٢٢٠٤٤٠

مطبعة الحريّة - بيروت
تلفون : ٢٢٠٤٤٠